الصحافة الإسلامية في مصر

في القرن التاسع عشر

الدكتور سامي عبد العزيز الكومي

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الصحافة الإسلامية في مصر
في القرن التاسع عشر

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإداره والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكليه الآداب
ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣

المكتبه : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص . ب ٢٣٠ تلكس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أمر نبيه الكريم أن يقـول : ﴿ **رب زدنى علماً** ﴾ ، نسأله تعالى أن يزيدنا علماً .

والصلاة والسلام على نبيه القائل : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » و « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقا إلى الجنة » و « أن العلماء ورثة الأنبياء » ونسأل الله أن يجعل علمنا وعملنا خالصاً لوجهه تعالى .

وبعد :

فقد دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع « الصحافة الإسلامية فى مصر فى القرن التاسع عشر » الحاجة الملحة إليه فى ميدان الدراسات الإعلامية ، فقد وضعت رسائل جامعية فى « الصحافة الفكاهية » و « الصحافة الفنية » و « الصحافة الزراعية » و « الصحافة النسائية » و « الصحافة العسكرية » وغيرها ، وظل ميدان الصحافة الإسلامية بكراً يحتاج إلى من يرتاده فكانت هذه الدراسة فى الصحافة الإسلامية تاريخاً وفكراً وفناً .

ولقد كان من الواضح منذ إنشاء قسم الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر أن هذا القسم ينحو ناحية الاهتمام بالإعلام الإسلامى بخاصة ، مع دراسة النواحى الفنية والثقافية المتصلة بالإعلام بعامة ، وكان اختيار هذا الموضوع سيراً على هذا النهج الذى نهجه القسم فى تأصيل دراسة الإعلام الإسلامى .

وإذا كان اختيار هذا الموضوع يتفق مع رسالة جامعة الأزهر فى الوقت الحاضر ، فإن هذه الدراسة قد أوضحت الجهود الضخمة التى قام بها أبناء هذه الجامعة العريقة من الصحفيين العظام فى القرن الماضى ، وعلى رأسهـم رفاعـة رافـع الطهطاوى ، ومحمـد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقانى ، وعبد الله النديم ، وعلى يوسف ، ورشيد رضا الذى اغترف من نبع هذه الجامعة ممثلا فى أحد أبنائها وهو الشيخ محمد عبده .

ودراسة الصحافة الإسلامية ضرورية لدراسة الفكر الإسلامى الحديث فى مصر الذى يعتبر المنبع الأصيل للفكر المصرى بعامة ، وبهذا اختلفت هذه الدراسة فى المنهج

الذى اتبعته ، والنتائج التى توصلت إليها عن دراسات أخرى فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، مثل كتاب « تاريخ الفكر المصرى الحديث » للدكتور لويس عوض الذى جعل فيه تاريخ هذا الفكر محاولة مستمرة لأخذ الفكر الغربى بحذافيره ، ومثل كتاب « الإسلام والتجديد فى مصر » للدكتور « تشارلز آدمس » الذى جعل فيه كتابات المجددين فى الإسلام محاولة مستمرة للتقريب بين الإسلام والحضارة الغربية ، أو محاولة لسد الفجوة بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى نظره .

ويمكننا أن نعرف الصحافة الإسلامية فى هذا البحث بأنها : « تزويد جماهير القراء ـ بصفة عامة ـ بحقائق الدين الإسلامى المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وبشكل منفصل أو مرتبط بأمور الحياة ، من خلال صحيفة دينية متخصصة ، أو موضوعات دينية متخصصة فى صحيفة عامة ، يحررها كاتب لديه معرفة متعمقة وواسعة فى الموضوع الذى يتناوله ، تمكنه من أن يبصر الناس فى شئون عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم ، ويعمل على تكوين رأى عام صائب يعى الحقائق الدينية ويدركها ويتأثر بها ، ومن ثم فإن هناك ثلاثة عناصر تشترك فى تحديد مفهوم الصحافة الإسلامية . وهى الكاتب والصحيفة والموضوع . وفى المجالات المختلفة قد يغلب عنصر من هذه العناصر الثلاثة على العنصرين الآخرين » .

وبهذا سوف تختص هذه الدراسة بالصحف الإسلامية المتخصصة ، وبالموضوعات الإسلامية فى الصحف العامة فى الفترة المحددة للدراسة .

لقد بدأ عصر النهضة فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر ، ولكن هذه النهضة بدأت تشق طريقها وسط عاملين أثرا فى الحياة المصرية بعامة ، **أولهما** : ما ورثته مصر عن العصر المملوكى والعثمانى من تخلف وجهل وخرافات وانحرافات الطرق الصوفية التى أبعدت المصريين عن حقائق الدين الإسلامى ، **وثانيهما** : النفوذ الاستعمارى الذى بدأ ثقافيا ثم أصبح اقتصاديا وسياسياً وعسكرياً ، وأراد أن يطبع مصر بطابع الحضارة الغربية ، ومن ثم يقضى على التوجه الإسلامى فى الحياة المصرية .

ووسط هذين التيارين اللذين يمثلان طرفى نقيض كما يمثلان تحديا للإسلام وحقائقه وأحكامه ، ظهرت الصحافة الإسلامية لكى تكشف عن قيم الإسلام كمنهج سليم للحياة الإنسانية فى المجتمعات الإسلامية .

وقد ظهرت فى مصر فى القرن التاسع عشر أعظم حركات الإصلاح الإسلامى فى

العصر الحديث ، وهى حركة جمال الدين الأفغانى ومن بعده تلميذه محمد عبده ، وقد آمن الأفغانى بدور الصحافة فى الدعوة لأفكاره لفهم الإسلام على الوجه الصحيح ، ولدفع حملات التشويه عن الإسلام ، ولمواجهة الاستعمار وجها لوجه ، فحث تلاميذه على إنشاء الصحف والكتابة فيها حتى إن جميع زعماء هذه الحركة ـ الأفغانى وتلاميذه ـ قد عملوا بالصحافة أصحاب صحف أو رؤساء تحرير أو كتابا ، ومن ثم كانت أهمية هذه الدراسة وما أضافته من توضيح دور الصحافة الإسلامية فى التعبير عن حركة الأفغانى وتلاميذه ، وفى إلقاء مزيد من الضوء على هذه الحركة كما عبرت عنها الصحافة الإسلامية بمزيد من التفاصيل .

وقد تنوعت مصادر هذه الدراسة ؛

فكان النوع الأول : هو الصحف نفسها موضوع الدراسة ، فقد قمت ـ فى دراستى لهذه الصحف ـ بمسح شامل لأعدادها ومجلداتها ، وجعلت المقالات والنصوص التى فيها مادة التحليل لإبراز الاتجاه الإسلامى للصحيفة أو لبحث القضايا التى تناولتها الصحف ، ولم يكن الاطلاع على مجلدات هذه الصحف سهلا ، فبعضها مفقود ، وبعضها قد أصابه التمزق والبلى مما يجعل الاطلاع عليه عسيرا كل العسر إن لم يكن مستحيلا ، ولكن ما أمكن الاطلاع عليه كان وافيا بالغرض إلى حد كبير .

وكانت إحدى هذه الصعوبات التى واجهتها فى دراسة مجلدات الصحف ، تكمن فى كيفية استخلاص المعلومات ذات القيمة للبحث من بين ذلك الكم الهائل من المعلومات التى تنشرها الصحف وبخاصة اليومية منها ، مما تطلب المثابرة والدقة على قدر الإمكان .

وكان النوع الثانى من مصادر هذا البحث : هو الكتب التى ألفت عن هذه الفترة سواء أتناولت تاريخها بوجه عام ، أم تخصصت فى نواح دينية أو سياسية أو اجتماعية أو غيرها ، وسواء أعاش مؤلفوها فترة البحث ، أم جاءوا بعدها وألفوا عنها . وهذه المؤلفات تمثل الخلفية التاريخية للبحث التى يمكن فى إطارها دراسة المقالات والنصوص فى الصحف موضوع الدراسة ، ويمكن فى ضوء آراء أصحاب هذه المؤلفات ـ التى تتفق وتختلف ـ الوصول إلى أحكام موضوعية فى تقييم الصحف المذكورة ، وما اتخذته من مناهج ، وما طرحته من أفكار وعالجته من قضايا . ويدخل ضمن هذا النوع من المصادر مؤلفات الباحثين الإسلاميين التى تناولت القضايا التى ثار حولها الجدل ، وذلك لمعرفة أحكام الإسلام بشأنها حتى نستشهد بها عند الضرورة لتكون هى الفيصل حتى لانذهب مع المتجادلين إلى حيث تتفرق بهم السبل .

والنوع الثالث من المصادر : هو الصحف غير الإسلامية التى دخلت فى معارك فكرية مع الصحف الإسلامية أو ذات الاتجاه الإسلامى ، ففى مثل هذه المعارك استقصيت الآراء لدى كل من الجانبين ، فى الصحف التى التزمت بمنهج الإسلام ، وفى الصحف المعادية لهذا المنهج ، والتى انحازت للاتجاه العلمانى والتغريبى حتى نلم بالقضية التى دار حولها الجدال من كل جوانبها ونعرف أحكام الإسلام الصحيحة فيها .

وكان **النوع الرابع** من المصادر مجموعة من المقالات فى الصحف والدوريات ، راعينا فى كتابتها شروط التخصص والتوثيق واصطناع المنهج العلمى فى البحث ، وكذلك عددا من دوائر المعارف والقواميس لمراعاة دقة المصطلحات .

وينقسم هذا البحث إلى خمسة أبواب يشتمل كل منها على عدة فصول .

فيختص **الباب الأول** بالحديث عن : « الاتجاه الإسلامى فى الصحافة المصرية » ، وينقسم إلى ثلاثة فصول ، يتحدث **الفصل الأول** عن « الاتجاه الإسلامى فى الصحف العامة » ، وهى صحف : « الوقائع المصرية » فى فترتى تولى رفاعة الطهطاوى الإشراف عليها ، وتولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحريرها بصفة خاصة ثم « روضة المدارس » « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » و « المؤيد » و « مصباح الشرق » ، فيبين الفصل مظاهر الاتجاه الإسلامى فى هذه الصحف وسبب ظهوره ، ويتحدث **الفصل الثانى** عن « الصحف الإسلامية » ، وهى : « العروة الوثقى » و « الإسلام » و « المنار » و « الحياة » حيث يتضمن نبذة عن الظروف التاريخية التى نشأت فيها كل صحيفة ، وصاحبها ، والمنهج الإسلامى الذى سارت عليه ، وهو ما يسمى أحيانا بسياسة الصحيفة .

ويتناول **الفصل الثالث** بالدراسة التيبوغرافيا والإخراج فى الصحافة الإسلامية وتطورهما فى صحافة القرن التاسع عشر عامة .

ويتناول **الباب الثانى** موضوع : « الصحافة الإسلامية والدعوة » وقد اشتمل على فصلين : **الأول** يختص بدور الصحافة الإسلامية فى التفقيه والإرشاد الدينى ، **والثانى** بجهود الصحافة الإسلامية فى محاربة البدع والخرافات ، والحقيقة أن الفصلين يكمل أحدهما الآخر ، فبينما يوضح الأول جهود الصحافة الإسلامية فى بيان الأحكام الإسلامية فى مجال العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق ، استنادا إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، يوضح الثانى جهود الصحافة الإسلامية فى محاربة ما دخل على الإسلام من بدع وخرافات وجهالات ليست منه . ومن أجل ذلك تناول الفصل الأول عدة مباحث فى

الصحافة الإسلامية مثل : فتح باب الاجتهاد والتجديد ، وتفسير القرآن الكريم ، وتعليم العبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية ، والنهوض بالخطابة فى المساجد ، والدعوة إلى الإسلام خارج مصر ، وإصلاح التعليم فى الأزهر طريقا لإصلاح الدعوة الإسلامية ، واشتمل الفصل الثانى على مباحث عن : مواجهة الفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر ، والتصدى لانحرافات الطرق الصوفية ، ومعالجة عيوب المجتمع المصرى .

وموضوع **الباب الثالث** : « الإسلام والحضارة الغربية » واشتمل على خمسة فصول ، يختص كل واحد بقضية من أهم قضايا الصراع بين الحضارة الغربية والإسلام كما ظهرت على صفحات الصحافة الإسلامية ، فكان **الفصل الأول** : « عن الصحافة الإسلامية والعلمانية » حيث يبين بداية ظهور الفكر العلمانى فى مصر ، وكيف ذهب المقلدون للغرب إلى أن أوربا مادامت قد بدأت نهضتها بعدائها للكنيسة الكاثوليكية وبفصل الدين عن الدولة وإبعاده عن التوجيه فى مختلف مجالات الحياة ، فإن مصر فى بداية نهضتها يجب أن تقتدى بأوربا فى هذا السبيل ، وأوضح هذا الفصل جهود الصحافة الإسلامية فى مواجهة العلمانية ، وكيف بينت هذه الصحافة أن مصر ليست هى أوربا فى بداية عصر النهضة ، وأن الإسلام ليس هو الكنيسة الكاثوليكية ، وأن العلمانية نبت غريب لا يمكن غرسه فى المجتمع المصرى .

وتناول **الفصل الثانى** : « الصحافة الإسلامية ومحاولة تغريب التعليم فى مصر » وبين خطة الصحافة الإسلامية لإصلاح التعليم ، وكيف حذرت هذه الصحافة من انتشار مدارس الجاليات الأجنبية والإرساليات التبشيرية فى مصر ، وبينت مضارها على المصريين المتعلمين فيها ، ودعوة هذه الصحافة إلى إصلاح التعليم الحكومى ، وجعل التعليم فيه باللغة العربية وزيادة دروس الدين الإسلامى فيه ، وإلى إصلاح التعليم فى الأزهر وتزويده بالعلوم الحديثة ، وذلك من أجل وحدة الفكر والثقافة والمزاج المصرى ، وحتى يكون إصلاح التعليم هو أساس إصلاح الأمة ونهضتها .

واختص **الفصل الثالث** بموضوع : « الصحافة الإسلامية ومعركة الحفاظ على اللغة العربية » وأوضح دور الصحافة الإسلامية فى النهوض باللغة العربية الفصحى بالدعوة إلى إنشاء مجمع لغوى ، ودراسة العلوم الحديثة بها ، وتصدى الصحافة الإسلامية للدعوات الثلاث التى كان وراءها الاستعمار والاستشراق ، وهى دعوات استبدال العامية المصرية بالعربية الفصحى ، وجعل الإنجليزية لغة رسمية لمصر تستخدم فى التعليم ومصالح الحكومة

والقضاء ، وكتابة العربية بحروف لاتينية ، وكيف أبلت الصحافة الإسلامية بلاء حسنا فى إبطال هذه الدعوات الثلاث .

وتناول **الفصل الرابع** موضوع : « الصحافة الإسلامية فى مواجهة التغريب الأخلاقى » ، وبين هذا الفصل كيف أن كثرة قدوم الأوربيين إلى مصر وإقامتهم بها ـ وخاصة بعد الاحتلال الإنجليزى ـ جعلت المصريين يقلدونهم فى بعض العادات الضارة التى لم تكن واضحة فى المجتمع المصرى المسلم من قبل ، وهذه العادات والرذائل هى : شرب الخمر ، ولعب الميسر والزنا والإسراف فى مظاهر الترف الاستهلاكى تقليدا لنمط الحياة الغربى مما ألجأهم إلى الاقتراض بالربا الذى ابتز به الأجانب ثروة المصريين ، وقد دلنا على استشراء هذه العادات بعد الاحتلال الإنجليزى دراستنا للصحافة الإسلامية قبل الاحتلال وبعده ، فموضوعات هذه الصحافة انعكاس لعادات المجتمع المصرى فى كلتا الفترتين ، وبين هذا الفصل كيف حاربت الصحافة الإسلامية هذه العادات ذات الأثر الأخلاقى والنفسى والاقتصادى المدمر فى حياة المجتمع المصرى ، داعية ـ فى كل الأحوال ـ إلى الأخلاق الإسلامية القويمة .

وتناول **الفصل الخامس** موضوع : « الصحافة الإسلامية وتحرير المرأة » وكان معنى ذلك فى الصحافة الإسلامية تحريرها من الجهل بتعليمها ، وتحريرها من التفكير الخرافى ، وتحريرها من الظلم بإعطائها حقوقها التى أقرها لها الإسلام وأنكرها عليها مجتمع ذلك الوقت ، كل هذا من أجل أن تشارك فى تربية الأبناء وفى نهضة الأمة ، ولم يكن معنى تحرير المرأة فى الصحافة الإسلامية سفورها وتبرجها وإسرافها فى الحرية الشخصية ، ودعوى مساواتها بالرجال تقليدا للحياة الغربية .

وموضوع **الباب الرابع** : « الصحافة الإسلامية والحركة الوطنية فى مصر » ، وينصب أساسا على جانب الجهاد الوطنى والفكر السياسى لحركة جمال الدين الأفغانى فى الإصلاح الإسلامى ، وكان **الفصل الأول** من هذا الباب عن : أثر صحافة تلاميذ الأفغانى فى الحركة الوطنية ، وتضمن دور جمال الدين الأفغانى فى تشجيع تلاميذه على إصدار الصحف والكتابة فيها للتعبير عن أفكاره والدعوة لآرائه ، ودور هذه الصحف فى الدعوة إلى حكم الشورى ، ومقاومة الاستبداد والحكم المطلق ومقاومة النفوذ الأجنبى .

وتناول **الفصل الثانى** : « الدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد بعد نفى الأفغانى من مصر » وكيف شرحت هذه الصحافة الشورى باعتبارها واجبا إسلاميا ودعمت الحركة

الوطنية فى طلب الدستور والحكم النيابى .

واختص **الفصل الثالث** بموضوع : « الصحافة الإسلامية ومقاومة الاحتلال الإنجليزى » ، وبين دور صحيفة « العروة الوثقى » فى هذا الميدان مع الإشارة إلى دور الصحف التى سبقتها والتى أعقبتها .

ويتناول **الباب الخامس** موضوع : « الجامعة الإسلامية والعروبة فى الصحافة الإسلامية » ويشتمل على فصلين : **الأول** عن « الجامعة الإسلامية » ويبين كيف نشأت هذه الدعوة التى ظهرت أول ما ظهرت على صفحات « العروة الوثقى » ، وما كان للدعوة من مضمون سياسى ومضمون حضارى أوضحته تلك الصحيفة ، وكيف تبنى السلطان عبد الحميد الثانى هذه الدعوة ووجهها إلى وجهة أخرى لتثبيت دعائم حكمه الاستبدادى ، ثم تتبع الفصل هذه الدعوة فى صحف تلاميذ مدرسة الأفغانى من بعده .

واختص **الفصل الثانى** بموضوع : « العروبة فى الصحافة الإسلامية » حيث تتبع إرهاصات فكرة العروبة فى هذه الصحافة ، وهى الفكرة التى بذرها جمال الدين الأفغانى وظهرت فى صحف تلاميذه من بعده .

وكانت **الخاتمة** خلاصة للبحث وأهم نتائجه ، وتضمنت بعض التوصيات المتصلة به .

ويطيب لى ـ فى هذا المقام ـ أن أتوجه بخالص الشكر إلى أساتذتى الأفاضل : الأستاذ الدكتور إبراهيم إمام ، الذى سجلت تحت إشرافه ـ فى البداية ـ موضوع هذه الرسالة للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر قبل أن يتركها للعمل فى الجامعات السعودية ، والأستاذ الدكتور أحمد حسين الصاوى ، الذى أشرف ـ بعد ذلك ـ على إعداد هذه الرسالة مدة تقرب من أربع سنوات ، كان فيها مثالا للعطاء العلمى الممتاز ، وأعطانى من علمه وتوجيهه ما سأظل أذكره له دائما بالشكر والعرفان ، والأستاذ الدكتور محمد سيد محمد الذى أمدنى بتوجيهه وشارك فى مناقشة الرسالة وتبنى مشروعا ـ فى جامعتى الأزهر والقاهرة ـ لبحوث الصحافة الإسلامية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر فى رسائل للماجستير والدكتوراه .

والشكر لله من قبل ومن بعد ، فمنه التوفيق والسداد ، والحمد لله رب العالمين .

سامى عبد العزيز الكومى

الباب الأول

الصحافة الإسلامية فى الصحافة المصرية

الفصل الأول : الاتجاه الإسلامى فى الصحافة العامة .

الفصل الثانى : الصحف الإسلامية .

الفصل الثالث : التيبوغرافيا والإخراج .

الفصل الأول

الاتجاه الإسلامي في الصحف العامة

١ ـ الوقائع المصرية

ظهر الاتجاه الإسلامي ، وما صحبه من نهوض باللغة العربية وآدابها في جريدة الوقائع المصرية في فترتين : **الأولى** : عندما تولى الإشراف عليها رفاعة الطهطاوى ، **والثانية** : عندما تولى رئاسة تحريرها الشيخ محمد عبده .

نشأة الوقائع المصرية :

نظم محمد على شئون مصر الزراعية والإدارية والصناعية ابتداء من سنة ١٨١٣ م ، وكان حريصا أن يصله ملخص يحوى تنظيم حسابات الأقاليم والمصالح وشئونها الإدارية وكشوف الأقاليم البحرية والقبلية ومقدار المال المتحصل وكميات الغلال والأصناف الأخرى ، حيث يعلم منها نشاط المأمورين أو تكاسلهم ، وسمى هذا الملخص « الجورنال » .

وصدر هذا الجورنال سنويا ثم أسبوعيا ، ثم تبين للوالى بعد ذلك أن من الأمور ما لا يحتمل الانتظار سبعة أيام ، فأصدر أمره بجواز عرض الجورنالات عليه يوميا وكان هذا التقرير ـ الذى يمكن تسميته مع شيء من التجاوز بالجريدة الرسمية ـ يرسل إلى رجالات الدولة ، ومأموريها الذين يعنيهم أن يقفوا على أحوال البلاد والنظام الجديد فيها (١) .

ولا يمكننا أن نعتبر « جورنال الخديو » الذى كان يصدر قبل « الوقائع المصرية » صحيفة بهذا المعنى ، فلم يكن فى الحقيقة أكثر من نشرة تتضمن خلاصة بالتقريرات الإحصائية الواردة من مختلف أقاليم مصر ، ترفع إلى الباشا وعدد محدود من كبار موظفى حكومته ، ولم يكن لفظ « جورنال » فى مصطلح ذلك العصر يعنى أكثر من « تقرير مكتوب » ، وقد ظل اللفظ مستخدما بهذا المعنى فى الوقائع نفسها بعد ذلك

---

(١) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ٢٤ ، ٢٧ .

بسنوات طويلة »[1] .

وباتساع نشاط الدولة لم يعد هذا الجورنال كافيا ، فأمر الوالى بإصدار جريدة « الوقائع المصرية » ، حيث صدر العدد الأول منها فى ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ الموافق ٣ ديسمبر ١٨٢٨ م ، حيث « أراد ولى النعم أن الأخبار التى ترد إلى الديوان المذكور تتضح وينتخب منها ما هو مفيد وتنشر عموما مع بعض الأمور التى ترد من مجلس المذاكرة السامى والأمور المنظور بها فى ديوان الخديوى ، والأخبار التى تأتى من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى »[2] ووزعت الجريدة على كبار الموظفين والعلماء وتلاميذ المدارس والذوات الملكية والجهادية ، وأرسلت إلى كريت وبلاد العرب والسودان ، وقرأها المبعوثون فى أوربا ، ولكن هؤلاء جميعاً لم يتجاوز عددهم ستمائة قارئ حيث اشترك فيها كل موظف يزيد مرتبه على ألف قرش[3] .

ثقافة الطهطاوى الإسلامية وأثرها فى الوقائع :

بعد هذا التمهيد عن نشأة هذه الصحيفة المصرية الأولى ، نولى وجهنا شطر ما نبحث عنه فى هذا المقام وهو الاتجاه الإسلامى فيها ، وما اقترن به الاتجاه الإسلامى فى الصحافة المصرية ــ بصفة عامة ــ من بعث اللغة العربية والعناية بها ، والدفاع عنها ضد محاولات القضاء عليها باعتبارها لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وكل كتب التراث والحضارة الإسلامية.

كانت اللغة العربية فى جريدة الوقائع مهملة فى الفترة التى سبقت تولى رفاعة الطهطاوى الإشراف عليها فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ (١١ يناير ١٨٤٢ م) .

فلم تكن اللغة العربية ــ قبل تولى رفاعة ــ ترجمة حرفية للغة التركية ، إذ كان النهر الخاص بالأخيرة أكثر تفصيلا وإيضاحا ، ومحرر الوقائع رجل تركى أو رجل ذو مزاج تركى ومحررها العربى ينقل هذا بعد ترجمته إلى لغة كانت فى شيخوختها ، فلا ابتكار ولا عناية بالأسلوب أو اختيار ألفاظ مؤدية للمعنى .

---

(١) د . أحمد حسين الصاوى : رفاعة الطهطاوى والصحافة ، بحث غير منشور مقدم إلى كلية الألسن فى مناسبة الذكرى المئوية لوفاة الطهطاوى ـ ١٨ ــ ٢١ ديسمبر ١٩٧٦ ص ٦ و ٧ .

(٢) محفوظات القلعة : كراسات ملخصات الأوامر العليا ، كراسة رقم ٩ص ١٨٢ فى د . إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ٢٩ .

(٣) د . إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ٢٩ .

وكان رفاعة الطهطاوى من الكتاب الصحفيين الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ، ومن الذين بدأت بهم مدرسة من الصحفيين الإسلاميين المصريين فى القرن التاسع عشر تتمسك بأحكام الإسلام ومبادئه ، وتأخذ من المنافع العملية للحضارة الغربية ما لا يتعارض مع هذه المبادئ وتلك الأحكام .

نشأ رفاعة الطهطاوى[1] فى مصر نشأة دينية ، وتعلم تعليما أزهريا ثم رحل إلى أوربا فدرس العلوم المصرية المعروفة فى أوربا آنذاك ، ومن ذلك تكونت شخصيته وثقافته ، فقد ولد فى مدينة طهطا فى محافظة سوهاج فى ١٥ أكتوبر ١٨٠١م من أب يتصل نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن أم يتصل نسبها إلى قبيلة الخزرج من الأنصار [2] ، وفى قريته أجاد تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل وهو فى السادسة عشرة من عمره للدراسة فى الجامع الأزهر ، فدرس عددا من أمهات الكتب الإسلامية على عدد من شيوخ الأزهر الأعلام فى زمنه .

فمن هذه الكتب التى درسها « صحيح البخارى » ، و « جمع الجوامع » فى الأصول ، « والحكم » لابن عطاء الله السكندرى ، و « مشارفة الأنوار » فى الحديث ، « وتفسير الجلالين » ، و « مغنى اللبيب » ، و « شرح ابن عقيل » ، و « الأشمونى » ، و فى الأزهر تتلمذ على الشيخ حسن العطار الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٦م ، والذى كان له فى حياة الطهطاوى منزلة الراعى والموجه أثناء طلبه العلم فى الأزهر ، وبعد تخرجه وسفره إلى باريس ١٨٢٦ م ، فكثيرا ما كان يلازم بيت أستاذه فى غير أوقات الدروس ليدرس عليه كتبا أخرى فى الجغرافيا والتاريخ والأدب ، وكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تكن تتداولها أيدى علماء الأزهر فى ذلك الوقت [3] .

وفى سنة ١٨٢١م تخرج رفاعة من الجامع الأزهر ، وكان سنه يومئذ واحدا وعشرين سنة ، فجلس للتدريس فى الجامع الأزهر نفسه .

وقد ذكر معظم الذين أرخوا لرفاعة أن الشيخ حسن العطار رشحه ليكون واعظا وإماما للبعثة التعليمية التى سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م ، وأن رفاعة قرر أن يدرس مع

(١) د . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ١ القاهرة سنة ١٨٥٨م ، ص ٨٩ .

(٢) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى جـ / ١ بيروت سنة ١٩٧٣م ، ص ٣١ .

(٣) علي مبارك : الخطط الجديدة ، القاهرة سنة ١٣٠٥ هـ ص ٢٣ و ٢٥ و ٥٣ .

طلاب البعثة وبادر إلى تعلم اللغة الفرنسية ، وأظهر جده وتفوقه ، وبناء على ذلك قررت الحكومة المصرية ضمه إلى أفراد البعثة بحيث يتخصص فى الترجمة [1] .

وهذا الكلام لا سند له من الوثائق التاريخية ، فضلا عن أنه يتنافى مع منطق الأحداث فما كتبه رفاعة فى كتاب : « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » وهو الكتاب الذى ألفه عن رحلته إلى باريس يدل على أنه قد اختير منذ البداية ليكون ضمن أعضاء البعثة ، أما مهمة الإمامة والوعظ فقد كانت مهمة ثانوية ، ويؤكد ذلك أيضا قائمة أعضاء البعثة التى أثبتها عمر طوسون فى كتابه: « البعثات العلمية » فهو يتضمن اسم رفاعة « باعتباره من أعضاء البعثة » [2] .

وفى الامتحان النهائى الذى عقد لرفاعة فى ٩ أكتوبر ١٨٣٠م لاختبار « قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى شغلت بها مدة مكثى بفرنسا » [3] فى هذا الامتحان قدم رفاعة إلى لجنة الامتحان اثنى عشر مترجما بين كتاب وفصل أو فصول من كتاب ، كما امتحن شفويا وقدم للجنة مخطوطة كتابه الذى ألفه عن رحلته إلى باريس وهو « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » كما تقدم الأبحاث والتقارير فى الدراسات العليا [4] .

اجتاز رفاعة الامتحان « على وجه حسن » كما قررت اللجنة وكتب أحد أساتذته وهو المستشرق كوسان دى برسفال caussan de percaval يقول عن كتاب « تخليص الإبريز » ، « إن رفاعة أراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجى والترقى فى صناعة المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية ، والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى عليهم تقليد ذلك » [5] .

يتضح مما تقدم كيف جمع رفاعة بين الثقافة العربية الأصيلة والثقافة الأوربية الأصيلة ، وأصبح من رواد المدرسة الصحفية الإسلامية المصرية التى جمعت بين الأخذ بأحسن ما فى التراث الإسلامى ، والأخذ من محاسن الحضارة الغربية ما لا يتعارض مع أحكام الإسلام .

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، مرجع سابق ص ٣٨ .

(٢) د . أحمد حسين الصاوى : رفاعة الطهطاوى والصحافة ، مرجع سابق ص ٦ و ٧ .

(٣) رفاعة الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، فى الأعمال الكاملة جـ ١ ص ٤٤ .

(٤) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، مرجع سابق ص ٤٤ .

(٥) المرجع السابق : ص ٤٥ نقلا عن كتاب « تخليص الإبريز » .

وفى أوائل شهر ذى القعدة ١٢٥٧ هـ (ديسمبر ١٨٤١م) قرر ديوان المدارس – بناء على توجيهات الجناب العالى – أن يتولى الشيخ رفاعة ناظر مدرسة الألسن وضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية ، وكذلك أن يحال عليه أعمال ترجمة المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية ، علاوة على اختيار بعض قطع أدبية من كتب الأدب ، واختيار أخبار الملكية ، وترتيب الجريدة المصرية بصفة عامة (١) .

وكان الإهمال من نصيب اللغة العربية قبل تولى رفاعة الإشراف على تحرير الوقائع ، فكانت تنشر جهة اليسار بينما تركت جهة اليمين للغة التركية ، ولم تكن اللغة العربية ترجمة كاملة للغة التركية ، ولكن هذه الأخيرة كانت تحوى تفاصيل وإيضاحات أكثر ، وكانت العربية ركيكة ركاكة تقترب من العامية (٢) .

وقد ظهر الاتجاه الإسلامى للوقائع المصرية فى عهد رفاعة فى أمرين : **الأول** : النهوض الملحوظ **باللغة** العربية التى تحرر بها الجريدة وجعلها هى الأصل ، بعد أن كانت اللغة التركية هى محور الاهتمام ، وكذلك بداية نشر المادة الأدبية (٣) ، **والثانى** : بداية ظهور الفكر الإسلامى لرفاعة على صفحات الوقائع ، أو على صفحات الصحافة المصرية بصفة عامة .

كان قرار تولى رفاعة الإشراف على تحرير الوقائع متضمنا أن يقوم هو بوضع أصول الجريدة باللغة العربية ، واحتلت اللغة العربية جهة اليمين ، بينما قام بترجمة المواد إلى اللغة التركية حسين أفندى ناظر المطبعة العامرة ، على أن يعد هذا التكليف من اختصاص وظيفته بصفة أصلية ، وبهذا تعربت الجريدة وتمصرت لغة وموضوعا حيث أصبح للأخبار المصرية الأولوية على غيرها ، كما عين للجريدة محررين من الأدباء كان منهم أحمد فارس الشدياق الأديب المعروف ، والسيد شهاب الدين تلميذ رفاعة ومساعده . (٤) .

وكان من الإصلاحات التى أدخلها رفاعة على « الوقائع المصرية » أنها بدأت تنشر الأدب والشعر كما فى العدد ٦٢٤ حيث نشرت قصيدة للأديب الأريب الشيخ محمد شهاب الدين باشا مصحح دار الطباعة ، وفى العدد ٦٣٢ نشرت فصلا من المأثورات

---

(١) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، مرجع سابق ص ٦٨.

(٢) إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، مرجع سابق ص ٦٠ و ٦٧ .

(٣) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، مرجع سابق ، ص ٦٠ ، ٦٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ٧٨ .

الأدبية بعنوان : « من ابن خلدون الحضرمى فى الكلام عن العلوم وأصنافها واستدلاله على أن اللغة ملكة صناعية » ، وكذلك بدأ فيها ظهور المقال فى الصحافة المصرية ، ويعتبر مقال « تمهيد » لرفاعة نفسه هو أول مقال كامل ينشر فى الصحافة المصرية ، وقد ظهر فى العدد ٦٢٣ فى غرة ربيع الثانى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) ، وهو أول عدد يصدر بعد تولى رفاعة الإشراف على تحريرها (١) .

ويتميز هذا المقال بالجدة فى المعانى والأسلوب ، وينقسم إلى ثلاثة أقسام تمثل ثقافة رفاعة ، واتجاهه فى الدفاع عن الإسلام ضد افتراء المستشرقين على الإسلام ورميهم له بالباطل :

أ ـ ففى **القسم الأول** الذى استوحاه من دراسته للتاريخ الإسلامى يقول : إن للناس فى كل عصر أنواعا من الاهتمام تختلف عنها فى الآخر ، فقد « كان الوليد صاحب ضياع ومصانع فكان الناس فى زمانه يتساءلون عن الدنيا والمصانع والصنائع ، وشق الأنهار وغرس الأشجار ... ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان الناس يتساءلون كم تحفظ من القرآن ومتى تختتم ، وكم وردك كل ليلة ، وكم تصوم فى الشهر ، وما أشبه ذلك » ... إلخ أما الآن فإن حديث الناس يتصل بالسياسة (البوليتيقا) وسبيلهم إلى ذلك (الغازيتات) والوقائع التى تتكلم فى الأمور الداخلية والخارجية المتعلقة بالحكومة .

ب ـ **وفى القسم الثانى** يقسم الحكومات إلى أربعة أقسام : ديمقراطية ، وأرستقراطية ومونارخية ، ومختلطة أى مركبة ، ويشرح طريقة تنظيم كل منها ، وهو فى هذا الجزء متأثر بثقافته الغربية .

جـ ـ **وأما القسم الثالث** والأخير فيرد فيه على ما زعمه المستشرقون من أن النظام الاستبدادى هو النظام المناسب فى البلاد الإسلامية فيقول : « والإفرنج يعدون الحكومات الإسلامية من قبيل مطلقات التصرف ، والحال أنها مقيدة أكثر من قوانينهم ، فإن الحاكم السياسى لا يخرج أصلا عن الأحكام الشرعية التى هى أساس للقوانين السياسية » .

« ولاتساع الشريعة المحمدية ، وتشعب ما يتفرع عن أصولها من الفروع ظن من لا معرفة له بها أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له فى الشرع ، وقل أن يقدم ملك إسلامى

---

(١) د . إبراهيم عبده : المرجع السابق ص ٨٤ .

على ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ » .

وقد اطلع رفاعة ـ حين سافر إلى باريس ودرس اللغة الفرنسية ـ على المؤلفات الأوربية التى تعرضت للإسلام ولنبيه بغير الحق ، ومن هؤلاء « فولتير » فى مسرحية « محمد » التى امتلأت بالهجوم على الرسول ﷺ وصحابته ، وكذلك « مونتسكيو » فى كتابه « روح القوانين » حيث يقول : إن الحكومة الاستبدادية أكثر تلاؤما مع الإسلام ... وإن الإسلام الذى لا يتكلم بغير السيف يؤثر فى الناس بروح الهدم التى أقامته (١) .

كان تولى رفاعة الطهطاوى والإشراف على جريدة الوقائع (٢) ـ إذن ـ طفرة كبيرة فى حياة هذه الصحيفة ، فأصبحت اللغة العربية هى الأصل بعد أن كانت التركية ، وقدمت الجريدة لقارئها أول محاولة جادة ناجحة ـ بمقياس العصر ـ لكتابة المقال الصحفى ، وبرز رفاعة هنا بقدرته الفائقة على التحليل السياسى العلمى ، وهو سمة الصحفيين الناجحين الذين طالما قرأ لهم فى الصحف الفرنسية (٣) كما فى مقاله بعنوان « تمهيد » .. وكذلك رأينا فى هذا المقال ، أن رفاعة قد بدأ به نهجا جديدا سارت عليه الصحافة الإسلامية من بعده ، وهذا النهج هو الرد على مزاعم الكتاب الغربيين وافتراءاتهم على الإسلام .

ولم يستمر ازدهار الجريدة إلا لفترة قصيرة ، ويبدو أن ذلك كان نتيجة للأزمة التى حدثت بين مصر وأوربا سنة ١٨٤٠م ، والتى أدت إلى تحديد استقلال مصر وحرمانها من مكانها الدولى المعروف من قبل ، فأثر ذلك على اهتمام الوالى بالصحيفة فأمر بألا ينشر فيها « شىء يختص بالسياسة بل يجب انحصارها فى أخبار ما يحفر من الترع ، وما ينشأ من الجسور والقناطر ، وفى أنباء العزل والنصب ، وكذلك أنباء السفن التى من الخارج ، ولم تعد تنشر تعليقات على الأخبار الخارجية » (٤) .

بدأ ظهور التدهور فى حالة الصحيفة فى العدد ٦٢٥ أى بعد عددين اثنين من تولى رفاعة الإشراف عليها ، فقد تأخر هذا العدد عن سابقه خمسة عشر شهرا ، وتقهقرت فيه اللغة العربية إلى مكانها القديم فى النهر الأيسر من الصفحات ، وخلا من أية مواد أدبية

---

(١) د . فاروق أبو زيد : صفحات مجهولة من عصر التنوير الصحفى ، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٢٥ .

(٢) فى ديسمبر ١٨٤١ م كما قدمنا .

(٣) د . أحمد حسين الصاوى : رفاعة الطهطاوى والصحافة ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٤) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ص ٨٥ .

أو ثقافية ، ثم تأخر العدد ٦٢٦ لمدة ستة أشهر ، ثم صدر العدد ٦٢٧ بعد توقف الجريدة لمدة تقرب من العام ، والعددان كسابقهما لم يتضمنا أية مواد أدبية أو ثقافية مما ميز العددين الأولين من مدة إشراف رفاعة ، ويبدو أن عوامل كثيرة قد تضافرت على إبعاد رفاعة عن الإشراف الفعلى على الجريدة بعد عددين اثنين من توليه الإشراف عليها [١] .

وامتد التدهور إلى الصحيفة فى عهدى عباس وسعيد ، فأمر عباس الأول أن يكون قراؤها « الحائزين على رتبة فريق ، ورتبة ميرميران ورتبة ميرلو ، ورتبة ميرالاى فقط » وبذلك حرمت مجموعة كبيرة من قراءتها كالعلماء والتلاميذ وأعيان المصريين فى مختلف المديريات ، واحتجبت فى عهد سعيد لمدة سنة تقريبا من يوليو سنة ١٨٦١م إلى ١٩ أغسطس سنة ١٨٦٢م [٢] .

وتمشيا مع النهضة التى بدأها الخديو إسماعيل فى مصر ، فقد أصدر أمراً فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٦٥ م بترتيب قلم الوقائع حيث بدأت عهداً جديداً من الانتظام والتقدم [٣] .

أما العصر الذهبى لجريدة الوقائع المصرية فيبدأ مع تولى الشيخ محمد عبده لرئاسة تحريرها (محرر أول الصحيفة العربية الرسمية) .

ففى أغسطس ١٨٧٩م (١٢٩٦هـ) نفى الأفغانى من مصر [٤] وعزل الشيخ محمد عبده من مناصب التدريس فى مدرستى دار العلوم والألسن ، وحددت إقامته فى قريته (محلة نصر بمحافظة البحيرة) [٥] .

وفى سنة ١٨٨٠ م (أواسط سنة ١٢٩٧ هـ) استصدر رياض باشا ناظر النظار عفوا من الخديو توفيق عن الشيخ وعينه محررا ثالثا فى الوقائع المصرية « فاستهل كتابته فيها فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠م [٦] وكانت بداية أعمال الشيخ ، وهو محرر ثالث ، أن وضع تقريرا ضافيا لإصلاح الجريدة ، وقد اهتم رياض باشا بهذا التقرير اهتماما خاصا ، فأمر بتعيين لجنة

---

(١) د . أحمد حسين الصاوى : رفاعة الطهطاوى والصحافة ، مرجع سابق ص ٣٢ ـ ٣٦ .

(٢) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، مرجع سابق ص ٨٥ و ٨٦.

(٣) المصدر السابق ص . ٩ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٨م ، ص ١٣٦ .

(٥) انظر الباب الرابع فى هذه الرسالة بعنوان : « الصحافة الإسلامية والحركة الوطنية فى مصر » .

(٦) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، جـ ١ ص ٢٣ .

من مدير المطبوعات ووكيل الداخلية وصاحب التقرير ؛ لوضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت هذه اللائحة وأمضاها الوزير ، ثم كافأه رياض على تقريره القيم بأن عينه رئيسا لتحرير الجريدة الرسمية العربية [1] ، فانتخب معه نخبة من المحررين الذين تستميل الناس أقلامهم ؛ لأنه يعتبر هذا الإصلاح الخاص بالوقائع حادثا يتصل بتقدم الشعب ونضجه [2] ، وهؤلاء المحررون هم : الشيخ عبد الكريم سليمان ، والشيخ سعد زغلول ، والشيخ سيد وفا [3] .

نهض الشيخ محمد عبده بصحيفة « الوقائع المصرية » من جميع النواحى إذ تبين من تحليل أعداد الصحيفة فى السنة التى سبقت تولى محمد عبده رئاستها (أكتوبر ١٨٧٩م إلى أكتوبر ١٨٨٠م) أنها قد أصدرت ١٠٣ أعداد لم تظهر فيها مقالات سياسية أو اجتماعية أو ثقافية سوى فى ٩ أعداد فقط ، بينما صدر من الصحيفة فى السنة الأولى من رئاسة محمد عبده لها (أكتوبر سنة ١٨٨٠م حتى أكتوبر ١٨٨١م) ٣٠٨ أعداد لم يخل عدد واحد من مقال أو أكثر يتناول النواحى الاجتماعية والأدبية والسياسية [4] .

ويقول رشيد رضا عن أثر الشيخ محمد عبده فى صحيفة الوقائع : « وإن العجيب حقا أن ترى صاحب عمامة أزهرية يدخل فى حكومة مطلقة بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ، ثم يشرف من نافذة أخرى على الأمة فيقوم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها ، ويطل من نافذة ثالثة على الجرائد العربية ، فيعلمها حسن التحرير ويدربها على الصدق فى القول » [5] .

كما امتدت نهضة الوقائع فى عهد رئاسة الشيخ محمد عبده لها فى النواحى المهنية الصحفية فانتظم صدورها ابتداء من العدد ٩٣٣ الصادر فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠م [6] ، وأصبحت « جريدة رسمية يومية تصدر فى كل يوم ما عدا يوم الجمعة ، وأصبحت ذات مطبعة خاصة هى مطبعة الداخلية الجليلة ، وحشد لها عددا من الكتاب القادرين كما

---

(١) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، مرجع سابق ١٢٨ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ، القاهرة سنة ١٩٣١م ، ص ١٧٦ .

(٣) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٤٥ ، ومجلة المنار جـ ٨ ، ص ٤٠٦ .

(٤) د . سامى عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، القاهرة ١٩٦٨م ، ص ٤٠ .

(٥) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ المقدمة ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٦) بدء رئاسة الشيخ محمد عبده .

ذكرنا ، وألزم الدواوين والنظارات والمحاكم الشرعية ، ودواوين القضاء والمديريات وحكمدارية السودان سواحل البحر الأحمر وجهات هرر وملحقاتها بإرسال أخبارها ، وما يفعله مأموروها ومديروها من الفوائد .... وجعل الجريدة شاهدا على أعمالهم حتى تهتم كل جهة بشئونها ، واشتركت مع وكالتى « رويتر » وهافاس للأخبار منذ منتصف سنة ١٨٨٠م(١) .

« وقد اشتملت مقالات الشيخ محمد عبده فى « الوقائع » على معظم الأفكار التى كرس لها جهوده فى الفترة التالية من حياته ، فى تصحيح العقيدة الإسلامية وإصلاح المجتمع المصرى ، وقد وضعت معظم هذه الأفكار موضع التنفيذ ، بعضها على يد محمد عبده نفسه بفضل المناصب التى تقلدها ، والبعض الآخر على أيدى تلاميذه حتى وقتنا الحاضر » (٢) .

وقد ظهر فى فترة تولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحرير « الوقائع » الاهتمام بموضوعين صارا فيما بعد بعض مميزات الصحافة الإسلامية :

الموضوع الأول :

محاربة البدع والخرافات التى شاعت فى المجتمع المصرى ، وتحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى المتمثلة فى القرآن والسنة ، والإعلاء من شأن العقل فى فهم النصوص الدينية(٣) .

الموضوع الثانى :

ـ هو الحفاظ على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة وأداة فهمهما والعمل بهما(٤) .

أما إصلاح اللغة : فقد دل عليه قوله : « إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح

---

(١) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) Al - sawi : Ahmed Husayn, mohamad Abduh and Al waqa (i) Almisriyah, A thesis presented to the faculty of Graduate Studies and Research mchill University 1954 - presface .

(٣ ، ٤) محمد عبده : « سيرتى » فى الأعمال الكاملة له ، جـ ٢ ص ٣١٨ ، وانظر أيضا الفصل الثانى من الباب الثانى من هذه الرسالة بعنوان : « الصحافة الإسلامية ومحاربة البدع والخرافات » ، والفصل الثالث من الباب الثالث بعنوان : « الصحافة الإسلامية ومعركة الحفاظ على اللغة العربية » .

عقائدنا ، وجهل المسلمين بلسانهم هو الذى صدهم عن فهم ما جاء فى كتب دينهم ، وأقوال أسلافهم ، ففى اللغة العربية الفصحى من ذخائر العلم وكنوز الأدب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان » (١) . وقد ظهر أثره فى النهوض باللغة العربية أثناء توليه رئاسة الوقائع فى ثلاث نواحى :

أ ــ مقالاته ذات المستوى العالى فى أسلوبها وأفكارها .

ب ــ إن إلزام إدارات الحكومة ونظارتها بنشر أخبارها وحوادثها فى الجريدة الرسمية قد اقتضى أن « اضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أوالمبادرة إلى المدارس الليلية ، ليتعلموا كيفية التحرير وعم ذلك المديريات ، كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة (٢) .

جـ ــ كان لإشرافه على المطبوعات وإدارتها ولفت نظر الصحف إلى تجويد تحريرها وتحسين أسلوبها وإلا أنذرت ــ كان لذلك أثره فى جعل الجرائد تلبى دعوته ، شأنها شأن الدواوين فأصبحت تتسابق إلى إظهار مزاياها فى التحرير حتى تعجب إدارة المطبوعات والمشرف عليها (٣) .

وبهذا سرت فى الصحافة المصرية روح جديدة من الصدق فى القول ، وإقبال الكتاب على تجويد كتاباتهم ، وإقبال القراء على القراءة (٤) .

أما مقالاته التى قصد بها إصلاح المجتمع المصرى على النهج الإسلامى ، فقد تناولت حياة المجتمع المصرى من جميع زواياها ، ويمكن أن نميز فيها ثلاثة اتجاهات رئيسية :

أ ــ **تصحيح العقيدة ومحاربة البدع والخرافات** . ومن مقالاته فى هذا الموضوع :

١ ــ إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية . ٢ ــ منتدياتنا العمومية وأحاديثنا فيها .

٣ ــ بطلان الدوسة . ٤ ــ الدوسة .

٥ ــ حاجة الإنسان إلى الزواج . ٦ ــ حكم الشريعة فى تعدد الزوجات .

٧ ــ عوائد الأفراح . ٨ ــ الحشيش .

٩ ــ الصياح خلف الجنائز . ١٠ ــ عادات المآتم .

---

(١) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٨٠ . (٢) إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ، ص ١٢٩ .
(٣) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ١٧٧ . (٤) د . إبراهيم عبده : مرجع سابق ــ نفس الصفحة .

١١ ـ التملق .　　　　١٢ ـ الخرافات [١] .

ويقول فى مقال (الخرافات) هذا : « إن التخاريف التى تعتقد الأوهام أنها مما جاءت به الشرائع لا تخلو منها أمة من الأمم .. » ثم يحمل على أنواع هذه الخرافات مبينا أنها ليست من الدين فى شىء .

ب ـ شرح نظام الشورى فى الإسلام والانحياز إليه ، وذلك فى الفترة التى انضم فيها إلى الثورة العرابية بعد مظاهرة عابدين فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ م ، وأهم مقالاته فى هذه الفترة « فى الشورى والاستبداد » [٢] ، « فى الشورى » [٣] ، « والشورى والقانون » [٤] .

وكان الشيخ محمد عبده قبل هذه الفترة يطلب الدستور ولكن بالتدريج حتى يصبح الشعب متعلما ومؤهلا لذلك ، ولكنه فى هذه الفترة رأى أن هدفه الذى كان يدعو إلى تحقيقه بالتدريج ، قد حصل عليه عرابى ورفاقه بالقوة فانتقل إلى تأييدهم بعد أن كان يعارضهم فى الوسيلة ، فالهدف هو الدستور على كل حال .

جـ ـ الدعوة إلى إصلاح التعليم عامة وإصلاح التعليم الدينى خاصة ، ومن مقالاته فى هذا الموضوع : « التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية » [٥] وفيه يطالب بأن يكون ساس التعليم فى السنوات الست الأولى ، هو الدين الإسلامى والأخلاق الإسلامية ، وثلاثة مقالات بعنوان : « المعارف » [٦] وكان من نتيجة هذه المقالات أن أنشئ المجلس الأعلى للمعارف فى ٣١ مارس سنة ١٨٨١م ، واختير الشيخ عضوا فيه ثم اختير عضوا فى لجنة فرعية ألفها المجلس للنظر فى إصلاح التعليم والتربية فى جميع ، المدارس وكان

---

(١) وهذه المقالات بترتيب نشرها فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨١م :

١ ـ العدد ٩٥٨ .	٢ ـ العدد ١٠٣٣ .	٣ ـ العدد ١٠٣٨ .
٤ ـ العدد ١٠٧٨ .	٥ ـ العدد ١٠٥٥ .	٦ ـ العدد ١٠٥٦ .
٧ ـ العدد ١١١٦ .	٨ ـ العدد ١٠٨٩ .	٩ ـ العدد ١١١١ .
١٠ ـ العدد ١١٣٣ .	١١ ـ العدد ١١١٩ .	١٢ ـ العدد ١٣٠٩ .

وهكذا المقال الأخير سنة ١٨٨٢ .

(٢) الوقائع المصرية : العدد ١٢٧٩ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٣) الوقائع المصرية : العدد ١٢٨٠ في ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٤) الوقائع المصرية : العدد ١٢٩٠ فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

(٥) الوقائع المصرية : العدد ٩٥٧ فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م .

(٦) نشرت على التوالى فى (الوقائع المصرية) فى الأعداد : ٩٩٠ ، ٩٩٣ ، ٩٩٧ ـ فى ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠م .

الكاتب العربى لجلساتها ، وقدم الشيخ لهذا المجلس مشروعى قرارين : الأول أن تقدم الحكومة إعانة مالية للمدارس الأجنبية ، فاغتبط بذلك الأعضاء الأجانب فى المجلس ، ثم أتبعه بالاقتراح الثانى وهو ضرورة إشراف الحكومة على التعليم فى هذه المدارس ، أسوة بما تفعله جميع الدول من مراقبة جميع المدارس التى تعينها من خزائنها ، فاعترض الأعضاء الأجانب الذين كانوا قد اغتبطوا بالاقتراح الأول ، وفهموا ما يقصده الشيخ [1] وإن كانت هذه الاقتراحات لم تنفذ نظرا لما تلا هذه الفترة من التدخل الأجنبى فى مصر . ولقد كان للاقتراحين المذكورين أهمية خاصة فى ذلك الوقت نظرا لما كانت تقوم به هذه المدارس من دعوة تغريبية وتبشيرية .

ومن هذه المقالات كذلك مقال : « ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد » [2] ذهب فيه إلى أن الفقر الحقيقى فى مصر هو فى عدم سريان روح التربية الشرعية التى تجعل الإنسان يحس بمصالح وطنه ومضاره كأنها مصالحه هو ، بل يكون إحساسه بالأولى أكثر من الثانية ، وحث القادرين على المساهمة فى افتتاح المدارس لهذا الغرض ، ثم مقالين بعنوان : « تأثير التعليم في الدين والعقيدة » [3] وفى أولهما يحذر الآباء « أن يبعثوا بأولادهم وهم صغار إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة من ليسوا على مذهبهم أو دينهم ومن تساهل فى ذلك ، ثم تغير اعتقاد أبنائه وانقلبت مذاهبهم إلى مذاهب أخرى فلا يلومن إلا نفسه » .

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ـ جـ ١ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) الوقائع المصرية : العدد ١٠٧٣ فى ٢٨ مارس سنة ١٨٨١ م .

(٣) نشرا فى العددين ١١٨٦ ، ١١٩٧ فى ٩ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨١ م .

٢ ـ روضة المدارس

صدر العدد الأول من مجلة روضة المدارس فى يوم ١٥ من المحرم سنة ١٢٨٧هـ ـ الموافق ١٧ من أبريل سنة ١٨٧٠ م ، أى أنها صدرت بعد ما يقرب من سبع سنوات من حكم الخديو إسماعيل .

وكانت روضة المدارس صحيفة رسمية مدرسية تعليمية ، وكانت فى الوقت نفسه تعبر عن النهضة التعليمية والنهضة الصحفية اللتين حدثتا فى عصر الخديو إسماعيل ومرتبطة بها .

أما النهضة التعليمية فقد تمثلت فى افتتاح عدد كبير من المدارس وازدياد أعداد الطلاب ، وإعادة افتتاح ديوان المدارس ـ الذى كان قد تعطل فى عهد سعيد ـ وتعيين على مبارك مديرا له ، ورفاعة الطهطاوى ناظرا لقلم الترجمة فيه وهو الذى تولى الإشراف على صحيفة « روضة المدارس » بصفته ناظرا لها .

وتمثلت النهضة الصحفية فى هذه الفترة ـ فى تطور الوقائع المصرية وصدور عدد من الصحف الشعبية مثل : وادى النيل (١٨٦٦ م) ، ونزهة الأفكار (١٨٦٩ م) ، والوطن (١٨٧٧م) ، ومصر (١٨٧٧م) ، والتجارة (١٨٧٨م) ، والأهرام (١٨٧٥م) وغيرها .

ومع الاهتمام بمدرسة الطب واتساع نطاقها ظهرت مجلة « يعسوب الطب » سنة ١٨٦٥م ومع زيادة الاهتمام بالجيش ظهرت صحيفتا : « الجريدة العسكرية المصرية » سنة ١٨٦٥ م ، « أركان حرب الجيش المصرى » سنة ١٨٧٤ م .

وتمشيا مع هذه النهضة ظهرت صحيفة « روضة المدارس » معبرة عن النهضة التعليمة ، وكتب على غلاف العدد الأول منها أنها « تحت نظارة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس » ، وأن « مباشر تحريرها على فهمى بك مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن » .

أما المادة المنشورة فى صحيفة « روضة المدارس » فكانت تعنى ـ أولا وقبل كل شىء ـ بنشر العلوم والمعارف ووجدنا أيضا ما يلى :

١ ـ أنها لا تتدخل فى الشئون السياسية [1] .

٢ ـ تنشر مقالات وفصولا من كتب علمية على هيئة ملاحق فى ملازم مرقمة أرقاما مسلسلة من عدد إلى عدد حتى يمكن جمعها فى كتاب آخر الأمر .

٣ ـ تنشر مقالات أدبية ولغوية ، وفصولا من كتب اللغة والأدب على هيئة ملاحق بالطريقة السابقة .

٤ ـ أنها تعنى بأخبار المدارس مثل إجراء الامتحانات وإعلان نتائجها ، وتكريم التلاميذ المتفوقين ومنحهم الجوائز ، وتنقلات المدرسين وترقياتهم ، والحفلات المدرسية [2] .

٥ ـ المقالات والملاحق الإسلامية وهى التى تمثل الاتجاه الإسلامى فى صحيفة « روضة المدارس » . وهذا الاتجاه لم يحظ بما يستحق من اهتمام الذين أرخوا للصحافة المصرية أو الذين كتبوا عن (روضة المدارس) .

وقبل أن نتناول هذا الاتجاه الإسلامى فى الصحيفة نشير إلى أنها سبقت بإنشاء ما يسمى فى الصحافة الحديثة بـ (مجلس التحرير) أو بتعبير آخر رؤساء أقسام متخصصين لكن لم يكن مختص بالشئون الدينية ، رغم المادة الإسلامية الكثيرة والجديدة والمتميزة التى نشرتها .

وكان هؤلاء المتخصصون تسعة نشرت الصحيفة أسماءهم فى العدد الأول من السنة الأولى ، وضم إليهم السيد صالح مجدى فى العدد الثانى .

ومن الأمثلة على هؤلاء المختصين أو رؤساء الأقسام فى الصحيفة :

ـ سعادة مدير المدارس [3] تفضل عليها بمسائل فى وصف البحار العمومية ، وذكر متعلقاتها وأحوالها الكلية والجزئية .

ـ أحيل إلى همة عبد الله فكرى بك العلوم العربية والفنون الأدبية ، وذكر أساليب العرب فى النظم والنثر الرائع ، وإيراد أمثال وحكم يرتاح لها القارئ والسامع .

ـ كما اختص إسماعيل بك الفلكى بالفلك ، ومحمد أفندى قدرى بالجغرافيا ،

---

(١) روضة المدارس : العدد الأول ـ ١٥ محرم سنة ١٢٨٧ هـ .

(٢) روضة المدارس : العدد الخامس ـ السنة الأولى فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٧ هـ .

(٣) على باشا مبارك .

ومحمد بدر أفندى بعلم الأبدان ، وجناب الماهر بروكسن باشا ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم بتاريخ الأعصر القديمة ، ومباشر التحرير [١] بتاريخ مصر الحديث وعمرانها ومقابلته مع القديم ... إلخ .

ويهمنا فى هذا المجال أن نجلى الوجه الإسلامى لصحيفة « روضة المدارس » وهو ما لم ينل ما يستحقه من اهتمام الباحثين حتى اليوم ، رغم تناولها لقضايا جيدة لم تزل من المحاور التى يدور حولها البحث فى الفكر الإسلامى حتى وقتنا الحاضر ، ومن ثم فإن كشفنا النقاب عن هذه القضايا يوضح كيف بدأ الاهتمام بها فى الفكر المصرى والفكر الإسلامى الحديث ، وبأية جدية ونضج تمت مناقشتها واهتمام الرأى العام بها ، ويتجلى هذا الاتجاه الإسلامى فيما يلى :

١ ـ الدعوة إلى الاجتهاد والتجديد ، وهذه بدورها يمكن أن نلحظها فى عدد من المواد الهامة فى الصحيفة ، أولها مقال لرفاعة الطهطاوى بعنوان : « بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر » [٢] ، ويدور المقال حول الاجتهاد فى الدين ودراسته واستنباط الأحكام الشرعية ويقدم له بأن « بقاء حسن الذكر بفضل العلم من أشرف الكمالات وأن العلماء المجتهدين هم أحق الناس بهذه الفضيلة ، وهو يرى فى هذا المجال « أن الجامع لفضيلتى المعقول والمنقول أفضل من المنفرد بواحدة منهما ، والمنفرد بواحدة منهما الكامل فيها خير من غير الكامل فيها » .

شاع فى عصر رفاعة الطهطاوى وقرون قبله أن باب الاجتهاد قد أغلق ولكن رفاعة ـ فى مقاله هذا ـ يقدم رأيا سبق به غيره من الباحثين فى العصر الحديث وهو بقاء الاجتهاد إلى يوم القيامة ، فالرسول ﷺ بين لنا فى سنته ما أجمل فى القرآن ، والأئمة المجتهدون بينوا لنا ما أجمل ما فى حديث الرسول ﷺ . وأورد الحديث الشريف الذى يقول : « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » [٣] .

« واقتدى بالرسول ﷺ الصحابة وخاصة فى بيان الأحكام ، وتبعهم التابعون وتابعو التابعين ، وهكذا أهل كل دور بالنسبة للدور الذى قبلهم إلى يوم القيامة ، فإن الإجمال لم يزل ساريا فى كلام الأمة محتاجا إلى البيان والتفصيل وهذه وظيفة المجتهدين المجددين لأمر الدين ، وكلهم على الحق واختلافهم فى مذاهبهم رحمة للخلق ، ومثل هؤلاء

---

(١) على فهمى رفاعة . (٢) روضة المدارس : العدد الثالث فى ١٥ صفر سنة ١٢٨٧ هـ .

(٣) رواه أبو داود فى السنن .

ذكرهم باق إلى يوم التلاق » .

وهكذا يصدر الطهطاوى رأيا فى مسألة كانت مدار أخذ ورد وجدل فى الدراسات الإسلامية وهى « بقاء الاجتهاد أو انقطاعه » . فيكون رأيه مع بقاء الاجتهاد إلى يوم القيامة. ومن حق رفاعة أن يثبت له هذا الرأى وهذه الدعوة ، فى فترة زمنية ساد فيها التقليد فى الحياة الفكرية والثقافية جميعا .

وكان الطهطاوى قد وعد بالعودة إلى هذا الموضوع ليفصله وقد بر بوعده ، فبدأ فى العدد السادس من السنة الأولى [1] نشر فصول كتابه : « القول السديد فى الاجتهاد والتجديد » على شكل ملاحق فى روضة المدارس ، وهو فى هذه الفصول يفصل ما أجمله فى المقال السالف الذكر .

والمقال والكتاب المتقدمان قد اتخذا موضوعاتهما (الاجتهاد والتجديد) ولكن كثيرا من المقالات والملاحق الإسلامية التى نشرتها الصحيفة ــ ومما سنذكره بعد ــ يظهر فيها اجتهاد الكتاب وتجديدهم .

٢ ــ دحض شبهة التعارض بين الدين الإسلامى والاكتشافات الحديثة فى العلوم الطبيعية على وجه الخصوص ، وتبدى ذلك فى عدد من المقالات والرسائل فى روضة المدارس ، وأول ما يقابلنا فى ذلك مقال رفاعة الطهطاوى السابق الذكر « بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر » ، حيث يثبت أنه لا تعارض بين علوم النقل وعلوم العقل ، وأن المقصود فى دراسة العلوم العقلية هو الذى يوجد شبهة التعارض بينها وبين العلوم النقلية ، وتعتبر الرسالة التى نشرت فى العدد الخامس من السنة السابعة [2] أو فيما نشر فى روضة المدارس حول هذا الموضوع ، وعنوانها « رسالة فى مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد فى النصوص الشرعية » تأليف حضرة عبد الله بك فكرى [3] وكيل المكاتب الأهلية .

ويحدثنا عبد الله فكرى عن قصة نشر هذه الرسالة فيقول : إن صحيفة « وادى النيل » كانت قد نشرت كتابا مترجما فى الجغرافيا فقامت محاورة بينه وبين (أحد المتورعين)

---

(١) غاية ربيع أول سنة ١٢٨٧ هـ . (٢) روضة المدارس : فى١٥ ربيع الأول سنة ١٢٦٣ هـ .

(٣) ولد بالحجاز سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٤ م من أب مصرى ، ودرس في الأزهر وحذق التركية والفارسية ، وعين عضوا فى هيئة تحرير (روضة المدارس) منذ ظهورها ، وكان اختصاصه فيها « العلوم العربية والفنون الأدبية ، وذكر أساليب العرب في النظم والنثر » ، وفى ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) عين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية فوكيلا لنظارة المعارف ــ راجع عمر الدسوقى فى الأدب الحديث جـ ١ ، ص ١٤٦ ، ط دار الفكر العربى (السابعة) د . ت .

كما يقول ـ فيما يتعلق بهذا الكتاب ـ لأنه رآه ـ أحد المتورعين هذا ـ ينكر على الصحيفة « بعض المباحث المندرجة فى ذلك الكتاب ككون الأرض كروية والقبة السماوية متخيلة ، وما قيل فى كيفية الكسوف والخسوف ونحو ذلك ، بعد الاعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتاب مناسب فى موضوعات أخرى مهمة تدعو إليها الحاجة لمعرفة مواقع البلدان ومجالها وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا ينكر مزيته وفائدته فى السياحة والتجارة وأمور التمدن والعمران ، فكتب عبد الله فكرى هذه الرسالة وجعلها على شكل محاورة بين فقيه وعالم فى الهيئة ، وعالم الهيئة يقدم الأدلة الفقهية على أن مباحث علم الهيئة ومعقولاته لا تتعارض مع النصوص الإسلامية . وهذه الرسالة نشرت فى « وادى النيل » قبل ذلك ثم لما « كثر طلبها من الأحبة » جمعها وأضاف إليها ونشرها كاملة فى روضة المدارس ، ثم أعيد طبعها فى كتاب .

ويقدم عبد الله فكرى فى هذه الرسالة آراء الإمام فخرالدين الرازى ، والإمام الغزالى فى الموضوعات السابقة موضع الخلاف ، ويقدم رأيه فى هذه الموضوعات ، ونكتفى بالإشارة هنا إلى أن رأى عبد الله فكرى فى هذه المسألة التى ما يزال النقاش يدور حولها هو من أنضج الآراء التى وصل إليها العلماء حتى يومنا هذا (١) .

ومن المقالات التى نشرتها الصحيفة فى إثبات التوافق بين الإسلام وقوانين الكون مقالة بعنوان : « تطبيق الأمور العادية على الأحكام الشرعية الفرعية » لحضرة الشيخ حسونة النواوى مدرس الشريعة بمدرسة الإدارة (٢) إلى غير ذلك من المقالات التى تناولت الموضوع ضمنا .

٣ ـ إحياء الكتابة والنشر فى السيرة النبوية بمناهج جديدة ، ومن أضخم الكتب التى نشرت ملازمها على هيئة ملاحق لأعداد صحيفة (روضة المدارس) كتاب : « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » لرفاعة الطهطاوى ، فقد بدأ نشر الملزمتين الأولى والثانية فيه فى العدد الرابع من السنة الثالثة (٣) ، واستمر نشره تباعا ، وعلى الرغم من وفاة الشيخ رفاعة رافع منذ السابع من السنة الرابعة (١٢٨٩ هـ) ، فإن ابنه على فهمى رفاعة قام بقراءة مسودات الكتاب وتصحيحها وظل ينشرها فى الصحيفة حتى أتم نشر الكتاب جميعه.

---

(١) سنعود إلى مناقشة هذه المسألة في فصل قادم بعنوان : « الصحافة الإسلامية والفكر العلمانى ».

(٢) روضة المدارس :فى غاية صفر سنة ١٢٨٩ هـ .

(٣) روضة المدارس : فى غاية صفر ١٢٨٩ هـ .

وقد حظى هذا الكتاب باهتمام الباحثين ، فقد رأوا فيه أول دراسة وضعت فى السيرة النبوية فى العصر الحديث ، فقد انقطع المؤرخون عن كتابة السيرة ـ على كثرة ما كتب فيها من قبل ـ نيفا وأربعة قرون ، وكان كتاب « إمتاع الأسماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع » للمؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى آخر ما كتب فيها ثم جاء رفاعة الطهطاوى فكتب هذه السيرة الجديدة ، فصارت من بعده تقليدا راسخا من تقاليدنا الفكرية يؤديها كل كاتب عربى كبير؛ ولذلك لم يطرق مؤرخ من بعده ميدانها حتى كتب الدكتور محمد حسين هيكل : (حياة محمد) فى عام ١٩٣٥ م ، وكتب طه حسين : (على هامش السيرة) ، وكتب العقاد : (عبقرية محمد) ... وبذلك كان : « نهاية الإيجاز » فتحا جديدا فى تاريخ السيرة ، وفى كتابة التاريخ الإسلامى على نمط جديد [١].

ويرى باحثون آخرون أن هذا الكتاب يحوى فى ثناياه رداً على المؤلفات التى تفترى على الإسلام الكذب ، تلك المؤلفات التى قرأها الطهطاوى عند إقامته فى أوربا . ودعم هذه الردود بحجج عقلية صرفة ، وأن الطهطاوى استخدم فيه مناهج كان الفكر العربى قد هجرها فى قرون الانحطاط والتأخر ، ومن هذه المناهج التى أحياها الطهطاوى من عصور الازدهار الإسلامى : المنهج العقلى والمنهج الاجتماعى فى دراسة السيرة النبوية ، بالإضافة إلى منهج ثالث يقوم على التسليم المطلق بكل ما يتعلق بالرسالة السماوية ، ولما كان هذا الكتاب هو آخر ما كتب الطهطاوى فقد ميز مرحلة نضج الأسلوب عنده ، وفيه وضع الأساس الأول للأسلوب الحديث فى الكتابة العربية ، وهو أساس قائم على توخى البساطة والسهولة والابتعاد عن التعقيد والتقعر ، والتحرر الكامل من قيود الزينة اللفظية المتكلفة [٢] .

وفى مجال اهتمام « روضة المدارس » بالسنة النبوية نشرت فى ملاحقها كتاباً آخر ابتداء من العدد الرابع من السنة الثانية [٣] وهو « الآداب السَّنية من الآثار السُّنية » تأليف العلامة الشيخ سليم عمر الحنفى بين فيه فى عشرة أبواب الآداب النبوية فى الأكل

---

(١) د . حسين فوزى النجار : رفاعة الطهطاوى ، ط الدار القومية للتأليف والترجمة والنشر د . ت ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) د . فاروق أبو زيد : صفحات مجهولة من عصر التنوير الصحفى ، ط العربى للنشر والتوزيع ـ د . ت ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ .

(٣) روضة المدارس : فى غاية صفر سنة ١٢٨٨ هـ .

والشرب والملبس والمشى والنوم والكلام والسفر والصحبة والمجالسة والضيافة ، وفى الخاتمة تحدث عن أفعال الطهارة والصلاة والصوم .

٤ ـ ونذكر لروضة المدارس ريادتها فى موضوعات أخرى أصبحت فيما بعد خطا متصلا فى سياسة تحرير الصحافة الإسلامية ، ومن هذه الموضوعات محاربة البدع الضارة والفكر الخرافى ، وهى الأشياء التى يظنها الناس الجهال من الدين ، من ذلك الرسالة التى نشرتها فى العدد ١٤ من السنة الثانية (١) بعنوان : « الرجوم على أهل النجوم » بقلم الشيخ محمد أمين المدنى ، وهى رسالة فى تحريم التنجيم .

وابتداء من العدد ١٣ من السنة الأولى بدأ الطهطاوى ، ينشر سلسلة مقالات طويلة بعنوان : « البدع المتقررة ، فى الشيع المتبررة » استعرض فيها البدع والخرافات الشائعة فى الدول المتخلفة ورأى الدين فى تحريمها .

ومنها رسالة عن بدع منتشرة فى بعض دول إفريقيا أرسلت إلى مفتى المدينة المنورة ، لمعرفة رأى الإسلام فيها ونشر الطهطاوى هذا الرد ، واستمرت هذه السلسلة فى خمسة أعداد تالية (٢) .

ومن سمات الصحافة الإسلامية فى « روضة المدارس » اهتمامها بأخبار المسلمين فى الدول الأخرى واعتناق غير المسلمين للإسلام ، ومن ذلك ما نشرته فى العدد ٢٢ من السنة السابعة (٣) عن موضوع مترجم من صحيفة (تقويم وقائع) التى تصدر في تركيا « مؤداه أن حضرة مولانا شيخ الإسلام بدار السعادة ورد إليه خطاب من أحد ذوات ألمانيا المشتهر بالفضل والكمال يتضمن طلب المساعدة فى دخوله فى دين الإسلام ، وأجيب من إدارة الفتوى بخطاب سام ، وهو فيها ثرى العبارة وهذه ترجمته « وفيه تشرح إدارة الفتوى للألمانى الذى يريد الدخول فى الإسلام مبادئ هذا الدين وكيف يتعلمه ويعمل به » .

وكانت روضة المدارس أول صحيفة عربية تشرح حقوق المرأة فى الإسلام ووجوب تعليمها وتربيتها وتهذيبها لتقوم بواجباتها فى النهوض بالمجتمع الإسلامى ، وكان ذلك فى

---

(١) روضة المدارس فى ١٥ رجب سنة ١٢٨٧ هـ.

(٢) الأعداد ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ من السنة الأولى والعدد (١) من السنة الثانية .

(٣) فى غاية ذى القعدة سنة ١٢٩٣ هـ .

الفصول التى نشرتها بعنوان : « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، لرفاعة الطهطاوى والتى بدأ نشرها فى العدد ١٦ من السنة الخامسة يوم السبت غاية شعبان سنة ١٢٩١ هـ وجمعت هذه الفصول بعد ذلك فى كتاب كبير شهير .

ونشرت الصحيفة ـ بالإضافة إلى ما تقدم ـ موضوعات إسلامية عن : أسئلة فقهية والإجابة عنها (١) ، ومناقب الإمام الأعظم بقلم الشيخ حسونة النواوى (٢) ، وكتابا فى المواريث (٣) ومسلسلا عن إعجاز القرآن الكريم بقلم الشيخ على محمد الببلاوى المغير بالكتبخانة(٤) .

يبقى بعد ذلك اهتمام « روضة المدارس » باللغة العربية التى اعتبرت فى الصحافة الإسلامية لغة القرآن الكريم والحديث والفقه والتراث والحضارة الإسلامية ، فقد بلغت الصحيفة شأوا عاليا وهو أكثر من أن نتناوله فى مجال بحثنا هذا ، ويكفى هنا أن نشير إلى أن الصحيفة نشرت ملخصا لدروس الشيخ حسين المرصفى فى الأدب التى كان يلقيها فى مدرسة دار العلوم ، وظلت هذه الدروس من بداية الصحيفة حتى توقفها ، وكانت هذه الدروس نواة كتاب « الوسيلة الأدبية » المشهور فى الدراسات الأدبية على أنه أول خطوة فى العصر الحديث على سبيل تجديد النقد الأدبى ، والذى عرض علوم العربية عرضا جديدا ، وبخاصة علوم البلاغة مبيناً منزلة كل منها فى نقد الكلام (٥) .

---

(١)روضة المدارس : العدد ٩ السنة الأولى .
(٢) روضة المدارس : العدد ١٠ السنة الأولى .
(٣) روضة المدارس : ١٧ السنة الأولى .
(٤) روضة المدارس : الأعداد ٣، ٨ ، ١٧ السنة الثانية ، والأعداد ٣ ، ١١ السنة الثالثة
(٥) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ ، دار الفكر العربى د . ت ص ٢١٢ .

٣ ـ التنكيت والتبكيت والأستاذ

عبد الله النديم ـ صاحب صحيفتى : « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ـ من الكتاب الإسلاميين فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وهو من المصلحين الذين اتخذوا الإسلام أساسا ومنهجا لهم فى الإصلاح فى كل المجالات ، حيث كانت الصحافة أهم وسائله إلى ذلك . وحين ننظر فى الاتجاه الإسلامى فى صحافة النديم نجد أن لواء الريادة قد انعقد له من عدة وجوه .

ولد النديم فى الإسكندرية فى ذى الحجة سنة ١٢٦١ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٥ م) لأب رقيق الحال يعمل خبازا ، وحفظ القرآن الكريم فى الكتاب ، وهو فى التاسعة من عمره ثم (دخل جامع الشيخ إبراهيم باشا) فى الإسكندرية ، وكانت الدراسة فيه على شاكلة الدراسة فى الأزهر . ولكن النديم يهجر الدراسة فى جامع إبراهيم باشا إلى مجالس الأدب ومحبيه وينغمس فيها بطبعه ، ثم تضطره ظروف الحياة أن يجد عملا يقتات منه فيعمل بتلغراف بنها ، ثم ينتقل إلى العمل بالقصر العالى حيث تسكن والدة الخديو إسماعيل ، وفى القاهرة انغمس في مجالسها وتردد على حلقات العلم بالجامع الأزهر وقت فراغه (١) .

على أن النديم تعلم من تجارب الحياة ومخالطة خاصة الناس وعامتهم ، ومن نهمه هو إلى القراءة والاطلاع أكثر مما تعلم من المدارس .

ويقول أحمد سمير فى مقدمته لكتاب سلافة النديم أن للنديم من المؤلفات الصغيرة والكبيرة ما يعد بالمئات ، وديوانى شعر يبلغ ما بهما سبعة آلاف بيت ، ولكن معظم هذه المؤلفات فقد أثناء حله وترحاله وهربه ونفيه ، ولكن ديوان شعره وبعض كتبه ظل محجوزا عليه فى القسطنطينية . وقد استطاعت مجلة الأستاذ أن تحتفظ لنا باثنتين وثلاثين ملزمة من كتاب « كان ويكون » عدد صفحاتها مائتان وخمسون وست ، وقد نشرت هذه الملازم على شكل ملاحق بأعداد مجلة « الأستاذ » ووضعت مجتمعة فى نهاية مجلدات الصحيفة الموجودة بدار الكتب المصرية (٢) .

---

(١) أحمد سمير : سلافة النديم ، ط القاهرة سنة ١٨٩٧ م المقدمة ص ١ ، ٢ .

(٢) صدرت هذه المجلة أسبوعية من أغسطس ١٨٩٢م إلى يونيه سنة ١٨٩٣ م وتحمل مجلداتها فى دار الكتب المصرية أرقام ٢١٧ ، ٢٦٠ ، ١١٧٩ ، ١٣٩٩ دوريات .

وحين اضطر عبد الله النديم إلى إيقاف صحيفة « الأستاذ » ، قال شقيقه عبد الفتاح النديم فى العدد الأخير منها [1] : إنه تم طبع ٣٢ ملزمة من الجزء الأول من الكتاب وزعت على المشتركين مع مجلة « الأستاذ » ، وبقى من هذا الجزء ثمانى ملازم سيباشر طبعها ويرسلها لمن دفع اشتراك السنة الأولى ، وقال أيضا أنه سيباشر طبع الجزأين الثانى والثالث من الكتاب ، ومع ذلك لم يتم طبع الجزء الأول الذى توقف عند صفحة ٢٥٦ ، أما الجزأين الثانى والثالث من الكتاب فهما مفقودان مع غيرهما من مؤلفات النديم .

وكان غرض النديم من تأليف هذا الكتاب عرض خلاصة أفكاره الدينية واللغوية والسياسية والأدبية والتاريخية والإنسانية ملتزما فيه حرية الفكر ، وعدم التعصب لدين أو جنس ، ذاكرا ما شاهده فى مصر من أحداث ، مبينا ما وراءها من علل . وأكثر ما نشره ملحقا بصحيفته « الأستاذ » كان فى أصول الأديان وتاريخ اليهودية والمسيحية والإسلام ، ولكن ما نشر منه يدل على نظر عميق واطلاع واسع وسماحة دينية لطيفة ، وعاطفة جياشة ، يحب الخير لمصر وللشرقيين [2] .

وكان سبب تأليف هذا الكتاب أن النديم كان له صديق فرنسى اتفقا أن يمده النديم بمادة تساعده على تأليف كتاب فى التاريخ ، وقد تعرف النديم على هذا الصديق فى الإسكندرية سنة ١٢٦١ هـ ، وكان للفرنسى ضيعة قرب القرية التى اختفى فيها النديم فكان الفرنسى على اتصال به ، وكان يقدم إليه السؤال والنديم يقدم الجواب ، وعلى هذا النحو دون الكتاب [3] .

وفى هذا الحوار رموز هى (ش) أى الشرقى وهو النديم ، و (غ) أى الغربى وهو صديقه الفرنسى ، و (الغرب) لأوربا ، و (الشرق) للشرقيين الأدنى والأقصى و (المسألة الغربية) للدين المسيحى ، (المسألة الشرقية) للدين الإسلامى [4] .

وكان النديم ذا ثقافة دينية ولغوية واسعة ، يدل على ذلك تلك الرسالة التى جاءت فى سلافة النديم بعنوان : « حسن الابتداء بفاتحة الكتاب » ، فأحصى وشرح خمسة وسبعين نوعا من أنواع البديع فى سورة الفاتحة ، التى لا تزيد عدد كلماتها عن خمس وعشرين كلمة [5] .

---

(١) فى ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣ م .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ط النهضة المصرية سنة ١٩٧٩ م .

(٣) ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ . (٤) كتاب كان ويكون ملاحق مجلة الأستاذ .

(٥) عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

وتميزت صحف النديم باتجاه إسلامى واضح ، ويقول الشيخ رشيد رضا عن مجلة الأستاذ : « ظهرت « العروة الوثقى » فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١هـ ، وكل ما صدر منها ١٨ عددا ، ثم مرت فترة من الزمن لم تذكر فيها الشئون الإسلامية العامة فى الجرائد إلا ما يجئ فى عرض القول ، أو يصيبها من رشاش أقلام غير أهلها من الكتاب مما لا يروى غليلا ولايغنى فتيلا ، حتى أنشأ نابغة الخطباء والكتاب السيد عبد الله النديم المصرى مجلة « الأستاذ » فى أوائل سنة ١٣١٠هـ ، وكتب فيها المقالات الطنانة الرنانة فى تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم وبسائر الشرقيين وتنشيط هممهم لتلافيها » (١) .

ويتضح الجانب الإسلامى فى صحافة النديم فى كثير مما نشر فى الصحف الآتية :

أ ـ مجلة « التنكيت والتبكيت » التى ظهرت فى يونيه سنة ١٨٨١ م حتى أكتوبر ١٨٨١م .

ب ـ مجلة « الأستاذ » التى ظهرت فى أغسطس سنة ١٨٩٢م وتوقفت فى يونيه ١٨٩٣م .

جـ ـ مجموعة مقالات نشرها النديم فى صحيفة « العصر الجديد » فى مارس سنة ١٨٨٠ م فى موضوع نظام الحكم فى الإسلام .

أما جهود النديم فى ميدان الصحافة الإسلامية فتتضح فيما يلى :

١ ـ دعوته للمحافظة على اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم ، وسبقه فى الدعوة إلى إنشاء مجمع للغة العربية ، ففى إبان إصدار النديم لمجلته « التنكيت والتبكيت » تضافرت عدة عوامل على إضعاف اللغة العربية ، فطلبة البعثات العائدون يعرفون مواد تخصصهم باللغة الفرنسية أو الإنجليزية ، ويستخدمون ـ هم ومن يقلدونهم ـ الألفاظ الإفرنجية فى أحاديثهم ومعاملاتهم ، ومما أدى إلى ذلك أيضا كثرة المدارس الأجنبية بمصر التى شجعها الخديو إسماعيل (٢) .

ويتصدى النديم لهذه الدعوة التى ترمى إلى إضعاف اللغة العربية فهو يقول فى مقال « إضاعة اللغة تسليم للذات » مخاطبا هؤلاء : « أسمعك تقول إذا فقدت لغتى اعتضت

---

(١) مجلة المنار : مجلد السنة الثانية ، ص ٢٣٩ .

(٢) التنكيت والتبكيت : العدد الأول ٦ يونيه ١٨٨١م مقال بعنوان : (عربى تفرنج) ، ١٩ يونيه سنة ١٨٨١م مقال بعنوان : (إضاعة اللغة تسليم للذات) .

عنها بأخرى . أجل إنك اعتضت عنها ولكن بما أضاع منك الوطن والمعتقدات الدينية » ثم يطالب تدريس اللغة العربية في جميع المدارس بدون استثناء وأن تزاد حصص دراستها ، وكذلك تبدو سخريته المرة ممن يتشدقون بالألفاظ الأجنبية في أحاديثهم في مقال (عربي تفرنج) .

أما في إبان إصدار النديم لصحيفته « الأستاذ » فقد كانت محاولات هدم اللغة العربية أشد وطأة وبطرق شتى ، وساعدت عليها سياسة كرومر التغريبية في المجتمع المصرى ، وكانت المعركة مريرة بين من يريدون القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وبين من يريدون الحفاظ عليها وازدهارها .

ويبدو أن الأهداف غير المعلنة للإنجليز ومن يشايعونهم من دعاة التغريب في مصر ، أن يقضوا على اللغة العربية الفصحى فصما للعرى التي تربط مصر بالبلدان العربية ، وفصما للعرى التي تربط المسلمين بمصادر الإسلام من القرآن والتراث .

واتخذ الإنجليز ومن يشايعونهم ثلاثة طرق لتحقيق غايتهم :

أ ـ إحلال اللغة الإنجليزية محل العربية في التعليم وفي المصالح الحكومية (١) .

ب ـ إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية في الكتابة ، وهي الدعوة التي دعت إليها صحيفة « المقتطف » العلمية الموالية للإنجليز (٢) .

جـ ـ إحلال اللغة العامية محل الفصحى ، وهي الدعوة التي دعت إليها مجلة الأزهر بعد أن انتقل امتيازها إلى ويليام ويلكوكس (٣) ، وبدأها بمقال له عنوانه (لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن) (٤) ، أرجع فيه سبب عدم وجود هذه القوة إلى

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ، تقرير عن حالة التعليم في مصر من ص ٨٨ إلى ص ٩٨ .

(٢) مجلة المقتطف : عدد يناير سنة ١٨٨٩ م .

(٣) وليم ويلكوكس : إنجليزى الجنسية ، كان يعمل مهندسا للرى في وزارة الأشغال المصرية في عهد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، اشتهر بدراساته اللغوية والأدبية والدينية وبدعوته إلى إحلال اللغة العامية محل الفصحى في التعليم والتأليف والكتابة في مصر ، وهي الدعوة التي كرس لها جهوده في مجلة الأزهر سنة ١٨٩٣م ، ترجم إلى العامية المصرية إنجيل متى وسفر المزامير وقطعا من روايات شكسبير . (انظر مجلة الأستاذ في ٣ يناير سنة ١٨٩٣م ، ود . نفوسة زكريا ، تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، القاهرة سنة ١٩٨٠م ، ص ٣١ و ٥٥ و ٤٨٣) .

(٤) مجلة الأزهر : أول يناير سنة ١٨٩٣ م ، وانظر التعريف بهذه المجلة ص ٢٣٨ من هذه الرسالة .

استعمال المصريين لغة ميتة ـ في رأيه ـ هي اللغة الفصحى ، ودعا إلى التعليم والتأليف بالعامية .

تصدى النديم لهذه الدعوات بقوة في صحيفته « الأستاذ » ، وفي مقال له بعنوان : (تربية الأبناء) ، طالب بأن يكون التعليم في مصر باللغة العربية لغة البلاد ، كما هو في الدول الأوربية ، وفي رده على الدعوة إلى اللغة العامية قال : « إنَّ اللغة الفصحى نزل بها القرآن الكريم الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين ، فهوالداعى لحياة اللغة العربية الفصحى الصحيحة ، وهو المقصود لكل محارب للغة العربية ساعٍ في إماتتها ، وهل ترى أن المصريين إذا قرأوا القرآن باللغة العامية عند استعمالها ونسيان غيرها ، أيرضى عنهم المسلمون ويعدونهم منهم وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل عن الدين » (١) .

وقد لقيت دعوة وليم ويلكوكس مقاومة عنيفة من الصحافة الإسلامية ومن « الأستاذ » بصفة خاصة ، حتى أن صاحب مجلة « الأزهر » التى حملت هذه الدعوة اعْتَرف بهزيمته وأعلن توقف صحيفته (٢) .

وقد أتبع النديم ذلك بدعوته إلى إنشاء مجمع اللغة العربية حيث يقول : « وعلى القائمين بأمر الأمم الشرقية أن يحولوا بين اللغة العربية وموتها ، بإحداث جمعية من علماء الأزهر وأفاضل المدارس الذين جمعوا بين لغتهم العربية وبين اللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيماوية والهندسية ومفردات الكلام أسماء عربية بها تدرس تلك العلوم » (٣) .

وقد اتسع الجدل ـ حول قضية اللغة العربية ـ بين الصحف الموالية للإنجليز والصحف الإسلامية ، واتخذ أبعاداً تتصل بالصراع الحضارى سيأتى تفصيله في فصل قادم .

٢ ـ وفي عصر النديم فشا الجهل والخرافة ، وظهر الانحراف في الطرق الصوفية فكتب النديم عدداً من المقالات يحارب بها هذه الظواهر ويرشد إلى العقيدة الصحيحة وأهم هذه المقالات : مقال بعنوان : (النجم ذو الذنب) (٤) يحارب فيه بدعة اللجوء إلى

---

(١) مجلة الأستاذ في ٣ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٢) مجلة الأزهر : في أول ديسمبر سنة ١٨٩٣م .

(٣) مجلة الأستاذ : في ١١ أكتوبر ١٨٩٢م .

(٤) مجلة التنكيت والتبكيت : ١٠ يوليو سنة ١٨٨١م .

التنجيم والمنجمين ، ومقال بعنوان : (الطرق وما فيها من البدع) [1] و (مقال بعنوان : (الطرق وإصلاحها)[2] يكشف فيهما انحرافات الطرق الصوفية ، ويعمل على إصلاحها وإرجاعها إلى جادة التصوف الإسلامى الصحيح . وحينما أراد أن يحارب التكاسل والتواكل فى المجتمع ، والذى يرجع إلى فهم خاطئ لعقيدة القضاء والقدر أعاد نشر مقال (القضاء والقدر) الذى سبق نشره فى (العروة الوثقى) من قبل [3] .

وكان النديم رائداً فى دعوته إلى إصلاح التعليم فى الأزهر الذى كان في نظره حصنا للإسلام واللغة العربية ، وقد بدأ هذه الدعوة فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » حيث دعا الأزهريين إلى « تصفح التواريخ ومطالعة الجرائد ودراسة الرياضة مع المحافظة على مشاربهم التى ألفوها والطباع التى فطروا عليها » [4] .

وإبان إصداره لمجلة « الأستاذ » نشر مقالا عنوانه : (العلماء والتعليم) [5] ، يعتبر دستورا لإصلاح الأزهر فى السنوات التالية فيذكر بعض عيوب التعليم فى الأزهر ، ويقدم أربعة وعشرين اقتراحا لإصلاحه ، كانت دليلا أمام الذين عملوا لإصلاح الأزهر حتى وقتنا الحاضر ، ومن أهم هذه الاقتراحات : التخصص : بحيث لا يرخص للشيخ أن يدرس أكثر من علم ، وإنشاء مدارس (أو معاهد) تؤهل للالتحاق بالأزهر ، والامتحان السنوى للطلاب ، ودراسة العلوم الرياضية والجغرافية والتاريخية ، والرعاية الطبية للطلاب ، وإنشاء فروع للأزهر فى عواصم المديريات ، وألا يقيم بالأزهر من العلماء إلا رجال الطبقة العليا الذين تفردوا بالتبحر فى العلوم ، واتصال الأزهريين بالحياة العامة .

٣ ـ وضوح موقف النديم من الحضارة الغربية : فهو يدعو إلى الأخذ بمحاسنها ويحارب مفاسدها التى انتشرت ـ بصفة خاصة ـ فى عهد الاحتلال الإنجليزى ، فهو يدعو إلى الأخذ منها تقدم الصناعة والتنظيم فى الإدارة وفى التعليم ، ولكنه يحارب بقسوة المفاسد التى انتشرت فى مصر تقليدا للأوربيين ، مثل : عادة شرب الخمر ولعب القمار والإسراف على المظاهر تشبها بالأوربيين فى حياتهم ، مما ألجأ المصريين إلى

---

(١) مجلة الأستاذ : ١١ أبريل سنة ١٨٩٣م .

(٢) نفس المصدر ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣م .

(٣) الأستاذ : فى ١٦ مايو سنة ١٨٩٣م وقد نشر فى (العروة الوثقى) فى أول مايو سنة ١٨٨٤ م .

(٤) التنكيت والتبكيت : فى ٧ أغسطس سنة ١٨٨١ م .

(٥) الأستاذ : ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ م .

الاقتراض من المرابين الأوربيين ، وكثر ذلك مما سبب ضياع الثروة من المصريين إلى الأجانب ، هذا إلى التشبه بالأوربيين فى عاداتهم والتشدق بالألفاظ الأجنبية فى الحديث .

وكان النديم قد بدأ حملته على الأخذ الأعمى من الحضارة الغربية فى مجلة (التنكيت والتبكيت) فكتب سلسلة من المقالات عنوانها : « عادة شرقية ومقابلتها غربية » (١) .

ولا يكاد يخلو عدد من أعداد مجلة الأستاذ من مقالات تحمل هجوما على موجة الفساد والانحلال التى ظهرت في مصر فى هذه الفترة من التاريخ المصرى (٢) .

ويضع النديم فى أحد مقالاته قاعدة سليمة للتعامل مع العادات الغربية التى بدأت تغزو المجتمع المصرى فيقول : « ينبغى لمن يغير عادته بعادة أخرى ، أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ، ثم فى عادة الغير كذلك ، فإن رأى حسن عادته وأنها من لوازم حفظ المظهر أو الثروة أو الوطنية أو الجنسية أو اللغة أو الدين ، لزمه البقاء عليها وإن لم تحسن فى عين الخليط ، وإن رآها مضره بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غير منها ما لا يفقده الاعتقاد الدينى والشعور بالجنس والغيرة الوطنية » (٣) .

٤ ـ دعوته إلى النهوض بالخطابة فى المساجد . وكان النديم رائدا فى هذا المجال أيضا ، ففى مقال له بعنوان : (ألسن الخطباء تحيى وتميت) فى صحيفة (التنكيت والتبكيت) (٤) بدأ ما يمكن أن نطلق عليه حملة صحفية لإعادة مجد الخطابة فى المساجد ، ودعا أعيان البلاد إلى التبرع بمبلغ يساعد على نشر خطب دينية وأدبية وسياسية ، وقال إنه سوف يقوم بإنشاء خطبة كل أسبوع تناسب أحوال الزمان وتنشر فى سائر أنحاء القطر ، ودعا إلى التعاون بين الأعيان وديوان الأوقاف والقادرين علي كتابة الخطب للنهوض بهذا المشروع ، وبالفعل نشر فى نفس العدد أول خطبة من هذا النوع دعا فيها إلى الاتحاد والأخذ بآداب الإسلام ، والتسامح وعدم التعصب اتقاء الفتنة .

على أن هذه الخطة التى بدأها النديم بقوة لم تلبث الأحداث السياسية ومقدمات الثورة العرابية والتدخلات الأجنبية ، أن شغلته عنها ، ولم تلبث صحيفة (التنكيت والتبكيت) أن توقفت عن الصدور ، ولو أن الظروف مكنته من إتمامها لأحدثت أثرها فى

(١) التنكيت والتبكيت : فى ٣ يولية و ٢١ يولية و ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) الأستاذ : ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م مقال بعنوان : (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) .

(٣) الأستاذ : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م . (٤) فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨١م .

المجتمع المصرى آنذاك .

٥ ـ ملحق دينى للصائمين فى رمضان ، وهو تقليد وضعه النديم وأخذت به الصحف حتى يومنا هذا ، وبدأ نشره مع العدد ٣١ من السنة الأولى [١] بدلا من ملزمة كتاب (كان ويكون) التى كان ينشرها ملحقا للصحيفة ، وقال فى نفس العدد إنه كان ينوى إصدار جريدة رمضانية يومية ، ولكن صعوبات فنية حالت دون ذلك فاكتفى بهذا الملحق الأسبوعى طوال شهر رمضان ، بين فيه أحكام الصيام وآدابه وما يستحب فيه وما يكره حيث استوفى هذا الموضوع حقه من التوضيح والتفصيل .

٦ ـ أثار النديم موضوع الحكومة الإسلامية لأول مرة فى التاريخ الحديث ، حيث إنه عثر على مخطوط إسلامى هو (رسالة أبى بكر الصديق) التى وضعها أبو حيان التوحيدى في القرن الثالث الهجرى ، وتناول فيها قصة الخلاف الذى نشأ بين الصحابة عقب وفاة النبى ﷺ ، ويتضمن المخطوط الرسائل المتبادلة بين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وبين علي بن أبى طالب عقب يوم السقيفة [٢] .

وقد قام النديم بتحقيق هذا الكتاب وشرحه ونشره على حلقات فى صحيفة (العصر الجديد) وقدمه قائلا : « إن هـذا الكتاب الغريب العزيز الوجـود ، النادر فى باب الإنشاء ودهاء السياسة ، قد قام بما لم تقم به السيوف ولا الآلات النارية ، حيث ألف قلوبا استفزتها النفرة ، وألان نفوساً غلبتها العزة ، وجمع شمل الأمة بعد أن كادت تتفرق ، وشد أزر الهيئة الاجتماعية بعد أن أشرفت على التلاشى ، ومن أمعن النظر فيه ، وفى حاشية سيدنا عمر بن الخطاب عليه وجواب سيدنا علي عنهما وما كان من مناظرة عمر معه ، علم كيف كانت أفكار العرب من طبقات السياسة العليا والنظر فى العواقب البعيدة ، وبعد غورهم فى مدارك الأمور » [٣] .

ثم يبين من خلال تحقيقه للكتاب نظام الخلافة ونظام الشورى فى الإسلام قائلا : « وأن من تتبع الشريعة الإسلامية يعلم أن الاستبداد منابذ لكلمة الله تعالى فى تشريع الشرائع ، ومخالف كل المخالفة لصريح آياته الشريفة وأحاديث رسوله الحنيفة » [٤] .

---

(١) في ٢١ مارس سنة ١٨٩٣م ـ ٣ رمضان سنة ١٣١٠ هـ .

(٢) د . فاروق أبو زيد : صفحات مجهولة من عصر التنوير الصحفى ص ٧٠ .

(٣) صحيفة العصر الجديد : ١١ مارس سنة ١٨٨٠م ، وهى صحيفة أصدرها أديب إسحاق وسليم نقاش سنة ١٨٨٠م .

(٤) صحيفة العصر الجديد : ١٧ مارس سنة ١٨٨٠م .

٤ ـ جريدة المؤيد

فى الثامن من شهر ربيع الأول عام ١٣٠٧ هـ الموافق لأول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م أصدر الشيخ على يوسف جريدة المؤيد ، فقد رأى الوطنيون فى مصر أن الإنجليز نجحوا فى إنشاء جريدة « المقطم » التى قال عنها المستشرق المعروف (براون) أنها كانت ذات غرضين : تأييد المصالح الإنجليزية فى مصر ، والعدوان على الإسلام والمملكة العثمانية كلما سنحت الفرصة (١) .

وقد نجحت سياسة كرومر فى محاربة الصحافة بالصحافة فتمكنت المقطم من الذيوع والانتشار ، وكانت خصما لا يستهان به فى إخراجه وتحريره ، ففكر الوطنيون فى إنشاء صحيفة وطنية يكون فى مقدورها تسفيه المقطم ومحاربة الاحتلال ، وساعدت الظروف الوطنيين وواتتهم بحكومة تعطف على فكرتهم فاجتمع لطيف باشا سليم الحجازى وحسن باشا عاصم وإبراهيم الهلباوى وغيرهم ، واستقر رأيهم على أن يتولى حجازى باشا عرض فكرة إنشاء صحيفة على رياض باشا فوافق على الفكرة ، فصدرت الصحيفة برئاسة الشيخ على يوسف وهو من أئمة الصحفيين فى ذلك العصر (٢) ، وصارت من أدوم الصحف اليومية فى القرن الماضى ، وأطولها عمرا ، وأجلها خطرا ، وأعظمها أثرا ، وأرفعها منزلة .

والحق أن صدور جريدة يومية لها هذا الخطر يعتبر حادثا هاما فى تاريخ مصر الحديثة يستحق ـ فى الواقع ـ كل التفات واهتمام ، وخاصة إذا كان قد أقدم على هذا العمل شاب أزهرى فقير كعلى يوسف كان لا يملك من الوسائل المادية أو المعنوية ما يؤهله لتحمل هذه التبعة التى تثقل كواهل العصبة أولى القوة ، رغم أن الشيخ كان يعرف كما يقول : « أن جريدة سياسية يومية تصدر من مصرى مسلم بعد خلو القطر من جرائد مصرية مسلمة سبع سنين وفى مثل هذه الظروف ـ أمر بالغ الصعوبة ، إلا أنه بعزيمته المعروفة أقدم على إصدار الجريدة وبلغ بها ما بلغته من النجاح » (٣) .

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٤ ص ١٢٩ .

(٢) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ١٥٣ .

(٣) د . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، جـ ٤ ص ١٠٦ و ١١٥ .

والشيخ على يوسف – كغيره من رواد الصحافة المصرية فى القرن التاسع عشر – حفظ القرآن فى صغره ثم واصل تعلمه فى الجوامع وفى الأزهر (١)، ونذكر من هؤلاء الرواد رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده، وعبد الله النديم وغيرهم.

وهو – كمعظم رواد الصحافة فى القرن التاسع عشر – قد تتلمذ على جمال الدين الأفغانى، فقد صاحبه أياما قبل إبعاده عن مصر وكتب بعض المقالات فى الصحف التى عمل جمال الدين على إنشائها، وظهر أثر فكر جمال الدين بعد ذلك فى صحافة الشيخ على يوسف وفى دفاعه عن الإسلام ودعوته للإصلاح الإسلامى (٢).

وقد ولد الشيخ على يوسف ببلدة (بلصفورة) من أعمال محافظة سوهاج بصعيد مصر سنة ١٨٦٣م، وينتهى نسبه إلى سيدى محمد شيخون الحسينى الكائن ضريحه بالبلدة المذكورة. وحفظ القرآن الكريم ببلدته ثم انتقل إلى القاهرة ليتم تعليمه بالأزهر فأتمه على مشهورى أساتذته فى ذلك الوقت (٣).

وقد ظهر الاتجاه الإسلامى فى صحافة الشيخ على يوسف أول ما ظهر فى مجلة الآداب التى أصدرها سنة ١٨٨٨م وكان من مظاهر هذا الاتجاه:

١ – سياسة المجلة تجاه التعليم فى مصر، فقد ذهب إلى أن هدف التعليم هو تحقيق وحدة الشعور والتفكير فى الأمة، واقترح أن تعنى الحكومة عناية تامة بالتعليم الدينى فى المدارس الحكومية، وأن تهتم كذلك بإدخال بعض العلوم الحديثة فى الأزهر، لأنها إن فعلت ذلك قربت بين عقول الأفراد وميولهم واتجاهاتهم، « وبذلك يتلاشى الانقسام الثقافى الذى نشاهده اليوم » (٤).

وقد خصصت المجلة – أحيانا – أعداد كاملة لقضية التعليم، وكان الشيخ يرى أن التعليم هو أساس تقدم الأمة وسيادتها، ووقف ضد سياسة كرومر إذ ذاك وهى الفكرة التى تقول أن ما يوجد من التعليم فى مصر فيه الكفاية، وأنه يجب الاهتمام فقط بالتعليم الأولى (٥).

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق، ص ٤٧.

(٢) د. عبد الباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغانى، ص ٢٢٢.

(٣) د. عبد اللطيف حمزة: المرجع السابق ص ٤٧ و ٤٨.

(٤) مجلة الآداب: فى ٢١ من سبتمبر و ٥ من أكتوبر و ٩ من نوفمبر سنة ١٨٨٩م.

(٥) مجلة الآداب: فى ٨ و ٢١ سبتمبر، وفى ٥ و ١٢ و ١٩ و ٢٦ من أكتوبر، وفى ٢ و ٩ من نوفمبر سنة ١٨٨٩م.

٢ ـ قضية اللغة العامية والفصحى ، وهى القضية التى ثارت بعد أن نشر وليم ويلكوكس مقالته الشهيرة في مجلة الأزهر بعنوان : « لم لم توجد قوة الاختراع عند المصريين الآن » (١) وأرجع ذلك إلى تمسكهم باللغة الفصحى ، وبهذه المقالة بدأ دعوته بإحلال العامية محل الفصحى فى التعليم والتأليف .

وكان من رأى الشيخ فى صحيفة (الآداب) أن القرآن الكريم هو أصل الدين الإسلامى ، وأن مبادئ الشريعة الإسلامية دونت بالفصحى لغة القرآن ، وأن كل الثقافة العربية الإسلامية فى مختلف فروع العلم محفوظة فى هذه اللغة ، وأن أهل كل بلد عربى يسهل عليهم فهم كتاب الله .

فاللغة العربية ـ إذن ـ مرتبطة بالدين ، ولا صحة للقول بأن التمسك باللغة العربية الفصحى هو تضييع للقوى الفعلية ونقص فى مراتب التقدم ، وأن العدول عنها إلى اللغة العامية هو الوسيلة إلى إيجاد قوة العقل والاختراع (٢)، وطالب بإنشاء جمعية لمداواة ما اعتل من شأن اللغة الفصحى ، يكون الغرض منها أن تعمل الهمة فى تطبيق المعانى الطارئة على ألفاظ عربية (٣)، وبهذا يكون الشيخ من رواد الدعوة إلى إنشاء مجمع للغة العربية .

٣ ـ أما القضية الثالثة فهى موقف (الآداب) من الحضارة الغربية خاصة تلك العادات الضارة التى انتشرت بين المصريين انتشارا كبيرا ، ومنها شرب الخمر ولعب الميسر ، وتصدى السيد على يوسف لهذه الآفات مبينا حرمتها فى الدين وذهابها بالعقل والمال والخلق والوطن جميعا (٤) .

الاتجاه الإسلامى فى جريدة المؤيد :

ولإلقاء الضوء على الاتجاه الإسلامى فى جريدة المؤيد ، نتناول عددا من المعارك التى خاضتها هذه الصحيفة ، والقضايا التى دافعت عنها فى الرد على خصوم الإسلام وأعدائه وجلاء تعاليمه الصحيحة .

الإسلام والرق :

وهذه قضية من أهم قضايا الصحافة الإسلامية فى القرن التاسع عشر وقد أبلى فيها

---

(١)مجلة الأزهر : ١ يناير سنة ١٨٩٣م .

(٢) مجلة الآداب : فى ١٦ يناير سنة ١٨٩٣م .

(٣) مجلة الآداب نفس العدد .

(٤) مجلة الآداب : ١٦ يناير سنة ١٨٨٩م .

« المؤيد » وصاحبه بلاء حسنا في الرد على المفتريات على الإسلام ، وبيان حقيقة موقف الإسلام من الرق ، ولقد كان هناك معارك أخرى على صفحات المؤيد بعد ذلك رد فيها الشيخ محمد عبده على هانوتو ، ورد فيها على فرح أنطون . ولكن هذه المعارك لقيت من اهتمام الباحثين والرأى العام ، ما يليق بها من اهتمام فجمعت مقالات الإمام محمد عبده وطبعت فى كتب أكثر من مرة واشتهرت بين القراء .

أما معركة الرق هذه ــ التى نكشف النقاب عنها الآن ــ فقد أثارتها صحيفة « المؤيد » منذ البداية ، ووقفت فيها موقفا قويا واستمرت على صفحاتها ما يقرب من ثلاث سنوات ، وامتدت حملة المؤيد من مصر إلى الدول العربية والإسلامية حيث كان يقرأ « المؤيد » ، وامتدت إلى قادة الرأى فى أوربا حيث ألف كتاب الفرنسية ، أرسل إلى هؤلاء ليعرفوا موقف الإسلام الحقيقى من الرق ، كما سنبين فيما بعد .

فى السنة الأولى من صدور المؤيد كان هناك كاردينال مسيحى من أصل بلجيكى يسمى (لافيجرى) ، يقود حملة شملت العالم كله ذات هدفين هما : القضاء على تجارة الرقيق والتبشير بالمسيحية فى إفريقيا ، وأخذ يدعو إلى هدفه الأول على أوسع نطاق وبمختلف الوسائل ، حيث ألبس دعوته ثوبا إنسانيا يتمثل فى إبطال الرق ونشر المدنية فى إفريقيا ، أما هدفه الثانى وهو التبشير بالمسيحية ، فقد كان يعمل له سرا وبنشاط جم ، وقا تبين من المناقشات التى دارت فى هذه المسألة ، أن هدف (لافيجرى) من تحرير الأرقاء وإبطال تجارة الرقيق كان هدفا ظاهريا ، أما الهدف الجوهرى فكان إدخال الأفارقة فى الديانة المسيحية ووضعهم تحت سيطرة الاستعمار الأوربى ، وهذا موجز ما قال به الكتاب المسلمين وغيرهم من المنصفين فى الرد على (لافيجرى) .

أ ـ ففى يوم ٢٦ و ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠م نشرت صحيفة « المؤيد » على صفحاتها الأولى ترجمة لمحاضرة (١) ألقاها الكاردينال (لافيجرى) فى إحدى الكنائس فى بلجيكا عن جهوده وآراءه فى إبطال تجارة الرقيق ملأها بالافتراء على الإسلام وكان مما قاله (٢)

---

(١) المحاضرة ترجمة محمد مسعود زميل على يوسف فى مجلة الآداب ، وهو الذى ترك له على يوسف مجلة (الآداب) ليرأس تحريرها عندما أنشأ جريدة المؤيد .

(٢) نلاحظ منافاة كلام (لافيجرى) للإسلام ، فالإسلام قد سن طرقا عديدة لتحرير الأرقاء الموجودين بالفعل ، وأنه يسوى بين البيض والسود ، ولا يبيح الاعتداء على السود وخطفهم ، وأنه فى حالة وقوع حرب عدوانية على المسلمين ووقوع أسرى فى أيديهم ، أعطى لولى الأمر المسلم أن يختار بين أربعة تصرفات بشأن الأسرى ، أحدها أن يبقيهم أرقاء إذا رأى أن فى ذلك مصلحة الدعوة الإسلامية ، وإلا تركه إلى الخيارات الأخرى ، ولكنه لا يلزمه =

« إن الإسلام هو العقبة الوحيدة فى سبيل القضاء على الرق ، فإن القرآن ـ كما زعم ـ يطلب من المؤمنين الاستيلاء على السود لاسترقاقهم ، وأن من الواجب عليهم إحراق مساكنهم ، فإذا دافعوا عن أنفسهم وجب عليهم قتلهم ، فإذا حاولوا الفرار فيصبون عليهم سوط عذاب ليكونوا عبرة لغيرهم .. » إلى غير ذلك من الافتراءات التى لا حصر لها فى محاضرته . وبعد نشر هذه المحاضرة واصلت الصحيفة حملتها على مدى الأعوام التالية ، فتابعت تحركات (لافيجرى) وفندت آراءه ، وقالت ما تراه الحق وأشركت فى الحملة شخصيات من خارج الصحيفة بالكتابة والتأليف والمراسلة .

ب ـ على أثر نشر هذه المحاضرة التى أثارت استياء المسلمين ، دعا أحمد شفيق بك سكرتير ناظر الخارجية (فى ذلك الوقت) لاجتماع الجمعية الجغرافية الخديوية ، حيث ألقى محاضرة عن قضية الرقيق بين الديانتين المسيحية والإسلامية ، واتهم (لافيجرى) (١) بجهل الإسلام ؛ لأن من أراد معرفة دين قوم لابد له أن يعرف لغتهم جيدا ؛ كى يتمكن من البحث فى شريعتهم وكتبهم دون أن يكتفى بحكم التقليد فى حقائقها (٢)، وذكرت المؤيد أن المحاضر سيواصل محاضراته فى جلسات قادمة فى نفس الموضوع .

جـ ـ وقد كانت هذه هى المحاضرة الوحيدة التى نشرتها « المؤيد » من هذه السلسلة من المحاضرات ، وبعد ذلك تولى الشيخ على يوسف الرد بنفسه على « لافيجرى » فى ثلاثة أعداد متتالية (٣) ، حيث أكمل ما بدأه أحمد شفيق تاركا للأخير أن يكمل محاضراته فى الجمعية الجغرافية الخديوية ، ولقيت مقالات على يوسف استحسانا من الرأى العام الذى بدأ يتكون فى ذلك الوقت ، وينقل مراسلو الجريدة فى المديريات صدى هذا الاستحسان .

د ـ وتابعت « المؤيد » أخبار « لافيجرى » وأسفاره بين البلدان المختلفة ، فتارة تحذر فرنسا من استخدام لافيجرى لبث الديانة المسيحية فى الجزائر ، وتارة أخرى تهاجم مقالاته فى جريدة (بروكسل) ، وتارة ثالثة تنشر خبر لمراسلها فى الجزائر عن حضور لافيجرى إليها ، « لجمع اكتتاب من كبار الفرنساويين لإرسال جماعة من المبشرين الدينيين لنشر

= باختيار الاسترقاق وهذه هى الحالة الوحيدة للرق فى الإسلام ـ جريدة المؤيد فى ١٠ و ١١ و ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٠م ود. محمد البهى : الإسلام والرق ط القاهرة سنة ١٩٧٩م ، ص ٤ و ١٠ و ٢٨ ونفس المرجع ـ الإسلام يفتح النوافذ لتحرير الأرقاء ـ ص ٢٤ .

(١) Lavigerie .

(٢) المؤيد : ديسمبر سنة ١٨٩٠ م .

(٣) ١٠ ، ١١ ، ١٢ ديسمبر سنة ١٨٩٠ م .

الدين المسيحى فى جهات الكونغو وبحيرة تشاد ، وينعى على المسلمين تقاعسهم عن الدعوة إلى الإسلام » (١) وتنشر مقالاته مترجمة عن جريدة « فيجى الجرين » الفرنسية التى تطبع فى الجزائر بقلم « مسيو أوجن شنل » من علماء فرنسا والمقيم فى باريس يقول فيها : إن سبب حقد (لافيجرى) على الإسلام ليس هو أن الإسلام يلزم بالرق ولكن لأن الدعاة المسلمين فى إفريقيا بإمكانياتهم المحدودة ينجحون فى إدخال الأفارقة فى الإسلام ، فنرى الواحد منهم بسيط الثياب يحمل فى يده مسبحة ومخلاة فيها المصحف ولا يملك إلا قوت يومه ، ومع ذلك يلتف حوله الأفارقة ويدخل الإسلام على قلوبهم بسهولة بينما المؤسسات التبشيرية الكبرى ذات الإمكانيات الضخمة لا تنجح بعض هذا النجاح فى إدخال الأفارقة فى الدين المسيحى (٢) .

هـ ــ وكما أثارت (المؤيد) القضية بترجمة المحاضرة فقد تابعت جهود أحمد بك شفيق فى الرد على مزاعم (لافيجرى) ، وقد تكفل أحمد شفيق فى هذه الحملة بالاتصال بقادة الرأى فى أوربا ، هؤلاء الذين يمكن أن تؤثر فيهم أفكار (لافيجرى) . فقد ألف باللغة الفرنسية كتابا أسماه (الإسلام والرق) كان قد ألقاه محاضرات في جلسات متوالية فى الجمعية الجغرافية الخديوية ، وأرسل نسخا منه إلى قادة الرأى فى أوربا ، ونشرت المؤيد رسائل الثناء والتقريظ التى بعث بها هؤلاء القادة الذين يقدرون الأشياء حق قدرها إلى المؤلف ، ومنهم (٣) :

ــ المسيو ميسمر رئيس الإرسالية الفرنسية سابقا ــ « المشهود له بكثرة المعارف والاتساع والاطلاع » يهنئ المؤلف ويقول له : « لقد أفحمت خصمك وإن الحق إلى جانبك ، ولو أنك وضعت على كتابك هذا العنوان رد لأحد المسلمين على الكاردينال (لافيجرى) لنال اشتهارا فائقا وسارت بذكره الرهبان » .

ــ المسيو أوجين السكرتير العام لجمعية مقارنة الشرائع ومطابقة القوانين بفرنسا ... ختمها بقوله « ... وسأحيط به أعضاء القسم الفرنساوى من جمعيتنا ؛ حتى يعينوا واحدا منهم ليقدم عنه خلاصة تنشرها فى مجلة جمعيتنا » .

ــ كذلك تلقى المؤلف رسائل شكر على هذا الكتاب ــ نشرتها (المؤيد) من المسيو روليل ناظر (الكتبخانة) الأهلية بمدينة باريس ، شكره على إهداء الكتاب للكتبخانة ،

---

(١) المؤيد : فى ١٤ ، ٢٧ يناير ، ١٥ يونيه سنة ١٨٩١ م .

(٢) المؤيد : فى ٧ يناير سنة ١٨٩١ م .

(٣) المؤيد : فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩١ م .

وأنه وضع ضمن فهارسها ، وكذلك من المسيو موجيل ناظر الإرسالية المصرية بفرنسا ، وأندريه لوبون شقيق العلامة الفيلسوف جوستاف لوبون صاحب كتاب (تمدن العرب) ، والمسيو (رينو) أحد نواب فرنسا ، وخطاب مفصل « يدل على الاقتناع بوجهة نظره من المسيو بوكار أحد المفتشين بـ « قو مبانية قناة السويس » .

و ـ دعت المؤيد المصريين إلى قراءة الكتاب بعد أن ترجمه إلى العربية أحمد زكى بك مترجم أول مجلس النظار ، واستقبل الخديو عباس حلمى الثانى المترجم الذى أهدى إليه الكتاب ، وأثنى الخديو على المجهود الذى بذله المؤلف والمترجم ، وقال إن هذا الكتاب نال شهرة كبيرة فى أوربا وكان أجدر به أن ينال هذه الشهرة فى مصر . وسر الخديو لإقبال الناس فى مصر على قراءته (١) .

وهكذا كانت جهود « المؤيد » لتصحيح الأفكار فى هذه القضية ودحض التهم التى ألصقت بالإسلام وامتدت جهودها من داخل مصر إلى خارجها ، وكانت هذه الجهود ألزم ما تكون فى ذلك الوقت ؛ لأن كرومر كان يروج فى مصر وأوربا لهذه الاتهامات لدرجة أنه وصف موقف الإسلام من الرق بأنه وصمة للإسلام (٢) .

الدفاع عن عروبة الجزائر وإسلامها :

يبدو هذا الموقف لصحيفة المؤيد واضحا ومشرقا فى اتجاهها الإسلامى ، فإن صحيفة « العروة الوثقى » ـ نظرا لتوازنات دولية ولكونها تصدر فى باريس لم تستطع ـ إلا ضمنا ـ أن تثير ما يقوم به الاستعمار الفرنسى فى الجزائر من محاولة جبارة للقضاء على اللغة العربية والدين الإسلامى ، وإعطاء الجزائريين الجنسية الفرنسية ، وطبع الجزائر بالطابع الغربى ، ورغم وقوف « العروة الوثقى »هذا الموقف المحايد بالنسبة لقضية الجزائر ، فإنها واجهت حربا ضروسا اضطرتها إلى التوقف ، أما الصحف المصرية الأخرى فإنها لم تعط هذه القضية اهتمامها .

إن موقف « المؤيد » وسياستها فى الدفاع عن عروبة الجزائر ، يلقى الضوء على البدايات المبكرة لفكرة التضامن العربى والجامعة العربية ، كما يمكننا أن نجد فى تناول المؤيد لهذه القضية وما نشرته عنها مصدرا من مصادر تاريخ الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ،

---

(١) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) Cromer, The Earl of : modern Egypt , v . ii p . 136 .

وأساليبه فى الغزو الفكرى والحضارى لهذه البلاد . وكذلك تاريخ المقاومة الجزائرية التى لم تتوقف فى يوم من الأيام ، حتى رجع إلى الجزائر وجهها العربى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن العشرين .

ونريد هنا أن ننشر هذه الصفحة المطوية من تاريخ الصحافة المصرية فنبين ـ أولا ـ كيف كشفت « المؤيد » أساليب الاستعمار الفرنسى لطمس الوجه العربى والإسلامى للجزائر وطبعها بالطابع الغربى ، ثم نبين كيف فتحت هذه الجريدة صفحاتها لنشر مطالب الجزائريين ووقوفها إلى جانب المقاومة الجزائرية (١) .

وكشفت الصحيفة أساليب الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ودافعت عن عروبة الجزائر وإسلامها فيما يلى :

١ ـ التعليم واللغة العربية :

جاء فى العريضة التى وقعها زعماء الجزائر ونشرتها المؤيد « أن أبناء المسلمين يجدون صعوبة كبيرة فى المدارس الفرنسية التى انتشرت فى الجزائر ؛ لأن بها مدرسين فرنسيين فقط » كما جاء فى مقال آخر بعنوان « التعليم الإجبارى فى الجزائر » أن الوطنيين يعارضون هذا النوع من التعليم الذى يستبعد التاريخ الجزائرى واللغة العربية والدين الإسلامى ، ويعلم الفرنسية ويبين عظمة فرنسا وقوتها ، وطالب الزعماء بأن يكون فى كل مدرسة مدرس يعلم التلاميذ اللغة العربية والدين الإسلامى ؛ لأن أبناء المسلمين ـ مع رغبتهم فى تعلم العلوم الفرنسية ـ لا يرضون بإهمال لغتهم وقراءة كتابهم والجهل بأحكام دينهم (٢) .

كما طالبوا بإصلاح المدارس الإسلامية التى لا يوجد منها فى البلاد إلا ثلاثة فقط طالبوا بزيادة عددها وأن يقبل بها عدد كبير من التلاميذ ، وأن تخرج إلى جانب العاملين فى الوظائف الشرعية والدينية ـ كالأئمة والخطباء والمستخدمين فى المساجد ـ تخرج أيضا المدرسين والمستخدمين فى الخطط ومصالح الحكومة بعد نيلهم إجازة الامتحان لكل وظيفة (٣) .

٢ ـ التمسك بالجنسية الجزائرية والدين الإسلامى :

كشفت « المؤيد » الإجراءات التى اتخذتها فرنسا بما سمى فى ذلك الوقت بتجنيس

(١) عينت الجريدة مراسلا لها فى الجزائر هو « محمد بن رسطان » أخذ يوافيها بتقارير منتظمة من هناك انظر : (عدد المؤيد فى ١٤ يناير سنة ١٨٩١م) .

(٢) المؤيد : فى ٢٠ أكتوبر ١٨٩٢ م .

(٣) المؤيد : العدد السابق .

المسلمين بالجنسية الفرنسية ، فبالإضافة إلى ما ذكرناه عن التعليم واللغة تم تطبيق القانون الفرنسي البعيد عن الشريعة الإسلامية وتعيين قضاة فرنسيين [1] ، وحاولت منع الحج إلى بيت الله الحرام ، واستولت على الأوقاف التى وقفها أصحابها على المساجد والدعوة والصدقة وغيرها [2] ، وأصدروا القوانين التى تتيح الاستيلاء على الأراضى الخصبة من المسلمين وإعطائها للفرنسيين أو الشركات الفرنسية [3] كل ذلك توطئة لتجنيس المسلمين بالجنسية الفرنسية زاعمين أنهم حين يصلون إلى هذه الدرجة تكون لهم نفس الحقوق السياسية التى للفرنسيين .

وبالإضافة إلى العريضة المنشورة التى وقعها زعماء الجزائر والمقالات الكثيرة التى يطالب فيها المسلمون فى الجزائر بإبطال الإجراءات المذكورة ، فإن المؤيد ــ فتحت صفحاتها لكل الآراء المعارضة لسياسة فرنسا فى الجزائر ونقلت عن الصحف الأجنبية كل مادة تدعم سياستها هذه .

وتبنت « المؤيد » الرأى الذى يقول : إن فرنسة اللغة والتعليم والقوانين فى الجزائر تمهيدا لتجنيس المسلمين بالجنسية الفرنسية ، هو أمر محكوم عليه بالفشل ، ذلك لأنه يتطلب من المسلمين التخلى عن دينهم والمسلم يستحيل عليه أن يفعل ذلك .

فقد نقلت الجريدة عن جريدة « لاجوستيس » الفرنساوية مقالة طويلة احتلت الصفحة الأولى من عددين متتاليين [4] بقلم (عطوفتلو أحمد رضا بك مدير المعارف السابق فى الأستانة العلية) قال فيها : إن مسألة الجزائر الإسلامية طرحت من جديد على مجلس الشيوخ (السيناتو) الفرنسى ، وأن الخيارات المطروحة كانت :

١ ــ هل ينبغى إبادة العرب من الوجود .

٢ ــ أو إخراجهم من ديارهم وإقصاؤهم إلى مكان سحيق من الأرض .

٣ ــ أو معاملتهم بالنسخ والحلول فيمثلون بغيرهم من الأمم بالتجنيس والتداخل (أى بإدخالهم فى الجنسية الفرنسية) .

وقال إن الخيارين الأول والثانى قد استبعدا وتمت الموافقة على الخيار الثالث ، ولكن الكاتب يصل إلى رأى أنه يستحيل ذلك ؛ لأن الجزائريين متمسكين بدينهم الإسلامى .

---

(١) المؤيد : ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٢) المؤيد : ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٣) المؤيد : ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٤) المؤيد : فى ١٥ ، ١٦ يونيه سنة ١٨٩١ م .

ونفس هذا الرأى نجده فى حديث أجرته جريدة الفيجارو الفرنسية مع السيد بن الغورى قائد برقش ونشرت المؤيد ترجمته [1] حيث قال فى حديثه : « إن ما ظهر من رغبة البعض من رؤسائكم فى تجنيس المسلمين بالجنسية الفرنسية كما فعلوا مع اليهود ، هو رابع المستحيل ومحض جنون وأمر شنيع فنحن لا نقدر على تغيير جنسيتنا إلا إذا نبذنا ديانتنا لأنهما متلازمتان ، وإذا فعلنا ذلك نكون خرجنا من الديانة الإسلامية » .

وهذا الرأى أو الموقف عينه نجده فى المطلب العاشر من مطالب الزعماء الجزائريين فى العريضة التى نشرتها المؤيد [2] .

ورغم هذه المقاومة الجزائرية ، تكشف « المؤيد » عن موجة الانحلال الأخلاقى التى أخذت تنتشر فى الجزائر نتيجة للحرية الشخصية المفرطة التى يتعلمها الناشئة والشباب فى المدارس الفرنسية ، ويقول مراسل الجريدة فى الجزائر فى مقال احتل الصفحة الأولى « ويحزننى أن كثيرا من النساء أصبحن الآن يتشبهن بالإفرنجيات فيخرجن عاريات الوجوه والأذرع ، والشبان الذين يتعلمون فى المدارس الإفرنجية يتماشون معهن فى الطرقات ، وبعض الآباء يفضل أن يكون ديوسا على ابنته فى السر حتى لا تهجر بيته إلى محل العاهرات .. » .

وفى المقالة السابق الإشارة إليها لأحمد رضا بك [3] يقول : « إن التعليم الفرنسى أفسد أخلاق الجزائريين ، وألزمهم باحتياجات كانوا فى غنى عنها مع عدم توفيقهم فى الحصول عليها ، وهذا كله قد آل بهم إلى التعاسة والبؤس والشقاء » .

تحرير المرأة فى نطاق الشريعة الإسلامية :

تبنت جريدة المؤيد قضية تحرير المرأة ولكن فى نطاق الشريعة الإسلامية ، فقد كتبت « زينب فواز » مقالا [4] بعنوان (تقدم المرأة) تحدثت فيه عن تقدم المرأة فى الغرب ، وطالبت بتشييد مدارس لتعليم البنات على مقتضى القواعد الدينية « لأننا نعلم علم اليقين أن كل التقدم فى شريعتنا الغراء » .

والحقيقة أن تحرير المرأة فى نطاق الشريعة الإسلامية هو خط متصل فى الصحافة

---

(١) المؤيد : ١٨ أغسطس سنة ١٨٩١ م .

(٢) المؤيد : فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩١ م .

(٣) المؤيد : فى ١٦ يونيه سنة ١٨٩١ م .

(٤) المؤيد : في ٦ مايو سنة ١٨٩١ م .

الإسلامية ، [1] وقد بدأ ذلك فى صحيفة « روضة المدارس » حيث بدأت فى العدد السادس عشر من السنة الخامسة (١٨٧٤م) نشر ملاحق لها بعنوان : « المرشد الأمين للبنات والبنين » لرفاعة الطهطاوى ، والذى بدأه بمقدمة طويلة « فى بيان تربية الأطفال من الذكور والإناث » ، والذى جعل منها فصلا ضافيا بعنوان : « فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » ، ثم وجدنا هذه القضية فى صحف عبد الله النديم « التنكيت والتبكيت » و« الأستاذ » ، ثم جاءت جريدة المؤيد فوقفت مع هذه الحركة ، وبدأت فى ٢٠ مايو سنة ١٨٩٩ فى نشر أول المقالات التى جمعت فى كتاب تحرير المرأة وهو بعنوان : « حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فى الأمة » ، وواصلت نشر المقالات فى الأعداد التالية مع نشر رسائل التقريظ والاستحسان من الكتاب والقراء .

ويهمنا فى مجال الحديث عن الاتجاه الإسلامى لصحيفة المؤيد ، أن موقفها من كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين متشابه مع موقف صحيفة المنار لمحمد رشيد رضا من نفس الكتاب ، حيث لم تر فيه أى من الصحيفتين أى خروج عن تعاليم الإسلام ، وهو ما يؤيد أن المقالات الخاصة بالناحية الدينية فى هذا الكتاب هى من إنشاء الإمام محمد عبده مما سنتناوله بالتفصيل فى فصل قادم .

رد الإمام محمد عبده على هانوتو :

رأينا فيما سبق أن ترجمة « المؤيد » لمحاضرة الكاردينال (لافيجرى) عن الإسلام والرق ، ونشر هذه المحاضرة هو الذى فجر هذه القضية التى ملأ صداها مصر والعالم الإسلامى وأوربا تصحيحا لما نشر من معلومات خاطئة عن الإسلام ، وهنا أيضا أن ترجمة « المؤيد » لمقالة المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا عن الإسلام والمسألة الإسلامية عن صحيفة الجورنال الفرنسية [2] ، نقول : إن ترجمة المؤيد لهذه المقالة ونشرها هى الذى دعت الإمام محمد عبده إلى الرد عليها ، وهو الرد الذى نال شهرة واسعة بسبب قوة حجته وعمقه ، واعتبر الإمام محمد عبده بسببه أقدر الكتاب المسلمين فى الدفاع عن الإسلام [3] .

وكان غرض المسيو هانوتو ــ من مقاله هذا الذى نشره عن الإسلام ــ أن يبين لفرنسا

---

(١) انظر : فصلا فى هذه الرسالة بعنوان : « الصحافة الإسلامية وتحرير المرأة » .

(٢) المؤيد : ١٥ ، ١٦ أبريل ١٩٠٠ م .

(٣) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ص ٨١ .

حكومة وشعبا السياسة التى يمكن أن تحكم بها المستعمرات الإسلامية ، ثم أتى بمقارنة بين المدنية النصرانية والمدنية الإسلامية ، ووازن بينهما فى مسألتين : ذات الله ، والقضاء والقدر ، وخلاصة رأيه فى المسألتين : أن اعتقاد النصارى فى التثليث وتصورهم للإله الإنسان جعلهم يرفعون مرتبة الإنسان ويخولونه حق القرب من الذات الإلهية ، على حين أن العقيدة الإسلامية بدعوتها إلى التوحيد وتنزيه الله عن البشرية حملت الإنسان على الضعف والوهن ، والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان وإرادته دفعته إلى العمل والجد .

أما عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والركود [1] . وكان من عادة الإمام ـ عند فراغه من درسه فى الأزهر ـ أن يقرأ الجرائد فى القطار من القاهرة إلى منزله فى عين شمس ، فقرأ مقال هانوتو وهو فى الطريق . فلما وصل إلى منزله لم يغمض له جفن حتى فرغ من كتابة المقال الأول [2] ، فى مناظرته مع هانوتو التى اشتملت على ست مقالات ونشر المقال فى المؤيد فى اليوم التالى ، [3] ثم نشر المقالين التاليين فى ١٨ ، ١٩ أبريل سنة ١٩٠٠ م .

وكان لردود الأستاذ الإمام صدى كبير ، فقد كتبت جريدة الأهرام الفرنسية les pyromides التى تصدر فى القاهرة مقالا لمناقشة الموضوع بعد نشر المقالات الثلاثة الأولى للإمام ، وزعمت أن هذه المقالات بنيت على تحريف لمقالات هانوتو ، ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية أن الترجمة صحيحة ومنهم صاحب « اللواء » ، ولما اطلع مسيو جبرائيل هانوتو على ماكتب فى الأهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى فى جريدة « الجورنال » الفرنسية عنوانها « الإسلام أيضا » ترجمتها « المؤيد » فى عددها ٣٠٦٦ الصادر فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٠ م ، حاول فيها الاعتذار عما رمى به من ناحية السياسة التى تغرى دولته بالمسلمين ، ولم يستطع الجواب عما خطأه به الإمام فى المسائل الاقتصادية والتاريخية [4] .

وكان بشارة تقلا صاحب « الأهرام » قد تولى الدفاع عن هانوتو وتخطئة الأستاذ

(١) المؤيد : المصدر السابق . (٢) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ٢ ص ٤٠٠ .

(٣) المؤيد : فى العدد ٣٠٣٨ فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٠ م .

(٤) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ٢ ص ٤٣٢ ، وجريدة لى بيراميد المذكورة أصدرها صاحبا الأهرام وظهر العدد الأول منها فى يناير سنة ١٩٠٠ م (انظر : إبراهيم عبده جريدة الأهرام ـ تاريخ وفن ، القاهرة ١٩٦٤ م ص ٥٠٠ .

الإمام فى الرد عليه فيما ذكر بينهما [١] ، وبعد نشر الإمام مقالته الثالثة زار صاحب الأهرام هانوتو فى باريس ، وأجرى معه حديثا حول الموضوع نشر فى العدد ٦٧٨٥ من الأهرام الذى صدر فى ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ م .

وبعد مقال هانوتو الثانى ، والحديث الذى أجرته معه جريدة الأهرام نشر محمد عبده ثلاثة مقالات أخرى فى المؤيد للرد عليه [٢] ، فيكون مجموع ردوده عليه ست مقالات .

وقد بين محمد عبده فى هذه المقالات فضل الإسلام ، وأن عقيدة التوحيد هى أسمى العقائد ، وأن الإسلام لم يدع إلى الجبرية بالمعنى الذى يفهمه هانوتو ، وأن فى القرآن أربعا وستين آية تثبت حرية الإرادة .... إلخ .

وقد جمعت مقالات الشيخ محمد عبده فى رده على هانوتو وفى رده على فرح أنطون بعد ذلك والتى نشرها فى المؤيد أيضا ـ فتألف منها كتابه المشهور (الإسلام والنصرانية) الذى طبع عدة مرات ونال شهرة واسعة .

مقالات طبائع الاستبداد للكواكبى [٣] :

اهتم الكواكبى بدراسة أحوال العالم الإسلامى فزار مختلف أقطاره ثم استقر به المقام فى مصر سنة ١٨٩٩م [٤] ، ونشر مقالاته عن الاستبداد فى جريدة (المؤيد) وكان أولهما بعنوان (اقتراح على المحررين السياسيين) [٥] وهو مقدمة لهذه المقالات ثم أتبعه بمقالات « جواب الاقتراح على المحررين السياسيين .. ما هو الاستبداد » بقلم أحد أفاضل الكتاب المجيدين [٦] و « الاستبداد والدين »[٧] و « والاستبداد والعلم »[٨] و « الاستبداد والمجد » [٩] و « الاستبداد والمال » [١٠] والاستبداد والأخلاق » [١١] و « الاستبداد والترقى » [١٢]

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣٣ .

(٢) المؤيد فى ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ يوليه سنة ١٩٠٠ م .

(٣) ولد عبد الرحمن الكواكبى في حلب فى أسرة فيها نقابة الأشراف ، وتعلم فى المدرسة الكواكبية فى حلب وهى مدرسة تسير على الطريقة الأزهرية فيما يقرأ فيها من كتب ، ولكنه أكمل نفسه بقراءة العلوم الطبيعية والرياضية ، ودرس الفارسية والتركية ، وطالع بنفسه كثيرا من الكتب التاريخية ، وعنى بدراسة قوانين الدولة العثمانية ــ انظر أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٢٦٨ .

(٤) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، بيروت سنة ١٩٧٥م ص ٢٧ .

(٥) المؤيد : فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .

(٦) المؤيد : فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .

(٧) المؤيد : فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .

(٨) المؤيد : فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٠ م .

(٩) المؤيد : فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٠ م .

(١٠) المؤيد : فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .

(١١) المؤيد : فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .

(١٢) المؤيد : فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .

و « الاستبداد والتخلص منه » [1] .

وقد جمعت هذه المقالات بعد ذلك فى كتاب : « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » صدره بجملـة : « وهى كلمة حق وصيحـة فى واد ، إذا ذهبت اليوم مع الريح .. لقد تذهب غدا بالأوتاد » محررها هو الرحالة ك .

يقول عبد الرحمن الكواكبى فى مقدمة هذا الكتاب : « إننى هجرت ديارى (حلب) سنة ثمانى عشر وثلاثمائة وألف سرحا فى الشرق ، فزرت مصر واتخذتها مركزا أرجع إليه فوجدت أفكار سراة القوم فى مصر كما هى فى سائر الشرق خائضة عباب البحث فى المسألة الكبرى ، أعنى المسألة الاجتماعية فى الشرق عموما ، وفى المسلمين خصوصا ، إنما هم كسائر الباحثين كل يذهب مذهبا فى سبب الانحطاط وفى ما هو الداء وحيث إنى قد تمحص عندى أن أصل الداء هو الاستبداد السياسى ، ودواؤه رفعه بالشورى الدستورية . وقد استقر فكرى على ذلك ـ كما أن لكل نبأ مستقر ـ بعد بحث ثلاثين عاما » [2] .

ويقول : « فى زيارتى هذه لمصر نشرت فى أشهر جرائدها بعض مقالات سياسية تحت عنوانات : الاستبداد ، وما هو الاستبداد ، وما تأثيره على الدين وعلى العلم ، وعلى التربية ، وعلى الأخلاق ، وعلى المجد ، وعلى المال إلى غير ذلك ، ثم فى زيارتى لمصر ثانية أجبت تكليف بعض الشبيبة ، فوسعت بعض مباحثه خصوصا فى التربية ونشرت ذلك فى كتاب سميته : (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ، وجعلته هدية منى للناشئة العربية المباركة الأبية المعقودة آمال الأمة بنواصيهم ، ولا غرو فلا شباب إلا بالشباب »[3] .

الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة :

ومما يزيد الطابع الإسلامى للمؤيد وضوحا اهتمامها بالدعوة الإسلامية ، فهى تعلق على خبر زيارة لافيجرى إلى الجزائر « لجمع اكتتاب من كبار الفرنساويين لإرسال جماعة المرسلين الدينيين لنشر المسيحية فى الكونغو وتشاد » وتطالب المسلمين بالاهتمام بالدعوة الإسلاميـة فى إفريقيا » [4] . وتنشـر على ثلاثة أعـداد متتالية شـرحا للحـديث الشريـف (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [5] وتحت عنوان : « فاتحة السنة الهجرية »

---

(١) المؤيد : فى ١٣ يناير سنة ١٩٠٠ م .

(٢) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، مرجع سابق ص ١٣١ .

(٣) الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، مرجع سابق ص ١٣٢ .

(٤) المؤيد : فى ١٤ يناير سنة ١٨٩١ م .

(٥) المؤيد : فى ٣١ مارس سنة ١٨٩١ م والأعداد التالية .

مقال يحتل كل الصفحة الأولى يذكر فيه بالأمجاد العربية والإسلامية (1) . ويدعو إلى تدريس الشريعة الإسلامية بمدرسة الحقوق وعدم الاقتصار على القانون الفرنسي (2) ، وتحت عنوان : « الناس من خوف الفقر فى فقر » يفسر الشيخ عبد الكريم سلمان الآيتين الكريمتين (3) ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾ (4) ، و ﴿ **الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (5) ، وحينما توفيت زينب هانم كريمة محمد علي باشا التى أوقفت عقارات كثيرة على الأزهر ورجاله وحاول أخوها البرنس محمد عبد الحليم أن يستولى لنفسه على هذه الأوقاف ، تبنى المؤيد قضية رد الوقف إلى ما وقف له وتابع هذه القضية حتى تم له النصر فيها (6) ، وتحت عنوان « الحشيش و مضاره » يكتب الدكتور حسن باشا محمود مثبتا بالأدلة أن الحشيش محرم شرعا ، وذلك بعد ما أشيع من أن الإسلام حرم الخمر ولم يحرم الحشيش ، وفى يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ م ينشر المؤيد مذكرة وقع عليها عدد كبير من العلماء ومنهم الشيخ حسونة النواوى وكيل مشيخة الأزهر ومفتى الحقانية ورئيس المحكمة الشرعية الكبرى ، والشيخ محمد عبده عضو مجلس الأزهر ، ورفعوها إلى الحكومة ، وهذه المذكرة تحدد تسعاً من البدع والأفعال المحرمة دينيا فى الموالد والشوارع وأصحاب الطرق الصوفية ، وتطالب الحكومة بوقفها بالقوة ، ويتابع التعليق على هذه المذكرة فى العدد التالى ، ويطالب الحكومة والشعب بالعمل على إبطال هذه المحرمات .

المؤيد وقضايا اللغة العربية والتعليم والأزهر :

تصدت (المؤيد) لدعوة وليام ويلكوكس فى صحيفته التى انتحل لها اسم (الأزهر) ، والتى دعا فيها إلى إحلال اللغة العامية محل العربية الفصحى فى التعليم والتأليف والصحافة ، واشترك مع المؤيد فى التصدى لهذه الدعوة صحيفتا (الأستاذ) و (الآداب) ، وكان تصدى المؤيد على شكل حملة صحفية منظمة بدأت فى (المؤيد) من ٣ يناير سنة ١٨٩٣ م ، واستمرت فى الأعداد التالية (7) .

---

(1) مؤيد : فى غرة المحرم سنة ١٣١٩ هـ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٨٩١ م .

(2) المؤيد : فى ٢ يناير سنة ١٨٩٢ م .

(3) المؤيد : فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(4) سورة الإسراء : ٢٩ .

(5) سورة الفرقان : ٦٧ .

(6) المؤيد : فى ٢٣ أبريل سنة ١٨٩٣م ، ٢ يناير سنة ١٨٩٥ م ، ١٩ يناير سنة ١٨٩٥ م .

(7) المؤيد : فى ٣ ، ٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ يناير سنة ١٨٩٣ م .

وكان من نتيجة تصدى الصحف الإسلامية لدعوة وليام ويلكوكس أن أعلن هذا الأخير فشل دعوته وأعلن توقف مجلته عن الظهور (١) .

ووقف المؤيد ضد سياسة ترك الحبل على الغارب للمدارس الأجنبية وانتشارها فى مصر ، وكتب تحت عنوان : « المدارس الأجنبية » (٢) إن هذه المدارس تعلم تلاميذها الطبيعة والرياضة واللغات وهى فى نفس الوقت تعلم المذاهب السياسية والدينية لأصحابها ، ودعا إلى التوسع فى المدارس الوطنية من أجل تعلم سياسة وطننا وديننا ، فإن التعليم يجب أن يكون بلغة البلاد لا باللغات الأجنبية (٣) .

وكانت صحيفة المؤيد من الصحف الرائدة فى إصلاح التعليم بالأزهر فدعت إلى إدخال العلوم الحديثة ضمن مواده ، وتوسيع إيراداته ، وإنشاء نظام صحى فى محلات سكنى الطلاب ، وإنشاء مكتبة منظمة (٤) ، وطالب بتعديل وجه نضال العلماء « فبدلا من أن نفرض اليوم معتزلة وفلاسفة لا وجود لهم ويشتغل علماؤنا بتقرير الرد عليهم يلزمهم أن يشتغلوا ـ من هذا القبيل ـ بما يناسب الحالة الراهنة ، وينظروا إلى المطاعن فى الدين من أين تأتى وكيف تلقى شبهها اليوم ، وخير لهم أن يقرأوا مثل كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمة الله الدهلوى ، فإنه متكفل بالرد على المتعرضين بسوء لعقائد الإسلام فى الوقت الحاضر (٥) .

الاهتمام بشئون المسلمين فى العالم :

من مظاهر الطابع الإسلامى لصحيفة (المؤيد) اهتمامها بشئون الإسلام والمسلمين والدعوة الإسلامية فى العالم ، كما لم تهتم بذلك صحيفة معاصرة لها ، فهى تترجم عن صحيفة « مانشيستر اكزامينز » الإنجليزية اعتناق محام شهير فى (ليفربول) للإسلام ، وقيام هذا المحامى بإنشاء جمعية إسلامية وإقامة مسجد ، واشتغاله بالدعوة الإسلامية وسمى نفسه « عبد الله غو وليام » ، وتتابع المؤيد أخبار هذه الجمعية الإسلامية التى وصل عددها خلال عام واحد إلى ثمانين مسلماً معظمهم من الذين اعتنقوا الإسلام ، وتستخلص من ذلك المعانى والعبر (٦) .

---

(١) مجلة الأزهر : أول ديسمبر سنة ١٨٩٣ م . (٢) المؤيد فى ٩ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٣) المؤيد : فى ٢٨ فبراير ، ٢٤ مايو سنة ١٨٩٣م ، ١٨ يوليو سنة ١٨٩٤ م .

(٤) المؤيد : فى ١٣ ، ١٤ ديسمبر سنة ١٨٩٢م ، ١٦ مارس سنة ١٨٩٣م .

(٥) المؤيد : فى ٥ يناير سنة ١٨٩٥ م .

(٦) كتب المؤيد عن هذه الجمعية فى ١٤ فبراير سنة ١٨٩١م ، ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م ، و٤ أبريل سنة ١٨٩٣م ، ٢ يوليو سنة ١٨٩٣م ، ٣١ أغسطس سنة ١٨٩٣م ، وغير ذلك من الأعداد .

وتهتم (المؤيد) بأخبار الأمريكى (اسكندروب) الذى كان يعمل قنصلا لبلاده فى الصين ، ثم اعتنق الإسلام واستقال من وظيفته وأنشأ جمعية إسلامية فى نيويورك وأصدر صحيفة للتعريف بالإسلام سماها (ذى مسلم ورلد) ، وتدعو (المؤيد) جميع الجمعيات الإسلامية الأخرى في الولايات المتحدة أن تنضوى تحت لواء هذه الجمعية وتجعلها بمثابة الجمعية المركزية [١] .

وتعتبر صحيفة المؤيد من المصادر النادرة لمعرفة أحوال المسلمين فى الصين فى القرن التاسع عشر ، والصراع بين الأفكار والعقائد المختلفة فى هذه البلاد .

فهى تنتهز فرصة زيارة « ضيفان كريمان » من أبناء أعاظم أمراء مملكة (يوتان) الصينية ، وهى مملكة واليها مسلم ونصف سكانها من المسلمين ــ وتجرى معهما حديثا ينشر بعنوان : « حديث مع صينى عن أحوال الصين » [٢] .

ويستمر هذا الموضوع مسلسلا وتخصص له الصحيفة مكانا بارزا على صفحتها الأولى وابتداء من العدد ١٢١٤ تضاف إلى فقرة العنوان السابقة فقرة أخرى هى : (الإسلام والمسلمون فى المملكة الصينية) ، ويقول كاتب هذه السلسلة المستفيضة من المقالات إنه استقى المعلومات التى أثبتها فيها من حديث الضيفين ومن الكتب ، وما يترجم من الصحف الأجنبية وما يستطيع أن يحصل عليه من تقارير [٣] .

ومن هذه السلسلة من المقالات نعرف أن عدد المسلمين فى الصين سبعون مليونا من جملة عدد سكانها وهو أربعمائة مليون أو يزيد ، وأن الإسلام ينتشر بسرعة كبيرة فى الصين لا يجاريه فى ذلك دين آخر [٤] ، وأن هناك عادة عند أهل الصين أنهم يبيعون أبناءهم فى أعوام القحط ، ويفضلون بيعهم للمسلمين الذين يعلمونهم الإسلام ويعتقونهم [٥] ، وأنهم فى الصين يدعون فى خطبة الجمعة للسلطان العثمانى ، ويتنبأ هذان الصينيان أن الصين فى خلال قرن واحد من الزمان ستكون كلها دولة مسلمة [٦] .

وفى العدد ٢٨٧٠ فى ٤ يونيه سنة ١٨٩٩م تنشر الصحيفة مقالا بعنوان : « مستقبل الإسلام فى الصين » يتضمن تقريرا إضافيا نشره المبعوثون البروتستانت عن أعمالهم فى

---

(١) المؤيد : فى ٢٢ مارس ، ٢١ يونيه ، ٤ يوليو ، ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٣ م .
(٢) المؤيد : فى ١١ فبراير سنة ١٨٩٤م ـ العدد ١٢٠٦ .
(٣) المؤيد : في ٢١ فبراير سنة ١٨٩٤ م .
(٤) المؤيد : فى ١١ فبراير سنة ١٨٩٤ م .
(٥) المؤيد : فى ٢١ فبراير سنة ١٨٩٤ م .
(٦) المؤيد : فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٩٤ م .

الصين يتناولون فيه تاريخ دخول الإسلام إلى هذه البلاد ، ويقولون إن عدد المسلمين فى هذه البلاد أكبر منهم فى أية مملكة أخرى ، وأنهم متمسكون بدينهم ، ويعتقدون أن مستقبل هذه البلاد لهم ، وأن الإسلام عقبة فى سبيل نشر المسيحية فى الصين .

ويتضمن المقال أيضا تقريرا كتبه البروفوسير فاسيلوف إلى قيصر روسيا محذرا من الانقلاب الإسلامى المنتظر فى الصين ، وقوله إن هذا الظن ليس من الأمور البعيدة ، لأن المسلمين أرقى من البوذيين ، والبوذيين لا ينفرون من المسلمين .

هذا إلى مقالات أخرى عن الإسلام والمسلمين فى إنجلترا (١) وفى ألمانيا (٢) وفى بلغاريا (٣) ، وفى الهند (٤) مما يعطى هذه الصحيفة مقام الريادة فى هذا المجال من مجالات النشر الإسلامى .

---

(١) المؤيد : فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩١ ، ٢ ديسمبر سنة ١٨٩٢م ، وأول يونيه ١٨٩٣م .

(٢) المؤيد : فى ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ م .

(٣) المؤيد : فى ٢٣ يناير سنة ١٨٩٦ م .

(٤) المؤيد : فى ١٠ ينايرسنة ١٨٩٧ م .

٥ ـ مصباح الشرق

إبراهيم المويلحى [١] والصحافة :

أصدر المويلحى مع محمد عثمان جلال صحيفة « نزهة الأفكار » سنة ١٨٧٠م [٢] ، ولكن صاحبيها ظنا أن لهما حق نقد الأوضاع القائمة وهو ما لم ترض عنه الحكومة ، فأوقفتها فى العدد الثانى .

وفى أثناء وجوده مع الخديو إسماعيل فى أوروبا أصدر عددا من الصحف هى : صحيفة (الخلافة) فى مدينة « نابولى » سنة ١٨٧٩م ، ودعا فيها لفكرة الخلافة العربية وأن يكون مقرها فى مصر فعمل السلطان على إيقافها لخطورة هذه الفكرة وتوقفت بعد العدد الثانى [٣] .

وفى فرنسا أصدر صحف (الاتحاد) ، و (الأنباء) ، و(الرجاء) ، و (عين زبيدة) كما اشترك فى تحرير (العروة الوثقى) و (ضياء الخافقين) بدعوة من السيد جمال الدين الأفغانى [٤] .

---

(١) ولد السيد إبراهيم بن السيد عبد الخالق المويلحى بالقاهرة سنة ١٨٤٥ م ، وهو ينتمى إلى أسرة كانت تقطن بلدة المويلح وهى ثغرة من ثغور الحجاز على البحر الأحمر، وينتهى به نسبه إلى الحسين بن على رضى الله عنه ـ من جهة أبيه ، وإلى الحسن رضى الله عنه من جهة أمه ، وكان جده ــ السيد أحمد المويلحى قد حضر إلى مصر فى عهد محمد علي إبان الحملة الوهابية حيث كانت أسرة المويلحى قد ساعدت محمد على في هذه الحملة ، ومن هنا كانت الصلة الوثيقة بين محمد على وفرع أسرة المويلحى الذى حضر إلى مصر .

وقد شغف إبراهيم من صغره باللغة والأدب فدرسهما على يد عطار أديب كان محله مجاورا لمحل والده ، ثم بجهده الشخصى حتى أصبح من كتاب العربية المعدودين فى عهده ، انظر فى ترجمة إبراهيم المويلحى : إبراهيم المويلحى (حفيده) مجلة الرسالة عدد ٢٤٩ أبريل ١٩٣٨م ، ود . عبد اللطيف حمزة ـ أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٣ ط الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٥٩م ، ود. يوسف راميتش أسرة المويلحى وأثرها فى الأدب ، ط دار المعارف ــ القاهرة سنة ١٩٨٠ .

(٢) ذكر الدكتور إبراهيم عبده فى كتاب تطور الصحافة المصرية أنها صدرت سنة ١٨٦٩م وأخذ عنه من أرخوا لهذه الصحيفة بعد ذلك ، ولكن صحيفة (وادى النيل) قرظت العدد الأول منها فى عددها الصادر بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ والموافق ١٢ أغسطس سنة ١٨٧٠ انظر: (يوسف راميتش ــ مرجع سابق ص ٧٩) .

(٣) د . يوسف راميتش : مرجع سابق ص ٧٧ .

(٤) د . يوسف راميتش : ص ٧٨ ود . عبد اللطيف حمزة : مرجع سابق ص ٥٩ .

ولا تحتفظ دار الكتب المصرية من مجموعات هذه الصحف إلا بمجموعة (مصباح الشرق) ، وتشمل مائتين وستة وستين عددا صدرت خلال ست سنوات من أبريل ١٨٩٨م إلى أغسطس سنة ١٩٠٣ م .

ويتضح المنهج الإسلامى لصحيفة « مصباح الشرق » من افتتاحية أول أعدادها وافتتاحية العدد الأول من السنة الثانية ثم مقالاتها المختلفة ، وإذا كانت العادة قد جرت على أن يقدم المحرر منهج صحيفته فى افتتاحية أول أعدادها ، فإن إبراهيم المويلحى لم يفعل ذلك فى مصباح الشرق ، ولكننا إذا أضفنا إليه افتتاحية العدد الأول من السنة الثانية اكتملت صورة منهج الصحيفة لدينا .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

يقول المويلحى إن ما حدا به إلى إصدار صحيفته هو أن صحافة هذا العهد ، قد حادت عن الطريق المستقيم وأن أصحابها يسعون إلى جمع المال عن طريق التوزيع والاشتراكات ، أو أخذ الرشاوى نظير السكوت على المنكرات ، ويقول : « واشترك القراء وأصحاب الجرائد فيمن وصفتهم الآية الكريمة التالية ــ إلا من عصم اللّه ــ فالقراء ﴿ **سماعون للكذب** ﴾ وأصحاب الجرائد ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ ، وقد دخل فى زمرة المحررين أميون لا يقرأون الكتاب ، وأصبحت الجرائد فى مصر ــ إلا ذوات الشأن منها ــ كالجراد المنتشر » (١) .

ويقول فى افتتاحية العدد الأول من السنة الثانية (٢) : « وما الجرائد ــ شهد الله ــ إلا وسيلة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذريعة إلى إقامة الحق ، ومحق الباطل وتبيين النافع وتعريف الضار ، فهى عصا عامر ذى الحلم ، ودرة عمر الفاروق .... والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمر مشاع مشهور ، والزجر والنهى والتوبيخ والتقريع والانتقاد والمراقبة أمور معلومة مأثورة فى الإسلام ، وقد قال على كرم الله وجهه : (اذكروا الفاجر بما فيه) .

ويقول : « والانتقاد ــ هدانا الله وإياك ــ نعم المصلح ونعم المرشد ونعم الدليل إلى سواء السبيل ، فى اجتناب الخطأ وترك الخطل ، وإدراك الصواب ، والابتعاد عن الفاسد ،

---

(١) مصباح الشرق : العدد الأول من السنة الأولى ١٤ أبريل سنة ١٨٩٨ م .

(٢) مصباح الشرق : العدد ١٣ أبريل سنة ١٨٨٩ م .

والاقتراب من الصحيح ، والأخذ بالقويم وترك المعوج ، وما هو إلا المرآة تصور للناس صور نقائصهم ومعايبهم فيحيدون عنها إلى فضائلهم ومناقبهم » .

محاربة البدع والخرافات والانحلال الأخلاقى :

وقد وضح المويلحى هذا الهدف ضمن منهج الصحيفة فى أول أعدادها ، ثم نجده يثابر عليه فى « حديث موسى بن عصام » الذى نشر مسلسلا على صفحات (مصباح الشرق) ، فيقول فى افتتاحية العدد الأول : إن الإنجليز لا يهمهم أن يكون فى مصر ذو مال جسيم أو جاه عظيم « أما استئصال الأموال فمناجله كثيرة ، وتكفى الأزبكية برقصها وقمارها وخمرها وخمارها ، قال لى أحد الأدباء : « إن فى مصر خمسة ملايين من الأفدنة يأكلها فدان واحد وهو محلات الخمر والميسر وغيرهما فى الأزبكية ، فإنه لا يتردد عليها أحد إلا أصيب أخيرا بامتلاء رأسه من الهم ، وفراغ كيسه من الدراهم . وإنك لترى الذين تستحى منهم بالنهار يستحيون منك بالليل فيها » .

وفى سبيل هذا الهدف كتب إبراهيم المويلحى كثيرا من موضوعات حديث « موسى ابن عصام » الذى نشره مسلسلا غلى صفحات « مصباح الشرق » ابتداء من شهر يونيو ١٩٠٠م ، ومن ذلك ما شاهده من إقبال المصريين على المضاربات التى زينها لهم جماعة من الأجانب وشرذمة من اليهود ، فأخذ هذا الوباء يفشو بينهم شيئا فشيئا حتى عم جميع طبقات الشعب [1] ، وإبراهيم المويلحى قد وقع فى هذا الخطأ فى شبابه فكان كارثة على أسرته كلها فهو يكتب عن تجربة شخصية مرت به .

ويقدم تحت نفس العنوان حديثا لرجلين أحدهما مضارب بالمال ، والآخر ضارب بالرمل ويبين مساوئ الاثنين [2] .

وهو يطالب المصريين بأن يحتفظوا بأموالهم ؛ لأنهم بضياعها فيما لا يفيد جعلوا الأجانب يستولون على ثروة البلاد ، وينشئون الشركات الحديثة ويقيمون الأسواق والمشروعات الكبيرة [3] .

وهو ينقد تبذير المال فى المآتم فيما لا يفيد فيقول : « لو جمع ما ينفق على الزوائد فى هذه المآتم فى القطر المصرى لكان فيه للناس شركة نافعة » ، وهو يحارب عادة الزار فيقول :

---

(١) مصباح الشرق : مقال مرآة العالم ، ٢٩ يونيو سنة ١٩٠٠ م .

(٢) مصباح الشرق : نفس المصدر .

(٣) مصباح الشرق : ٢٢ يونيو سنة ١٩٠٠ م .

« ولو حسب ما ينفق على الزار وما يصاغ له من الحلى من الذهب والفضة فى مدة قصيرة لبلغ مبلغا يمكن أن تشاد به مدرسة للبنات من أعظم المدارس يخرجن منها متعلمات مطهرات من أدران هذه المفاسد والشيطانية مثل مفسدة الزار » (١) .

ولم يكتف المويلحى بنقد هذه العادات القبيحة والخرافات الضالة بل طالب رجال الأزهر بتحريمها وتطهير البلاد من رجسها : « فلو تنبهت المشيخة الأزهرية إلى الإعلان بتحريم الزار وتفسيق من يعين عليه ، وتبكيت من يرضى به لأهله ، لكتب لها عمل صالح » (٢) .

إصلاح الأزهر ودوره فى الدعوة :

عندما كان الشيخ محمد عبده عضوا فى مجلس إدارة الأزهر قدم اقتراحا بتدريس العلوم الحديثة فيه ، ومن بينها علوم الحساب وتقويم البلدان (الجغرافيا) ، وعلى صفحات (مصباح الشرق) أيد المويلحى رأى الإمام ودعا بدعوته ، ولكن مجلس الأزهر رفض اقتراح الإمام قائلا أن هذه العلوم (أمر غير واجب ومستحسن غير لازم) ، ومع ذلك ظل إبراهيم المويلحى مثابرا على دعوة الإمام رغم معارضة مجلس الأزهر ، وكتب فى ذلك مقالا بعنوان (مستحسن غير لازم) (٣) ، ثم مقالا بعنوان : (العلم فى الإسلام) (٤) ، وهى من أقوى ما كتب ـ فى ذلك الوقت ـ حجة فى موضوع تدريس العلوم الحديثة فى الأزهر ، وسوف نعود إلى هذه المقالات عند مناقشة بعض الآراء والقضايا فى بحثنا هذا .

وهو يلقى على الأزهر تبعة الدعوة إلى الإسلام خارج مصر ففى مقال بعنوان : « أيها العلماء : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » (٥) ، يبين كيف انتشر الإسلام فى العالم عن طريق الدعوة والدعاة ، وبدعوة الأزهر إلى استئناف الدعوة لنشر الإسلام فى العالم .

وعندما نشرت جريدة « المؤيد » مقال « هانوتو » الذى يهاجم فيه الإسلام نشر إبراهيم المويلحى ردا على هذا المقال بعنوان : « جهاد الأقلام » ، (٦) فى نفس الوقت الذى نشرت

(١) مصباح الشرق : ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨م مقال بعنوان : « العادات والتقاليد المصرية » .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) مصباح الشرق : العدد ٧٩ لسنة ١٨٩٩ م .
(٤) مصباح الشرق : العدد ٦ أبريل سنة ١٩٠٠ م .
(٥) مصباح الشرق : ١٠ نوفمبر ١٨٩٨ م .
(٦) مصباح الشرق : ٢٧ أبريل ١٩٠٠ م .

فيه مقالات الإمام محمد عبده فى الرد على هانوتو فى « المؤيد » والتى امتازت بقوة حجتها وغزارة علمها وبلاغة أسلوبها .

الفصل الثانى

الصحف الإسلامية

١ ـ العروة الوثقى

حين استقر المقام بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى باريس سنة ١٨٨٣م ، بدأ مرحلة جديدة من الكفاح تمثلت فى تنظيم جمعية (العروة الوثقى) وإصدار صحيفتها ، فأصدرا العدد الأول من هذه الصحيفة فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م (١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ) ، وصدر منها ثمانية عشر عددا كان آخرها بتاريخ ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م (٢٦ ذى الحجة ١٣٠١ هـ) ، ومن العدد الأول إلى الخامس كانت تصدر أسبوعية ، ثم اختلفت بعد ذلك دورية صدورها بين أسبوع وأسبوعين ، وفى بعض الأحيان زادت دوريتها عن أسبوعين .

ولم أستطع الاطلاع على الأعداد الأصلية من الصحيفة الصادرة فى باريس ، ولكن مواد الصحيفة أعيد طبعها أكثر من مرة ، وأقدم طبعة لها بدار الكتب والوثائق المصرية هى الصادرة فى بيروت سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) ، تليها طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م بتقديم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولا تزال طبعات جديدة منها تصدر حتى أيامنا هذه .

وطبعة بيروت تحمل تواريخ الأعداد ومواد كل عدد مرتبة كما جاء ت فى الأعداد الأصلية [١] ، أما طبعة القاهرة فقد صنفت محتويات الصحيفة ونشرتها فى قسمين : قسم (المقالات) ويشتمل على ست وعشرين مقالة ، وقسم (الأخبار والنتف) ويشتمل على مائة وست مواد [٢] .

صفحة من التراث الإسلامى فى التنظيم السياسى :

عندما أبعد جمال الدين الأفغانى عن مصر سنة ١٨٩٧م ، ثم عن الهند بعد ذلك ،

(١) دار الكتب والوثائق المصرية تحت رقم ٥١٦ ، ٥١٧ دوريات .

(٢) دار الكتب والوثائق تحت رقم ٧٩٨ و ٧٩٩ دوريات (وأرجح أن تكون الأعداد الأصلية للصحيفة موجودة فى المكتبة الأهلية فى باريس ، وأقترح أن تقوم دار الكتب والوثائق بالحصول على صورة طبق الأصل منها ؛ لما لها من أهمية خاصة فى تراثنا الإسلامى والثقافى والصحفى) .

ونفى محمد عبده إلى بيروت بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ م التقى الزعيمان بعد ذلك فى باريس لمواصلة الجهاد الذى بدآه فى مصر فى الفترة السابقة ، وقد اتفق الباحثون على أن هذا الجهاد كان إصدار صحيفة « العروة الوثقى » ، لنشر دعوتهم فى مقاومة الاستعمار والنهوض بالأمم الشرقية ، ولكن قصر تصوير جهاد الزعيمين فى هذه المرحلة على أنه انحصر فى إصدار صحيفة (العروة الوثقى) مهما كانت قوة تأثيرها ، هو غض من قيمة هذا الجهاد وهذه الصحيفة على السواء وعدم تصوير أبعادها بالصورة الحقيقية لهما .

ونحن نريد أن نلقى الضوء على جانب من جوانب هذا الجهاد وهذه الصحيفة ، ما زالت الظلال تخفى تفاصيله ، هذا الجانب هو أن صحيفة العروة الوثقى كانت لسان حال لجمعية بهذا الاسم هى جمعية (العروة الوثقى) كونها الزعيمان فى عدد من بلاد الشرق ، وأن هذه الجمعية التى تكونت سنة ١٨٨٣م أو قبلها بقليل كانت على أعلى مستوى من التنظيم والانضباط والالتزام فيما يتعلق بضم الأفراد إليها وأساليب الدعوة إلى أفكارها وأهدافها وطرق اتصالها ، فى وقت كان تكوين التنظيمات والأحزاب فى أوربا ذاتها فى دور النشأة ، وربما لم يصل إلى ما وصل إليه تنظيم « العروة الوثقى » .

ولا شك أن هناك جهودا بذلها الزعيمان فى إنشاء هذه الجمعية التى تمثل تنظيما حقيقيا وحزبا قويا للدعوة إلى أفكارهما ومبادئهما وأهدافهما ، وأن هناك آخرين اشتركوا معهما فى هذه الجهود ، ولكن هذه الجهود لا يوجد من الوثائق تحت أيدينا ما يوضح كل تفاصيلها ، وقد يرجع القصور فى دراسة هذه الجمعية إلى سببين : **الأول** : ما أحاطها به زعيماها من السرية خوفا من انقضاض أعدائها عليها ، **والثانى** : أن دراسات المستشرقين ومن لف لفهم تريد ــ عن قصد ــ طمس الصفحات المشرقة فى تاريخنا العربى والإسلامى .

أما الوثائق التى تلقى بعض الضوء على أهمية وحجم هذه الجمعية فهى : مقدمة العدد الأول من الصحيفة التى تقرر أن أعضاء الجمعية هم الذين طلبوا من جمال الدين الأفغانى أن يصدر صحيفة تتحدث بلسانها ، فامتثل لأمرهم ، وكذلك عدد من الخطابات على قدر كبير من الأهمية أرسلها الشيخ محمد عبده إلى أعضاء هذا الحزب أو التنظيم « جمعية العروة الوثقى » اطلع السيد محمد رشيد رضا على أصولها ونشرها [1] ، ومن هذه الوثائق يطالعنا تنظيم هذه الجمعية قائما بالفعل بقوانينه ولوائحه وأفكاره وأهدافه وقسمه الذى

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ــ جـ ٢ ص ٥٥٣ وما بعدها .

يؤديه الأعضاء وصحيفته ، وطرق الاتصال بين أعضائه وتمويله ، ووسائله فى ضم الأعضاء الجدد ، ولعل التنقيب فى دور الوثائق والمكتبات ومحفوظات الوزارات فى فرنسا حيث وجدت قيادة التنظيم ما يميط اللثام فى المستقبل عن تفاصيل أكثر لتنظيم هذه الجمعية وحجمها ونشاطها .

جاء فى مقدمة العدد الأول من صحيفة « العروة الوثقى » شرحا لتنظيم الجمعية وأهدافها وإصدار صحيفتها ، « أن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق(١) جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن نمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وأن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم وإليها بسطوا أكفهم ، ولا يخالونها تفوتهم ، ولإن فاتت فكم فى الغيب مثلها وإلى الله عاقبه الأمور » .

« تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح فى كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، ولا ينون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهد ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالى أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر فى السلطة العامة الإسلامية وفروض القائم بها » .

وجمعية العروة الوثقى هى التى قررت فى هذه المرحلة من مراحل الجهاد أن يكون لها صحيفة تنشر أفكارها ، وعهدت إلى جمال الدين الأفغانى أن يكون مديرا لها « ولما كان نوال الغاية على وجه أبعد من الخطر وأقرب إلى الظفر يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم بين من خفى عنه شأنهم من إخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان

(١) يقصد بأهم مواقع الشرق مصر ــ والرزايا التى حلت بها الاحتلال الإنجليزى .

عندهم وهواللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث أفكارهم وآرائهم ، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم فلبى رغبتهم ، بل نادى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال » (١) .

وكما كانت صحيفة « العروة الوثقى » حاملة لدعوة الجمعية عاملة على تحقيق أهدافها ، كانت أيضا وسيلة للاتصال بين الأعضاء العاملين بها ، ولضم الأعضاء الجدد إليها ، ففى إحدى رسائل الشيخ محمد عبده إلى أحد أعضاء العقد الرابع من الجمعية ، كتب يبين له الطريقة التى يتبعها لضم عضو جديد إلى الجمعية (٢) « فإن تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل إليه ابتداء من طريق لا يعرفه وتلطف له فى القول ، وإن شئت أطلعته على شىء من مقالات « العروة الوثقى » فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضا فإما أن يكتب إلى ، وإما أن يستعد لتلقى كتاب منى ، ثم سراع إلى بالخير » ثم قائلا عن عضو آخر (٣) : « ثم نبئنى عن الشيخ .... (٤) واسأله أن يكتب إلى بالعنوان الذى به تصل إليه كتبى ، فإنى قد آذنت أن أبعث إليه ببعض المواد الأصولية التى يجب اعتبارها أساسا للبناء ، كما اعتبرها المستمسكون بالعروة الوثقى (٥) فى كل قطر ليتحد المسير » .

والجملة الأخيرة على قصرها ذات دلالات كبيرة فيما يتعلق بجمعية (العروة الوثقى) ، فبعد أن يتم الاتصال الشخصى بالفرد واطلاعه على صحيفة العروة الوثقى وتظهر استجابته ، تأتى مرحلة ضمه عضوا عاملا إلى الجمعية وعند ذلك ـ كما يؤخذ من الجملة السابقة :

* ترسل إليه بعض (المواد الأصولية) التى هى قوانين الجمعية ونظمها والتى تعتبر (أساسا للبناء) .

---

(١) العروة الوثقى : مقدمة العدد الأول ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م .

(٢) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ص ٥٥٩ .

(٣) رشيد رضا : المصدر السابق نفس الرسالة .

(٤) يلاحظ أن الشيخ رشيد رضا الذى اطلع على أصول هذه الرسائل حذف أسماء الأعضاء المرسلة إليهم عند النشر .

(٥) يعنى أعضاء الجمعية .

* أن هذه القوانين والنظم تم الاتفاق عليها بين المستمسكين بالعروة الوثقى « أعضاء الجمعية » فى كل قطر ، وهنا نلمح نظام الشورى أو الديمقراطية التى تسير عليه الجمعية .

* أن هذه القوانين والنظم ضرورية « ليتحد المسير » أى ليعرف الأعضاء أهداف التنظيم ووسائل تحقيقها بطريقة واضحة وملزمة للأعضاء .

والشيخ محمد عبده فى رسائله إلى الأعضاء يسمى صحيفة العروة الوثقى « الوسيلة » ، ففى خطاب له إلى أحد الأعضاء يقول[1] : « ورجائى أن يرد إلى من قلمكم ما يرجوه القلب من ودكم ، وسيدى السيد [2] يهديكم أتم التحية و « الوسيلة » تصل إليكم وسلام الله عليكم وعلى كل مخلص » .

كان الجهاد الصحفى فى « العروة الوثقى » هو أحد أوجه جهاد الزعيمين ، وتمثلت الوجوه الأخرى فى عمل الزعيمين وسط أعضاء الجمعية بالقرب من مواطن الأحداث والثورات ذاتها ، فقد دخل الشيخ محمد عبده مصر متنكرا ليتهيأ للسفر إلى السودان ، حيث كان ينتظر أن يلحق به جمال الدين الأفغانى إذا نجحت الأعمال التمهيدية ، وكان غرضهما العمل فى خفاء على تنظيم قوات المهدى ليتخذا منها أداة لتحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى [3] .

وكتب الشيخ محمد عبده خطابا من مكان مجهول فى أحد البلاد الإسلامية إلى أحد أعضاء الجمعية حيث كان قد ترك جمال الدين وحده فى باريس يصدر صحيفة « العروة الوثقى » [4] .

« .... ولكن حولتنى مهمات الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد [5] من فرصة العمل فى هذه الحوادث المتتالية ، فخليته عونا لنا حيث هو وتحولت إلى مقربة من معاقد العروة [6] ومكامن القوة ، فكانت المدة من يوم فراقك متبددة فى أسفار ، متلاشية فى

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الأسناذ الإمام ، جـ ٢ ص ٥٥٤ .

(٢) جما ل الدين الأفغانى .

(٣) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٣٩٠ .

(٤) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ٢ ص ٥٥٤ .

(٥) جمال الدين الأفغانى .

(٦) معاقد العروة : فروع الجمعية أو لجانها ، ومعاقد جمع معقد أو عقد وهو بالنسبة لتنظيم العروة الوثقى مثل اللجنة الفرعية بالنسبة للحزب أو التنظيم ، وكانت رياسة الجمعية يطلق عليها « العروة الوثقى » ، ولها عقود فى مختلف البلدان . الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، جـ١ ص٥٨١ (لائحة العقد الرابع من عقود تنظيم العروة الوثقى) .

هواجس أخطار .. » .

العروة الوثقى صحيفة إسلامية :

لخصت الجريدة أهم أغراضها فى أول عدد من أعدادها فيما يلى :

١ ـ بيان الواجبات على الشرقيين التى كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك مافات ، ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشئ العلل التى أفسدت حالهم ، وغمت عليهم طريقهم ، وإزالة الغطاء عن الأوهام التى حلت بهم .

٢ ـ إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وإزالة ما حل بها من اليأس .

٣ ـ الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموما والمسلمون خصوصا من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ما داموا متمسكين بأصول دينهم .

٤ ـ دعوتهم إلى التمسك بالأصول التى كانت عليها آباؤهم وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب فى الوقت الحاضر .

٥ ـ إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ ـ تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها ، وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التى لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

كل هذا بالإضافة إلى الهدف الكبير الذى نذرت الصحيفة نفسها له وهو مقاومة السيطرة الاستعمارية الأوربية على البلدان الشرقية ، وخاصة السيطرة الإنجليزية التى عانى منها الأفغان فى أفغانستان والهند ومصر .

ودعت الصحيفة إلى إصلاح المسلمين دينيا واجتماعيا وسياسيا ، وإذا كان الإسلام تمتزج فيه العقائد بالنظم الاجتماعية بالنظم السياسية ، وكانت دعوته شاملة لهذه المناحى الثلاثة .

وكان المثل الأعلى للصحيفة حالة المسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين من حيث العقيدة والصفات الخلقية والنظام السياسى .

فترى أنهم كانوا موحدين حقا معتزين بدينهم لا تفرقهم المذاهب والنحل مترابطين برباط الأخوة ، فيهم خلق الإباء والشمم ، يبذلون أعز شيء في سبيل عقيدتهم وعزتهم ، وينشرون بينهم العلم ما استطاعوا ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى غير هوادة (١) .

ثم دخل الفساد على توالى الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجبر ، والخطأ فى فهم القضاء والقدر ، حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال ، ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام فى القرن الثالث والرابع فجعلوا المسلمين شيعا وأحزابا ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة ، ومما أحدثه السوفسطائية من أفكار ، وعدهم الحقائق تبدو خيالات للنظر . ومما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث ينسبونها إلى رسول الله ﷺ ، وفيها السم القاتل لروح العمل والإباء ، وفيها ما يستوجب ضعف الهمم وفتور العزائم ، ومن ضعف التربية والتقصير فى إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ونشر العلم بينهم .

وزادت فى بعض المقالات أسبابا أخرى أهمها تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط بين العلماء بعضهم وبعض ، ولا بين العلماء والأمراء ، ومنها أن الدين الإسلامى جعل أمته أمة مجاهدة قوية محاربة يأمرها الله بقوله : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ فلما استهانت بهذا الأمر ولم تعد لكل موقف عدته ذلت بعد عزة وضعفت بعد قوة (٢) ، والقوة التى قصدت إليها الصحيفة هى القوة بمعناها الجامع فى أمور الدين والدنيا على السواء .

الصحيفة تلتزم بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة :

فمن بين المقالات التى نشرتها الصحيفة سبع عشرة مقالة من بين مجموع مقالاتها ، وهى ست وعشرون مقالة ـ هى شروح للآيات القرآنية التى كانت عناوين للمقالات ذاتها (٣) ، مع أخذ العظة منها فى تدبر الأحداث الجارية فى البلاد الإسلامية :

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص ٩٠ .

(٣) فى طبعة بيروت سنة ١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م ، الآيات القرآنية هى عناوين المقالات ، حيث إن الناشر استقاها من الصحيفة الأصلية مباشرة وطبعها علي هيئة أعداد متوالية ، ويلاحظ فى طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م أن هناك عناوين تسبق الآيات القرآنية ، وقد ذكر الناشر أن هذه العناوين قد وضعها السيد رشيد رضا حين جمع بعض هذه المقالات فى كتاب تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ، وأخذها الناشر عنه .

١ ـ ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ (١) .

٢ ـ ﴿ سنة اللّه في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (٢) .

٣ ـ ﴿ إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٣) .

٤ ـ ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ (٤) .

٥ ـ ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ (٥) .

٦ ـ ﴿ وذكر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٦) .

٧ ـ ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا ﴾ (٧) .

٨ ـ ﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ (٨) .

٩ ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ (٩) .

١٠ ـ ﴿ وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ (١٠) .

١١ ـ ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١١) .

١٢ ـ ﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ (١٢) .

---

(١) سورة الممتحنة (٤) ـ العروة الوثقى العدد الأول ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م .

(٢) سورة الأحزاب (٦٢) ـ العروة الوثقى العدد الثالث ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤ م .

(٣) سورة ق (٣٧) ـ العروة الوثقى العدد الرابع ٣ أبريل سنة ١٨٨٤ م .

(٤) سورة آل عمران (١٠٣) ـ العروة الوثقى العدد الخامس ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ م .

(٥) سورة الأعراف (٣) ـ العروة الوثقى العدد السادس ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٤ م .

(٦)سورة الذاريات (٥٥) ـ العروة الوثقى العدد الثامن ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ م .

(٧) سورة الأنفال (٤٦) ـ العروة الوثقى العدد التاسع ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م .

(٨) سورة يوسف (٨٧) ـ العروة الوثقى العدد الحادى عشر ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ م .

(٩) سورة آل عمران (١١٨) العروة الوثقى العدد الحادى عشر ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ م .

(١٠) سورة التوبة (٣) ـ العدد الرابع عشر ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ م .

(١١) سورة النحل (٣٣) ـ العروة الوثقى العدد الرابع عشر ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ م .

(١٢) سورة العنكبوت (١ ، ٢) ـ العروة الوثقى العدد الخامس عشر ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤ م .

١٣ ـ ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (١) .

١٤ ـ ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ (٢) .

١٥ ـ ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (٣) .

١٦ ـ ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (٤) ـ ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (٥) .

١٧ ـ ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ (٦) .

وبالإضافة إلى ذلك كانت عناوين مقالات أخرى مأثورات إسلامية وأحاديث نبوية مثل : « المؤمن للمؤمن كالبنيان » (٧) .

و « إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم » (٨) .

وقد اقترن ظهور جمال الدين الأفغانى بالهجمة الاستعمارية الغربية للسيطرة على العالم الإسلامى ، ولهذا ظهرت حركة (جمال الدين) فى مظهرها حركة سياسية لكنها فى جوهرها حركة إسلامية ، ففى المقال الافتتاحى لأول عدد من صحيفة (العروة الوثقى) يصور جمال الدين حادث الاحتلال البريطانى لمصر على أنه كارثة على العالم الإسلامى ، وقد أهاب بالمسلمين ـ بباعث من دينهم ـ أن يتكاتفوا لدفع بلاء

---

(١) سورة الحج (٤٦) ـ العروة الوثقى العدد السادس عشر ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م .

(٢) سورة القصص (٥) العروة الوثقى العدد السادس عشر ١١ سبتمبر ١٨٨٤ م .

(٣) سورة آل عمران (١٠٥) ـ العروة الوثقى العدد السادس عشر ١١ سبتمبر ١٨٨٤ م .

(٤) سورة الرعد (١١) ـ العروة الوثقى العدد السادس عشر ١١ سبتمبر ١٨٨٤ م .

(٥) سورة الأنفال (٥٣) ـ العروة الوثقى العدد السادس عشر ١١ سبتمبر ١٨٨٤ م .

(٦) سورة النساء (٧٨) ـ العروة الوثقى العدد الثامن عشر ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م .

(٧) رواه البخارى والترمذى ـ العروة الوثقى العدد العاشر ٥ يونيو ١٨٨٤ م .

(٨) العروة الوثقى : العدد الرابع عشر ١٤ أغسطس ١٨٨٤ م .

الاحتلال (١) .

وفى موضع آخر ينتقد الفرقة بين أقطار العالم الإسلامى ، فأهل كل قطر يرون التدخل الاستعمارى فى القطر الآخر ولا يتألمون ولا يثورون (٢) .

وإذا كان نشاط جمال الدين قد ظهر عليه الطابع السياسى بصفة عامة فإنَّ عماد هذا النشاط وأساسه الذى يقوم عليه ، ومصدره الذى يجب أن يخرج منه : بقى « القرآن » والقرآن وحده ، يقول : « لا ألتمس بقولى هذا ـ فى الدعوة إلى الوحدة ـ أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فإنَّ هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه » (٣) .

كان الأساس الإسلامى واضحا فى كل الكتابات السياسية لجمال الدين الأفغانى . فهو يتحدث عن أخذ ما عند الغرب من حضارة ومدنية ، ولكن على أساس أن يكون ذلك فى تلاؤم مع الإسلام ، أو لأن الإسلام يدعو إليه .

وينقد سلطان الأستانة وشاه إيران وخديوى مصر ؛ لأن كل واحد من هؤلاء لا يرغب فى إعطاء الشعب حريته فى الرأى والقول والمشورة ، ولا يرغب فى إعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، يأتى نقده لمصلحة الشعب فتبدو عليه مسحة العمل السياسى ، ولكن هذا النقد أسس على الإسلام ، وعلى مبادئه التى تصون هذه المقدسات : حرية الشعب وسيادته ، ووضع الحاكم وضع المنفذ لمشيئته ، لا وضع السيد صاحب السيادة المطلقة عليه (٤) .

ويدعو إلى الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الإسلامية ، وإلى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم فتبدو دعوته هذه فى مظهر (الشرقية) أو (الوطنية) ـ تبدو سياسية ، ولذلك يميل بعض المؤرخين للأفغانى أن يسمى حركته هذه (الحركة الشرقية) ولكن هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل إسلامى ؛ لأنه يستند إلى الإسلام فى تاريخ الفتوح وفى تعاليمه فى الصلة بين المسلم وغيره ، سواء فى مكان واحد أو فى

(١) انظر : الفصل الأول من الباب الخامس من هذه الرسالة بعنوان : « الجامعة الإسلامية » .

(٢) العروة الوثقى : طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م ص ٢٨ و ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٩٣ .

(٤) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ـ ط القاهرة سنة ١٩٨١م ص ٦٧ .

مكانين مختلفين (١) .

وهكذا وضعت صحيفة « العروة الوثقى » بما طرحته من أفكار ربما خاضت فيه من قضايا منهجا صحيحا ، يمكن أن تحتذيه الصحافة الإسلامية التى تأتى بعدها كما كانت أول صحيفة تستخدم اصطلاح « الجامعة الإسلامية » الذى أصبح علما على حركة جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ، لتمييزها عن حركة الإحياء السلفى الأخرى التى تمثلت فى الحركات الوهابية والسنوسية والمهدية (٢) .

وقد بدأت دعوة جمال الدين الأفغانى إلى « الجامعة الإسلامية » فى صحيفة (العروة الوثقى) وليس قبل ذلك ، وكانت هذه هى مرحلة النضج فى كفاحه حيث توجه فيها إلى العالم الإسلامى جميعه ، وما قدمناه من أفكار « العروة الوثقى » كان تعبيرا ـ فى نفس الوقت ـ عن هذه الدعوة والتى اتضحت ـ إلى جانب ما قدمناه ـ فيما يلى :

١ ـ الوقوف فى وجه الهجمة الاستعمارية على الأمم الشرقية .

٢ ـ اتحاد المسلمين فى سبيل صد هذه الهجمة وفى سبيل نهوض البلاد الإسلامية ومباراتها للأمم المتقدمة فى مختلف مناحى القوة مع تطور فى مفهوم شكل هذا الاتحاد .

٣ ـ الرجوع فى فهم الدين إلى منابعه الأولى من القرآن والسنة وإلى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين قبل أن يفرق الخلاف المسلمين ، وتنقية الإسلام من البدع والخرافات التى لحقت به فى العصر المملوكى والعثمانى .

٤ ـ الوقوف فى وجه الفكر العلمانى والتغريبى الزاحف على العالم الإسلامى ، وانبهار فئة من المسلمين بحضارة الغرب مما جعلهم يتخلون عن أخلاقهم الإسلامية ، والمحافظة على الاستقلال الحضارى للأمة الإسلامية بحيث لا تأخذ من حضارة الغرب إلا ما يتلائم مع أصول الإسلام .

مصر فى صحيفة « العروة الوثقى » :

كان نشاط الجمعية ـ العروة الوثقى ـ امتداداً لنشاط الحزب الوطنى الحر الذى ألفه الأفغانى فى مصر قبل إبعاده عنها ، هـذا الحـزب الـذى كشف الأفغانى عن قيامه بمصر

---

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢) انظر فصلا فى هذه الرسالة بعنوان : (الصحافة والجامعة الإسلامية) .

فى أواخر عهد إسماعيل ، عندما رأس وفدا من أعضائه ، وتحرك ساعيا إلى عزل الخديو عن سدة الحكم فى البلاد .. وهو الحزب الذى تكون وناضل ضد التدخل الأجنبى الزاحف علي مصر ، واستخلاص مصر للمصريين من أيدى الشراكسة والأتراك ، ومن أجل إقامة الحياة الدستورية النيابية ، وتحويل السلطة فى البلاد من سلطة فردية مطلقة فى استبدادها إلى أخرى دستورية مقيدة بالدستور والقانون ومجلس النواب (١) .

وانضم هذا الحزب إلى العرابيين بعد مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١م ، ثم ألقى بكل قواه فى الثورة بعد المذكرة الثنائية الإنجليزية الفرنسية إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٢م عندما هددت الأخطار الأجنبية استقلال مصر .

ولكن بعد أن أبعد الأفغانى عن مصر سنة ١٨٧٩م ، وبعد أن انهزمت الثورة العرابية ، ونفى الشيخ محمد عبده إلى بيروت سنة ١٨٨٢م ، ثم التقى مع جمال الدين فى باريس فى أواخر سنة ١٨٨٣ م ليعملا فى مكان القيادة والزعامة لجمعية العروة الوثقى ـ كانت هذه الجمعية هى الامتداد الطبيعى للحزب الوطنى الحر الذى نشأ فى مصر (٢) .

ورغم أن نشاط الجمعية امتد إلى مختلف أقطار العالم الإسلامى إلا أن مصر ظلت هى مركز الثقل وبؤرة الاهتمام فى نشاط هذه الجمعية .

فمجموع المواد التى نشرت فى صحيفة « العروة الوثقى » (٣) ست وعشرون مقالة ومائة خبر وستة ، ومن هذه الأخبار سبعة وثمانون تتصل اتصالا مباشرا بالقضية المصرية السودانية ، وتسعة عشر تتصل بقضايا الدول الأخرى وبالصحيفة ذاتها .

أما عن مقالات الصحيفة فإننا نلاحظ عليها أمرين : **الأول** : ضرب الأمثلة والتدليل على الآراء بما يحدث فى مصر ، **والثانى** : تحريض المصريين على الثورة ضد السيطرة الإنجليزية والمطالبة بالحقوق المصرية فى الجلاء والتقدم .

وكانت القضية المصرية والاحتلال الإنجليزى لمصر هما السبب المباشر لإنشاء « جمعية العروة الوثقى » وإصدار صحيفتها ، وكانت مصر تحتل المكانة الأولى فى برنامج

---

(١) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ١ ص ٣٦ .

(٢) انظر : الباب الرابع من هذه الرسالة بعنوان : « الصحافة الإسلامية والحركة الوطنية في مصر » .

(٣) فى طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧م ، ويلاحظ أن هذه الطبعة قد بوبت مواد الصحيفة إلى : باب المقالات ، وباب النتف والأخبار .

نشاط هذه الجمعية على أنها بمكان القلب للعالم الإسلامى ومركز القيادة فيه ، ونصوص كثيرة من الصحيفة تدعم هذا القول بشدة ففى مقدمة العدد الأول من الصحيفة (1) عن أسباب تكون الجمعية وإصدار الصحيفة : « إن الفجيعة بمصر حركت أشجانا كامنة وجددت أحزانا لم تكن بالحسبان ، وسرى الألم فى أرواح المسلمين سريان الاعتقاد فى مداركهم ، وهم من تذكار الماضى ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ولا نأمن أن يكون التنفس زفيراً بل نفيرا عاما بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع » .

« إن الحالة السيئة التى أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموما . إن مصر تعتبر عندهم من الأراضى المقدسة . ولها فى نفوسهم منزلة لا يحلها سواها ، نطرا لموقعها من الممالك الإسلامية ولأنها باب الحرمين الشريفين ، فإن كان هذا الباب آمنا كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا فى ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الإسلامية » (2) .

ثم تقرر الصحيفة ـ صراحة « إن الرازيا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق ـ مصر ـ هى التى جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بجذورها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم إلى ما سيكون عليه عاقبة أمرهم ...... فتألفت عصابات خير من أولئك العقلاء ـ خصوصا فى البلاد المصرية والهندية ـ وطفقوا يتحسسون النجاح فى كل وجه ...... واختاروا (عصابات الخير هؤلاء أو الجمعية) أن تكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى » (3) .

فمصر فى ذلك الوقت هى أكثر البلاد الإسلامية تقدما ، « وكان المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكما ربما لم يكن بعيدا عن الواقع أن عاصمتها لابد أن تصير فى وقت قريب أو بعيد كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية ، بل كان ذلك أمرا مقررا فى أنفس جيرانها من سكان البلاد المتاخمة لها ، وهو أملهم الفرد كلما ألم خطب أو عرض خطر » (4) .

يقول الدكتور إبراهيم عبده : « وكانت سياسة العروة الوثقى سياسة عالية إن صح التعبير ، فقد أبت إلا فى النادر أن تمس شخصا من الأشخاص مهما يكن بينها وبينه من

---

(1) العروة الوثقى :13 مارس سنة 1884م . (2) نفس المصدر السابق .

(3) المصدر السابق .

(4) العروة الوثقى : العدد الأول ،13 مارس سنة 1884 م مقال بعنوان : « مصر » .

سخيمة ، وهى وإن اضطرت إلى الحملة على فرد من الأفراد لا تسف إسفاف زميلتها « أبى نضارة » بل تحمل فى أسلوب عف ومنطق سليم ، لذلك كانت « العروة الوثقى » إرثا أدبيا لمصر لا ينكر فضله ، وأن ما كتب فيها الأفغانى والأستاذ الإمام يعتبر فى ذمة التاريخ أفضل ما كتب عن مصر من وجهة النظر المصرية ، وهى تمتاز بغنى تفكيرها وإخلاصها فى الدفاع وصدق عاطفتها ، وحرارة بيانها ، كما تميزت بالمعانى الاجتماعية والسياسية الرفيعة ، وقد أثر الزمان والمكان فى الكاتبين العظيمين فكان إنتاجهما فيها خير ما عرف عنهما من إنتاج [1] .

ونحن نضيف إلى هذا القول أن العروة الوثقى كانت بذلك ترسى مبدأ من مبادئ الصحافة الإسلامية يقوم على الآية الكريمة : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[2] ، فالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن تحمل فيضا من المعانى فيما يجب أن يكون عليه الأسلوب والفكر واختيار الظروف الملائمة ، ومن بينها ـ بلا شك ـ أن يتقابل الفكر مع الفكر والحجة مع الحجة والابتعاد عن التعريض بالأشخاص والتشهير بهم .

ولكن الإنجليز ضاقوا بالصحيفة وبدعوتها وبما تنشره من آراء حرة ، فأصدرت وزارة نوبار قرارا بمنعها من دخول مصر [3] حفظا للنظام العمومى ، وفرضت غرامة تتراوح بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيها على من توجد لديه نسخة منها وتشددت الحكومة فى منع دخولها مصر ، وكذلك منعها الإنجليز من دخول الهند ولكن الصحيفة « تعلن متحدية » أن همم الرجال لا تقعدها هذه المظالم وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية وذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى »[4] .

واستمر التضييق على الصحيفة حتى توقفت عن الصدور بعد ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ م ولكنها أحدثت أثرا قويا فى العالم الإسلامى على امتداده ، وخاصة فى طبقة المثقفين الذين حملوا دعوتها من بعدها [5] « أما عشرات الأعلام الذين تعلموا على العروة الوثقى من

(١) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ـ ص ٢٩٩ .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ـ ص ١٤٤ ـ عن الوقائع المصرية ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ م .

(٤) العروة الوثقى : ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م .

(٥) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، ص ١٠٠ .

بعدها على المنار فيهم كثيرون في مقدمتهم : عبد العزيز الثعالبي والطاهر بن عاشور في تونس ، وعبد الحميد بن باديس في الجزائر ، وعلال الفاس في المغرب ، وفي الشام الشيخ حسين الجسر وطاهر الجزائرى ، والكواكبي وجمال الدين القاسمي ، وعبد الرازق البيطار ، وفي العراق محمود شكرى الألوسى (١) .

ولقد كانت العروة وثقى بين صحيفة « العروة الوثقى » وبين صحيفة « المنار » . ويتضح تأثير « العروة الوثقى » في طبقة الكتاب الإسلاميين الذين جاءوا بعدها مما قاله الشيخ رشيد رضا عن تأثيرها فيه وأنها غيرت مجرى حياته تماما ، وسيتصل هذا الحديث عندما نتحدث عن التمهيد لإصدار صحيفة « المنار » بعد قليل .

(١) أنور الجندى : المنار ،ص ٢١ ط الأنصار بالقاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٢ ـ مجلة الإسلام

فى غرة رمضان المعظم سنة ١٣١١هـ الموافق ٨ مارس سنة ١٨٩٤ م صدرت مجلة « الإسلام » الشهرية لصاحبها ومحررها أحمد الشاذلى الأزهرى ، وفى البداية فإن لنا ملاحظتين على هذه الصحيفة ومحررها :

الأولى : أن هذه الصحيفة قد أهملت إهمالا تاما من الذين أرخوا للصحافة المصرية أو كتبوا عنها فى الفترة التى صدرت فيها ، فالدكتور إبراهيم عبده قد نشر ثبتا فى نهاية كتابه « تطور الصحافة المصرية » يشتمل على أسماء الصحف التى صدرت أو التى صدر ترخيص لها (١) ، ولم يورد اسم مجلة « الإسلام » فى الصحف التى صدرت سنة ١٨٩٤ م وذلك رغم احتواء هذا الثبت على أسماء صحف صدر لها ترخيص من إدارة المطبوعات ولم تصدر أصلا ، ورغم أن صحيفة « الإسلام » ظلت تصدر شهريا بانتظام من سنة ١٨٩٤ ، إلى سنة ١٩١٢م ، وأنها أول صحيفة تتخذ الإسلام اسما لها .

الثانية : تختص بمحررها أحمد الشاذلى الأزهرى وندرة المعلومات المتوفرة عنه ، وأول ما يطالعنا اسم أحمد الأزهرى فى مجلة « الأزهر » عندما تولى رئاسة تحريرها ويليام ويلكوكس الإنجليزى .

والمجلة الأخيرة أصدرها إبراهيم مصطفى ناظر دار العلوم ، والطبيب حسن رفقى سنة ١٨٨٧م وكانت باسم « الصحة » ، ولم يلبث صاحباها أن أعلنا أنهما اتفقا مع المستر ويلكوكس على تخصيص هذه المجلة للعلوم الرياضية وجعلها موضع أبحاث المهندسين وكانا قبل فترة يسيرة قد غيرا اسمها من « الصحة » إلى « الأزهر » .

وتولى ويليام ويلكوكس رياسة تحرير الصحيفة ، واستعان فى تحريرها بالشيخ أحمد الأزهرى المتخرج فى دار العلوم والموظف فى إدارة الخزانات التى كان ويليام ويلكوكس مديرا لها (٢) .

---

(١) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، ص ١١ ط سجل العرب سنة ١٨٨٢ م .

(٢) د . سامى عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ص ٢٩٢ .

ولكن ويليام ويلكوكس كان يضمر فى نفسه هدفا آخر فلم تلبث الصحيفة أن ظهرت كحلقة من حلقات الدعوة لاستخدام اللهجة العامية واستخدامها بدل الفصحى فى التأليف والتعليم والصحافة .

وعمل أحمد الأزهرى فى صحيفة « الأزهر » يثير بعض التساؤل حول انضمام هذا الشيخ الأزهرى المحافظ إلى ويليام ويلكوكس فى تحرير هذه الصحيفة التى حملت لواء الدعوة إلى اللغة العامية ومحاربة اللغة الفصحى ، ولكنا قد نرجع ذلك إلى أن ويلكوكس قد أخفى فى نفسه هدفه فى الدعوة إلى العامية إخفاءً تاما حين بدأ نقل امتياز الصحيفة إليه ، وأن أحمد الأزهرى لم يكن يعرف هذا الهدف وكان مدفوعاً فقط برغبته فى الخدمة العامة عن طريق الصحافة .

وفشلت مجلة « الأزهر » فى دعوتها للعامية ، وأمام تصدى الصحف الإسلامية لها ــ الآداب والمؤيد والأستاذ ــ أعلنت هذا الفشل وتوقفت عن الصدور [1] وبعد ذلك بشهور أصدر أحمد الشاذلى الأزهرى مجلة الإسلام فى ٨ مارس سنة ١٨٩٤م .

وفى فاتحة العدد الأول من « الإسلام » يبين منهجها بادئا بشرح ما للجرائد من فضل يضيق عن حصره نطاق كاتب وقلم شاعر ، وأن الغربيين استخدموها لبسط نفوذهم على العالم ولتربية البنات والبنين على حب الأوطان ، ولكن استخدامنا لهذه الوسيلة لا يزال دون المطلوب مع أن « الشرق مفعم برجال الدين التقاة وفرسان الكتابة المجيدين الذين عرفوا الأمور معرفة خبير ، وسبروا الغرب والشرق ــ إن لم أقل بالرؤية فبمطالعة الجرائد والكتب ــ سبر خبير ويضرب المثل بما كان عليه علماء الصدر الأول للإسلام من الجهاد فى نشر العلم ، ويقول : إذا كان الناس يرحلون فى هذا الزمان لطلب العلم فإن مجلة « الإسلام » تحمل إليهم العلم حيث هم دون أن يتحملوا مشقة السفر . ويقول المحرر إنه « قد هاله ما يلحق شبابنا أبناء المدارس الذين يتربون فى مدارس الأجانب ، ويشبون على غير معرفة بدينهم وقلوبهم خالية من حب الإسلام ، فإذا صادفتهم شبهة أو سمعوا نعرة من آخر طاروا إليها فرحا ، وتمكنت فى تلك الأفئدة الخالية أى تمكن ، فلا نلبث حتى تعم البلوى ولا تجدى الشكوى ، وهذا ما أثار فى قلبى حمية العمل والاجتهاد فى بث تلك المبادئ فى قلوب الشبان والعامة من الناس والذين لا يعرفون العلم إلا بالآذان ، ولا يرونه

(١) أعلنت ذلك فى آخر أعدادها أول ديسمبر سنة ١٨٩٣ م .

إلا برؤية أهله وتذكيرا لغيرهم » [١] .

وهو يعلن منذ البداية بعده عن القضايا الخلافية والمثيرة للجدل : « وأخذت على نفسى أن لا أتعرض لسب دين من الأديان ، أو تقبيح عادة من العادات أيا كان مصدرها أو نوعها ، فإنّ ذلك مع كونه يعد ضربا من الفضول ربما أثار الحقد وغرس النزاع بيننا وبين ذويها ، ولا نأمن على ديننا من أن ينالوه بأقبح مما نقول فأكون سببا لعيب ما حفظت وذم ماحمدت » ومبدأ عدم الخوض فى القضايا الخلافية هذا وبعدها عن تقبيح عادات الغير جعل الصحيفة تهادن كثيرا من المفاسد الشائعة فى المجتمع المصرى آنذاك [٢] .

ومن سمات المحافظة والبعد عن القضايا الخلافية فى صحيفة « الإسلام » توسعها أكثر من أية صحيفة إسلامية أخرى ـ فى نشر أحكام العبادات ، فبعد مقدمة العدد الأول وشرح منهج الصحيفة « وتقديم الجريدة لسمو أميرنا المعظم » تنشر المجلة الحديث الشريف « بنى الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » وتأخذ الصحيفة على عاتقها شرح كل من الأسس الخمسة للإسلام ـ تفصيلا ـ على مدار السنة الأولى ، ولما كان العدد الأول قد صدر فى غرة شهر رمضان سنة ١٣١١هـ فقد بدأت بشرح أحكام الصوم ، ثم أحكام الصلاة [٣] وصلاة الجماعة [٤] وصلاة المسافر [٥] ثم تشرح أحكام الحج بمناسبة اقتراب موسمه [٦] والزكاة [٧] ونشرت مقالين أحدهما بعنوان : « عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة » [٨] ، والآخر بعنوان : « أسرار كلمة لا إله إلا الله » [٩] .

اهتمت « الإسلام » إذن ـ بشرح أحكام العبادات الإسلامية أكثر من أية صحيفة أخرى فى عصرها ، بل اضطلعت وحدها بهذه المهمة التعليمية لهذه الأحكام ، فنراها تكتب عن « آداب الإسلام » « كتاب صحيح البخارى » ، « الخمر ومضارها » « الجمعة » ، « التمسك بالدين سبب السعادتين » ، « اجتناب المعاصى » ، « المسح على الخفين » ، « صلاة العيدين » ، وسلسلة من مقالات بعنوان : « المرآة الصحية فى الأحكام الشرعية » يبين فيها الكاتب المرحوم عبد الله فكرى باشا أن اتباع الفروض والسنن

---

(١) مجلة الإسلام : مقدمة العدد الأول من السنة الأولى ٨ مارس سنة ١٨٩٤ م .

(٢) مجلة الإسلام : نفس المصدر .

(٣ ، ٤ ، ٥) مجلة الإسلام : مجلد السنة الأولى (١٨٩٤م) صفحات : ٢٤ ، ١٤٣ ، ١٦٥ .

(٦) نفس المصدر السابق : ص ٤٨ .

(٧) نفس المصدر السابق : ص ٩٥ .

(٨) نفس المصدر السابق : ص ٢٠٩ .

(٩) نفس المصدر السابق : ص ٢٢٣ .

الإسلامية مفيد للصحة ، وأن الإسلام قد نهى عن كل ما هو ضار بالصحة ومثل ذلك كثير .

ويبدو من منهج الصحيفة ــ عموما ــ اتجاهها المحافظ بين صحف ذلك العهد ويبدو أن قراءها ــ أيضا ــ كانوا من طبقة محافظة تكثر فى الريف والمديريات ، كما توجد فى القاهرة ، وهى لم تشتغل ولم تشغل قراءها بالجدل الفكرى والسياسى الذى شاع بين صحف ذلك العهد مثل : « الآداب » و « المؤيد » و« الأستاذ » و « مصباح الشرق » و« المنار » .

وربما كان ذلك أيضا ــ هو سبب استقرارها المالى وانتظامها فى الصدور فلم نلحظ على صفحاتها شكوى من قلة الاشتراكات أو مماطلة المشتركين ــ كما لاحظنا ذلك على بعض الصحف الأخرى ، ولم نلحظ عليها توقفها عن الصدور فى فترة من الفترات ، وكانت صحيفة مسالمة فلم تدخل فى معارك فكرية أو سياسية مع صحف أخرى أو مع الحكومة .

وحول القضية التى ثار الجدل حولها فى ذلك العهد ، هى قضية إصلاح التعليم فى الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة فيه نجد صحيفة « الإسلام » هى الصوت الوحيد تقريبا من الصحف الإسلامية التى تعارض هذا الاتجاه ، وتطالب بالمحافظة على القديم فنجدها تنقل عن صحيفة « النيل » مقالا بعنوان : « الأزهر » يعارض فيه كاتبه إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر؛ لأن ذلك سيؤدى إلى تلاشى شريعة رسول الله ﷺ ، ووضع تخت فيه لجلوس الطلاب ودخول المعلمين الأجانب فيه بالجزم فيخرج الأزهر عن حكم المسجدية ، وينطبق على من يحدث هذا التغيير حكم ﴿ **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ (١) .

وحدثت حادثة هولت فيها الصحيفة (٢) تهويلا وافتعلت معركة بينها وبين سلطان الشرطة والصحة فى القاهرة ، وهذه الحادثة مؤداها أن أحد الطلبة فى رواق الشوام بالأزهر اشتبه فى إصابته بالكوليرا ، ولما حضر مأمور قسم الدرب الأحمر والطبيب المختص وقررا نقل الطالب إلى المستشفى منعهما الطلاب ، فاتصلا بالمحافظة فأرسل حكمدار

---

(١) سورة البقرة : ١١٤ .

(٢) مجلة الإسلام : مجلد السنة الأولى (١٣١١ هـ ــ ١٨٩٤ م) .

البوليس فى قوة من عسكره ، فأغلق الطلبة فى وجوههم الأبواب وقذفوهما بالحجارة ، فاتصل المحافظ برئيس الوزراء وحضر إلى الأزهر بنفسه فى كوكبة من الجند ، ففعل الطلبة معهم نفس الشىء من رمى بالحجارة حتى أصيب المحافظ بجرح ، فما كان من المحافظ إلا أن أمر بإطلاق النار لأخذ المريض وعزله بالقوة فقتل أحد الطلبة .

وبدأت الصحيفة فى نشر هذه الحادثة فى العدد الصادر فى ٢ يونية سنة ١٨٩٦ م ، وخصصت لها اثنتان وعشرين صفحة هى معظم صفحات العدد كما تابعتها فى أعداد كثيرة تالية ، واعتبرت موقف السلطات الصحية والشرطة ، عدوانا على الإسلام والمسلمين والعلم والعلماء والخلافة والدولة الإسلامية ، وأن هذه داهية دهياء ونازلة سوداء حلت بالمسلمين أجمعين . وكان الأجدر بالصحيفة أن تقف مع عزل المريض فى المستشفى تحفظا من انتشار وباء الكوليرا ، وأن توفر على نفسها وقرائها هذه الصفحات الطويلة وهذه الانفعالات العصبية والبكاء على ما حدث للإسلام والمسلمين .

ولكن الصحيفة ــ من ناحية أخرى ــ نشرت فى باب المناظرة والمراسلة مقالات ورسائل جيدة حول القرآن والسنة والعلم الحديث ، وحثهما على دراسة العلوم الطبيعية ومعرفة أسرار الكون (١) ، وإن كانت قد قالت إنها بريئة من الآراء التى وردت فى هذه الرسائل .

وابتداء من سنة ١٨٩٧ م لوحظ على الصحيفة التوسع فى نقل الموضوعات الإسلامية عن الصحف الأخرى ، فنقلت ــ بصفة خاصة ــ ما يتصل بفكرة الجامعة الإسلامية وأحوال المسلمين فى العالم ، نقلت عن « المؤيد » ، « مصباح الشرق » ، « ثمرات الفنون » البيروتية ، و « رهبر » التركية ، كما بدأت تنقل عن المؤيد فى أعداد أبريل سنة ١٩٠٠م ردود الإمام محمد عبده على هانوتو ، وبهذه الطريقة قدمت الصحيفة لقرائها من طلاب المعرفة الدينية خدمة كبيرة ــ حيث قدمت لهم مقتطفات وأفكار من صحف إسلامية متعددة ما كان يتيسر لهم الاطلاع عليها لولا أن قدمتها لهم هذه الصحيفة .

---

(١) الإسلام : مجلد السنة الأولى ، ص ١٥٨ (تطبيق الزلازل على مقتضى السنة) ص ١٧٦ ، (الشريعة الإسلامية والمكتشفات الحديثة) ، ص ٢٤٥ ، الشريعة الإسلامية وآراء الحكماء والفلاسفة ــ ص ١٧١ ، الدين والسموات والأرض ، سلسلة مقالات لبيان أهمية دراسة العلوم الطبيعية والرياضية لمهندس عموم رى الوجه القبلى ــ نشرت فى سلسلة فى معظم أعداد السنة الثالثة سنة ١٨٩٦ م .

٣ ـ مجلة المنار

ظهر أثر صحيفة العروة الوثقى واضحا فى حياة « محمد رشيد رضا » [١] صاحب مجلة المنار ، وفى منهجه فى الدعوة الإسلامية ، ويتضح ذلك إذا تبينا الفرق بين عمله فى ميدان الدعوة الإسلامية فى المرحلة الأولى من حياته ، وبين عمله فى هذا الميدان حين اطلع على العروة الوثقى فغيرت فكره ومنهجه فيما يجب عمله لإصلاح المسلمين والنهوض بالعالم الإسلامى .

ففى المرحلة الأولى من حياته كان من الكتب التى طبعت فكره وسلوكه بطابع متميز كتاب : « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨ ـ ١١١١) ، فلقد مال به إلى الزهد وسلكه فى مسلك الصوفية فأصبح واحدا من المريدين فى الطريقة النقشبندية ، واشتغل بالوعظ والإرشاد فى قريته والقرى المجاورة لها حتى لقد كانت نزهاته التى يروح بها عن نفسه فى القرى المجاورة مجالا لعظات يلقيها مستعينا بكتب المواعظ السلفية ، من أمثال كتاب : « الزواجر عن اقتراف الكبائر » [٢] .

تدرب رشيد فى هذه الفترة على الخطابة الدينية فأجادها ، وطمح إلى الكتابة فألف كتابا عن « الحكمة الشرعية » ، ونشر في إحدى الصحف مقالا طويلا عن الأخلاق وكذلك صاغ بعض أفكاره شعرا ، كما عين عضوا فى شعبة المعارف بطرابلس [٣] .

---

(١) ولد رشيد رضا فى قرية القلمون إحدى قرى طرابلس الشام ، وكان مولده فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ ، ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٦٥ م ـ حفظ القرآن فى كتاب القرية ، ثم انتقل للدراسة بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس ، وكان ناظرها هو أستاذه حسين الجسر الذى درس عليه فى منزله أيضا ، وبعد أن درس علوم القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف واللغة العربية والفقه ، نال شهاد العالمية من طرابلس وقعها له شيخه حسين الجسر بعد أن حصل على ما يشابه الأزهر فى مصر ـ في الترجمة لـرشيد رضا انظر : عمر كحالة ـ معجم المؤلفين ـ مطبعة الترقى دمشق جـ ٩ ص ٣١٠ ، رشيد رضا ـ المنار والأزهر ـ مطبعة المنار ١٢٥٣ هـ ، ص ١٣٩ ، إبراهيم العدوى : رشيد رضا الإمام المجاهد ـ سلسلة أعلام العرب ، القاهرة سنة ١٩٦٤ م ، ص ١٩ .

(٢) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٨٤ ، ٨٥ ط القاهرة ١٩٣١ م .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ، ص ١٠٠١ .

العروة الوثقى تغير حياته :

وفى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ - ١٨٩٣ م) وكان فى الثامنة والعشرين من عمره حدث لفكره وسلوكه تغير عظيم ، وهذا التحول يدل على ما أحدثته صحيفة « العروة الوثقى » من أثر فى نفوس المثقفين فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، وتدل على ما ترسب في وجدانه من اتخاذ الصحافة وسيلة للإصلاح الإسلامى .

فبينما هو يقلب الأوراق فى محفوظات والده ، إذا هو يعثر على بعض من أعداد مجلة « العروة الوثقى » ، فقرأ هذه الأعداد التى أحدثت مقالاتها فى عقله ووجدانه انقلابا شاملا ، فأخذ يبحث عن بقية أعداد المجلة فوجدها كاملة عند شيخه حسين الجسر ، فنسخها وأكب على مطالعتها وفقهها مرات ومرات فتغيرت صورة الإسلام فى فكره ومن ثم تغيرت صورة المسلم النموذجى ، فلم يعد الإسلام كله يتركز فى زهد « إحياء علوم الدين » المحبذ لترك شئون الدنيا ، ولم يعد المسلم هوالسلفى العاكف على إصلاح العقائد وحدها ، وإنما تبدى له الإسلام الذى يوازن بين الدين والدنيا والحضارة والشعائر والتمدن وتطهير القلوب ، الإسلام المجاهد فى سبيل إصلاح دنيا المسلمين التى هى السبيل لإصلاح أخراهم .

يقول الشيخ رشيد عن هذا الانقلاب الذى أصاب حياته وهو لم يزل طالبا للعلم فى طرابلس : « ثم إنى رأيت فى محفوظات والدى بعض نسخ « العروة الوثقى » فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور إلى طور ومن حال إلى حال ، وكان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية ، ويليه تأثير المقالات السياسية فى المسألة المصرية ، والذى علمته من نفسى ومن غيرى ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب ، والإقناع من العقل ولا حد للبلاغة إلا هذا » (١) .

لقد تعلم من العروة الوثقى أن الإسلام ليس روحانيا أخرويا فقط ، بل هو دين روحانى جسمانى ، أخروى دنيوى ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل .

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ص ٣٠٣ ، ٩٩٦ .

وهو يمضى مصورا معالم ذلك الانقلاب الذى حدث له فيقول : « ولقد أحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين ، فقد كان همى قبل ذلك محصورا فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا ، فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية ، والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات ، فطفقت أستعد لذلك استعدادا .... » [1] .

ومنذ ذلك التاريخ تاقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين جمال الدين الأفغانى الذى كان يعيش فى الأستانة ، والإمام محمد عبده الذى كان قد عاد إلى مصر فكتب للأفغانى كتابا بليغا ، مليئا بعبارات الإعجاب والإكبار والتمجيد [2] .

ثم سنحت له الفرصة فلقى الشيخ محمد عبده مرتين ، لقاءً عابراً ، أولاهما عندما ذهب الإمام لزيارة « المدرسة الخاتونية » بطرابلس والثانية عند زيارته لطرابلس مصطافا وبصحبته القانونى المصرى الشهير أحمد فتحى زغلول باشا ، وفى هذين اللقاءين عبر الشيخ رشيد للأستاذ الإمام عن إعجابه به وبالأفغانى ، وعن تأثير « العروة الوثقى » فى التحول الذى حدث له ، وكيف انتقلت به من طور إلى طور ، فأخرجته من قوقعة « التنسك الصوفى » إلى رحاب « الإسلام المصلح » [3] ، وهو نفس التأثير الذى أحدثه الأفغانى فى محمد عبده عندما تقابلا فى مصر فى سبعينيات القرن التاسع عشر .

ولم يفكر رشيد رضا فى السفر إلى الأستانة ليتتلمذ على الأفغانى ، فلقد كان يعلم أن المناخ هناك قاتل للإبداع والطموح . فلما توفى الأفغانى (١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م) نشأت لديه فكرة الهجرة إلى مصر كى يتخذ من الشيخ محمد عبده أستاذا ، وليكون موقعه منه كموقع محمد عبده من جمال الدين .

فأخذ يعد عدته للسفر ، وادخر من عمله فى تحرير « الحجج والعقود » نفقات رحلته - كما يقول - ثم تسلل إلى إحدى السفن الذاهبة إلى الإسكندرية فوصلها يوم ٢٣ يناير سنة ١٨٩٨ م ، ومنها قام برحلة إلى طنطا والمنصورة فدمياط ثم طنطا ثانية ثم وصل إلى القاهرة يوم ٧ فبراير سنة ١٨٩٨ م ، وفى ضحوة اليوم التالى ذهب لمقابلة الأستاذ محمد عبده [4] .

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) المصدر السابق : جـ ١ ص ٨٥ - ٨٧ .

(٣) المصدر السابق : جـ ١ ص . ٣٩ .

(٤) المصدر السابق : جـ ١ ص ٩٩٨ .

وفى القاهرة وضع الشيخ رشيد قدمه على طريق تحقيق ما بنفسه من طموح وآمال وكان يقول : « فلقد كنت أعتقد أن استعدادى كله يبقى ضائعا إذا بقيت فى سوريا ، وأنه لا يمكن أن يظهر هذا الاستعداد بالعمل إلا فى مصر لما فيها من الحرية المفقودة فى البلاد العثمانية »[1] .

وعندما طمحت نفس رشيد إلى الإصلاح الإسلامى ، كان الحدث الذى هز كيانه وحول اتجاهه وهيأ له الاكتشاف الصادق لحقيقة الإسلام ـ حدث « العروة الوثقى » ماثلا فى ذهنه . فهذه المجلة التى أحدثت فى المسلمين أثرا غير مسبوق فى زمنها وما تقدمه من قرون ، قد جاءت ثمرة لصحبة محمد عبده للأفغانى ، وتتلمذه عليه وزمالته له ، فأراد أن تكون « المنار » هى « العروة الوثقى » الجديدة . وليكن هو (ترجمان أفكار) الإمام ، فلابد للإصلاح الإسلامى من زعيم تثق به الأمة وهو الآن محمد عبده ، لابد لهذا الإصلاح من ترجمان ، فليكن هو هذا الترجمان وأراد أن تكون « المنار » ، هى الامتداد الجديد للعروة الوثقى مع مراعاة تغير الأحوال والظروف .

وفى لقائه بالأستاذ الإمام ٨ فبراير سنة ١٨٩٨ م عرض مشروعه عليه ، ودار بينهما حوار هام حول إصدار هذه الصحيفة[2] وكأن الأستاذ الإمام كان يمتحن إرادة تلميذه للعمل الضخم الذى هو مقبل عليه .

قال الأستاذ الإمام : إن المصريين فى حالة جعلت أفكارهم موجهة إلى شىء واحد من الجرائد وهو أخبار الحكومة ، وما يقال عن الخديو وعن الإنكليز ولا يلتفتون إلى ما وراء هذا ، وقد قامت به ثلاث جرائد هى « المؤيد » ، و « المقطم » و « الأهرام » وأنه لا يمكن لك مباراة واحدة منها فى خطتها .

وإذا كتبت فى الموضوعات الأدبية كالتربية والتعليم ، أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس ، فإنى لا أعرف أحدا فى الأزهر ولا فى المدارس مشتغلا باللغة وآدابها إلا أن يكون فى الزوايا من لم نعرف ، وهؤلاء إن وجدوا لا غناء فيهم ، وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لا يأتى منه ما يفى بنفقاته ولا ينبغى التعب وإنفاق المال هكذا .

---

(١) المصدر السابق : جـ ١ ص ١٠٠١ (وقد روى السيد رشيد رضا أن الأستاذ الإمام قال له عندما لقيه :« أنتم تسمعون أن فى مصر حرية ـ هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون فى أشد المراقبة وأبعد الناس عن الحرية ، لا حرية لهم فيما ينفعهم أصلا ، ولكن لهم الحرية المطلقة فى كل ما يضرهم) ، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٣ ، ص ١٣٠ .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٣ ، ص ١٢٩ وما بعدها .

ـ الشيخ رشيد : إن صاحب مجلة « الهلال » أخبرنى أن له ٣٥٠٠ مشترك .

ـ الأستاذ الإمام ـ إن كانوا يحسبون أن كل من يكتبون اسمه فى دفاترهم مشتركا فقد يكون عنده هذا العدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد أنهم يبلغون الألوف .

ـ الشيخ رشيد : إن من غرض الاشتغال والتمرن على الكتابة فى المسائل الإصلاحية المفيدة .

ـ الشيخ محمد عبده : يمكنك أن تكتب هذه المباحث فى كتاب فهوأرجى لقراءة الناس له .

ـ الشيخ رشيد : إن معالجة قضايا التربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التى فشت فى الأمة كالجبر والخرافات ، هى الباعث لى على إنشاء هذه الجريدة (المنار) وإننى أسمح أن أنفق عليها سنة أو سنتين من غير أن أكسب شيئا .

ـ الشيخ محمد عبده : إن كان هذا فهو حسن ، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب الجريدة فإنى أساعدها بكل جهدى .... يجب ألا نتحيز لحزب من الأحزاب ، وألا نرد على جريدة من الجرائد التى تتعرض لنا بذم أو انتقاد ، وألا نخدم أفكار أحد من الكبراء ، هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يدعون بها كبراء ، إننا قد نستخدمهم ولكن لا نخدمهم » .

من هذا الحوار بدأ يتضح منهج الصحيفة وأهدافها ، وهو المنهج الذى فصله أكثر فى « فاتحة السنة الأولى » ، فى العدد الأول من المنار الصادر فى ٢٢ شوال ١٣١٥ هـ ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ م فهو يقدم « المنار» على أنه « صوت صارخ بلسان عربى مبين ، ونداء حق يقرع مع سمع الناطقين بالضاد مسامع جميع الشرقيين لتوقظهم من نوم كالموت أو الإغماء وتنبههم إلى التقدم الذى ينبغى أن يلحقوا به » ، « فها هى الجمادات تتكلم بغير لسان وتكتب من غير قلم ولا بنان ، والوحوش حشرت مع الأنعام ، والمراكب تجوب السهوب والفيانى وتقرع الأعلام ، بل طارت فى الهواء تسابق الرياح وتساهم ذوات الجناح ، واستولى أخوك المستيقظ على قوى الطبيعة فقرن بين الماء والنار ، وولدهما بالبخار ، واستخدم الكهرباء والنور ، فاخترق بذلك الجبال واختبر أعماق البحار وعرف

مساحة الهواء ، ونفذت أشعة بصره فى الكثائف ، ووصلت أمواج صوته إلى كل مكان سحيق ، فقرب أبعاد الأرض وجمع بين أقطارها ، بل عرج بهمته للقبة الفلكية فعرف الكواكب ومدارها ، ومادتها ومقدارها » .

وهو يرى أن سبيل الشرقيين إلى بلوغ ذلك هو العلم والعمل فإن « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ووسيلة الصحيفة لنهضة الشرق أنها تنبه العثمانيين على أن الشركات المالية هى مصدر العمران ، وينبوع العرفان ، وأن عليها مدار تقدم أوربا فى الفنون والصنائع فهى التى تنشئ المكاتب والمدارس ، وتشيد المعامل والمصانع ، وتسير المراكب والبواخر » .

وفى عرضه لأهداف الصحيفة يوضح أن « غرضها الأول الحث على تربية البنات والبنين ، لا الحط من الأمراء والسلاطين ، والترغيب فى تحصيل العلوم والفنون لا الاعتراض على القضاة والقانون ، وإصلاح كتب العلم وطريقة التعليم ، والتنشيط على مجاراة الأمم المتمدنة فى الأعمال النافعة ، وطروق أبواب الكسب والاقتصاد ، وشرح الدخائل التى مازجت عقائد الأمة والأخلاق الرديئة التى أفسدت الكثير من عوائدها ، والتعاليم الخادعة التى لبست الغى بالرشاد ، والتأويلات الباطلة التى شبهت الحق بالباطل ، حتى صار الجبر توحيدا ، وإنكار الأسباب إيمانا وترك الأعمال المفيدة توكلا ، ومعرفة الحقائق كفرا وإلحادا ، وإيذاء المخالف فى المذهب دينا ، والجهل بالفنون ، والتسليم بالخرافات صلاحا ، واختبال العقل وسفاهة الرأى ولاية وعرفانا ، والذلة والمهانة تواضعا ، والخنوع للذل والاستسلام للضيم رضا وتسليما ، والتقليد الأعمى لكل متقدم علما ويقينا » (١) .

وكان الشيخ رشيد رضا قد عرض افتتاحية العدد الأول من « المنار » قبل طبعه على الشيخ محمد عبده ، وجعل من بين مقاصده الصحفية « تعريف الأمة بحقوق الإمام ، والإمام بحقوق الأمة » ولكن الشيخ محمد عبده اعترض على ذكر هذا المقصد وأشار بحذفه قائلا : « إن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وأن الكلام فى الإمامة مثار فتنة يخشى ضرره ولا يرجى نفعه الآن » (٢) .

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد نهجت « المنار » منهجا إسلاميا يتضح فيما يلى :

---

(١) افتتاحية العدد الأول من السنة الأولى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ م .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ١ ص ٧٣٤ .

١ ـ إصلاح العقيدة ومحاربة البدع والخرافات :

كان الغرض الذى سعى إليه « المنار » هو ـ فى الجملة ـ عين الغرض الذى سعت إليه العروة الوثقى ، فقد كان من الأغراض التى تضمنتها كل منهما ـ كغاية كبرى ـ نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، وإقامة الحجة على أن الإسلام باعتباره نظاما دينيا لا يتنافر مع الظروف الحاضرة وأن الشريعة أداة عملية صالحة للحكم [١] .

فهو يكتب كثيرا فى تصحيح العقيدة ، وإذا أخذنا مجلد السنة الثانية (١٨٩٩م) مثالا لذلك ، وجدناه يكتب « دروسا فى التوحيد » وهى دروس كان يلقيها رشيد رضا فى اجتماعات جمعية « شمس الإسلام » ثم ينشرها فى « المنـار » [٢]، وتجد موضوعـات مثل « بدع رجب » [٣] ، و « تكفير المسلم » [٤] و « الحديث الموضوع » [٥] و « الدين تعريفه وغايته » [٦] ، و « فهم الدين [٧] وغيرها كثير .

وفى الأعداد التى تصدر فى شهر رمضان يأتى بتفسير الآيات الكريمة المتضمنة لأحكام الصيام وشرح الأحاديث الخاصة به [٨] ، وقد حمل « المنار » حملة عنيفة على البدع والخرافات التى تحدث فى الموالد وعلى انحرافات الطرق الصوفية ، وهذا هو الجانب الثانى بعد إصلاح العقيدة ، حيث إنه عمل على نشر الأفكار الإسلامية الصحيحة من جانب ، وحارب ما لحق بالإسلام من بدع وخرافات ليست منه من جانب آخر فنراه ـ فى شهر إبريل سنة ١٨٩٨ م ـ ولم يمض على صدور المنار شهر واحد ـ نراه يشن حملة على ما يحـدث فى المـوالد مـن منكـرات فى مقـالات : « المـوالد » [٩] و « منكرات المـوالـد » [١٠] و « كيف الطريق إلى إبطال منكرات الموالد » [١١] .

وقد تعرض رشيد رضا مرة لغضب المصلين فى المسجد الحسينى ؛ وذلك لأنه وقف ليخطب فى الناس مبينا لهم أن توقع البركة من التمسح فى أعمدة المسجد وغيره لا جدوى فيه ولا غناء [١٢] .

---

(١) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ص ١٧٢ .

(٢) المنار : مجلد السنة الثانية (١٨٩٩ م) صفحات ٤٥٧ ، ٤٧٥ ، ٥٦٣ ، ٦٠٣ ، ٦٣٠.

(٣) ص ٥٥٩ . (٤) ص ٧٠٩ . (٥) ص ٣٩١ .

(٦) ص ٤٣٧ . (٧) ص ٤٠٩ .

(٨) مجلد السنة الثالثة ص ٦٧٥ (٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠م) .

(٩) المنار : ١٢ أبريل سنة ١٨٩٨ م . (١٠) المنار : فى ١٩ أبريل سنة ١٨٩٨ م .

(١١) المنار : فى ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٨ م . (١٢) المنار : مجلد السنة الثانية (١٨٩٩م) ص ٧٣٥ .

وفى مجال حديثنا عن نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة نذكر فضل المنار وصاحبه فى نشر كتاب : « تفسير المنار » ففضل الشيخ رشيد رضا يتعدى حدود التعبير عن حركة التجديد التى مثلها الإمام محمد عبده ، ويتمثل أيضا فى قدح زناد هذا الفكر المجدد للإمام ، وتفجير منابعه ، وتهيئة السبل والمناسبات وخلق الدواعى لاستمرار تدفقه ، هذا إلى الإسهام الجاد والخلاق فى هذا التجديد ومن ذلك تفسير المنار [١] .

وفى الحق أن الشروع فى كتابة هذا التفسير يرجع إلى همة الشيخ رشيد رضا قبل كل شئ آخر ، فقد جاء إلى القاهرة ولم يكد يستقر به المقام فيها حتى أخذ يدفع الشيخ محمد عبده إلى وضع تفسير للقرآن كله ينفخ فيه من روحه التى تجلت فى مقالات « العروة الوثقى » [٢] ، وظل به حتى أقنعه وبدأ « المنار » بنشر حلقات هذا التفسير ابتداء من ٣٠ إبريل سنة ١٩٠٠ م .

وفى سبيل هدف « المنار » فى تصحيح العقيدة ومحاربة البدع والخرافات نراه ينبه إلى مسألة ذات خطر فى هذا الموضوع م وهى مسألة الدعوة والدعاة فيكتب مقالا بعنوان : « اقتراح على السادة العلماء فى تقويم اعوجاج الوعاظ والخطباء » [٣] ، ومقالا آخر بعنوان : « الدعوة حياة الأديان » ، وفى هذين المقالين ينقد بشدة الوعاظ الجهلاء وأثرهم السيئ على الأمة ، ويرسم الطريق للدعوة الإسلامية فى مصر والعالم على المبادئ الإسلامية الصحيحة بما يضمن للمسلمين الغلبة فى الدنيا والفوز فى الآخرة .

٢ ـ التربية والتعليم :

إذا كانت « المنار » هى ترجمان الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده ، فإن جوهر هذه الدعوة هو التربية والتعليم ، ومن ثم كان اهتمام « المنار » بهذا الموضوع ، فنراه ينشر مقالا بعنوان : « محاورة فى سعادة الأمة » [٤] ، أن أحد الحكماء وجه سؤالا إلى عشرين نفر من قومه فى كيفية إصلاح الأمة وسمع إجاباتهم جميعا ، ثم رد فى النهاية بهذا الجواب : « ... وقال : إن الجواب الصحيح الذى قلت به إنه وسيلة لسعادة الأمة ، يجمع كل الوسائل ، وسبب يرجع إليه جميع الأسباب هو (تعميم التربية والتعليم .. إلخ) ،

(١) د . محمد عمارة : مجلة الدوحة القطرية عدد سبتمبر ١٩٨١ م .

(٢) تشارلز آدمس : ـ الإسلام والتجديد فى مصر ص ١٨٩ .

(٣) المنار : فى ١٣ يناير سنة ١٩٠٠ مجلد السنة الثانية ص ٦٨٩ .

(٤) المنار : في ٢٢ مارس سنة ١٨٩٨ ـ السنة الأولى العدد الثانى .

وهذا المقال يذكرنا فى أفكاره وأسلوبه بالمقالات التى كان ينشرها محمد عبده فى الوقائع المصرية فى موضوع التربية والتعليم .

وابتداء من العدد ٣١ فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩م يبدأ فى نشر ترجمة لكتاب فرنسى عنوانه : « أميل القرن التاسع عشر » للكاتب الفرنسى المربى الفونس اسكيروس ، الذى يعارض به الحكيم الفرنسى جان جاك روسو فى كتابه المؤلف فى التربية المسمى « أميل القرن الثامن عشر » ، وقد ترجم الكتاب عبد العزيز افندى محمد وكيل النيابة ، وقال : إن الإمام محمد عبده هو الذى نبهه إلى ترجمة هذا الكتاب وما فيه من فوائد .

ومن أبرز المقالات فى هذا المجال مقال « المدارس الوطنية » الذى يبين فيه أهمية التعليم الوطنى فى نهضة الأمم [١] .

ولا يكاد يخلو عدد من « المنار » من مقال فى إصلاح التربية والتعليم تمشيا مع رأى الإمام محمد عبده أن التربية تصنع الرجال والرجال هم الذين يصنعون كل شيء [٢] .

٣ ـ قضية اللغة العربية :

أشرنا فيما سبق إلى الدعوة إلى استبدال اللغة العامية باللغة الفصحى وكتابة العامية بعد انتشارها بحروف لاتينية ، وهى الدعوة التى دعا إليها ويليام ويلكوكس فى مجلته التى انتحل لها اسم الأزهر ، وكذلك مجلة المقتطف وجريدة المقطم ، وواكب هذه الدعوة استبدال اللغة الإنجليزية بالعربية فى التعليم وموجة من التغريب سادت الحياة المصرية فى ذلك الوقت .

ولم تتوقف هذه الدعوة ، ففى خلال السنة الأولى من صدور المنار وقعت فى يد رشيد رضا كراسة مطبوعة ـ مجهولة المؤلف ـ تدعو إلى استخدام اللغة العامية بدل الفصحى ، وكتابتها ـ العامية ـ بحروف لاتينية ، فتصدى رشيد لهذه الدعوة بمقالين طويلين بعنوان : « صدمة جديدة على اللغة العربية » وفند آراء مؤلف الكراسة فى حجج قوية واضحة [٣] .

---

(١) المنار : ٢٨ يونية سنة ١٨٩٨ م .

(٢) تشارلز آدمس ـ الإسلام والتجديد فى مصر ص ٦١ .

(٣) المنار : فى ١٢ و ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٨ م .

٤ ـ موقف « المنار » من الحضارة الغربية :

والموقف من الحضارة الغربية فى منهج « المنار » ذو شقين :

الشق الأول : ما تفوقت فيه أوربا فى مجال العلوم الحديثة والصناعات والاختراعات ، وكانت دعوة « المنار » ، أن تساير البلاد الإسلامية أوربا فى هذا المضمار ، وتنافسها بما فى ذلك الإدارة الحديثة والنشاط الاقتصادى الذى سماه رشيد رضا فى مقدمة العدد الأول من السنة الأولى « تكوين الشركات المالية » ، وحول هذه الفكرة دار معظم حديث رشيد رضا فى هذه المقدمة التى رسم فيها منهج الصحيفة [(١)] .

الشق الثانى : هو إعلان حرب لا هوادة فيها على ما اقترن بدخول الأوربيين إلى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية من الانحلال الخلقى والعادات الضارة ، ففى مقال بعنوان « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » [(٢)] يقول : « إن الغرض من الفتوح والاستعمار تكثير المال وتنمية الثروة ، وإن الدول الأوربية توفر على نفسها القتال حتى لا تريق دماء أبنائها وتسلط الأمم الشرقية جيوشا معنوية أقوى من الجيوش المادية ، فإن الأوربيين ساقوا عليه ـ الشرق ـ خمسة فيالق هى الخمر والميسر والربا والبغاء والتجارة فنسفوا بذلك ثروته ، وقتلوا غيرته وأضعفوا همته وأفسدوا ما كان له من بقايا أدب ودين » .

وفى مقال آخر بعنوان : « البوفيه وما فيه » [(٣)] يحارب العادات التى تفشت فى مصر بين ما يقال عنهم وجهاء القطر ، والتى امتدت من القاهرة إلى غيرها من المدن والقرى المصرية ، وهذه العادة هى مد « بوفيه » فى الاحتفال بالزواج والختان وغيرها ، ويملأونه بالخمر وملحقاتها ، ويصفون بقلة الذوق من لا يلبى دعوتهم .

٥ ـ تحرير المرأة فى نطاق الشريعة الإسلامية :

أما موقف المجلة من حركة تحرير المرأة التى ثار الجدل فيها فى الوقت الذى ظهر فيه كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، فإن « المنار » وقفت فى صف هذه الحركة وقرظت كتابى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » حيث لم تجد فيهما ما يتنافى مع الإسلام ، فينشر مقالات عن كتاب « تحرير المرأة » مجندا له داعياً إلى قراءته مشيرا إلى أنه من أهم المؤلفات

---

(١) المنار : ١٥ مارس سنة ١٨٩٨م (فاتحة السنةالأولى) .

(٢) المنار : في ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ . (٣) المنار : ٧ يونيو سنة ١٨٩٨ م .

التى ظهرت فى هذا العصر متمنيا لو كان قد نشر فى « المنار » ، ومن هذه المقالات مقال بعنوان : « الكتابان الجليلان » [1] عنه ، وعن كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » ، ومقال « كلمة فى الحجاب » [2] وفيه يدافع عما جاء فى كتاب « تحرير المرأة » بشأن الحجاب ، ثم ينشر بعد ذلك (خاتمة كتاب تحرير المرأة) [3] .

وحين يظهر كتاب « المرأة الجديدة » يحتفى به ويقدمه للقراء قائلا عنه : « وهو فى آياته الباهرة وأساليبه الساحرة مع الذى تقدمه صنوان وفرسى رهان ، ولا غرو فهما من ذلك الينبوع العذب ، وفرعان من ذلك النبع أو العذب » [4] .

أثر (المنار) وسعة انتشاره :

لم يحقق « المنار » فى البداية كثيرا من الانتشار حتى إنه لم يحقق من الاشتراكات حتى السنة الثالثة إلا ما يزيد قليلا على ثلاثمائة ، وكانت الدولة العثمانية قد منعت وصوله إلى ولاياتها ، ولكن الناس بدأوا ــ بعد ذلك ــ يلمسون فضله ويعرفون قيمته ويطلبون ما فاتهم من أعداده السابقة ، وفي سنة ١٩٠٩م أعيد طبع مجموعة السنةالأولى وبيع العدد منها بأربعة أمثال ثمنها [5].

وانتشر المنار فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، يدل على ذلك ما كانت تأتيه من رسائل فى هذه الأنحاء جميعا ، وقد درس مؤلفو كتاب « وجهة الإسلام » الإسلام فى بعض الأقطار الإسلامية وقرروا أنه قد تكونت مدرسة فكرية تابعة للمنار فى هذه الأقطار ، ويمكن ــ بالقياس ــ معرفة أثر المنار فى الأقطار الإسلامية التى لم يتناولها مؤلفو هذا الكتاب [6] .

قال مؤلفو « وجهة الإسلام » وكان لعمله ــ الإمام محمد عبده ــ أهمية مزدوجة ، فإنه وضع أساسا لتفسير القرآن من جديد من غير أن يقطع الصلة بتاريخه الماضى ، وأنه

(١) المنار : ١٥ يوليو سنة ١٨٩٩ .

(٢) المنار : ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٩ م.

(٣) المنار : مجلد السنة الثانية (١٨٨٩م) ص ٣٧٣ .

(٤) المنار : مجلد السنة الثالثة ص ٨٥٠ والنبع والعذب نوعان من الشجر ، وانظر الفصل الخامس من الباب الثالث من هذه الرسالة « الصحافة الإسلامية وتحرير المرأة » .

(٥) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، ص ٢٢٣ .

(٦) هاملتون جيب وآخرون : وجهة الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ط الإسلامية بالقاهرة (مقدمة المترجم بتاريخ سنة ١٩٣٤ م) ص ٤٩ .

بحكم رئاسته للأزهر [1] ، شرع فى مهمة إصلاح التعليم فيه بإدخال العلوم الحديثة ، وبهذا عمل كثيراً على توسيع رأى أهل السنة ، وأزال الحاجز الذى كان يقوم بين الإسلام والحياة الحديثة فى مصر وفى كل بلد إسلامى وصل إليها تأثيره ، ثم واصل تلاميذه ما بدأه من عمل ، وهم وإن لم يبلغوا مبلغ شخصيته الباسلة فقد حملوا مبادئه بكتاباتهم وجهودهم الشخصية إلى جميع أجزاء العالم الإسلامى ، وأثروا تأثيرا كبيراً وخاصة عن طريق مجلتهم الشهرية « المنار » .

« ومن بين الأحزاب التى ظهرت فى المغرب فى ذلك الوقت حزب السلفيين وهو شعبة من الحركة التى تمثلها مجلة « المنار » فى القاهرة ، ولذلك فهو يحتفظ بصلات بهذه الحركة فى مصر ويتمثل خطاها ، ورغم عدد المنتمين إلى هذا الحزب فإن تأثيره يرجع إلى برنامجه المنطوى على الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة ، وتعبر عن هذا الحزب صحيفة « الشهاب » التى تصدر بالعربية فى قسطنطينية ويديرها عبد الحميد بن باديس » [2] .

وعندما سعى سعاة التفرقة بين الإمام محمد عبده والشيخ رشيد رضا كان من بين ما قاله ــ وكان عائداً من بعض أسفاره إلى أقطار العالم الإسلامى : « إن الله بعث إلىّ بهذا الشاب ــ الشيخ رشيد ــ ليكون مدداً لحياتى ومزيدا فى عمرى ، إن فى نفسى أمورا كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شغلنى عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد . وقد رأيت فى سفرى هذا من آثار عمله وتأثير (مناره) ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فقد أنشأ لى أحزابا ، وأوجد لى تلاميذ وأصحابا » [3] .

وعن أثر « المنار » يقول مؤلفو كتاب وجهة الإسلام « ولم يشرق (منار) الإسلام على المصريين وحدهم ، ولكنه أشرق على العرب فى بلادهم وخارجها وعلى المسلمين فى أرخبيل الملايو الذين درسوا فى الجامعة الأزهرية ، وعلى الأندونيسى المنعزل الذى ظل محافظا على علاقاته بقلب العالم الإسلامى بعد عودته لبلاده النائية على حدود دار الإسلام ... وقد أصبح الذين اقتبسوا من نور « المنار » منارات صغرى فى أندونيسيا بعد أن عادوا إليها ، وعملوا على إنشاء مجلات مشابهة ، وكان من بين أهداف حركتهم

(١) من المعروف أن الشيخ محمد عبده لم يشغل منصب شيخ الأزهر أو رئيس مجلس إدارته ، ولكنه عين عضوا فى مجلس الإدارة سنة ١٨٩٥ م (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ١ ص ٢٩) .

(٢) هاملتون جيب : المرجع السابق ص ٦٠ .

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، جـ ٣ ص ١٣١ .

التجديدية عدم الاقتصار فى أخذ الأحكام عن بعض كتب الإمام الشافعى ـ كما كان حادثا فى أندونسيا ـ ولكن الأخذ عن الأئمة الآخرين بما يناسب تغير الظروف والأحوال (١) .

لقد كان رشيد رضا صاحب رسالة لقى فى سبيلها عنتا واضطهادا احتمله صابرا ، فقد منعت الحكومة العثمانية دخول المنار إلى سوريا وأمرت بجمع نسخه وإحراقها (٢) ، وأوعز أبو الهدى الصياوى (٣) إلى ابن عمه والى طرابلس بالقبض على أخوة رشيد وإدخالهم الخدمة العسكرية العثمانية مع أن القانون يعفيهم من ذلك وأحدهم قد تجاوز سن الخدمة العسكرية ، وطلب أبو الهدى من كرومر إرسال رشيد إلى الأستانة ، وأرسل من حاول قتل رشيد ولكنه لم يتمكن من هذا (٤) .

---

(١) هاملتون جيب : وجهة الإسلام ، ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) المنار : المجلد الأول (١٨٩٨) ص ٨٨ و ٣٤٣ .

(٣) أبوالهدى الصياوى : سورى من حلب فقير المال والحسب استطاع أن يصل إلى بلاط السلطان عبد الحميد في الأستانة ، وكان ذا ذكاء ودهاء استطاع بهما أن يتغلب على عقل السلطان وقلبه ، فكان يفسر له أحلامه ويحدثه على هواه ، وادعى أنه هاشمى النسب وأصبح شيخا فى الطريقة الرفاعية ، ولم يقف عند الدين والولاية « الصوفية » ، بل مد نفوذه إلى الشئون السياسية والعسكرية « والإدارية » ، ومازال أمره فى الأستانة فى ازدياد حتى سمى « مستشار الملك » و « حامى العثمانيين » و « سيد الترك » واستمال إليه كثيرا من الأمراء والوجهاء والأعيان والعلماء فكانوا له عونا على تحقيق أغراضه ، وكان له أعين تأتى له بكل الأخبار فيستغلها أمهر استغلال انظر : (أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ، مرجع سابق ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ود . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٢ مرجع سابق ص ١٢٨) .

(٤) المنار : مجلد السنة الثانية ٢٤ يونيو سنة ١٨٩٩ م ،ص ٢٣٥ مقال بعنوان : « أتقتلون رجلا يقول ربى الله » .

٤ ـ مجلة الحيـــاة

محمد فريد وجدى :

صاحب مجلة « الحياة » (١٨٧٥ ـ ١٩٥٤ م) ولد بالإسكندرية لأحد كبار موظفى الحكومة هو « مصطفى بك وجدى » ، وتعلم فى مدارسها الابتدائية ثم نقل والده إلى القاهرة سنة ١٨٨٢م فأدخله المدرسة التوفيقية ولكنه كان ميالا إلى دراسة المواد الفلسفية ، مالت إليها نفسه دون غيرها ، فأحضر له والده مدرسين بالبيت يساعدونه على هذه الدراسة ، ثم انتقل والده إلى دمياط فانتقل معه وهناك بدأت تظهر أفكاره واتجاهه الثقافى ، وشغله موضوع العلاقة بين العلم والدين ، وهل هناك تناقض بينهما ، وملأ عليه هذا الموضوع فكره ومشاعره وأراد أن يقف على كل ما يتعلق به ، فترك الدراسة النظامية وعكف على مطالعة العلوم الاجتماعية والنفسية ، وأخذ يدرس الفلسفة وحده ليصل إلى حل ما أشكل عليه لعدم وجود من يرشده فى هذا الطريق العصرى .

وأكب على هذه الدراسة وأعطاها جهده ونفسه حتى أخرج سنة ١٨٩٨ م كتابه : « المدنية والإسلام » وهو لم يزل فى بداية الشباب ، ثم نقل والده إلى السويس فانتقل معه ، وأصدر مجلة « الحياة » شهرية فى غرة صفر سنة ١٣١٧ هـ الموافق ٩ يونية سنة ١٨٩٩م ، والتى ظلت تصدر حتى سنة ١٩١٥ م .

وكتابه الأول الذى أصدره قبل أن يصدر مجلة « الحياة » يلقى الضوء على اتجاهه الفكرى ، وهدفه من صحافته الإسلامية ومؤلفاته التى استمر يصدرها أكثر من نصف قرن (١) .

قال محمد فريد وجدى فى مقدمة هذا الكتاب : إن السبب الأول الذى دفعه إلى تأليفه هو تفهيم الأوربيين حقيقة الدين الإسلامى وماهيته ، وإثبات أنه ضامن للإنسان نيل السعادتين وكافل له الراحتين ، وهو يؤكد على أهمية هذا السبب ؛ لأن الأوربيين أصبحوا بجدهم ونشاطهم أصحاب السلطان على معظم العالم الإسلامى . وما داموا جاهلين بحقيقة الإسلام ، ومعتقدين بما يهذى به بعض كتابهم ضده ، فإنهم لا يستطيعون

(١) من الذين ترجموا لمحمد فريد وجدى : عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، محمد محمد عبد الفتاح : أشهر مشاهير أدباء العصر .

أن يروا فى ديانة محكوميهم إلا عبئًا ثقيلا على عقولهم وحملا مضنيا لمداركهم ، فلا يقرونهم عليه إلا احتراما لعواطفهم فقط ، راجين من العلوم العصرية والمعارف الطبيعية أن تقوم بتهذيبه فى المستقبل حسب ظنهم .

ثم يقول : إن الأوربيين معذورون فى تصديق التهم الموجهة ضد الإسلام والمسلمين ، ولهم الحق فى العمل ضده ما داموا لا يرون أمام أعينهم من مظاهر الدين إلا البدع التى اخترعها صغار العقول ونقلها منهم العامة ، ويعدد كثيرا من أشكال هذه البدع مثل الصياح فى الطرقات خلف الطبول وتحت الرايات ، واقتراف أشد المنكرات المنافية للأدب والعقل فى الموالد ، والاجتماع فى حلقات كبيرة على مرأى ومسمع من ألوف المتفرجين ، والصياح الشديد بالذكر مع التمايل يمينا ويساراً إلى غير ذلك .

والأوربيون معذورون أيضا لأنهم يرون كثيرا من عقلاء الأمة يرون هذه المنكرات دون أن يجدوا من أنفسهم ميلا إلى إبطالها مع أنها تجرّ عوامًّنا منا إلى كثير من الآثام بل تخل أيضا بعقيدة التوحيد النقية ، وأن انتشار هذا النوع من البدع وترك السنة الصحيحة هو السبب فى تردى هذه الأمة وهبوطها ، وهو يرى أن على كل شرقى متنور واجبان :

الأول : بيان حقيقة الإسلام للعالم أجمع ، وأنه فضلا عن كونه بريئا من الأضاليل التى ينسبها إليه بعض الكتبة ومنزها عما يفعله العامة على مرأى من المتفرجين ، فإنه ناموس السعادة الحقيقية وملاك المدنية الصادقة .

الثانى : أن يسعى عقلاء هذه الأمة فى محو البدع التى غص بها العالم الإسلامى وصارت نقطة سوداء فى جبين الشرق ، وموضوع استهزاء كل من عنده مسكة من العقل ، وهذا الواجب أشد ضرورة فى صلاح الأمة من الواجب الأول وضرورى لتحقيقه أيضا .

ويقول : إن هذه الأفكار كانت تجيش فى صدرى منذ بضعة سنوات وأنا إذ ذلك فى سن البدء فى العمل للوطن ، فلم أر أفضل لخدمته من هذه الوجهة ، فثابرت من حينها بهمة لا تعرف الملل على درس ما يؤهلنى إلى فهم حقيقة الإسلام ، حتى آنست من نفسى بعض القوة على القيام ببعض هذا الواجب الأقدس ، وابتدأت أعمالى بتأليف كتاب باللغة الفرنسية ، نفيت فيه عن الإسلام كل تهمة ألصقها به المفترون ، وأثبت بالأدلة الحسية وبالاستناد على البدائة العلمية أنه روح المدنية الحقيقية وعين أمنية النفس البشرية ، ونهاية ما

ترمى به القوة العقلية ، ولم أكد انتهى من تأليفه حتى بعثتنى نفسى إلى ترجمته إلى لغتنا العربية الشريفة لكى أكون قد قمت ببعض الواجبين المطلوبين .

واستكمالا لهذه الجهود الإسلامية التى بدأها منذ بداية شبابه الباكر أصدر محمد فريد وجدى صحيفة « الحياة » سائراً على نفس المنهج مع مزيد من الوضوح .

ونستطيع أن نرى معالم هذا المنهج الذى سارت عليه الصحيفة من مقدمة العدد الأول منها والأعداد التالية وأهم هذه المعالم ما يلى :

١ ـ إن العصر الحاضر كثر فيه اختلاط المجتمعات ولم تعد معزولة بعضها عن بعض ، وبالتالى كان من الواجب تعريف الأوربيين بحقيقة الإسلام ، وتوعية المسلمين بمحاسن الحضارة الغربية ومساوئها .

٢ ـ الوقوف فى وجه تقليد الشرقيين للأوربيين ، هذا التقليد الذى بدأ بما لأوربا من تقدم فى الفنون والصناعات والزخارف المدنية ، ثم امتد إلى الأخلاق والعادات ثم إلى العقائد ، حتى أصبح الكثيرون ممن يزعمون المدنية زورا يفتخرون بالتظاهر بالإلحاد على رؤوس الأشهاد ظنا منهم أن ذلك غاية غايات التقدم .

ثم يقول : « إن هذا النوع من التقليد الكاذب هو الذى هد ركن الفضائل الشرقية العليا من أفئدة شبان المشرق ، وانتزع روح الكمالات الإسلامية من قلوبهم ألا إن هذا هو السل الاجتماعى الذى أخذ يسرى فى جسم هيئتنا الاجتماعية حتى يخشى أن يتغلب على سائر الأعضاء ولو بعد حين ، فيكون سببا رئيسيا فى انقراضنا وتلاشينا ، وليس تلاشى الأمم الضالة عن الفضائل بالأمر البعيد » .

وعلى هذا فإن مقصد (الحياة) هو الوقوف فى وجه هذا التقليد الأعمى ، والحيلولة بين مكاريب الإلحاد وأذهان أبناء الشرق « فإن أجل خدمة تؤدى للإسلام هى وقوف بعض بنيه على مآرب ذلك التيار الأوربى المندفع بمصفاة من العلم لتحجز ما يحمله من قذر ، وتترك السبيل لسلسبيله الصافى ليرده من يريد بدون خوف ولا تحرج » (١) .

٣ ـ إنَّ الحيلولة بين مكاريب الإلحاد وأذهان أبناء الشرق يتطلب إقامة أقوى الأدلة العلمية على أن الديانة الإسلامية هى روح العمران وقوام سعادة الإنسان ، وإثبات وجود الله تعالى والروح والآخرة بالأدلة الدامغة المعتمدة على تحقيقات العلماء العصريين جريا مع

(١) مقدمة العدد الأول من السنة الأولى ، ٩ يونيو ١٨٩٩ م .

سنة الزمان مع تأييد أقاويلهم بالأدلة الفلسفية الحسية [1] .

وجريا على هذا الطابع الذى اتخذته مجلة الحياة ، أخذت تنشر ابتداء من عددها الثالث [2] بابا ثابتا بعنوان : « الشبهات العصرية على الأديان ونفيها عن الإسلام » ، وكان سبب نشر هذا الباب الثابت كما قالت الصحيفة : « إن مناظرات عنيفة جرت بين بعض علماء أوربا بخصوص الأديان ، فمنهم من كان ينتصر لها ومنهم من كان يتحامل عليها ، فكتب « برتلو » أكبر علماء الكيمياء فى هذا العصر مقالة فى مجلة « ريفيودى بارى » حمل بها على الأديان حملة منكرة اهتزت لها جوانح أوربا قاطبة وتناقلتها أكثر الجرائد العلمية لتحفظها بين صفحاتها كنموذج لأحكام العلوم الرسمية على الأديان فى العصر الحاضر ، وقد طالعنا هذه المقالة بدقة وإمعان فلم نر فيها إلا تحاملا مشينا لا يليق بأبناء هذا القرن ، ولما كنا متحققين بأن كل هذه الشبهات هى كل ما يمكن أن يقال « ضد التعاليم الدينية رأينا أن نلخصها تلخيصا مناسبا ثم نفرد لكل شبهة منها مقالا خاصا ليرى « برتلو » وأحزابه ، أن العلم الصحيح لا يناقض الدين الصحيح » ثم أوفى بما تعهد به فى الأعداد التالية .

وعلى هذا المنهج سارت الصحيفة فى تقديم موضوعاتها ، فكتبت عن « إثبات وجود الله تعالى » و « ما وراء المادة » [3] و « إثبات وجود الروح بالبراهين الحديثة » [4] و « نظريات الملاحدة ووجه بطلانها » [5] و « ما يقوله علماء العمران عن الإسلام » [6] .

وفى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٠ م أعلن محمد فريد وجدى فى مجلة « الحياة » عن طبع كتابه الثانى الذى يسير على نفس النهج فى الدعوة الإسلامية وعنوانه : « الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الحضرة الإلهية بالأدلة الطبيعية لمنشئ المجلة » .

ومحمد فريد وجدى صاحب رسالة وليس طالب مال أو شهرة فهو يقول تحت عنوان « استلفات مهم لحضرات القراء » [7] « إننا وإن كنا لا نود فائدة مادية من هذه المجلة إلا أننا لا نود أن نخسر فيها كثيراً .... » ويقول : « إن عددا كبيراً ممن ترسل إليهم المجلة تأخروا عن دفع الاشتراك رغم مطالبتهم أكثر من مرة » ويطلب من القراء ألا يلجئوا هذه

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ١٨ أغسطس ١٨٩٩ م
(٣) العدد الأول ٩ يونيو ١٨٩٩ م .
(٤) العدد السادس ٥ نوفمبر ١٨٩٩ م .
(٥) العدد السابع ٤ ديسمبر ١٨٩٩ م .
(٦) العدد الحادى عشر « ١ » أبريل ١٩٠٠ م .
(٧) العدد الخامس ، السنة الثانية ٢٥ سبتمبر ١٩٠٠ .

اليراعة لأن تنزل من الكتابة فى تلك المباحث الجليلة إلى تحريرها هذه الطلبات التافهة « أى طلب قيمة الاشتراك من القراء » .

وكانت صحيفة « الحياة » هى بداية جهود محمد فريد وجدى فى الصحافة الإسلامية ، واتضح فيها منهجه الذى سار عليه فى هذه الصحافة بعد ذلك والتى استمرت ما يزيد على نصف قرن ، فقد أصدر صحيفة الدستور ١٩٠٧ م وتولى رئاسة تحرير مجلة الأزهر سنة ١٩٣٥ م حتى قبيل وفاته سنة ١٩٥٤ م .

يقول عباس محمود العقاد حين بدأ العمل معه فى صحيفة الدستور [(١)] : « ولم يكن اسم فريد وجدى غريبا عنى ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الإسلامية الفلسفية ، فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الإسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثته لم يكن أيسر من الاتفاق على العمل معه فى صحيفته ، وخرجت أقول لنفسى : « إن أكبر خلاف بينى وبين كاتب كهذا لن يعوقنى عن العمل معه ، لأننى عجبت لحرية فكره ، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل التزمت والحرج فى شئون الدين والدنيا ، فما من فكرة قط كان يرى أنها قضية مسلمة وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الإقناع هو الذى كان يسوغ له أن يسمع كل رأى ، ويقبل كل تحد ، ويجيب على كل سؤال ، ودام عملى فى صحيفة « الدستور » من عددها الأول إلى عددها الأخير إلا شهور قليلة فارقتها فيها ثم عدت إليها ، فأكاد أقول إن ما خالفته فيه أثناء هذه المدة أكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه » .

---

(١) عباس محمود العقاد : حياة قلم ـ ط ، القاهرة د . ت ص ٤٨ .

الفصل الثالث

التيبوغرافيا والإخراج

اتبعت الصحافة الإسلامية الأساليب الأساليب نفسها المتبعة فى التيبوغرافيا [1] والإخراج في القرن التاسع عشر ، وقد صدرت فى نوعين : المجلات مثل : « الإسلام » و « المنار » و « الحياة » و « روضة المدارس » و « الأستاذ » ، والجرائد مثل « المؤيد » و « المنار » فى سنتها الأولى .

إخراج المجلات :

صدرت المجلات فى حجم واحد مساحة الصفحة فيه (١٥ × ٢٣) [2] . وللحديث عن إخراجها نتناول كلا من الغلاف وجسم المجلة على حدة .

الغــلاف :

استخدم خط الثلث اسم المجلة بسمك كبير يصل إلى سبعة سنتيمترات تقريبا (شكل ١ ، ٢) وكان هذا النوع من الخطوط يغلب استخدامه فى كتابة لافتات الجرائد والمجلات فى هذه الفترة ، كما كان يغلب عليه الأسلوب الزخرفى فى الكتابة .

أما باقى صفحة الغلاف الأولى – فى جميع المجلات – فقد خلت من الصور والرسوم ، وقد شغلتها مجلة « الإسلام » (شكل ١) بسطور مجموعة من بنط ١٦ أبيض تعبر عن سياسة المجلة ، وتوضح تاريخ صدورها ، واسم صاحبها ومحررها ، وقيمة الاشتراك ، وعنوان مقر المجلة وتاريخ التأسيس .

---

(١) يعنى هذا المصطلح التيبوغرافيا (typography) فن الهيئات المطبوعة ، أى كل ما يتصل بالحروف والخطوط والصور وما إليها ، مما تبصمه المطبعة على صفحات الورق . والأصل مشتق من كلمة « t » التى تطلق على حرف الطباعة ، من حيث هو جسم معدنى أو خشبى ، يعلوه شكل حرف أو أكثر أو جزء من حرف أو علامة ترقيم أو ما إلى ذلك ، كما تطلق الكلمة نفسها على مجموع هذه الحروف والأشكال . ويمكن الاشتقاق من المصطلح المعرب – تماما كمثيله الإنجليزى أو الفرنسى – فيقال « التيبوغرافيون » و « العناصر التيبوغرافية » . انظر د . أحمد حسين الصاوى : طباعة الصحف وإخراجها ، القاهرة ، ١٩٦٥م ص ١٥ .

(٢) هناك زيادات تتراوح بين بضعة ملليمترات بسبب عملية قص المجلة .

والملاحظ على هذه السطور أنها غير متساوية الاتساع بل جمعت كلها فى منتصف اتساع صفحة الغلاف ، تاركة بياضا غير منتظم على جانبيها ، وبالتالى فإنّ عامل الجمع لم يستخدم أية « كشائد » (١) لمد الحروف لعدم تقيده باتساع ثابت محدد لأى سطر من السطور .

أما باقى صفحة الغلاف ــ بعد اسم المجلة ــ فى « المنار » (شكل ٢) فقد تم التنويع بين بنطى ١٢ ، ١٦ أبيض لجمع السطور التى تحوى معلومات عن المجلة ، وتم جمع السطور فى وسط الصفحة ، واستخدم خط الثلث فى كتابة اسم منشئ المجلة (السيد محمد رشيد رضا) كما استخدم بنط ١٨ أسود المصمم على قاعدة خط الثلث لجمع كلمتى « المجلد الأول » واستخدم بنط ٩ أسود لجمع اسم المطبعة التى طبعت بها المجلة ــ فى أسفل الصفحة .

وأحاطت كثير من المجلات صفحة الغلاف بإطار كامل أو ناقص مصنوع من وحدات زخرفية (شكل ١ ، ٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن فكرة الزخارف فى كتابة الخط ، وفى الإطارات والفواصل والأقواس مستوحاة من فن النقش والزخرفة الإسلامية فى العمارة والآنية والحلى وتحلية المصاحف والكتب وغيرها ، والذى يقوم على تكرار وحدة زخرفية معينة ليتكون منها الشكل المطلوب .

جسـم المجلـة :

واتبعت المجلات أسلوبا تيبوغرافيا فى الصفحة الأولى من جسم المجلة (التى تلى الغلاف مباشرة) يشبه الرأس فى الجريدة كما فى مجلتى « المنار » و « الإسلام » (شكل ٣) ، ففى مجلة المنار كتبت لافتة باسم المجلة بالخط نفسه الذى كتب به الاسم فى صفحة الغلاف ، ولكنه أصغر حجما إذ يبلغ خمسة سنتيمترات ، ثم جمع شعار المجلة (حديث شريف) ببنط ١٢ أبيض أسفل اللافتة مباشرة ، وجمعت آيتان قرآنيتان بشكل رأسى على يمين اللافتة ويسارها ، وهو إجراء متعب لعين القارئ ، ولكن يقلل من أثر هذا العيب التيبوغرافى قصر الآيتين الكريمتين وإمكان تعرف القارئ عليهما بسهولة ، ويلى رأس الصفحة من أسفلها « العنق » أو السطر الذى يحمل تاريخ صدور العدد « dateline » (٢)

---

(١) الكشيدة : كلمة فارسية دخيلة تطلق على الزائدة التى تلحق بنهاية الحرف لإطالته . وأصلها اسم مفعول من الفعل « كشيدن » بمعنى « يسحب » أو « يجر » . انظر : د . حسين الصاوى ، فجر الصحافة فى مصر ، مرجع سابق ص ٢٩٠ هامش (١) .

(٢) انظر : د . أحمد حسين الصاوى : طباعة الصحف وإخراجها ، مرجع سابق ص ١٣٥ فى التعريف بهذه الوحدة التيبوغرافية .

وأحيط بجدول مزدوج فى أعلاه وأسفله يتكون من خطين رفيعن متماثلين .

أما هذه الوحدة التيبوغرافية فى مجلة « الإسلام » (شكل ٣) فتختلف عنها فى مجلة « المنار » فى أن اسم المجلة كتب بحجم الخط نفسه الذى كتب به على الغلاف ، وخلت من أى شعار أو جمل تحت اللافتة أو على جانبيها ، واختلفت كذلك فى شكل الجداول التى تحيط بالعنق .

وربما قصدت المجلات من نشر رأس للصفحة الأولى منها (التى تلى الغلاف مباشرة) إلى تيسير ترتيب الأعداد عند تجليدها فى نهاية السنة ، والتعرف على محتويات كل عدد على حدة عند وضع الأعداد فى مجلد واحد ، حيث كان ينزع الغلاف الذى يحتوى على رقم العدد وتاريخ صدوره .

الصفحات الداخلية :

غلب الشكل الكتابى bookish على المجلات فى القرن التاسع عشر ، فالحجم الذى صدرت به مساحة الصفحة فيه (١٥ × ٢٣ سم) تقريبا هو أقرب إلى حجم الكتاب منه إلى حجم المجلة ، وكانت المجلات تسلسل أرقام صفحاتها من عدد إلى آخر بصورة متصلة على مدار السنة كلها على اعتبار أنها تكون فى مجموعها كتابا واحدا متصلا ، كما استخدمت كلمة الجزء بدلا من كلمة العدد فى كثير من الأحيان ، تأكيدا لهذا الاتجاه ، وكانت المجلة تزود القارئ فى نهاية العام بفهرس لموضوعات السنة كلها يوضع فى بداية الأعداد عند وضعها فى مجلد واحد . وجميع متن المجلات من أبناط [(١)] تتراوح بين ١٢ ، ١٦ أبيض فى منتصف الصفحة ، وباتساع يبلغ خمسة وعشرين كورا [(٢)] ، وهو اتساع الجمع نفسه فى الكتب ذات القطع العادى (١٧ × ١٥ سم) ، كما جمعت العناوين من حروف المتن نفسها غالبا .

وقد شاعت فى مجلات هذه الفترة عدة عيوب تيبوغرافية مثل : عدم تقسيم الكلام

---

(١) أبناط جمع بنط point وهو وحدة قياس حجم الحرف الطباعى ، ويعادل $\frac{1}{72}$ من البوصة . ويقدر الحجم على أساس طول السطح الذى يرتكز عليه وجه الحرف ، وتتراوح أحجام حروف الطباعة بين ٥ أبناط و ١٤٤ بنطا ، وقد بدأ تقنين مقياس الحروف الطباعية فى فرنسا عام ١٧٣٧م بعد أن أدى اختلاف المسابك فى مقاييس الحروف التى تصنعها إلى صعوبات طباعية كثيرة . انظر : د . أحمد حسين الصاوى : طباعة الصحف وإخراجها مرجع سابق ص ٢٩ ـ ٣١ .

(٢) الكور corp أوالبيكا pica = $\frac{1}{6}$ من البوصة ، انظر : د . أحمد حسين الصاوى . المرجع السابق ص ٣١ .

إلى فقرات تبدأ كل فقرة بسطر جديد ، وعدم استخدام علامات الترقيم مثل النقطة والفاصلة مما أدى إلى ظهور صفحات على هيئة كتلة واحدة من مجموعات حروف المتن ، رديئة الإخراج صعبة القراءة . ويظهر ذلك فى (شكل ٤) ، وهو صفحة من مجلة « روضة المدارس » فى موضوع : « البدع المتقررة فى الشيع المتبربرة » ، وهو من أوائل الموضوعات فى الصحافة المصرية التى حاربت البدع المنافية للدين الإسلامى ، وفى (شكل ٥) وهى صفحة من مجلة « الإسلام » فى العدد الخامس الصادر فى ٤ يوليو سنة ١٨٩٤م.

ولا شك أن هذا عيب كبير فى مجلات هذه الفترة ، فإن تقسيم الكلام إلى فقرات تتناسب مع المعنى ، ووضع علامات الترقيم بين أجزائه ، يميز الكلام بعضه عن بعض ، ويساعد القراء على فهم المتن ، كما أن عدم وجودها يؤدى إلى الغموض وصعوبة القراءة .

على أن المجلات ظلت تضطرب بين تقسيم الكلام إلى فقرات وعدم تقسيمه طوال القرن التاسع عشر ، وكذلك بين وضع النقطة بين الجمل وعدم وضعها ، وتكاد النقطة أن تكون هى الوحيدة من علامات الترقيم التى استخدمت فى طباعة الصفحات ، غير أن هذه العيوب قلت كلما تقدمنا إلى أواخر القرن ، ولكن ظل التقسيم إلى فقرات ووضع النقط بين الجمل يتسم بعدم الدقة بوجه عام .

وحين ظهرت مجلة الإسلام ـ أول مجلة إسلامية متخصصة تصدر فى مصر سنة ١٨٩٤م أحاطت جميع صفحاتها بإطار لكل صفحة من جدول مزدوج يتكون من خط سميك (أسود) وخط رفيع (أبيض) (انظر شكل ٥) وهو نوع من الجداول يسمى (ثلث وثلثين) لا يزال استخدامه شائعا حتى الآن ، والبياض المتروك على يمين المتن ويساره ـ داخل الإطار ـ أقل من نصف كور بقليل مما لا يكفى لتيسير قراءة الصفحة .

وإحاطة الصفحات بهذا النوع من الإطارات هو من التقاليد التيبوغرافية المتبعة فى طباعة المصحف الشريف ، وهو وإن كان مناسبا فى طبع كتاب الله تعالى إلا أن تقليده فى طباعة المجلات ينتج صفحات صعبة القراءة ، ويبطل الإفادة من بياض الهامش الذى يعمل على إضاءة الصفحات . إن للمصحف طبيعة خاصة فالوحدة فيه هى الآية الكريمة وليست الجملة ، وتتوالى آياته حيث يفصل بين كل منها عادة دائرة زخرفية فى داخلها رقم الآية فى السورة ، كما أن طريقة قراءته وحفظه ذات طبيعة خاصة تختلف عن طريقة قراءة

المجلة ، ومن ثم كانت إحاطة صفحاته بمثل هذا الإطار مناسبة فيها ، بعكس استخدامه فى إحاطة صفحات المجلات .

وعندما بدأ « رشيد رضا » فى إصدار « المنار » أصدرها على شكل جريدة أسبوعية مساحة صفحتها (٢٦ × ٣٩ سم) [١] ، وفى بداية السنة الثانية أصدرها فى حجم المجلة السابق الإشارة إليه ، وفى خلال هذه السنة استخدم الإطار المزدوج حول الصفحات أحيانا ، ولم يستخدم فى أحيان أخرى ، ثم عدل عن استخدامه نهائيا فى أواخر السنة نفسها .

وفى بداية صدور كل من مجلتى « روضة المدارس » و « الإسلام » لم تستخدم الفواصل العرضية بين الموضوعات ، وكان الموضوع التالى يجمع من حروف المتن نفسها فى منتصف الصفحة بعد انتهاء سابقه مباشرة ، ويوضع العنوان بين قوسين زخرفيين . ثم استخدمت بعد ذلك الفواصل التيبوغرافية العرضية بين الموضوعات وكثرت فيها الأشكال الزخرفية (شكل ٦) ، ومزجت مجلة المنار بين استخدام الفواصل الزخرفية والجداول التى على شكل خط مستقيم للفصل بين الموضوعات .

إخراج الجرائد :

حين صدرت جريدة « الوقائع المصرية » ـ أول جريدة فى مصر ـ لم يكن من الصعب إدراك تأثر إخراجها بفن الزخرفة الإسلامية التى تعتمد على تكرار وحدة زخرفية متشابهة ومتماثلة فى الإخراج symmetry (شكل ٧) .

وصدرت جريدة « المؤيد » ذات الاتجاه الإسلامى فى ديسمبر سنة ١٨٨٩م فى الحجم العادى الذى تبلغ مساحة الصفحة فيه وقتئذ (٣٠,٥ × ٤٦,٥) وقسمت صفحتها إلى خمسة أعمدة . ولم يكن نشر « المؤيد » للموضوعات الإسلامية ، وتصديه للحملات الظالمة التى تحاول النيل من الإسلام هو وحده الذى أعطى الجريدة طابعها الإسلامى ، ولكن طريقتها فى إبراز هذه الموضوعات أيضا . فإذا رأينا حملة الجريدة لإبطال مزاعم المستشرقين حول موقف الإسلام من الرق ، وترجمة مقالات « هانوتو » وردود الإمام محمد عبده عليها ، وتصدى الجريدة لمحاولات إضعاف اللغة العربية الفصحى ، وموقفها

---

(١) اشتد طلب القراء بعد ذلك للحصول على ما فاتهم من أعداد السنة الأولى ، فأعاد « رشيد رضا » طبع مجلد تلك السنة فى حجم المجلة الذى بدأت « المنار » تصدر فيه مع بداية سنتها الثانية ، ولهذا يوجد فى دار الكتب والوثائق المصرية طبعتين من السنة الأولى للمنار : الأولى : فى حجم الجريدة ، والثانية : فى حجم المجلة السابق الإشارة إليه .

فى الحفاظ على الوجه العربى الإسلامى للجرائد وردود الشيخ محمد عبده على فرح أنطون وغيرها كثير ، وجدنا أن الجريدة تخصص لها أبرز مكان على صفحتها الأولى طبقا لمعايير إبراز الموضوعات الهامة فى ذلك الوقت .

ويحتل الرأس فى جريدة « المؤيد » اتساع الصفحة الأولى كله (شكل ٨) ، وكتابة اللافتة بخط الثلث بسمك يصل إلى عشرة سنتيمترات تقريبا وباتجاه زخرفى فى الكتابة ، وخلت الرأس من الأذنين ، ولكن وضع إلى يمين اللافتة ويسارها بعض المعلومات الخاصة بالصحيفة دون أن تحيطها بإطارات ، وإنما أحاطتها بالمساحات البيضاء فقط ، واحتوت العنق على التاريخ الهجرى والميلادى والقبطى ، وانقسمت الصفحة إلى خمسة أعمدة يبلغ اتساع الواحد منها ١٣ كورا ، واستخدمت جداول سوداء سميكة للفصل بين الأعمدة طوليا ، واستخدمت الصحيفة بنط ١٦ أبيض لجمع متن الصفحة ، أما العناويـن فاتخذت أحـد شكلين : إما أن تجمع من بنط المتن نفسه (١٦ أبيض) مع إحاطتها بأقواس مزخرفة ، أو تكتب بخط الثلث المشكول المزخرف حتى لو كانت كلمة واحدة (مكاتبات) .

وتمشيا مع التأثر الإسلامى للصحيفة فقد سبقت بالتاريخ الهجرى فى رأس الصفحة الأولى ، وكتبت الاسـم فى اللافتة بخط الثلث الكبير وملئـه بالحليات والزخـارف الخطيـة « وهذا تقليد عربى قديم درج عليه الخطاطون فى اللافتات والأختام والزينة الخطية للمساجد ودور العلم وغيرها ، ولذلك فليس عجيبا أن صحف الشاميين الأقباط لـم تتبعه ، ولنفس السبب كانت هذه الصحف تسبق بالتاريخ الميلادى فى رأس الصفحة الأولى أو عنقها ، بينما تسبق الصحف الأخرى بالتاريخ الهجرى »[(١)] .

وما ذكرناه عن العيوب التيبوغرافية فى جمع متن الموضوعات فى المجلات ، يمكن أن ينطبق على الجرائد أيضا من حيث عدم وضع علامات الترقيم أو الخطأ فى استخدامها ، ومن حيث التخبط بين تقسيم الكلام إلى فقرات وعدم تقسيمه .

واتبعت الجريدة أسلوب الإخراج الرأسى ، حيث اعتبر العمود وحدة الصفحة ، وفصلت الجداول بين الأعمدة فصلا كاملا من أعلى الصفحة إلى أسفلها ، وكان الموضوع الأول يبدأ فى أعلى أول عمود (على اليمين) حتى إذا بلغ نهايته تم إكماله فى أعلى العمود الثانى ، ثم الثالث .... وهكذا . مثل موضوع : « المسألة الإسلامية فى

(١) د . أحمد حسين الصاوى : الصفحة الأولى في الصحف الأمريكية مع دراسة التطور الصفحة الأولى فى الصحف المصرية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة : كلية الآداب ١٩٥٨م .

الجزائر » (شكل ٨) ، وعندما ينتهى الموضوع الأول يوضع عنوان الموضوع الذى يليه فى المكان الذى انتهى فيه سابقه . وإذا تم العمود الأخير فى الصفحة الأولى يتم إكمال الموضوع فى أعلى العمود الأول من الصفحة الثانية ، وهكذا تتوالى الموضوعات حتى يتم طبع الصحيفة كلها .

وفى منتصف عام ١٨٩٤م زاد حجم جريدة « المؤيد » فأصبحت مساحة صفحاتها (٤٤ × ٥٧,٥ سم) وقسمت الصفحة إلى ستة أعمدة ، ولكن المبادئ العامة للإخراج التى ذكرناها لم يطرأ عليها تغير يذكر .

وكذلك صدرت « المنار » فى سنتها الأولى أسبوعية فى حجم الجريدة (٢٦×٣٩ سم) وسارت على المبادئ العامة فى الإخراج الشائعة فى جرائد تلك الفترة كما ظهرت فى جريدة المؤيد .

ورغم خلو الصحافة الإسلامية فى فترة البحث من الصور والرسوم إلا أن الإمام محمد عبده قد أبدى رأيه فى استخدامها ، وترجع أهمية هذا الرأى إلى ما كان يواجهه أصحاب الصحف الإسلامية من حرج فى استخدام الصور والرسوم استنادا إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة التى رويت فى هذا الموضوع ، يقول الشيخ محمد عبده : « إن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية ، يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا ، والطمأنينة والتسليم ، وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر فى الصور المختلفة فتجد الفرق ظاهرا باهرا ... » [1] وبعد أن أفاض فى بيان فوائد التصوير قال : « ربما تعرض لك مسألة عنذ قراءة هذا الكلام ، وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز ، أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك : إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى وهو يجيبك مشافهة ، فإذا أوردت عليه

(١) مجلة المنار : فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٤م بعنوان : « رحلة صقلية : الصور والتماثيل فوائدها وحكمها » .

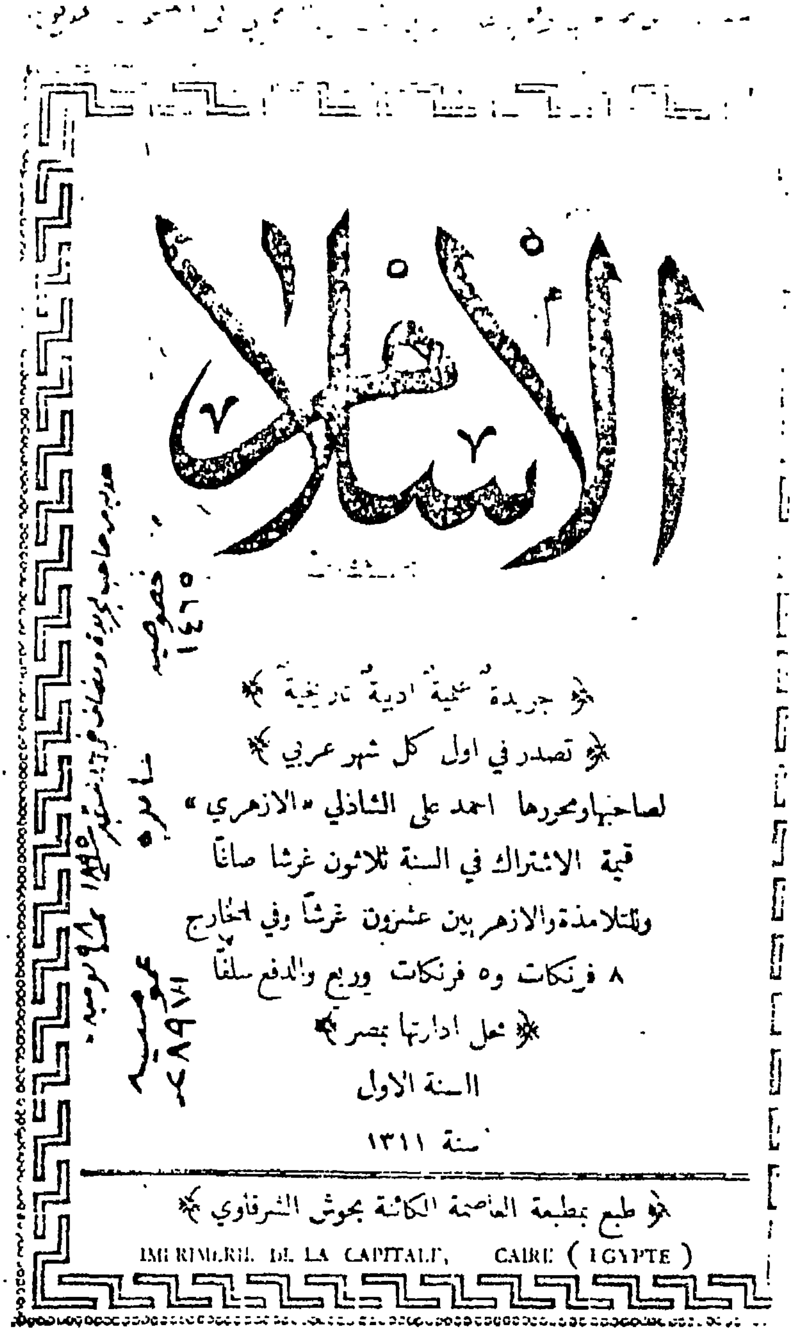
حديث : « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح ، والذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول : اللهو ، والثانى : التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغضه الدين ، والثانى مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان ، وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع ، وأما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر . « ثم يقدم خلاصة رأيه فى التصوير فيقول : « وبالجملة أنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل » (١) .

غير أن هذا الرأى الذى قال به الإمام محمد عبده فى إباحة التصوير ــ ضمن آرائه التى تمثل جانب التجديد فى الفكر الإسلامى ــ كان هدفا لهجوم أولئك الذين يمثلون جانب التقليد فى هذا الفكر ، فاتهموه ــ ضمن اتهاماتهم العديدة له ــ بأنه يبرر الحضارة الغربية تبريرا إسلاميا (٢) .

---

(١) مجلة المنار : فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٤م مقال بعنوان : « الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها » .

(٢) انظر فى هجوم أصحاب الجانب التقليدى على آراء الأستاذ الإمام فى هذه الأمور : د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢ ــ القاهرة ١٣٨٢ هـ ص ٣١٦ ــ ٣٢٦ .


الأستاذ

جريدة علمية ادبية تاريخية

تصدر في اول كل شهر عربي

لصاحبها ومحررها احمد على الشاذلي «الازهري»

قيمة الاشتراك في السنة ثلاثون قرشا صاغا

وللتلامذة والازهريين عشرون قرشا وفي الخارج

٨ فرنكات و٥ فرنكات وربع والدفع سلفا

محل ادارتها بمصر

السنة الاول

سنة ١٣١١

طبع بمطبعة العاصمة الكائنة بحوش الشرقاوي

IMPRIMERIE DE LA CAPITALE, CAIRE (EGYPTE)

شكل (١)

المنار

١٣١٥

مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران

« تصدر في كل شهر عربي مرة »

لمنشئها

السيد محمد رشيد رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي « المنار بمصر »

المجلد الاول

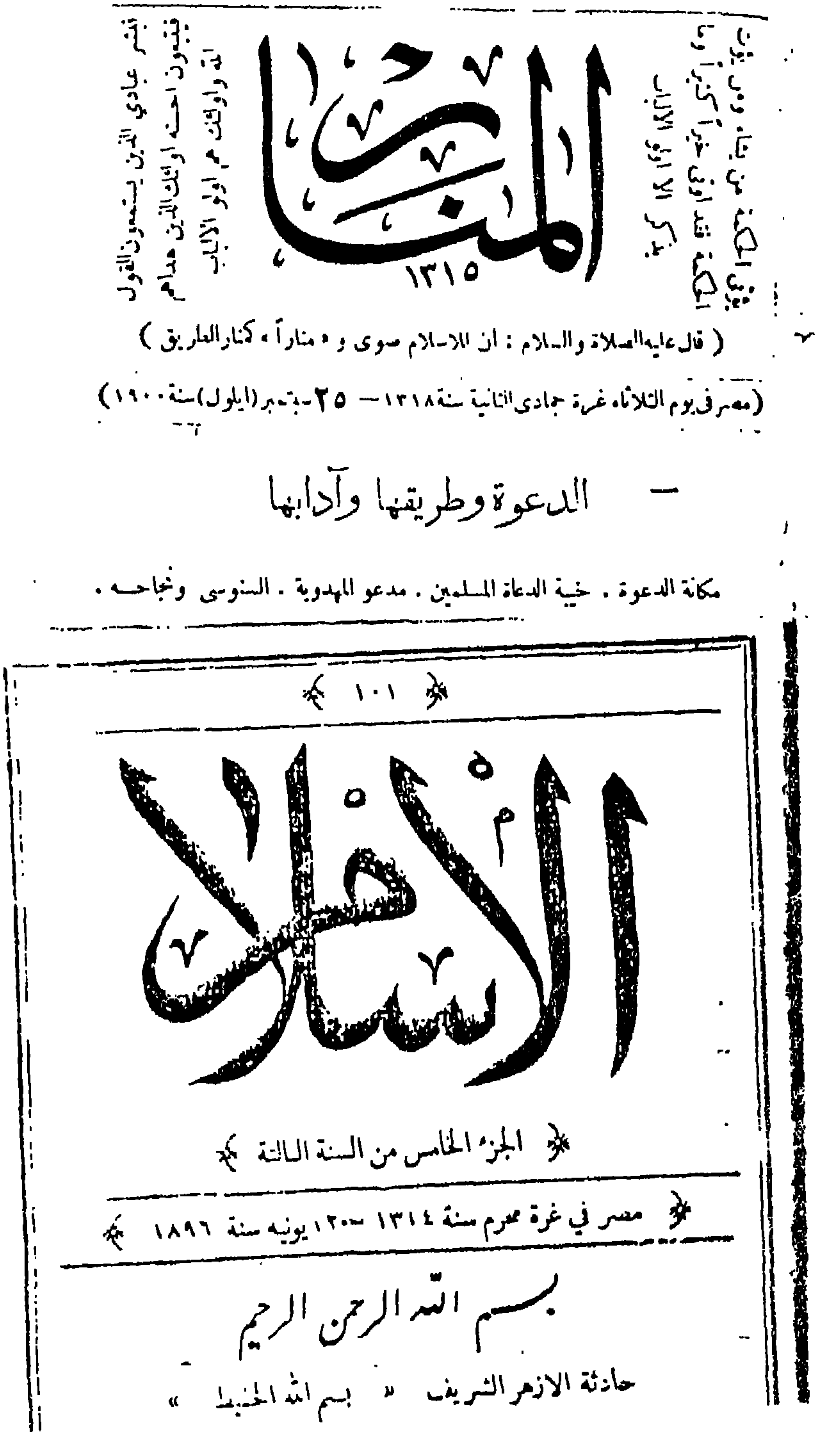
سنة ١٣١٥ وسنة ١٣١٦

قيمة الاشتراك عن سنة ستون قرشاً صاغاً في مصر والسودان
وفي المملكة العثمانية ثلاثة ريالات ونصف وفي الخارج ١٨ فرنكاً
و١٥ شلناً في الهند و٧ روابل في روسيا والدفع سلفاً

الطبعة الثانية سنة ١٣٢٧

طبع بمطبعة المنار بشارع درب الجماميز بمصر

شكل (٢)


فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الثلاثاء غرة جمادى الثانية سنة ١٣١٨ — ٢٥ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٠)

— الدعوة وطريقها وآدابها

مكانة الدعوة . خيبة الدعاة المسلمين . مدعو المهدوية . السنوسي ونجاحه .

١٠١

الاسلام

الجزء الخامس من السنة الثالثة

مصر في غرة محرم سنة ١٣١٤ — ١٢ يونيه سنة ١٨٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

حادثة الازهر الشريف « بسم الله الخبيط »

شكل (٣)

روضة -(٥)- المدارس

ابتدعوا وألحقوا الفرع بغير أصله ونسبوا أنفسهم لامهاتهم دون آبائهم وتفسير ذلك على
التفصيل ان الام هي الاصل وأمهاتها هي الجذ والبنت هي الفرع الصحيح والعقب والذرية والابن
ينسب لامه وهي لامها الى انقراض الدنيا وقبيلة الشخص عندهم من فيه رائحة الام وأم الام
والاخوال عندهم اخوة الام لامها وأولاد الخالات وما تناسلن وتفارعن ضدا لما وضعه الله
تعالى والعم أخو الاب لامه فاما الاخوال الذين جعلهم الله تعالى أخو الاحقيقة والاعمام الذين
جعلهم الله أعماما حقيقة وأبناء الاعمام وكل من انتسب الى الاب مطروحون جميعا فمثال ذلك
ان يتزوج رجل افريقي بامرأة مصرية فيولد له منها ولد أو أولاد فهؤلاء الاولاد لا ينسبون اليه
ولا ينسب اليهم فلا يسمى الولد افريقيا ابدا وانما يقولون مصري لكونه ابن مصرية ويتزوج
الشريف انصارية مثلا فما ولد له منها لا يسمى شريفا عندهم وانما يكون انساريا ولا يعتبرون
كون الام وضيعة والاب شريفا بل النسبة للام مطلقا ويكون للشخص بنو عمه حقيقة ولكن من
حيث تخالفت أمهاتهم يكون من قبيلة أمه ويكون ابن عمه المذكور من قبيلة أخرى ويكون
للرجل أولاد كثيرون من صلبه وكل من الاولاد له أم غير أم الآخر فانهم يكونون من قبائل ولا
يكونون من قبيلة واحدة أبدا الا اذا كانوا أشقاء أولام وهذا المذهب عندهم صحيح جدا كما صح
عند أهل الشرع مذهبهم واذا ماتت امرأة ولها أولاد ذكور متعددون ولم يكن لها بنات
يقولون ان فلانة ماتت عن غير عقب وأما لو خلفت ولو بنتا واحدة قالوا ان لها عقبا وذرية
وأولاد البنات أبناؤها وأما أولاد أبنائها فمن قوم آخرين بعيدين منها وفي نسبتهم أيضا ان الرجل
اذا اقدر الله عليه بولد من أمة فهذا الولد يتبع أم أبيه وهي تتبع أمها وهلم جرا واذا كان للرجل
أخوات وبنات فانهن يقلن لاولاد أخيهن من الامة أبناء أمتنا ولا يقلن أبناء أخينا أو خالنا
وربما اتفق ان سلطانا تولد له أولاد من امرأة ليست من قبيلته فان ابنه لا يكون أبدا سلطانا وأما
ان كانت أمهم من قبيلة السلطنة فانهم يدخلون في مكان أمهم لا أبيهم فالحاصل ان الانثى وما
ولدت جميعا يكونون من قبيلة أمهم وأما الذكر وما ولد فمن قبيلة أخرى فهل حفظكم الله تعالى
هؤلاء القوم الموصوفون بما ذكر يحكم الشرع باسلامهم مع تواطئهم على هذا النسب والرضى به
والتصحيح عليه بحيث لا يقدر أحد على تغييره ولا ينكر عليهم أحد الا قالوا هذا ما وجدنا عليه
أمهاتنا وآباءنا أو هم كفار وان قلتم مسلمون فهل هم مبتدعة أو سنية عصاة وان قلتم بالكفر فمن
اى قبيل من الكفر وهل الاولون الذين وضعوا هذا النسب هم الكفار ومن بعدهم عصاة
باتباعهم اياهم أو كفار أيضا مثلهم وهل يفصل بين العالم بذلك فيكفر والجاهل فيعذر أم سواء وان
قلتم بالمبتدعة فمن أي فرقة من المبتدعة وهل يجوز لمن فتح الله عليه ببغضهم هذا الشأن ولم يرض به
وبغضهم وبغض هذا الفعل منهم ان يسكن عندهم ويتزوج منهم مع معرفته بان أولاده

شكل (٤)

١١٦

لانه ميزان الله الذي يعدل عليه احوال الناس في الارض و [illegible]
القضاء والعمل تصلح احوال الرعية وتأمن السبل وينتصف [illegible]
الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ويؤدي حق الطاعة و [illegible]
والسلامة ويقيم الدين ويجري السنن والشرائع في مجاريها واشتد في [illegible]
عزوجل وتورع عن النطق وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد [illegible]
الضجر والقلق واقنع بالقسم وانتفع بتجربتك وانتبه في صمتك واسدد في منطقك
وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ في الحجة ولا يأخذك في [illegible]
رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن و [illegible]
واختبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن
الى سفك الدماء فان الدماء من الله عزوجل بمكان عظيم [illegible]
وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا ورفعة
ولاهله توسعة ومنعة ولعدوه كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاهديهم [illegible]
وصغارا فوزعه بين اصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن [illegible]
عن شريف لشرفه ولا عن غني لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من
خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ولا تكلف امرا فيه
شطط واحمل الناس كلهم على امر الحق فان ذلك اجمع لالفتهم والزم لرضاء
العامة واعلم انك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما سمي اهل عملك
رعيتك لانك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما اعطوك من عفوهم وتنفذه في قوام
امرهم وصلاحهم وتقويم اودهم واستعمل عليهم اولي الرأي والتدبير والتجربة
والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعفاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من

شكل (٥)

انعامات سنية

انعم الجناب العالي الخديوي المعظم بالشان العثماني من الدرجة الثانية على سعادة محمود باشا شكري رئيس الديوان التركي الخديوي وعلى سعادة عبد الحليم باشا عاصم الياور الاول الخديوي و بالنشان المجيدي من الدرجة الثانية على سعادة محمد عباني باشا سرتشريفاتي خديوي و بالنشان المجيدي من الدرجة الثالثة على حضرة احمد بك شهيق رئيس قلم الترجمة و بالنشان العثماني من الدرجة الرابعة على حضرة محمود بك فهمي وكيل الخاصة الخديوية وعلى حضرة حسن افندي رفعت مدير تلغرافات الديوان الخديوي فنهنئهم جميعاً على هذه التعطفات

قد تعين حضرة الفاضل الشيخ محمد عثمان خوجة عربي بمدرسة القبة الخديوية بعد ان ادى الامتحان بنظارة المعارف ونال الدرجة الاولى وهو جدير بذلك فانه شاب بارع

الدر المنتخب

قد اهدانا حضرة الاديب البارع اربي افندي ابو المز نسخة من الجزء الثاني من كتابه (الدر المنتخب) فالفيناه على نسق الجزء الاول حاوياً كثيراً من

شكل (٦)

أعلى عدم وجود فاصل عرضى بين الموضوعات فى مجلة الإسلام وأسفل بعض أنواع الفواصل العرضية فى المجلات الإسلامية .



شکل (۷)


المؤيد

شكل (٨)

الباب الثانى

الصحافة الإسلامية والدعــوة

الفصل الأول : الصحافة الإسلامية والتفقيه والإرشاد الدينى .

الفصل الثانى : الصحافة الإسلامية ومحاربة البدع والخرافات .

الفصل الأول

الصحافة الإسلامية والتفقيه والإرشاد الديني

كان للصحافة الإسلامية في القرن التاسع عشر دور هام في التثقيف الإسلامي والتعريف بالإسلام عقيدة وعبادات ومعاملات ، وكان للكتاب الإسلاميين في صحافة ذلك العصر أثر في الرأى العام الديني لا يقل ـ بحال ـ عن أثر المؤسسات التعليمية والإرشادية الموجودة في مصر في هذا القرن إن لم يزد عليها جميعا ، ويمكن أن نميز في صحافة ذلك القرن عددا من الاتجاهات فيما يتصل بالتفقيه والإرشاد الديني .

١ ـ فتح باب الاجتهاد والتجديد :

ساد في أوائل القرن التاسع عشر وما سبقه من قرون رأى يقول : إن باب الاجتهاد قد أغلق منذ عهد الأئمة الأربعة مما جعل جمال الدين الأفغاني يصيح فيمن قال له هذا ، واحتج عليه بأن القاضي عياض قال بغير قوله : « .. يا سبحان الله ، إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق وأوجه ، وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة ؟ » .

« وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس (هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم) قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا وقالوا ، وأدلوا دلوهم في الدلاء في ذلك البحر المحيط من العلم ، وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان » [1] .

والواقع أن أول من أثار هذه القضية ، وفند الرأى القائل بإقفال باب الاجتهاد هو رفاعة الطهطاوى على صفحات روضة المدارس .

ففي هذه المجلة نشر رفاعة مقالا طويلا وكتابا مسلسلا على هيئة ملاحق للصحيفة قدم فيهما رأيه بأن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة ، وأن العلماء المجتهدين هم أولى الناس

---

(١) جمال الدين الأفغاني : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ـ د . ت ص ٣٢٩ .

بالاعتراف بفضلهم وبقاء حسن ذكرهم .

أما المقال الذى نشره رفاعة فعنوانه : « بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر » [١] ، ويقول فيه : « لم يسم المجتهدون بهذا الاسم إلا لبذل أحدهم وسعه فى استنباط الأحكام الكائنة فى الكتاب والسنة ، فإن الاجتهاد مشتق من الجهد ، وهو هنا المبالغة فى إتعاب الفكر وكثرة النظر فى أدلة مدارك الحق ، ففضل المجتهدين عظيم ونفعهم للأمة جسيم ، فإنهم لولا استنبطوا للأمة الأحكام من الكتاب والسنة ما قدر أحد غيرهم على ذلك .. » .

ويقول [٢] : « فإنه لولا بين لنا رسول الله ﷺ كيفية العبادات والمعاملات وغيرها من مكارم الأخلاق ، ما اهتدى أحد من الأمة لمعرفة استخراج ذلك من القرآن ، فكما أن الشارع ﷺ بين لنا بسنته ما أجمل فى القرآن فكذلك الأئمة المجتهدون بينوا لنا ما أجمل فى أحاديثه الشريفة ، ولولا بيانهم هذا لبقيت الشريعة على إجمالها ، والرسول ﷺ يقول : « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » [٣] .

ويقول : « والرسول ﷺ هو القدوة والأسوة فاقتدى به فى أحواله وأخلاقه الصحابة ، ولا سيما فى بيان الأحكام وتبعهم التابعون ، وهكذا أهل كل دور بالنسبة للدور الذى قبلهم إلى يوم القيامة فإن الإجمال لم يزل ساريا فى كلام الأمة محتاجا إلى البيان والتفصيل ، وهذه هى وظيفة المجتهدين المجددين لأمر الدين .. ومثل هؤلاء ذكرهم باق إلى يوم التلاق » [٤].

وهكذا بين رفاعة رأيه فى أن باب الاجتهاد مفتوح إلى يوم القيامة وعارض من قال بإغلاق باب الاجتهاد [٥] .

وبعد أن بين رفاعة ــ فى هذا المقال ــ رأيه فى قضية انقطاع الاجتهاد أو بقاء بابه مفتوحا ، وعد أن يعود إلى معالجة هذا الموضوع فى (روضة المدارس) وبالفعل عاد إليه فنشر كتابه : « القول السديد فى الاجتهاد والتجديد » على هيئة ملاحق فى

(١) روضة المدارس : العدد الثالث ــ الإثنين ١٥ صفر سنة ١٢٨٧هـ .

(٢) نفس المصدر . (٣) رواه أبو داود فى السنن .

(٤) روضة المدارس : نفس المصدر السابق .

(٥) ونحن لا نتفق فى هذا الموضوع مع الأستاذين محمد عبد الغنى حسن وعبد العزيز الدسوقى في كتابهما : « روضة المدارس » ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م ص ٧٥ حيث يقولان : « والظاهر من عبارته ــ رفاعة الطهطاوى ــ ترجيح رأى من يقول بانقطاع الاجتهاد ، فهو لا يرى حجة السيوطى المؤسسة على الحديث النبوى القائل : « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » .

الصحيفة [1] ، وفى هذه الفصول يتعرض رفاعة لمسألة الاجتهاد فى آراء من كتبوا قبله فى هذا الموضوع ويعرض آراءهم بشىء من التفصيل ، وقد دل رفاعة بكتابه هذا على أنه أزهرى متمكن من المسائل الفقهية ، والموضوعات الشرعية التى أخذ أصولها من دراسته الأزهرية قبل أن يسافر إلى باريس .

ورأى رفاعة المؤيد للاجتهاد واضح فى كتاباته الأخرى فى غير صحيفة (روضة المدارس) ، ففى كتابه : « مقدمة فى ذكر هـذا الوطن وما قاله فى شأنه أصحاب الفطن » يقول : « وإنما مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة ، وجددت فيهم وازع الحركة التجارية وترتب على ذلك نوع انتظام ، حيث ترتب الآن فى المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلفة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب بقوانين ـ فى الغالب ـ أوربية ، مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل به على من وفقه الله بذلك من ولاة الأمور المستيقظين ، ولكل مجتهد نصيب » .

ومن أوجه الاجتهاد والتجديد فى صحيفة روضة المدارس ما نشره فيها عبد الله فكرى بعنوان : « رسالة فى مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد فى النصوص الشرعية » [2] والرسالة تبحث فى جانبين : **الأول** : الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى جاء بها ذكر النواحى الفلكية والعلوم الطبيعية ، **والثانى** : بعض جوانب الاكتشافات الحديثة فى الفلك والطبيعة ، ثم يقارن بين الجانبين ليصل إلى التوافق بين النصوص الشرعية والاكتشافات العلمية الحديثة .

وبعد أن يورد عبد الله فكرى آراء العلماء السابقين فى هذه المسألة ، يورد رأيه فى العلاقة بين الآيات الكونية فى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وبين الاكتشافات الحديثة فيقول : « إذا تعارضت مسألة فلكية ونص شرعى فهذه المسألة الفلكية بحسب القضية العقلية لا تخلو من أحد أمرين : إما أن تكون مثبتة بالدلائل القطعية أم لا ، فإن كان الثانى ـ أى كانت هذه المسألة مذكورة فى كلامهم دعوى من غير دليل ولا يقوم عليها برهان صحيح وحجة قاطعة فلا حاجة بنا حينئذ إلى التأويل ، إذ لا ضرورة بنا إلى تقليد كل ما قيل بدليل ومن غير دليل لمجرد أن قائله أثبت بعض ما قاله بالدلائل ، ولا يلزم

---

(١) ابتداء من العدد الصادر في غاية ربيع أول سنة ١٢٨٧ هـ .

(٢) روضة المدارس : العدد الخامس السنة السابعة ـ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ .

من قيام الدليل على مسألة ثبوت باقى المسائل ، أما إذا كانت المسألة قد أثبتت بدلائل قطعية وبراهين مسلمة لا تبقى معها شبهة ، فإن عارضها شئ من الظواهر والنصوص يقبل التأويل بما تطابقه المسألة ، ويحتمل الحمل على ما أثبتته الأدلة ، قلنا بذلك التأويل وعلى الله قصد السبيل ، وأما إذا عارض تلك المسألة القطعية ـ بالفرض والتقدير والتسليم الجدلى ـ نص شرعى لا نعلم له تأويلا فوضنا علمه إلى الله سبحانه وتعالى حتى يعلمنا تأويله ، وعلمنا أن عدم وقوفنا على تأويله إنما جاء من قصور أذهاننا عن المضاء فى فهمه والنفوذ إلى معرفته ، فهذا الذى أختاره وأرتضيه » (١) .

٢ ـ تفسير القرآن الكريم :

كان من الطبيعى أن تكون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة هى السند الحقيقى للكتاب فى الصحافة الإسلامية ، وكان مقصدهم تفسير الآيات وشرح الأحاديث توضيحا للأفكار التى يتناولونها في مقالاتهم ، وقد مر بنا ـ فى مجرى حديثنا عن صحيفة العروة الوثقى ، أن مجموع ما نشرته من مقالات فى أعدادها الثمانى عشر ـ هو ست وعشرون مقالة ، من بينها سبع عشرة مقالة كانت عناوينها آيات قرآنية يكون المقال شرحا للآية ، مع أخذ العظة والعبرة منها فى تدبر الأحداث الجارية فى البلاد الإسلامية .

وقد مضت صحيفة (العروة الوثقى) ـ فى فترة صدورها ـ تنبه الغافلين ، وتوقظ النائمين ، وتبين للناس أن الدين ليس كلمات تقال فى صلاة أو تقليدا يتبع فى صوم ، أو ترديداً للشهادتين فحسب ، ولكن الإسلام ـ مع ذلك كله ـ بل قبل ذلك كله ـ عقيدة تهيمن على كل تصرفات المسلم وتوجهه فى كل أعماله ، وكان من أخطر ما صنعته الصحيفة فى هذه المقالات العنيفة الثائرة أن خرجت على الناس بعدد من الآيات القرآنية ، كان الناس قد صرفوا عن تدبرها ، وأهملوا الاستشهاد بها والتأمل فى معانيها حتى بدت حين عرضتها الصحيفة على الناس وبثتها فى ثنايا مقالاتها ، تربط بينها وبين الظروف التى تجتازها الأمم الإسلامية ، بدت كأنها شىء جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التى كان يستشهد بها الوعاظ فى خطبهم ومقالاتهم منذ شدد الاستبداد قبضته على الناس ، لم تكن تتجاوز ما يتصل بما أعد الله من حسن الثواب للمتقين ، أو ما أعد من العذاب للعصاة والمفسدين ، ولكن صحيفة (العروة الوثقى)

---

(١) روضة المدارس : المصدر السابق .

أبرزت فى مقالاتها جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفتت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة ، فهى تكتب عن امتحان الله للمؤمنين فتصدر المقال بالآية الكريمة : ﴿ **ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ (١) . وتبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ، ثم لا يسهل عليهم الإيمان احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ، ليسوا بمعزل عن المنافقين وتستشهد بالآية الكريمة : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** ﴾ (٢) . وتختم المقال بقولها : « إن امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن إلى أن تنقضى الدنيا ، فى كل قرن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أولى بأس شديد ، فإن يطيعوا يؤتهم أجرا حسنا ، وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما ، فميزان عدل الله منصوب إلى يوم القيامة ، وهناك الجزاء الأوفى » (٣).

وتجعل عنوان مقال آخر الآية الكريمة : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أوآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ (٤) إلى جانب عنوان آخر : « أسباب حفظ الملك » وتطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك الله من شعوب ، وما أباد من قبائل ، وما دمر من بلاد للاعتبار بأسباب هلاكهم ، ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد مستشهدا بالآية الكريمة ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ (٥) و ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ (٦) وتذكر من (أسباب حفظ الملك) عدم الاعتماد على الأجنبى مستشهدة بقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ (٧) وقوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** ﴾ (٨) وتذكر الصحيفة (من أسباب حفظ الملك) ـ وهذا هو عنوان المقال مع الآية الكريمة ـ انصراف الناس إلى التوغل فى الشهوات مما يغفل قلوبهم عن الفرائض المفروضة

(١) سورة العنكبوت : ١ ـ ٣ ، العروة الوثقى : عدد ١٥ ـ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤م .
(٢) سورة التوبة : ٤٤ ، ٤٥ . (٣) العروة الوثقى : المصدر السابق .
(٤) سورة الحج : ٤٦ . (٥) سورة آل عمران : ١٠٣ . (٦) سورة الأنفال : ٤٦ .
(٧) سورة الممتحنة : ١ . (٨) سورة آل عمران : ١١٨ .

عليهم ، ويصرفهم عن القيام بواجباتهم مستشهدة بالآيات : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** ﴾ (١) و ﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون** ﴾(٢) و ﴿ **ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون** ﴾ (٣) .

وتذكر من هذه الأسباب لحفظ الملك ـ الشورى مستشهدة بأمر الله لنبيه ـ وهو المعصوم من الخطأ ـ بقوله : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ (٤) وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين فى قوله : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾ (٥) وتذكر الصحيفة من هذه الأسباب حفظ القوة وتستشهد بالآية الكريمة : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ (٦) وتختم الصحيفة المقال بحث العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب اللّه وإيقاظ الغافلة قلوبهم عما فرض اللّه ، وعلى أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد اللّه ، ووعده الحق فى قوله تعالى : ﴿ **وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾ (٧) .

وهكذا تفعل الصحيفة فى باقى مقالاتها فمثلا تنشر مقالا آخر عنوانه الآيتين الكريمتين (٨) : ﴿ **إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (٩) فيشرح الآيات و ﴿ **ذلك بأن اللّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (١٠) فيشرح الآيات فى ربط بينها وبين الظروف التى تجتازها الأمة الإسلامية فى أسلوب جديد يستنهض الهمم ، ويدفع دماء الغيرة على الإسلام والحمية فى سبيل نهضة الأمة فى النفوس التى استنامت إلى الخمول .

يقول السيد رشيد رضا إنه لما وقعت يده على أعداد « العروة الوثقى » انتقل إلى فهم جديد للدين الإسلامى ، فقد كان همه قبل ذلك محصوراً فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا ، وكان مجدا فى ذلك حينما وجد . وبعد أن التقى بصحيفة (العروة الوثقى) تعلقت نفسه ـ إلى جانب ذلك ـ بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم (١١) ومباراة الأمم العزيزة

---

(١) سورة القصص : ٥٨ . (٢) سورة المؤمنون : ٦٤ ، ٦٥ . (٣) سورة غافر : ٧٥ .
(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ . (٥) سورة الشورى : ٣٨ . (٦) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٧) سورة النور : ٥٥ . (٨) العروة الوثقى : العدد ١٧ فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ .
(٩) سورة الرعد : ١١ . (١٠) سورة الأنفال : ٥٣ .
(١١) عرضنا فيما سبق مقال (العروة الوثقى) (أسباب حفظ الملك) .

فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة وطفق يستعد لذلك استعدادا [١] .

بل إنه حاول الاتصال بصاحبى الصحيفة ليواصل معهما الجهاد على طريقهما ، ولم يهدأ له بال إلا بالسفر إلى مصر والتتلمذ على الشيخ محمد عبده وإصدار صحيفة المنار امتدادا للعروة الوثقى .

وتفسير المنار هو الاسم الذى أطلق على تفسير القرآن الكريم الذى بدأه الشيخ محمد عبده ثم واصله ــ بعد وفاته ــ الشيخ رشيد رضا ، ونشر فى صحيفة (المنار) وهو واحد من أهم كتب التفسير فى العصر الحديث ، بل يذهب بعض الكتاب إلى أنه خير تفسير طبع على الإطلاق [٢] .

وكان طبيعياً أن يقترن اسم هذا التفسير بالمنار ، لأنه نشر أولا على صفحاتها قبل أن يطبع فى كتاب مستقل ، ولأن صاحب صحيفة (المنار) كان له الفضل فى إخراجه إلى حيز الوجود .

والحقيقة أن صحيفة (العروة الوثقى) هى التى أوحت بفكرة (تفسير المنار) إلى رشيد رضا ، ورشيد رضا هو الذى ألح فى ظهوره ، وصحيفته « المنار » هى التى نشرته .

وصل رشيد رضا إلى القاهرة فى ٧ فبراير سنة ١٨٩٨م ، وفى ضحوة اليوم التالى ذهب لمقابلة الأستاذ الإمام فى منزله ، وكان أول اقتراح لرشيد على الإمام « أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التى وجدنا روحها ونورها فى مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة ، ولكنه لم يجد من الإمام محمد عبده موافقة على اقتراحه واعتذر بأن « القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنه بعض ، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل » [٣] .

فاقترح عليه رشيد ــ أكثر من مرة ــ أن يقرأ درسا فى التفسير ، ولكنه اعتذر أيضاً بانصراف العلماء وطالبى العلم فى الأزهر والمدارس عن العلم المفيد إلى ما ألفوه واعتادوا عليه ، وقد سبق أن قرأ درسا فى بعض الدروس فى التفسير فلم يجد الاهتمام الكافى

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٨٤ و ٨٥ .

(١) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسات الأدبية ط بيروت سنة ١٩٥٦م ، جـ ٢ ص ٣٩٦ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٥٦ .

بكتابتها واستيعابها وتقديرها ، وقال إن حالة المخاطبين تؤثر فيه جداً « فإذا حضر فى جماعة من البلداء الخاملى الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة ، وإذا كان هناك من ينتبه لما أقول ويلقى له بالا يفتح الله على بكلام كثير » (١) .

وفى يوم كان رشيد فى زيارة الأستاذ الإمام ووجده يقرأ فى كتاب فرنسى فى الطعن على الإسلام ورد الإمام على هذه المطاعن وفندها ، وأفاض فى ذلك مستشهداً بآيات القرآن الكريم .

ووجد رشيد الفرصة سانحة لإحياء اقتراحه السابق ، فطلب منه أن يكتب تفسيراً على هذا النحو الذى تكلم به يقتصر فيه على حاجة العصر ويترك ما هو موجود فى كتب التفسير ويبين ما أهملوه .

وما زال رشيد بالإمام يحاول إقناعه قائلاً : إنه يوجد كثير من المتنبهين لحالة العصر والإسلام فى البلاد المتفرقة ، وكثير منهم ما نبههم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أتنبه التنبيه الذى أنا عليه إلا بها ، وسيزيد عدد المتنبهين يوماً بعد يوم والكتابة تكون مرشداً لهم فى سيرهم ـ وأن الكلام الحق وإن قل الأخذ به والعارف بشأنه ، لابد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباءة المناسبة له وهو مقتضى ناموس الانتخاب الطبيعى ، كما حفظت (العروة الوثقى) فإن أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت ، لكن ما فيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى الطروس والنفوس .

ولم يزل رشيد رضا بالإمام محمد عبده حتى أقنعه بقراءة دروس التفسير فى الأزهر فاقتنع وبدأ رشيد بنشر هذه الدروس على صفحات (المنار) ابتداء من العدد السادس من السنة الثالثة الصادر فى ٣٠ إبريل سنة ١٩٠٠م (أول المحرم سنة ١٣١٧هـ) وعندما انتقل الإمام إلى جوار ربه (١٩٠٥ م ـ ١٣٢٣ هـ) تولى رشيد بنفسه تكملة تفسير المنار (٢) .

وكانت طريقة الإمام محمد عبده فى قراءة دروس التفسير على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات (٣) .

وكان رشيد رضا يطلع الإمام على ما يعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه

(١) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٧٦٦ و ص ٧٦٧ .

(٢) رشيد رضا : المرجع السابق ص ٧٦٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ٧٦٨ ، ٧٦٩ .

في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات ، ويقول رشيد : « ولا أظن أنه انتقد كلمة مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب معجباً به » .

« ولما كان ــ رحمه الله تعالى ــ يقرأ كل ما أكتبه إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الأقل ، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه إليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبته عنه في مذكرات الدروس ؛ لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو ، وبعد أن توفاه الله تعالى صرت أرى من الأمانة ألا أعزو إليه إلا ما كتبته عنه أو حفظته حفظا ، وصرت أكثر أن أقول : قال ما معناه أو ما مثاله ، أو ما ملخصه مثلا ، على أننى أعتقد أنه لو كان بقى حيا لأقره كله » .

وكان لدروس الأستاذ الإمام فى التفسير آثاره البعيدة فى مجالين : مجال الذين يحضرونها فى الرواق العباسى فى الأزهر من صفوة المتعلمين فى المجتمع المصرى ، ومجال قراء المنار فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى .

كان يحضر هذه الدروس كثير من علماء الأزهر وأساتذة المدارس الثانوية والعالية وكبار رجال القضاء الأهلى ، وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة ، ومنهم محافظ مصر المرحوم ماهر باشا ، وعلى ذو الفقار الذى كان مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية (ثم محافظا لمصر) فكان الرواق العباسى يكتظ بحاضرى الدروس حتى إن مابه يسد بالواقفين فيه الذين لا يجدون مكانا للجلوس (١) .

أما صدى هذا التفسير وآثاره فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ــ والذى كان الفضل فيه لصحيفة المنار ــ فقد تحدثنا عنه فيما سبق إبان حديثنا عن صحيفة المنار فى الباب الأول ثم فى هذا الفصل .

ويلخص الدكتور محمد البهى منهج الشيخ محمد عبده فى التفسير فى عدد من النقاط تحدد بدقة وبصيرة هذا المنهج فيقول (٢) :

---

(١) رشيد رضا : المرجع السابق ص ٧٦٩ .

(٢) د . محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ط ١ وهبة سنة ١٩٨١م ، ص ١٣٧ ، والدكتور محمد البهي : اختارته محافظة البحيرة لبعثة إلى ألمانيا أطلق عليها بعثة (تخليد ذكرى الشيخ محمد عبده) وحصل على الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة هامبورج سنة ١٩٣٦م ، وكان موضوعها : (الشيخ محمد عبده والتربية القومية فى مصر) ويعتبر من أبرز تلاميذ مدرسة الإمام محمد عبده فى التفسير . انظر كتاب : (حياتى) =

« يقوم منهج الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم على الأسس التالية :

١ ـ إخضاع حوادث الحياة القائمة فى وقته لنصوص القرآن الكريم ، إما بالتوسع فى معنى النص أو بحمل الشبه على الشبيه .

٢ ـ اعتبار القرآن جميعه وحدة واحدة متماسكة لا يصح الإيمان ببعضه ، وترك بعض آخر منه ، كما أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه .

٣ ـ اعتبار السورة كلها أساسا فى فهم آياتها ، واعتبار الموضوع فيها أساسا فى فهم جميع النصوص التى وردت فيه .

٤ ـ إبعاد الصنعة اللغوية عن مجال تفسير القرآن ، وإبعاد تفسيره عن أن يجعل مجالا لتدريب الملكة اللغوية .

٥ ـ عدم إغفال الوقائع التاريخية فى سير الدعوة إلى الإسلام عند تفسير الآيات التى نزلت فيها .

والشيخ محمد عبده بهذا المنهج فى تفسير القرآن الكريم ، لم يعد للقرآن حرمته واعتباره فقط ، بل رسم منه دائرة تستطيع أن تحيط الحياة الإنسانية فى حاضر الإنسان المسلم ، كما أحاطت فى الماضى البعيد بحياة المسلم على عهد الدعوة ، وفى العهد القريب منها بعد ذلك .

ولا نستطيع أن ندرك القيمة الحقيقية لتفسير المنار الذى وضعه الإمام محمد عبده إلا إذا قارناه بمستوى التفسير السائد فى هذه الفترة ، فقد ذكر أحمد شفيق باشا [١] وهو يؤرخ لسنة ١٨٩٢م « إن العادة كانت قد جرت أن يتلى القرآن وتفسر آياته طوال شهر رمضان ، وفى هذه السنة أمر الخديو بانتداب أحد العلماء المبرزين فى التفسير للقراءة فى حضرة الخديو ورجال معبته بسراى القبة ، فانتدب شيخ الأزهر الشيخ أحمد الرفاعى للقيام بهذه المهمة ، وقد ظل الأستاذ يتابع دروسه وكنت ممن يحضرها ، وكان

= للدكتور محمد البهى ط ١ وهبة ، القاهرة سنة ١٩٨٢م ص ٤١، ٤٢ وانظر أيضا كتاب : (الإمام محمد عبده ومنهجه فى التفسير) للدكتور عبد الغفار عبد الرحيم ط دار الأنصار بالقاهرة ١٩٨٠م ص١٨٥ ، وقدم هذا الباحث أسماء اثنى عشر مفسرا تأثروا بمنهج الإمام محمد عبده وهم : محمد رشيد رضا ، وعبد القادر المغربى ، ومحمد مصطفى المراغى ، وجمال الدين القاسمى ، وعبد الحميد بن باديس ، ومحمد الطاهر بن عاشور ، ومحمود شلتوت ، ود . محمد عبد الله دارز ، ود. . محمد البهى ، والشيخ محمد المدنى ، ود . بنت الشاطئ ، وسيد قطب .

(١) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ٢٨ .

كثير الإسهاب فى إيراد أقوال المفسرين ، وإيراد بعض الآراء والروايات الغريبة .

وفى ذات يوم تحدث عن « إرم ذات العماد » فهالنا ما أورده عنها من الروايات الغريبة ولاسيما القول بأنها شيدت طوبة من الذهب وطوبة من الفضة . وأنها معلقة بين الأرض والسماء ، ثم توسع فى ذلك وعرض إلى علم الفلك بأسلوب يثير الإشفاق والضحك ، فكنا والخديو نزم شفاهنا حتى يغلبنا الضحك .

ولما انتهى الدرس وأفطرنا واجتمعنا مع الخديو وتحدثنا فيما سمعنا من الشيخ ، أبدى سموه دهشته وإنكاره لطريقته ، وتقرر أن يرسل إلى شيخ الأزهر باستبداله فانتدب مكانه الشيخ الشربينى » .

وفى مقال « الاستبداد والدين » وهو ضمن مقالات « طبائع الاستبداد » التى نشرها عبد الرحمن الكواكبى فى صحيفة (المؤيد) (١) يرى أن الاستبداد هو الذى منع العلماء من تفسير قسمى الآلاء والأخلاق تفسيرا مدققا لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأى الغفل من السالفين أو بعض المنافقين المقربين المعاصرين ، فيكفرون ويقتلون ومسألة إعجاز القرآن ــ وهى أهم مسألة فى الدين ــ لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث مع أنه لو فتح للعلماء ميدان التدقيق وحرية الرأى والتأليف ــ كما أطلق عنان التخريف لأهل التأويل والحكم ــ لأظهروا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ولرأو فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تبرهن على إعجازه بصدق قوله : ﴿ **ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾ (٢) ولجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان .

وذكر الكواكبى أن القرآن اشتمل على النظريات العلمية التى جدت وأن هذه النظريات تؤيد إعجاز القرآن الكريم ، ومثال ذلك أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها من علماء أوربا وأمريكا ، والمدقق يجد أكثرها واردة بالتصريح أو التلميح فيه منذ ثلاثة عشر قرنا ، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه ومن ذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان** ﴾ (٣) وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائبة ، والقرآن يقول : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا** ﴾ (٤) إلى أن يقول :

---

(١) المؤيد ــ ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٣) سورة فصلت : آية ١١ .

(٤) سورة يس : آية ٣٣ .

﴿ **كل فى فلك يسبحون** ﴾ ، وحققوا أن الأرض متفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناها** ﴾ [1] وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول : ﴿ **الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن** ﴾ [2] .

وهكذا استمر الكواكبى يعرض النظريات العلمية التى اكتشفها العلماء ، ويذكر من آيات القرآن الكريم ما يدل عليها ، ويقول إن كثيرا من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون ليظل الإعجاز القرآنى متجددا كلما تجدد الزمان .

ولسنا فى مجال تقويم تفسير الكواكبى للآيات الكونية والطبيعية فى القرآن ولكن نشره هذه المقالات فى صحيفة (المؤيد) فتحت الباب لهذا النوع من التفسير الذى سارت عليه طائفة من المفسرين حتى وقتنا الحاضر .

٢ ـ تعليم العبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية :

نستطيع أن نميز فى الصحافة الإسلامية نموذجين عامين :

الأول : يميل إلى الوعظ الدينى فيكثر فى مادته الصحفية من تعليم العبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية ، ومن الحث على الطاعات والنهى عن المحرمات أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون الدخول فى موضوعات الخلافات السياسية والفلسفية ، ويمثل هذا النوع صحيفة (الإسلام) لأحمد الشاذلى الأزهرى الصادرة سنة ١٨٩٤ م .

والثانى : يهتم بالقضايا الفكرية والفلسفية والسياسية ، فقد تهتم الصحيفة من هذا النوع بمقاومة الاستعمار والاستبداد وبقضايا التحرير فى العالم الإسلامى ـ مثل العروة الوثقى ـ وتجعل الإسلام ركيزة لجهادها ، وقد تميل إلى دراسة الفلسفة والعلوم الحديثة لصد شبهها عن الإسلام أو لاستخدام براهينها فى إثبات حقائق الإسلام ، وشموله على سعادة الإنسان فى دنياه وآخرته ، كما فعلت صحيفة (الحياة) لمحمد فريد وجدى الصادرة فى سنة ١٨٨٩ .

وقد تجمع الصحيفة بين النموذجين كما فعلت صحيفة (المنار) لمحمد رشيد رضا .

وإذا كنا نجد بعض سمات النوع الأول ـ تعليم العبادات والمعاملات والأخلاق

---

(١) سورة الأنبياء : آية ٣٠ .

(٢) سورة الطلاق : آية ١٢ .

الإسلامية ـ فى صحف مثل (روضة المدارس) و (التنكيت والتبكيت) و (المؤيد) وغيرها ، فنحن نجد أن الصحيفة التى جعلتها سياسة عامة لها هى صحيفة (الإسلام) .

وأول صحيفة ذات طابع إسلامى نجدها تهتم بهذه الموضوعات هى صحيفة روضة المدارس الصادرة سنة ١٨٧٠ م ، ومن الأمثلة على ذلك نشرها « كتاب المواريث الشرعية » (١) تأليف الشيخ أمين محمد البصير رئيس ومميز علماء السودان ، وتبدأ فى العدد الرابع من السنة الثانية فى نشر كتاب « الآداب السَّنية من الآثار السُّنية » (٢) مستخلصة الأخلاق الإسلامية من السنة النبوية الشريفة وغير ذلك مما ذكرنا طرفا منه عند الكلام عن هذه الصحيفة .

ونلاحظ ـ كظاهرة عامة ـ فى الصحف الإسلامية والصحف ذات الطابع الإسلامى ـ أنها تعنى فى موسم الحج وفى شهر رمضان ـ بشرح هاتين الفريضتين وتشرح لقرائها كل الأحكام المتصلة بهما .

وفى مجال حديثنا عن صحيفة (الأستاذ) وصحيفة (المؤيد) فى الفصل الأول بينا جهودهما فى نشر هذه الموضوعات ، ورأينا كيف نشر النديم ملحقا رمضانيا لصحيفة (الأستاذ) مثلا ، وكيف ـ على سبيل المثال أيضا ـ شرحت (المؤيد) آداب الإسلام فى الإنفاق وهى وسط بين التقتير والإسراف .

وفى مجال تصحيح العقيدة وتعليم العبادات والأخلاق الإسلامية يقترح رشيد رضا على العلماء ، (٣) أن يؤلفوا كتابا جامعا لجميع العقائد والمبادئ الأدبية والأخلاقية التى أجمع عليها المسلمون من مختلف الفرق ، وأن يكتبوه فى عبارة سهلة ثم يترجم إلى جميع اللغات التى يتكلمها المسلمون .

ويرى أن هذا الكتاب يجب أن يشتمل على أصول العقائد التى اتفق عليها المسلمون مع الإيجاز فى التفاصيل ، وأن يسمح للمسلمين بالاختلاف فى الأمور التى لم يقع الإجماع على أن القول بغيرها كفر ، ولا يكفر مسلم مذعن لأصول العقائد المذكورة .

---

(١) روضة المدارس ، عدد ١٧ السنة الأولى ، ١٥ رمضان سنة ١٢٧٨ هـ .

(٢) روضة المدارس ، غاية صفر سنة ١٢٨٨ ، وانظر أيضا فى الباب الأول عن روضة المدارس نشرها لكتاب « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وهو أول كتب السيرة المشهورة فى العصر الحديث .

(٣) مجلة المنار ـ العدد ٣٨ سنة ١٨٩٨ مقال بعنوان : « الإصلاح الدينى المقترح على مقام الخلافة الإسلامية » ، كما رجع إلى نفس الموضوع فى مقال آخر بعنوان « الاجتهاد والوحدة الإسلامية » .

وأما العبادات كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك مما بينته السنة بالعمل وتناقله الخلف عن السلف كذلك بالاتفاق حتى صار معلوما من الدين بالضرورة ، فهو الذى يجب أن يأخذ به كل مسلم .

أما الأمور التى وقع فيها الخلاف فى صدر الإسلام كالجهر بالبسملة أو قراءتها سرا ، ورفع اليدين عند الركوع والقيام أو عدم ذلك ، فليس من الواجيات بل هو على التخيير فمن ترجح عنده شيء بدليل أو بموافقة لحاله أخذ به ، وبهذه الطريقة يتبع المسلمون جميعا فى العبادات الأساسية مذهبا واحدا من مذاهب الفقه ، بدلا مما هم عليه الآن من الانقسام الذى أفضت إليه تفاصيل المذاهب الأربعة مما لا عداد لها وليس لها فى الدين شأن كبير .

ويتوقع صاحب (المنار) من توحيد أصول العقائد مع جواز الاختلاف فى مسائل الفروع أن تخف حدة التعصب لمذهب بعينه وتقل الملاحاه بين أتباع المذاهب المختلفة ، وأن يتجادل المسلمون فى وسائل الخلاف بالتى هى أحسن .

٤ ـ الخطابة فى المساجد :

عندما ظهر الإسلام كان للوعظ الدينى الشأن الأول فى حياة المسلمين لأ الدين كان أساس وحدتهم وجامع كلمتهم ، وقد حث الإسلام على الأمر المعروف والنهى عن المنكر ، وجعله قوام هذه الأمة ومناط عزها وطريق ارتفائها ، قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ﴾ (١) ولقد كانت الخطبة فرضا فى الجمعة لهذا الغرض فكان للخطابة من ذلك المبدأ الدينى السامى ـ مبدأ التواصى بالحق والتناهى عن الشر ـ رقى أى رقى وسمو عظيم ، إذ جعلت من شعائر الدين ومظاهره القويمة (٢) .

وقد تدهورت الخطابة فى المساجد كغيرها من مظاهر الفكر والثقافة فى مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى ، ولكن الاهتمام بالخطابة والاعتراف بدورها فى الإصلاح الإسلامى بدا واضحا مع اليقظة التى أوجدها جمال الدين الأفغانى وحمل لواءها تلاميذه من بعده .

ففى خطبة ـ بالغة الأهمية لجمال الدين الأفغانى فى الإسكندرية (٣) يبين أسباب تأخر

(١) سورة آل عمران : آية ١١٠ .

(٢) محمد أبو زهرة : الخطابة ط دار الفكر العربى ١٩٨٠ ص ٢٦٤ .

(٣) جريدة مصر عدد ٤٧ بتاريخ ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩ .

المسلمين فيجمله فى سببين أساسيين هما : الاستبداد ، والتعصب أو عدم فهم الدين على حقيقته ، أما الأسباب التى يجب أن يأخذ بها المسلمون للرقى والتقدم فهى : الثقة بالنفس وبما كان لأجدادهم من رقى ، واتباع نظام الشورى ، وقيام حزب وطنى ينهض بالكفاح الوطنى الأصيل ولا يقلد الغير ، وإحياء اللغة العربية . وتعليم المرأة وإعطاؤها حقوقها ، وبين هذه الأسباب ــ وفى مكان الأهمية منها ــ العناية بالخطابة والصحافة ، بل جعل هذا السبب الأخير هو الأساس الذى يقوم عليه ما سبقه من أسباب فيقول : « فإذا سأل سائل كيف يمكن بث الغيرة وإنشاء الحزب الوطنى ، وإحياء اللغة قلنا : إن معظم الأسباب الموجبة لحصول هذه المزايا إنما هو إنشاء قاعة للخطابة يقوم فيها الخطباء الألباء ، وينطقون عن الغيرة والحمية بما يبين لنا الحقوق ، ويعين الواجبات ، ويذكرنا بمجد آبائنا ، وذل أبنائنا ، ويرينا حالنا وحال الأجنبيين ، وما هم عليه من القوة والثروة والمجد والسطوة ، فنعلم أسباب السقوط ووسائل الهبوط » ثم يتبع الخطابة بإنشاء الجرائد الحرة ويعدد فضائلها وآثارها ويقول : « ولاشك أنه لابد فى عالم المدنية من كل منهما ، ولا يمكن البلوغ إلى غاية السعادة إلا بهما ولا فرق بينهما إلا أن الخطابة تحرك الدم بحركة الخطيب ، وقوة المشافهة - وأن الجرائد تثبت المطالب فى الأذهان بإعادة النظر إلى ما أثبت فى الصحائف».

ومن بين تلاميذ جمال الدين الأفغانى اشتهر عبد الله النديم بتفوقه فى الخطابة فقد كان خطيبا قبل كل شيء ، ولم يستطع أن يتخلص قط من آثار الخطابة فى أسلوبه الصحفى الخالص (١) .

واتخذ النديم الخطابة وسيلة لإزكاء روح الوطنية وإصلاح عيوب المجتمع المصرى وكان يظهر فى كل مجتمع ويقف فى كل حفل ، ويخطب فى كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالا ، ويتدفق فيه تدفقا تسعفه فيه بديهة لم يسمع بمثلها فى تاريخ الأدب المصرى الحديث ، وحين قامت الثورة العرابية انضم النديم إليها ولقب بخطيب الثورة العرابية ، واكتسب قدرا كبيرا من حب الجماهير له ، حتى كان إذا سئل المغنى محمد عثمان أين تغنى الليلة ، قال فى الفرح الفلانى مع عبد الله النديم ، (٢) وكان طبيعيا فى رجل هذا شأنه فى الخطابة أن يدرك الإمكانات الهائلة لخطبة الجمعة والدور الكبير الذى ينبغى أن يقوم به

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ، حـ ٢ دار الفكر سنة ١٩٦٥ ص ١٩٣ .

(٢) عبد الطيف حمزة : جـ ٥ المرجع السابق ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

خطباء المساجد .

ومن ثم بدأ النديم فى صحيفة (التنكيت والتبكيت) حملة صحفية للنهوض بالخطابة فى المساجد لكى تحقق الهدف الذى شرعها من أجله الإسلام فى تربية النفوس وإصلاح المجتمع ، فكتب مقالا قويا عنوانه « ألسن الخطباء تحيى وتميت » (١) بين فيه قيمة الخطابة وأثرها فى تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية ، وأثرها فى تهذيب الشعب وتربيته ، وقال : إن خطب الجمعة ـ الآن ـ لا تمت إلى الحياة التى يحياها الناس بصلة ، وتتكلم فى أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد ، وطالب أن يلقى خطب الجمعة فى المساجد طائفة من أعرف الناس بشئون الحياة وأقدرهم على التأثير .

وحدد النديم ثلاثة أهداف رئيسية للحملة الصحفية التى بدأها من أجل ترقية الخطابة فى المساجد (٢) :

الأول : أن يقوم طائفة من العلماء وذوى الفكر السديد والرأى الرشيد بإعداد هذه الخطب بحيث تعالج عيوب المجتمع ، وتعمل على إصلاحه وترقيته وترتبط بحياته .

الثانى : أن يتبرع القادرون من المصريين بقدر من المال يخصص لهذا الغرض .

الثالث : أن تقوم وزارة الأوقاف بطبع هذه الخطب وتوزيعها على خطباء المساجد ليصل صداها إلى كل قرية .

وبدأ النديم بنفسه فنشر فى نفس العدد خطبة نموذجية توضح غرضه وتضمنت معانيها المحافظة على حقوق البلاد ، والنهى عن الظلم والبغى والدعوة إلى الائتلاف لمواجهة الأخطار التى تظهر دلائلها فى الأفق ، واتحاد المواطنين وإن اختلف الدين ، والتذكير بمجد مصر السابق ، والتحذير من تمكين الأجنبى من وضع يده على سياسة البلاد ، والتحرز من إتيان عمل يتخذه وسيلة لتدخله ، ومعاملة النزلاء الأجانب بالحسنى ، وحفظ تجارتهم ، وعدم الإساءة إليهم ، والتمسك بآداب الإسلام ففيها النجاح فى الدنيا والفوز فى الآخرة .

هذه هى المعانى التى رأى النديم أن الحاجة ماسة إليها فى ـ ذلك الوقت ـ (فى عهد الخديو توفيق وفى بداية الثورة العرابية) صاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة فبدأها بحمد الله والثناء على رسوله وختمها بالحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد

---

(١) مجلة التنكيت والتبكيت عدد ١٥ فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨١ م .

(٢) مجلة التنكيت والتبكيت ـ المصدر السابق .

بعضه بعضا » .

ووعد النديم ــ مساهمة منه فى هذه الحملة ــ أن ينشر فى كل عدد خطبة على هذا النهج .

هذا المشروع الطموح الذى وضعه النديم للخطابة الدينية واكب طموحات أخرى فى مختلف مجالات الحياة المصرية فى هذه الفترة ــ صحفية ونيابية وتعليمية وغيرها ، ولكن تطورات الحوادث أحيطت هذه الطموحات جميعها ، فما لبثت أن قامت الثورة العرابية وأصبح النديم صحفيًّا وخطيبها وحدث الاحتلال الإنجليزى لمصر فانصرف النديم عن مشروعه ، ولكن هذا المشروع ــ النهوض بالخطابة الدينية ــ ما يزال ــ حتى وقتنا الحاضر ــ فى حاجة إلى إتمام ما بدأه عبد الله النديم منذ ما يزيد على مائة سنة .

والواقع أن الباحث المتتبع لحياة النديم ما يلبث أن يشعر بالإعجاب بإصرار النديم وجهاده فى سبيل هذا الهدف : ترقية الخطابة فى المساجد واضطلاعها بدورها فى الدعوة الإسلامية .

فبعد هزيمة العرابيين واحتلال الإنجليز لمصر هرب النديم من حكم بالإعدام لمدة تقرب من تسع سنوات حتى عفا عنه الخديو عباس حلمى الثانى فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٢ ، وحين أصدر صحيفته (الأستاذ) فى ٢٣ من أغسطس سنة ١٨٦٢م واصل فيها دعوته من أجل ترقية الخطابة الدينية وربطها بحياة الناس ورفع شأن خطباء المساجد .

فنجده يهاجم الجهال من خطباء المساجد الذين يصرفون الناس عن الجد وعن طلب العزة ، وعن الإعداد للعدو بما يبدأون فيه ويعيدون من الدعوة إلى الانصراف عن الدنيا فيقول :

« ولا نصل للقوة العلمية وفينا من يقول : العز فى الخمول والسعادة فى العزلة والفضل فى الزهد فى الدنيا والبعد عما فى أيدى الناس « فإن من توكل على الله كفاه » وهذا الفريق متخلل بين العامة يزعم أنه من الهداة وهو من المضلين ، فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا وسيدنا محمد ﷺ وغزواته ، وفتش فى سياسته السماوية والأرضية . فهؤلاء بجهلهم سيرة نبيهم سولت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما دروا أنهم أماتوا الهمم ، وصرفوا النفوس عن التعلق بحوافظ الدين

والملك معا ، ومن هذا القبيل الذين دونوا دواوين الخطابة وجعلوها قاصرة على التزهيد فى الدنيا والتحذير من المال وجمعه ، والفرار من المجامع والظهور ، والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان ، وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة ... فلو تصدت أوربا لإماتة همم المسلمين ، وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس ، وقطعت دهورا فى اختراع طريق تصل به إلى هذه الغاية ، ما اهتدت إلى مافعله الخطباء ، من تحويل الخطابة من عهدها النبوى إلى ماقاله المتملقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة »(1) .

« ونحن نستفتى هؤلاء المثبطين ، إذا كانت الدنيا يحذر منها فلمن خلقت ؟ .. وإذا كان الاشتغال بها بهتانا وضلالا ، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله . فلم نتألم من تسلط الغير علينا ووقوعنا فى أيدى المتغلبين ونعد الرضا بذلك ذنبا ومصية ؟ » .

ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضاربا لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة فى صميم الحياة . وتتصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وإن هذه الشعلة التى أضاءها جمال الدين الأفغانى وتعهدها النديم فسطع ضوؤها ، زادت توهجا على صفحات (المنار) وعلى يدى صاحبها محمد رشيد رضا .

ففى مقال افتتاحى فى صحيفة المنار (2) يتناول رفيق العظم هذا الموضوع فيقول : إن الأمم والشعوب تحسدنا على مشروعية الخطابة فى الإسلام ويعجبون من أمة تتلى على منابرها فى كل جمعة مئات الآلاف من الخطب فى سائر أنحاء الديار الإسلامية ، وهى لا تنتفع بها فتخطو خطوة إلى الأمام مع أن الأمم غير الإسلامية ينتهز فيها الناس أية فرصة لإلقاء خطبة فيرن صداها فى الآفاق ، وربما أحدثت فى الأفكار مالا تحدثه الجيوش الفاتحة فى الأمصار ، ويتساءل هؤلاء : هل علت مشروعية الخطابة فى الإسلام عن أفهام المسلمين ، أم هم تدنوا عن مقامها العلى المتين ؟

وهو يبدأ مقالة بأن الإسلام ما أصيب بآفة كآفة الخطباء وما أضر بالمسلمين كوعاظهم الجهلاء ، وهو يرى أنهم كذلك لسببين :

---

(1) مجلة الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ مقالة بعنوان « أتتقلب الأمم بتقلب الأحوال ونحن كما نحن » .

(2) المنار : عدد ٤٤ فى ١٣ يناير سنة ١٩٠٠ .

الأول : أنهم يتلون على مسامع العامة سجعات مقلوبة ، وأحاديث مكذوبة تدعو إلى استدراجهم فى الشرور ، اعتمادا منهم على مايسمعونه من أولئك الوعاظ والخطباء من الأكاذيب المضللة كقولهم : من قرأ كذا فله من الثواب كذا وكذا ومن صام اليوم الفلانى مثلا فله من الحسنات كذا وكذا ، ومن فعل كذا غفر الله له ما تقدم وما تأخر من ذنبه . فانتزعوا بهذا (الإطلاق المجمل) وأشباهه باعث الرهبة من أعماق القلوب ، ونزعوا وازع الضمير من نفوس العامة ، فبات أحدهم يقدم على جريرة الكذب أو التزوير أو السرقة أو الفحش ونحو هذا فى الظهر ثقة بما سيناله من الثواب والغفران بتلاوة بعض الكلمات فى العصر ، فينام ليله مطمئن القلب إلى الثواب غير مرتاع الفؤاد من سوء المآب .

والثانى : أنهم زادوا الطين بلة بما يبدأون به أدعيتهم ويتلونه على العامة فى رأس كل خطبة من الحث على الزهد ، وترك الاهتمام بأمر الدنيا ، بجمل مسجعة لاتفيد معنى الزهد الحقيقى المنصوص عليه فى الشريعة الغراء ، ثم قدم الآيات القرآنية التى تحض الإنسان ــ خليفة الله فى الأرض ــ على أن يضرب فيها ، فقد سخرها الله له بكل مافيها وأعطاه العلم ليستخرج مكنونها ، ويحقق القوة التى أمر الله المسلمين أن يكونوا عليها لملاقاة أعدائهم .

ويقول : إنه من الظلم الفاحش والجهل العظيم مخاطبة أولئك الخطباء عامة الناس بالزهد فى الدنيا والتزهيد فى العمل الذى هو وسيلة الكسب ومناط الارتزاق ، وإنما يجوز مخاطبة العلية من الناس والأغنياء منهم بهذا أولا ، لما فيه من الترغيب فى مواساة الفقراء ، والتحذير من عاقبة الانهماك بالمال والاشتغال به عن طاعة الله .

أما الفقير فإذا زهد بلسان الشرع ازداد يقينا بفضل الزهد والراحة من عناء الكد بالانقطاع إلى العبادة (اللهم إذا كان يعرف شيئا منها) فتنعدم منه الرغبة فى العمل وينطبع على البلادة والكسل فينقلب الزهد وبالا عليه ، وظلما لمن يعول من الأهل والولد ، وهو لايعلم أن السعى فى إعالة من يعول ، ولو نفسه وحدها هو أفضل عند الله ورسوله من الانقطاع للعبادة باتفاق النصوص وإجماع هداة الأمة من علمائها الأعلام .

ثم يختم مقاله قائلا : أفلم يئن لعلماء المسلمين الاقتداء بمثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حث الناس على العمل والسعى ، ونهى خطباء السوء عن التشدق على المنابر بما لايزيد المسلمين فى هذا العصر إلا خبالا .

نعم ، قد آن والله أوان نهوض العلماء إلى تلافى خطب هؤلاء الخطباء ، ونزع وظيفة

الخطابة والوعظ من الجهلاء ، ووضعها فى أناس جمعوا بين المنقول الصحيح والمعقول الصريح ، وعرفوا حاجات الزمان ووقفوا على أدواء الأمة ، وإن لم يتيسر هذا فتنقيح كتب الوعظ ، ودواوين الخطب المحشوة بالكذب على الله والرسول ، الموضوعة على نمط روعى فيه السجع أكثر من مراعاة الشرع ، وامتزج بالخيالات والأوهام ، أكثر مما أبان عن مقاصد الإسلام (١) .

٥ ـ الدعوة خارج مصر :

ومن أهم ماقامت به الصحافة الإسلامية فى هذا السبيل كشفها لأساليب الاستعمار لإفساد عقائد المسلمين ، وإضعاف القيم الإسلامية ، وتمجيد القيم الغربية المسيحية تمهيدا للسيطرة على البلاد الإسلامية ، واستعانة الاستعمار فى ذلك بالمستشرقين والمبشرين وببعض المفكرين فى البلاد الإسلامية ممن ينتسبون للإسلام اسما ، ولكنهم يعملون على تحقيق السياسة الاستعمارية فى هذه البلاد .

وأولى الصحف نبهت إلى هذا الخطر هى « العروة الوثقى » فهى تصف الحركة التى قام بها السيد أحمد خان فى الهند فتقول (٢) « ولما استقرت أقدامهم (٣) فى الهند والقوا به عصاهم ، ومحيت آثار السلطنة التيمورية نظروا إلى البلاد نظرة ثانية ، فوجدوا فيها خمسين مليونا من المسلمين كل واحد منهم مجروح الفؤاد بزوال ملكهم العظيم ، وهم يتصلون بملايين كثيرة من المسلمين شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وأحسوا أن المسلمين ماداموا على دينهم ، ومادام القرآن يتلى بينهم ، فمحال أن يخلصوا فى الخضوع لسلطة أجنبى عنهم ، خصوصا إن كان هذا الأجنبى خطف الملك منهم بالخديعة والمكر تحت شعار المحبة والصداقة ، فطفقوا يتشبثون بكل وسيلة لتوهين الاعتقاد الإسلامى ، وحملوا القسس والرؤساء الدينيين على كتابة الكتب ونشر الرسائل محشوة بالطعن فى الديانة الإسلامية مفعمة بالشتم والسباب لصاحب الشريعة (برأه الله مما قالوا) فأتوا من هذا العمل الشنيع ماتنفر منه الطباع ، ولايمكن معه لذى غيرة أن يقيم على أرض تنشر فيها تلك الكتب ، وأن يسكن تحت سماء تشرق شمسها على مرتكبى ذلك الإفك العظيم . وما قصدهم بذلك إلا توهين عقائد المسلمين وعملهم على التدين بمذهب الإنجليز ، هذا من

(١) وانظر أيضا فى صحيفة (المنار) مقالة بعنوان « الدعوة وطريقها وآدابها » فى العدد الصادر بتاريخ ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٠ .

(٢) العروة الوثقى فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤ مقال بعنوان « الدهريون فى الهند » .

(٣) الإنجليز .

جهة ، ومن جهة أخذوا فى تضييق سبل المعيشة على المسلمين وتشديد الوطأة عليهم ، والإضرار بهم من كل وجه ، فضربوا على أيديهم فى الأعمال العامة ، وسلبوا أوقاف المساجد والمدارس ونفوا علماءهم وعظماءهم إلى جزائر (أندومان) و (فلفلان) رجاء أن تفيد هذه الوسيلة إن لم تفدهم الأولى فى رد المسلمين عن دينهم ، بإسقاطهم فى أغوار الجهل بعقائدهم ، حتى يذهلوا عما فرضه الله عليهم ، فلما خاب أمل أولئك الحكام الجائرين فى الوسيلة الأولى ، وطال عليهم الأمد فى الاستفادة من الثانية ، نزعوا إلى تدبير آخر فى إزالة الدين الإسلامى من أرض الهند أو إضعافه ؛ لأنهم لا يخافون إلا من المسلمين أصحاب ذلك الملك المنهوب ، والحق المسلوب ، فاتفق أن رجلا اسمه أحمد خان بهادور (لقب تعظيم فى الهند) كان يحوم حول الإنجليز لينال فائدة منهم ، فعرض نفسه عليهم ، وخطا بعض خطوات لخلع دينه والتدين بالمذهب الإنجليزى ، وبدأ سيره بكتابة كتاب [1] يثبت فيه أن التوراة والإنجيل ليسا محرفين ولا مبدلين لينال بذلك الزلفى عندهم . ثم راجع نفسه فرأى أن الإنجليز لن يرضوا عنه حتى يقول : إنى نصرانى وأن هذا العمل الحقير لا يؤتى عليه أجرا جزيلا ، خصوصا وقد أتى بمثل كتابه ألوف من القسس والبطاركة ، وما أمكنهم أن يحولوا من المسلمين عن الدين أشخاصا معدودة ، فأخذ طريقا آخر فى خدمة حكامه الإنجليز بتفريق كلمة المسلمين وتبديد شملهم .

فظهر بمظهر الطبيعيين (الدهريين) ونادى بأن لا وجود إلا للطبيعة العمياء وليس لهذا الكون إله حكيم (إن هذا إلا ضلال مبين) ، وأن جميع الأنبياء كانوا طبيعيين لا يعتقدون بالإله الذى جاءت به الشرائع (نعوذ بالله) ، ولقب نفسه بالنيتشرى (الطبيعى) ، وأخذ يغرى أبناء الأغنياء من الشبان الطائشين فمال إليه أشخاص منهم ، تملصا من قيود الشرع الشريف ، وسعيا وراء الشهوات البهيمية ، فراق الحكام الانجليز مشربه ورأوا فيه خير وسيلة لإفساد قلوب المسلمين ، وأخذوا فى تعزيزه وتكريمه ، وساعدوه على بناء مدرسة فى (على كره) وسموها (مدرسة المحمديين) لتكون فخا يصيدون به أبناء المؤمنين ليربوهم على أفكار هذا الرجل (أحمد خان بهادور) ، وكتب أحمد خان تفسيرا [2] على القرآن الكريم فحرف الكلم عن مواضعه ، وبدل ما أنزل الله ، وأنشأ جريدة اسمها

---

(١) اسمه « تبيان الكلام » أخرجه فى سنة ١٨٦٢ م ، وفسر فيه الإنجيل . انظر د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، ط القاهرة سنة ١٩٨١ م ص ٣٥ .

(٢) عمل فى هذا التفسير من سنة ١٨٨٠ م إلى ١٨٩٥ م وانتهى فيه إلى سورة الكهف (د . محمد البهى : المرجع السابق ذكره ص ٣٥) .

(تهذيب الأخلاق) لا ينشر فيها إلا ما يضلل عقول المسلمين ، ويوقع الشقاق بينهم ، ويلقى العداوة بين مسلمى الهند وغيرهم ، خصوصا بينهم وبين العثمانيين ، وجهر بالدعوة لخلع الأديان كافة (لكن لا يدعو إلا المسلمين) ونادى : الطبيعة !! الطبيعة !! ليوسوس للناس بأن أوربا ما تقدمت فى المدنية ، وما ارتقت فى العلم والصناعة ، وما فاقت فى القوة والاقتدار إلا برفض الأديان ، والرجوع إلى الغرض المقصود من كل دين (على زعمه) وهو بيان مسالك الطبيعة (قد افترى على الله كذبا) . ولما كنا فى الهند أحسسنا من بعض ضعفاء العقول اغترارهم بترهات هذا الرجل وتلامذته فكتبنا رسالة فى بيان مذهبهم الفاسد ، وما ينشأ عنه من المفاسد ، وأثبتنا أن الدين أساس المدنية وقوام العمران ، وطبعت رسالتنا فى اللغتين الهندية والفارسية [1] .

إن أحمد خان ومن تبعه خلعوا لباس الدين وجهروا بالدعوة إلى خلعه ابتغاء الفتنة بالمسلمين وطلبا لتفريق كلمتهم ، وزادوا على زيغهم أنهم يزرعون الشقاق بين أهل الهند وسائر المسلمين ، وكتبوا عدة كتب فى معارضة الخلافة الإسلامية . هؤلاء الدهريون ليسوا كالدهريين فى أوربا ، فإنّ من ترك الدين فى البلاد الغربية تبقى عنده محبة أوطانه ولا تنقص حميته لحفظ بلاده من عاديات الأجانب ، ويبذل فى ترقيتها والمدافعة عنها نفائس أمواله ، ويفدى مصلحتها بروحه ، أما أحمد خان وأصحابه فإنهم كما يدعون الناس لنبذ الدين ، يهونون عليهم مصالح أوطانهم ويسهلون على النفوس تحكم الأجنبى فيها ، ويجتهدون فى محو آثار الغيرة الدينية والجنسية وينقبون على المصالح الوطنية التى ربما غفل الإنجليز عن سلبها لينبهوا الحكومة عليها فلا تدعها . يفعلون هذا لا لأجر جزيل ، ولا شرف رفيع ، ولكن لعيش دنىء ونفع زهيد . (وهكذا يمتاز دهرى الشرق عن دهرى الغرب بالخسة والدناءة بعد الكفر والزندقة) .

وتكشف صحيفة (المؤيد) عن أساليب الاستعمار الفرنسى فى شمال إفريقيا فى السيطرة على هذه البلاد ، واستعانته بالإرساليات التبشيرية لتمهد له الطريق ، ففى مقال عنوانه : (السياسة الاستعمارية والمبعوثون فى الشرق) تكشف أن سياسة التبشير بالدين المسيحى تمهد للاستعمار وتتعاون معه وتسهل له استغلال ثروات البلاد فى إفريقيا وغيرها ،

---

(١) هى (رسالة الرد على الدهريين) وقد ترجمها إلى العربية عن الفارسية الشيخ محمد عبده بمساعدة عارف أفندى أبى تراب الأفغانى تابع جمال الدين وصديقه . انظر : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ـ تقديم وتحقيق الدكتور محمد عمارة : ط المؤسسةالمصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة د . ت ص ١٢٧ .

وأن ما تنفقه الدول الأوربية على التبشير والمبشرين له أهداف سياسية واقتصادية [١] .

وتنقل (المؤيد) عن صحيفة فرنسية قصة أحد الأوربيين الذين تجنس بالجنسية التونسية ، وادعى الإسلام ثم ادعى الولاية وسمى نفسه (سى أحمد) وخدع عددا من التونسيين فالتفوا حوله ، وعند دخول الفرنسيين تونس كان عونا لهم على دخول مدينة القيروان وسلمها لهم [٢] .

وتحت عنوان « آلة السياسة الأوربية فى الشرق » تنشر الصحيفة ترجمة لمقال كان قد نشر بمجلة (العالمين) أشهر المجلات التى تطبع فى باريس بعددها الصادر أول مارس سنة ١٨٨٦ م ص ١١٤ بعنوان : « الجمعيات الدينية عند العرب والاستيلاء على إفريقيا الشمالية » والمقالة بقلم المسيو (دوكنستان) ، وقد افتتحها كاتبها بشرح المساعدات التى يقدمها الفرنساويون لمشايخ الطريقة التيجانية المشهورة فى بلاد المغرب ، ثم نصح الحكام الفرنسيين باستعمال الحزم والحكمة فى مصاحبة هؤلاء المشايخ بموالاتهم سرا ، وعدم التظاهر بذلك جهرا ؛ لأن التظاهر بالاتفاق معهم مما ينفر المسلمين من هذه الطريقة (التى اضمحل اعتبارها فى أنظار كثير منهم كما لا يخفى) .

وبعد كلام طويل لايخرج عن معنى ما تقدم بين المسيو (دوكنستان) لقومه الطريقة التى يلزم أن يتبعها عمال التفريق (هكذا يسميهم المسيو دوكنستان) فقال فى خاتمة مقاله : « إن الأوامر التى تعطى لهؤلاء العمال يلزم أن تكون كما يأتى : فرقوا بين الطوائف والأفراد ، ألقوا العار على الجميع ولكن لا تحاربوهم جهارا أبدا ؛ لأن من أراد أن يحكم هؤلاء الناس فعليه أن يشتت ويلقى الفتن . وإن الضابط الذى يتداخل مع الطوائف الإسلامية مستمرا على اضمحلال وتشتيت الإسلام ، هو بلا ريب القائم بأشرف وأنفع وظيفة يمكن للإنسان أن يؤديها » أ . هـ بحروفه [٣] .

وحينما تترجم (المؤيد) مقالات هانوتو وزير الخارجية الفرنسية وتنشرها ـ وهى المقالات التى رد عليها الإمام محمد عبده ـ فإنها تكشف نظرة الساسة الأوربيين ورجال الاستعمار إلى الحركات الإسلامية وتنبه المسلمين لها ، يقول هانوتو فى مقاله : « وقد أسس الشيخ السنوسى فى جهة ليست بعيدة عن الأصقاع التى تلى أملاكنا فى الجزائر (؟ !) مذهبا خطيرا له أشياع وأنصار ومقر هذا الشيخ بلده جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من

---

(١) المؤيد : ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م .
(٢) المؤيد : ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م .
(٣) المؤيد : فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٢ م .

الواحة التى كان قائما بها هيكل البرجيس آمون ، وقد هاجر أولاده إلى (كوفرة) ومن مذهبهم التشدد فى رعاية القواعد الدينية ، وقد لبثوا زمنا لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين المسيحية من العلاقات . وهم دائبون على طرح حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها فى إفريقيا الجنوبية ، ولم يكن الأمر قاصرا على وسط القارة الإفريقية فإنه توجد فى الأستانة نفسها ، وفى الشام ، وبلاد المغرب ، ومراكش عصابة خفية ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أنها تفترسنا إذا أغمضنا الطرف » (١) .

وتهتم صحيفة (مصباح الشرق) بشأن الدعوة إلى الإسلام وكشف أساليب التبشير لمسيحى خارج مصر فتنشر مقالا لإبراهيم المويلحى عنوانه : « أيها العلماء : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ » (٢) يبدأ بمقدمة يبين فيها أن الدعوة إلى الدين وبعث البعوث لها من أطراف الأرض إلى أطرافها واجب فى الدين الإسلامى ، فإنه لم ينتشر من بطاح مكة إلى حيطان الصين ، إلى أقاصى الغرب إلى مجاهل الجنوب ، إلى جزائر المحيط ، إلا بهذه الدعوة محمولة فى صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار فى زمن كان السفر فيه قطعة من العذاب ، والدعوة بهذا المعنى ـ هى نوع من الجهاد الحق ـ فإن « جهاد الغى والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد فى الله حيث يقول الله تعالى : ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده** ﴾ (٣) .

وفى صلب المقال يورد الكاتب أن السودان بعد إعادة فتحه ظهرت فيه الحاجة إلى تجديد السنة وإماتة البدع والخرافات ، ومن ناحية أخرى نشطت أجهزة التبشير بالدين المسيحى فى السودان ، فقام (السردار) إلى عمل اكتتاب لإنشاء مدرسة (غوردون باشا) وهو رئيس دينى عندهم ، كما أن البابا أمر ـ بعد فتح السودان بإرسال رسل من المبشرين اليسوعيين ، وعين للسودان وإفريقيا رئيسا لنشر الدين المسيحى .

ويدعو الكاتب إلى مواجهة هذه الخطط التبشيرية المسيحية فى السودان بخطط للدعوة الإسلامية ، وإلى إحياء مجد الدعوة الإسلامية ، التى نشرت الإسلام فى جميع أرجاء العالم ، ويلقى المسئولية على عاتق الأزهر فيقول : « فكان ينبغى أن أول ما نسمعه

---

(١) المؤيد : فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٠ م . (٢) مصباح الشرق : ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨ م .
(٣) سورة الحج : ٧٨ .

عقب الفتح أن مجلس العلماء فى إدارة الأزهر الذى يجتمع بغير شئ ، قد اجتمع مرارا فى اليوم الواحد لانتخاب جماعة من طلبة العلم يرسلهم إلى السودان ، ليرشدوا الناس إلى دينهم قبل أن تلتبس عليهم الوجوه ويتخبطهم ما يتخبطهم بعد الفتح ، وسواء كان هؤلاء المبعوثون من المصريين أو من السودانيين الذين يطلبون العلم فى الأزهر عملا بقوله تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ (1).

ويرجع الكاتب إلى الفخر الرازى والزمخشرى فى تفسير الآيات التى استشهد بها فى الدعوة الإسلامية ويطيل فى ذلك بطريقة قد لا يتحملها المقال الصحفى ، وقد يكون عذره أنه يكتب مقالا فى موضوع : الدعوة الإسلامية .

٦ ـ إصلاح التعليم فى الأزهر :

كان الأزهر فى نظر الصحافة الإسلامية هو حامل لواء الدعوة الإسلامية ، ومركز التعليم الدينى ليس فى مصر وحدها ولكن فى العالم الإسلامى كله .

فحين يكتب الشيخ على يوسف عن (سى أحمد) ـ السالف الذكر ـ الذى ادعى الإسلام والولاية فى تونس (2) ، ثم سلم مدينة القيروان للفرنسيين ، حين يكتب عنه يلتفت إلى علماء الأزهر فيقول : لو اهتم هؤلاء العلماء بواقع المسلمين ومشكلاتهم الحاضرة لما استطاع أمثال (سى أحمد) هذا أن يخدعهم ويساعد عدوهم عليهم .

وعند إعادة فتح السودان بعد هزيمة الثورة المهدية ، وازدياد نشاط الجمعيات التبشيرية المسيحية فى السودان ، وتراجع الدعوة الإسلامية يلقى إبراهيم المويلحى مسئولية هذا التقصير على الأزهر وعلى مجلس إدارته ويحمل حملة شديدة على رجاله ، ويقول : إن الإنجليز فى السودان يجمعون اكتتابا لإنشاء مدرسة (غوردون باشا) الذى كان رئيسا دينيا عندهم ، والبابا أمر بإرسال رسل من المبشرين اليسوعيين ، وعين للسودان وإفريقيا رئيسا لنشر الدين المسيحى هذا وأهل الأزهر يتثاءبون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم ، ولا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ولا سعادة الدار الواحدة .

من أجل هذا استحوذت قضية إصلاح التعليم فى الأزهر على اهتمام الصحافة الإسلامية وكانت هدفا من أهدافها ، وقام بهذا الإصلاح ـ الذى استهدف جميع نواحى

---

(1) سورة التوبة : ١٢٢ .

(2) المؤيد : فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م .

الحياة فى الأزهر ـ طائفة من الأزهريين أنفسهم ، وكان التركيز فيه على إدخال العلوم الحديثة ضمن ما يدرس فى الأزهر من العلوم ، بينما اعترضت طائفة أخرى من الأزهريين على إدخال هذه العلوم .

ولا نستطيع أن نقدر موقف الصحافة الإسلامية من قضية التعليم فى مصر عامة حق قدرها إلا إذا عرفنا أنواع التعليم السائدة فى مصر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

كان هناك ـ من جانب ـ نوع تغلب عليه المناهج الغربية ، فالتعليم الحكومى يخلو من المواد الدينية والعربية ، التى تعين أبناءه على فهم صحيح للإسلام ، والمدارس الأجنبية ، ومدارس الإرساليات الدينية المسيحية ، ومدارس الجاليات الأجنبية التى دخلها كثير من المصريين تدرس لغتها وتاريخها ومناهج دولها ، ولا تدرس شيئا من الإسلام ولا التاريخ ، الثقافة المصرية .

ومن جهة أخرى كان هناك التعليم فى الأزهر الذى وصل الحال به فى هذا العصر إلى جمود جعله لا يرى من الإسلام إلا تصورات العصور المظلمة التى استقرت فى الحواشى والمتون والحكاكات اللفظية ، فهو يعادى علوم العصر ويرفض إدخالها فى مناهجه ، ومنها المنطق والحساب والجغرافيا والتاريخ ، وهو كذلك لا يدخل فى نطاق اهتمامه العلوم الإسلامية فى عهد ازدهار الحضارة العربية الإسلامية (١) .

ولعل هذا الازدواج فى نظام التعليم فى مصر هو الذى أدى إلى وجود الازدواج بل والانفصام فى الفكر المصرى والثقافة المصرية ، فكنا نرى فريقين يناصب بعضهما بعضا العداء : فريق يغلب عليه الجمود ويعيش الحاضر بمقاييس الماضى ، ولكنه لا يأخذ فكر هذا الماضى من عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وعصر الخلافة الراشدة وازدهار الحضارة الإسلامية ، ولكن يأخذ هذا الفكر من عصور التخلف المملوكية العثمانية ، والفريق الثانى انبهر بحضارة الغرب فجعل فكرها وثقافتها معيارا يقيس به كل شئ فى الحياة .

وإزاء هذا الوضع التعليمى والثقافى فى مصر نجد أن الصحافة الإسلامية قد توصلت إلى المعادلة الصحيحة والموقف الوسط ، ففى الوقت الذى حذرت فيه المصريين من مدارس الإرساليات الدينية المسيحية ومدارس الجاليات الأجنبية ، نجدها تطالب بتدريس الدين الإسلامى واللغة العربية فى مدارس الحكومة بما يمكن طلبتها من فهم الإسلام فهما

(١) د . محمد عمارة : تجديد الفكر الإسلامى ، محمد عبده ومدرسته ، ط القاهرة ١٩٨٠ م ، ص ٤٢ .

صحيحا ، ومن فهم ما له من تراث أصيل .

ومن ناحية أخرى نراها تطالب بتدريس العلوم الحديثة فى الأزهر حتى يستطيع علماؤه وخريجوه أن يعيشوا فى واقع المسلمين وينهضوا به ، وأن يجيبوا على الأسئلة التى استجدت مع ظروف الحياة الحديثة ، وأن يتصدوا للأفكار العلمانية والتغريبية ـ التى لا تتفق مع مبادئ الإسلام ـ من منطلق فكرى إيجابى وليس من منطلق رفض سلبى .

وكانت قضية تدريس العلوم الحديثة فى الأزهر من أبرز القضايا التى استأثرت باهتمام الصحافة الإسلامية إلى جانب غيرها من قضايا الإصلاح الأخرى فيه ، وكان من أوائل من دعوا هذه الدعوة الشيخ حسن العطار [1] الذى قال عنه على مبارك : « واتصل بناس من الفرنساوية فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم ويفيدهم اللغة العربية ، ويقول العطار : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة » [2] .

وتابع رفاعة الطهطاوى أستاذه فى هذه القضية ، فقال عن علماء الأزهر « ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط ـ بعد ولى الأمر ـ بهذه العصابة ، التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية ، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية ..... وإن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية ، هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، بل لا يزال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة » [3] .

ويؤكد رفاعة وجود هذه العلوم فى الأزهر قبل عهده فيقول ـ عن أحد مشايخ الأزهر السابقين على عهده ، وهو الشيخ أحمد الدمنهورى ـ إنه قد تعلم كثيرا جدا من

---

(١) أحد علماء الأزهر الذين عاصروا الحملة الفرنسية ، وعاش حتى تولى مشيخة الأزهر ، وتتلمذ عليه رفاعة الطهطاوى ، وهو الذى رشحه ليكون إماما للبعثة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ م .

(٢) د . جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى ، دار المعارف بالقاهرة د . ت ص ١٤ .

(٣) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية ، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى جـ ١ ص ٥٣٣ ـ ٥٣٥ .

هذه العلوم فقد درس عدا العلوم الشرعية ـ على سبيل المثال فقط ـ خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات على الشيخ على الزعترى ، ومنظومة الياسمين فى الجبر والمقابلة ، وكتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها ، حيث قرأه علي سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء ، وبعضاً من قانون ابن سيناء ، وقرأ على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم دمرقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الأوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ، ورسالة ابن الشاط فى علم الاسطولاب ، ورسالة قسطاس لوقا فى العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها ، ويذكر عشرات الكتب فى الطب والهندسة والجبر والحساب وغيرها نكتفى منها بالأمثلة المذكورة (١) .

ولكن هذه العلوم اضمحلت وندر عدد المشتغلين بها من علماء الأزهر فى القرن الثامن عشر الميلادى وحتى دخول الحملة الفرنسية إلى مصر واتصال علماء الأزهر بها ، فانتبهوا إلى هذه العلوم حتى قال الشيخ حسن العطار ما ذكرنا من وجوب تجدد هذه العلوم فى مصر (٢) .

كما أن دعوة رفاعة الطهطاوى لعلماء الأزهر بجمع العلوم الطبيعية والرياضية إلى علومهم الشرعية لم تجد آذانا صاغية ، وأغلق الأزهر أبوابه فى وجه هذا النوع من العلوم .

وحين جاء محمد على أرسل البعثات إلى أوربا لتمده بما تحتاج إليه دولته الحديثة فى شئون الصناعة والإدارة والعسكرية ، وأنشأ المدارس لهذا النوع من التعليم بينما ظل الأزهر مختصا بعلوم الدين والشريعة وحدها .

وكان هذا بداية وجود نوعين من التعليم : نوع فى المدارس الحكومية والبعثات ، ونوع فى الأزهر أنتجا نوعين متباعدين من الثقافة ، وصلا إلى درجة الصراع واستمرا كذلك طوال القرن التاسع عشر ، ونفخ فى جذوة هذا الصراع رجال الاحتلال الإنجليزى فى مصر وعميدهم اللورد كرومر .

ومن هنا أيضا كان دور الصحافة الإسلامية ذا ثلاث شعب :

أولا : التحذير من مدارس الإرساليات الدينية الغربية .

ثانيا : إدخال التعليم الدينى واللغة العربية فى مدارس الحكومة .

---

(١) نفس المصدر : ٥٣٤ ، ٥٣٥.

(٢) د . جمال الدين الشيال : رفاعة الطهطاوى ، مرجع سابق ص ٩ ـ ١١

ثالثا : إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر ، كل ذلك فى محاولة لسد الفجوة بين أنواع التعليم ، وبالتالى بين الاتجاهات الثقافية والفكرية ووحدة هذه الاتجاهات فى مصر .

وقد التفت الشيخ محمد عبده إلى قضية إصلاح التعليم فى الأزهر منذ بداية عمله الإصلاحى ، ففى إحدى مقالاته بعنوان : « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية » (١) يدعو الشيخ محمد عبده علماء الأزهر ـ بصفة خاصة ـ إلى دراسة المنطق « لأن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقويم البراهين ، وتمييز الأفكار غثها من الثمين ، وتبيّن كيف تتركب المقدمات لإنتاج المطلوب ، بعد البيان أن أى مقدمة يصح أن تؤخذ فى البيان ، وأيها يجب أن يقذف ويطرح ، فهذا علم حقيق بأن يتخذ سلما لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه إلا ظلوم جهول » .

« والعلوم الكلامية إنما هى الأحكام لتأييد القواعد الدينية بالأدلة العقلية القطعية . حتى يحق لممارسى تلك العلوم أن يقتبس نور المطالب من تلك البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ويروع المنكرين » .

ويرى أن هذه الفئة الشريفة (الأزهريين) ـ ما زالوا يشغلون أنفسهم « بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه غير ملتفتين إلى أننا أصبحنا فى خلق جديد ، وقد طرحتنا الأيام بديننا وشرفنا فى بادية قد غصت بآساد ضارية ، كل يطلب منا ثأره ، ويطلب شن الغارة ، فإن كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا ، وإلا فإما أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا بسوء الجهل وضلال الطريق » .

ويرى أن حفظ الدين والملة والأمة يتطلب من هذه الفئة أن تقود مجتمعها وتوجهه إلى الأخذ بأسباب القوة العلمية والصناعية والحربية « وأن عليهم أن يقوموا بحث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها وما يترتب عليها من المنافع ، وعلى عدمها من المضار ووجه احتياجنا إليها » .

ويجدد عبد الله النديم هذه الدعوة فى صحيفة « التنكيت والتبكيت » فيقول عن نفسه : إنه تعلم فى الأزهر ثم أخذ يقرأ ما يستطيع قراءته مما فى مصر وغيرها من «حوادث تاريخية ، وكتب جغرافية وجرائد سياسية » ويدعو الأزهريين إلى قراءة هذه الكتب « فلو

(١) جريدة الأهرام : العدد ٣٦ سنة ١٨٧٧ م .

قرأوا التواريخ ، وطالعوا الجرائد ، ودرسوا الرياضيات ، لوقفوا على عوائد كل أمة وأخلاقها ، وأحرزوا قصبات السبق على من عداهم ، وذلك لا يخرجهم عن مشاربهم التى ألفوها والطباع التى فطروا عليها »[١] .

وحين يعود عبد الله النديم من مخبئه بعد الثورة العرابية وأثناء الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ويصدر مجلته (الأستاذ) يكتب مقالا طويلا عنوانه : « العلماء والتعليم »[٢] يعتبر دستورا وضع لإصلاح التعليم فى الأزهر للعمل به على مدى عشرات السنين التى تلته ، فقد أفاض فى هذا المقال فى شرح مركز الأزهر الدينى فى العالم الإسلامى ، وبين عيوب طريقة التعليم فيه فى ذلك الوقت ، وأهم هذه العيوب فى نظره عدم التخصص ، والترخيص لكل شيخ قراءة أكثر من علم ، وعدم وجود المناهج الثابتة ، وعدم عقد امتحان سنوى ، وعدم الاهتمام بالعلوم التطبيقية والإنسانية ، وعدم الاتصال بالحياة العامة .

وبعد أن يشخص هذه العيوب يقدم أربعة وعشرين اقتراحا للإصلاح من أهمها إنشاء معاهد تؤهل للالتحاق بالأزهر وجعل الأزهر مدرسة عليا ،ووضع المناهج وتقديرها على مدار السنة الدراسية ، والاهتمام بالشروح دون الحواشى ، وإقامة أعمال التفتيش على أعمال المشايخ والطلاب ، وتنظيم الامتحان كل عام ، ومنح الأجازات الدراسية وتنظيمها ، والرعاية الطبية للطلبة ، ودراسة العلوم الرياضية والجغرافية والتاريخية ، وإنشاء الفروع فى عواصم المديريات توسيعا لدائرة العلم ، ونشر المعارف فى البلاد ، وتنظيم التخصص ، ولا يقيم فى الأزهر من العلماء إلا رجال الطبقة العليا الذين تفردوا بالتبحر فى العلم .

ونظرا لأهميةهذا المقال فقد نقلته جريدة (المؤيد) ونشرته كاملا ، وكانت « المؤيد » فى ذلك الوقت من الصحف الإسلامية واسعة الانتشار[٣] .

وترجع حركة الإصلاح الحديثة فى الأزهر ـ كما يقول أحمد شفيق باشا فى مذكراته ـ إلى أواخر سنة ١٨٩٤ م . « ففى هذا التاريخ حدث تقارب بين الشيخ محمد عبده والخديوى عباس حلمى الثانى ، عندما رأى الشيخ جرأة عباس وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الإنجليز ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال إليه لما آنسه منه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مرارا بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه ، وتحدثا فيما يمكن عمله لخدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث

(١) التنكيت والتبكيت : عدد ٩ فى ١٧ أغسطس سنة ١٨٨١ م .

(٢) الأستاذ : العدد ٢٦ في ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ م .

(٣) المؤيد : فى ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ م .

نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الإنجليز ، ولا يعارضون الخديوى لإصلاحها ، لأنها دينية محضة وهى الأوقاف ، والأزهر ، والمحاكم الشرعية ، وأشار على سموه أن يبدأ بإصلاح الأزهر ، واتفقا على أن يقدم الشيخ لسموه تقريرا بما يراه من وجوه الإصلاح » (١) .

وفى سنة ١٨٩٥ م شكل مجلس إدارة الأزهر وعين الشيخ محمد عبده عضوا فيه هو والشيخ عبد الكريم سلمان وكبار علماء المذاهب فى الأزهر .

وعندما اقترح الشيخ محمد عبده إدخال بعض العلوم فى مناهج الدراسة بالأزهر كعلم الحساب وعلم تقويم البلدان ، ثم إلغاء بعض الكتب العقيمة كالشروح والحواشى والتقارير ، والاستغناء عنها بكتب كالتى أشار إليها ابـن خلدون ، مثل كتاب الكامل للمبرد ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، رفض أغلبية الأعضاء فى مجلس الأزهر الاقتراح ، زاعمين أن مدارسة هذه الكتب تعطل مدارسة العلوم الدينية ، وقرروا أن ممارستها والارتياض عليها أمر غير واجب ، ومستحسن غير لازم (٢) .

وقد وقف السيد إبراهيم المويلحى مع الشيخ محمد عبده فى دعوته لإصلاح التعليم فى الأزهر ، فكتب فى هذا الموضوع عدة مقالات فى صحيفة (مصباح الشرق) يقول فى واحد منها (٣) :

« ومن غرائب الحدثان ، وأعاجيب الزمان أن جامعنا الأزهر الذى تأسس ليكون منبعا للعلوم ، ومستودعا لأساليب المنطوق ، والمفهوم ، ومنهلا لطلاب المعقول والمنقول ، قد انتهت به الحالة اليوم إلى المناقشة والمجادلة بين أهله فى أن علم الحساب وعلم تقويم البلدان ــ مثلا ــ من العلوم الضارة أو النافعة ، وقام من قام منهم يظهرون التأذى أو التضرر من إدخال مثل هذين العلمين بين علومهم ، وأخذوا ينشرون على الملأ أن الاشتغال بهما فى الجامع الأزهر مضر بالدين مله عن التضلع فى علوم شريعته ، معطل لأسباب التحصيل والاستفادة ، عنادا منهم وتعنتا ، وخلافا لما لا يجهلونه من ارتباط الدين بالعلم ، وهروبا بالناس من وجه الحقائق ، وتعويقا للطلاب عن اتساع الفكر ، وارتقاء الذهن ، وتنوير الفهم ، فعرضوا الدين بذلك إلى سوء الظن فيه ، وتحقيق فرية الغير عليه ، فى وقت

(١) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، القاهرة سنة ١٩٣٦ م جـ ٢ ص ١٨٥ .
(٢) مجلة مصباح الشرق : فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٩ م مقال بعنوان : « مستحسن غير لازم » .
(٣) مجلة مصباح الشرق : فى ٦ أبريل سنة ١٩٠٠ م مقال بعنوان : « العلم فى الإسلام » .

يحاول فيه المسلمون الآن أن يتعاونوا على إظهار دينهم فى مظهر الحق ، والعودة به إلى محجته البيضاء ، وطريقته السمحاء ، وإقناع الغربيين بوجوب الإقلاع عن الارتياب فيه ، وسوء الافتراء عليه ، وأى إساءة للدين أبلغ من أن يسطر طلاب علومه فى الصحف السيارة ، أن علم الحساب معطل لعلم الدين ، مضر بمعرفة شريعته ، وأى غربى يسمع هذا القول من بعض علماء المسلمين ، ولا يذهب فكره إلى التأمل فى تلك الكلمة التى يكررها غلادستون على لسانه أيام حياته فى الافتراء على الدين الإسلامى بأنه مخالف لا يتفق مع علوم المدنية الحاضرة ، والترقى بأهله إلى مماثلة الغربيين فى تمدنهم ، وأى النوادب ـ لاتندب ، وأى النوائح لا تنوح على هذه الحال من الانحطاط فى العلم ، وقد كان ينبغى على مقتضى القياس أن يكون الجامع الأزهر منبعا للمعقول والمنقول ، جامعا لعلوم الموجودات ومعرفة دقائق المخلوقات ، لما فى ذلك من الحجج الدامغة والبراهين القاطعة على وحدانية خالق الوجود جل شأنه ، المتلاصقة بعلم التوحيد ، المتلازمة معه ، لا أن يصبح وقد كان يتجدد فيه ما اندثر فى تلك الأزمنة من نكران العلم وجبر الناس على نبذه واتقاء العمل به ، والاقتصار على معرفة فرائض الدين وسننه ، ومسائل الفقه وقواعد النحو يدورون فى دائرتها طول عمرهم ، وأيام حياتهم ، وأى تعطيل زعموه يحدثه للفقه الاشتغال بعلم الحساب ، وعلم تقويم البلدان بين عشرة آلاف من الطلاب فى الفقه لم ينجح منهم فى الامتحان السنة الماضية أكثر من أربعة أشخاص .

اللهم إن هذا التعطيل لم يحدثه سوى ضيق الذهن ، وإهمال الممارسة للعلوم العقلية على طريقة الترقى الحديثة ، وخمود الفكر عن مزاولة المعارف العصرية المفيدة ، وحبس النفس على تلك الطرق القديمة ، والأساليب المشوشة والمناهج العقيمة فى التدريس والتعليم والتلقين والتفهيم .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر جهاد الصحافة الإسلامية من أجل إصلاح التعليم فى الأزهر ، ولكنه لم يشهد ثمرة هذا الجهاد بل شهدها القرن الذى تلاه .

الفصل الثانى

الصحافة الإسلامية

ومحاربة البدع والخرافات

ورث القرن التاسع عشر عن عصر التخلف المملوكى العثمانى كثيرا من البدع والخرافات التى أثرت تأثيرا سيئا فى الحياة المصرية ، وكانت عائقا كبيرا أمام النهضة التى قادتها الصحافة الإسلامية وتمثلت هذه البدع والخرافات فى ثلاثة أشياء هى :

الفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر فى الإسلام ، وانحراف الطرق الصوفية عن طريق التصوف الصحيح ، وعددا من العادات والتقاليد الخاطئة التى سادت المجتمع المصرى ، هذه الأشياء شنت الصحافة الإسلامية عليها حربا لا هوادة فيها ضمن جهادها للقضاء على التخلف وسعيها إلى النهضة والتقدم .

أولا : مواجهة الفهم الخاطئ لعقيدة القضاء والقدر :

كان من نتيجة الركود الذى خيم على الحياة الفكرية فى مصر فى العهد المملوكى والعثمانى ، وتسلط الفرق الصوفية على الحياة العقلية والثقافية والاجتماعية أن ساد فهم خاطئ لعقيدة القضاء والقدر فى الإسلام . فأصبحت مرادفة للجبرية وانعدام الإرادة والاختيار والكسب لدى المسلم ، واحتقار العمل والعلم والعقل حتى أصبح شعار بعضهم أن : « ما أخيب التاجر الذى يبذل وقته فى تجارته ، والزارع الذى ينفق جهده فى زراعته ، والصانع الذى يبذل نشاطه فى صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلبا لكسب أو رغبة فى مال ، فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر ، والمرزوق فى طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر» (١) ، فكان هذا من أسباب الركود والكسل والاستسلام للظلم الذى ران على الحياة فى مصر فى ذلك العهد .

وبالإضافة إلى ذلك فإن عددا من كتاب أوربا ومفكريها المرتبطين بحركة الاستعمار فى القرن التاسع عشر قد ظنوا أن أفكار المسلمين وأعمالهم هذه هى الإسلام بعينه ،

---

(١) د . توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ـ القاهره د . ت ص ٢١٢ .

وأخذوها حجة على الإسلام . غير عالمين أن الإسلام برىء من هذه الأعمال .

فقد « اعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الإنسان مجبور محض فى جميع أفعاله وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء والقدر يرون أنفسهم كالريشة المعلقة فى الهواء تقلبها الريح كيفما تميل ، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة فلا ريب تتعطل قواهم ، وينقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم » (١) .

ونجد هذا المعنى يتردد ــ أيضا ــ فى مقال مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا ، الذى نشرته (المؤيد) وكان سببا فى المناظرة الشهيرة التى دارت بينه وبين الشيخ محمد عبده على صفحات هذه الجريدة ، وكانت قضية « القضاء والقدر » هى إحدى ثلاث قضايا دار الحوار حولها ، فقد ذهب هانوتو فى مقاله . إلى أن العقيدة المسيحية القائلة بحرية الإنسان واختياره دفعته إلى ميدان الجلاد والعمل ، وألقت به فى غمرات التنافس الحيوى ، فى حين أن المسلمين جعلهم اعتقادهم فى القضاء والقدر يخضعون خضوعا أعمى لناموس لا يعرف التحول والتبدل والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بهذا المذهب تحمل الإنسان على إغفال شئون نفسه وبث القنوط فى فؤاده وتثبيط همته ، وإيهان عزيمته (٢) .

وأخذت الصحافة الإسلامية على عاتقها أن تبطل هذه الآراء غير الصحيحة عن عقيدة القضاء والقدر فى الإسلام ، وتبين أنها مصدر قوة وشجاعة للمسلم ، واحتلت هذه القضية مكانا هاما فى سياسات الصحف الإسلامية ، فعندما نشرت صحيفة « العروة الوثقى » مقالها عن « القضاء والقدر » (٣) كان لهذا المقال صدى كبير فى نفوس المثقفين والصحفيين فى مصر فأعاد نشره عبد الله النديم فى صحيفة (الأستاذ) (٤) ، ونشره رشيد رضا فى صحيفة (المنار) (٥) ونشر فى الطبعات المتعاقبة من أعداد صحيفة (العروة الوثقى) ، وكذلك فى آخر رسالة « الرد على الدهريين » لجمال الدين الأفغانى (٦) .

---

(١) مجلة العروة الوثقى : عدد ٧ فى ١ مايو سنة ١٨٩٤ م مقال بعنوان : « القضاء والقدر » .

(٢) جريدة المؤيد : ١٥ أبريل سنة ١٩٠٠م ، ترجمة الجزء الأول من مقال مسيو هانوتو .

(٣) فى ١ مايو سنة ١٨٩٤م . (٤) فى ١٦ مايو سنة ١٨٩٣م . (٥) فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٠م .

(٦) جمال الدين الأفغانى : الرد على الدهريين ــ القاهرة سنة ١٩١٤ م ، وقد رجع الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » الطبعة التاسعة القاهرة سنة ١٩٨١م ص ١٢١ إلى مقال العروة الوثقى ونسبه إلى الشيخ محمد عبده فى رده على هانوتو ، وهذا خطأ لأن المقال نشر فى (العروة الوثقى) =

وقد ذهبت (العروة الوثقى) إلى أنه « لا يوجد مسلم فى هذا الوقت ـ إذا صحت عقيدته ـ سواء كان سنيا أو شيعيا أو غير ذلك يرى مذهب (الجبر) المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة . بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ، ويسمى « الكسب » . وهو مناط الثواب والعقاب عندهم جميعا ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الإلهية ، والنواهى الربانية ، الداعية إلى كل خير ، الهادية إلى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى ، وبه تتم الحكمة والعدل .

والاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه الجرأة والإقدام وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، وتنشق عنها مرائر النمور .. هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ، ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج عن كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلى عن نضرة الحياة . كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

والذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟

وامتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضله فى قوله الحق : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ (١) .

ـ قبل رد الإمام على هانوتو بحوالى ست عشرة سنة ، أما مقال الشيخ محمد عبده الذى تضمن فكرة القضاء والقدر فى الإسلام فى الرد على هانوتو فقد نشر فى جريدة المؤيد العدد ٣٣٩ الصادر فى ١٨ أبريل سنة ١٩٠٠م ، وليس فيه النص الذى استشهد به الدكتور البهى . كما أننا نختلف معه فى نسبة هذا المقال إلى الشيخ محمد عبده ؛ لأن مقالات العروة الوثقى هى من روح الأفغانى وأقرب فى نسبتها إليه . وقد نشر المقال مع كتاب « الرد على الدهريين » للأفغانى وكجزء منه كما ذكرنا . انظر فى تحقيق نسبة مقالات (العروة الوثقى) إلى الأفغانى ـ الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ١ ـ تحقيق وتقديم د. محمد عمارة ط . بيروت ١٩٧٢م ص ٢٢٩ .

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤ .

وهذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على أعقابهم » .

وتدلنا صحافة ذلك العهد على أن الإمام محمد عبده كان ينتهز كل فرصة لتصحيح عقيدة القضاء والقدر فى نفوس المسلمين ، ففى حفل لمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية تطرق بعض الطلبة فى كلمات ألقوها إلى موضوع القضاء والقدر ، فقام الإمام وخطب معلقا على هذه الكلمات موضحا مفهوم القضاء والقدر فى الإسلام وشرحه للحاضرين . ونشرت المؤيد هذه الخطبة ونوهت بها (١) .

وفى أعقاب أحد دروسه فى تفسير القرآن فى الأزهر وعنوانه :

« إن سعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم بالكسب والعمل ، فإن الله خلق الإنسان وناط جميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه » فى أعقاب هذا الدرس يوضح الإمام حرية الإرادة والاختيار لدى الإنسان فى رأى الإسلام فيقول : « ولا ينبغى للإنسان أن يذل فكره لشئ سوى الحق ، والذليل للحق عزيز ، نعم يجب على كل طالب أن يسترشد بمن تقدمه ، سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً ، ولكن عليه أن يعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فإن وجده صحيحا أخذ به ، وإن وجده فاسدا تركه ، والحاصل أن الفكر الصحيح يوجد الشجاعة ، والشجاعة هنا قسمان : شجاعة فى رفع القيد الذى هو التقليد الأعمى ، وشجاعة فى وضع القيد : الذى هو الميزان الصحيح الذى لا ينبغى أن يقرر رأى ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه ، وبهذا يكون الإنسان حرا خالصا من رق الأغيار عبدا للحق وحده »(٢) .

وتنشر (المنار) هذه الخاتمة مستقلة ويعلق عليها رشيد رضا بأنه لو عقل عشرة فى المائة ممن سمعوا هذا الخطاب الذى لخصنا معانيه ولم يكن فى استطاعتنا نقل تأثير إلقائه ، وجرس صوته ، وقوة روحه ، لرأينا فى الأزهر اليوم مئات من أساطين العلم المستقلين ومدرسة الشجعان المخلصين ، على أنه ولله الحمد لم يذهب سدى ولم يكن عبثا ، فقد وعاه بعض من سمعه وسرى تأثيره إلى من لم يسمعه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه (٣) .

وكان موضوع القضاء والقدر فى الإسلام من الموضوعات التى دار حولها الحوار فى المناظرة بين الإمام محمد عبده وهانوتو حيث اتهم هانوتو الإسلام بما اتهمه به فى هذه الناحية .

---

(١) المؤيد : العدد ٣٣٩٧ سنة ١٩٠٠ م .

(٢) المنار : مجلد السنة الثالثة ص ٣٠٢ .

(٣) المنار : نفس المصدر السابق .

ويقول الإمام فى رده على هانوتو : « جاء القرآن الشريف وهو الكتاب المنزل بالإسلام ، يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرَّمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ (١) وأثبت الكسب والاختيار فى نحو أربع وستين آية ، وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فإنما جاء فى تقرير السنن الإلهية العامة المعروفة بنواميس الكون ،كما فى آية : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾ (٢) ، ونحوها » (٣) .

« وجاء النبى ﷺ ، فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك ، فكان العامل الذى لا يكسل والدائب الذى لا يمل والساهر الذى لا ينام ، والجاد الذى لم يبلغ شأوه أحد من الأنام . هل نقول عنه إنه اتكأ يوما على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى إتمام دعوته ، قائلا : الذى كفل لى النصر يكفينى التعب وضمانة الله لإعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا .. بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة إلا نشاطا ، ولا تجد العصمة الإلهية من نفسه إلا حزما واحتياطا .

جاء الصحابة على أثره ، وتبعهم ما جاء بعدهم من السلف الأولين ، وكانوا أكمل الناس إيمانا بإحاطة علم الله وشمول قدرته ، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار . وكانوا أسوة فى السعى ، ومثلا فى الدأب والكسب ، حتى كان من آثارهم فى نشر الإسلام ما يتألم منه اليوم (هانوتو) وأمثاله » .

ثم يورد محمد عبده أسباب انحراف المسلمين فى عصره عن عقيدة القضاء والقدر الصحيحة فى الإسلام ، فيرجعها إلى من دخل فى الإسلام من الموالى من عجم وفرس ، الذين حملوا إليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل فى العقائد ، وكذلك ما وجد بين المسلمين من طائفة تعرف بالجبرية ، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل وينبذها الدين حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ، ثم السبب الثالث الذى يقول عنه : « ولكن لا أنكر أن الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون ، فبثوا فيهم أوهاما لا نسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم ، لا على أنها عقائد ولكن وساوس ، قد تملك

---

(١) سورة الأنعام : ١٤٨ . (٢) سورة هود : ١١٨ (٣) المؤيد فى ١٨ أبريل سنة ١٩٠٠م .

الجاهل ، وتربك العاقل إذا لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح ، فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الأعلياء منهم إلى توريطهم فيما هم فيه ، كما هو شأنهم في كل أمة » .

أما لو رجع المسلمون إلى الحقيقة من دينهم ، لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولتهم ـ علما ـ أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، نال ما ينال القوى من الضعيف والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنونهم لدى (هانوتو) عقلا ، وتحول هذيانهم حكمة وعلماً [١] .

ثانيا : التصدى لانحرافات الطرق الصوفية :

ورث القرن التاسع عشر عن العصرين المملوكي والعثماني تركة مثقلة من انحراف الطرق الصوفية عن طريق التصوف الإسلامى الصحيح ، ففى قرون التخلف هذه اعتبروا الاشتغال بالعلوم المعروفة فى عهدهم ـ من دينية وعقلية ولسانية ـ انصرافا عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتهجد ، فهاجموها علما علما ، ودعوا إلى العلم اللدنى وحده ، واتفقوا على تحريم التأويل واحتقار التفكير ، ولم يكن أرباب الطرق بانحرافهم عن الطريق القويم هم مبعث الركود الذى شمل العقل وطغى على العلم فى العصر العثمانى ، فإن هذا الشلل كان قد أصاب العالم الإسلامى كله منذ عام ١٢٠٠ للميلاد ، ولكن أرباب الطرق قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة ، وعملوا على تقوية تعاليمهم المريضة فساهموا بنصيب وافر فى الانحلال الذى أصاب العقل المصرى إبان العصر العثمانى ، ولا سيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامى كله أيام سلاطين المماليك [٢] .

ومن ناحية أخرى « حصروا سعادة الدارين فى العبادة والذكر فانتهى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ، فكان من أثر ذلك أن هان فى نظرهم السعى فى الدنيا لاكتساب المال والكد فى ميادين العمل من أجل الربح والظفر ، وساروا فى تصورهم إلى النهاية فأباحوا التسول بعد أن استهجنوا السعى وقبحوا العمل ،

(١) جريدة المؤيد: نفس المقال .

(٢) د . توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى ، ط مكتبة الآداب ، القاهرة ، د. ت ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم » [1] .

وفى هذا العصر سادت الشعوذة والخرافة بين الملايين التى انخرطت فى (الطرق) الصوفية حتى تحولت الرياضات الروحية إلى طقوس شكلية ، ومزارات الأقطاب إلى وسائط بين الإنسان وربه شابت بالشرك نقاء عقيدة التوحيد [2] .

ويرى تشارلز آدمس أن حركة التجديد الإسلامى التى قادها جمال الدين الأفغانى ثم محمد عبده ورشيد رضا من بعده ، قد تأثرت ـ ضمن ما تأثرت به ـ بآراء اثنين ممن حاربوا الوثنية فى القرن الثالث عشر الميلادى وهما ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية [3].

وكان ابن تيمية قد تناول موضوع التصوف فى كتابه : « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فلم ينقد الزهد ولا الزهاد من الصحابة رضوان الله عليهم من أمثال أبى ذر الغفارى وسلمان الفارسى .

كما لم ينقد الزهاد من التابعين فى القرن الأول الهجرى من أمثال الحسن البصرى ، وعامر بن قيس ولا ما وصفوا به بين إخوانهم من « زهد » ؛ لأنهم كانوا يصرفون نشاطهم إلى تزكية النفس من نقائصها وصفاء القلوب إلى خالقها ، فأعمالهم كانت مشروعة خالصة وأقوالهم كانت رشيدة واضحة لا عوج فيها ولا التواء .

لم ينقد ابن تيمية هؤلاء ولا أقوالهم ؛ لأنهم يعملون برسالة الإسلام ، ويعبرون عن الهدف الأخير لها ، وهو حمل النفس على (الاطمئنان) وعلى التحمل وعلى السير فى الحياة فى ثقة ؛ لأنها تستعين بالله ، وتسلك طريقه فيما تسير نحوه من غاية .

كما لم ينقد الزهاد يوم صاروا يلقبون بـ (الصوفية) فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، وفى مقدمتهم أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وهو أول من لقب من الزهاد بالصوفى ؛ لأن طريقتهم ما برحت تقوم على قواعد الدين ورعاية آدابه وسلوكه .

ولم ينقدهم كذلك بعد أن أصبح التصوف فى القرن الثالث الهجرى مذهبا فنياً ، له قواعد للمحاجة ، ومصطلحات خاصة ، إذ وجد بين صوفية هذا التصوف الفنى أمثال :

---

(١) نفس المصدر ص ٢١١ .

(٢) د . محمد عمارة : تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ، القاهرة ١٩٨٢م ص ١٦٤ .

(٣) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، مرجع سابق ص ١٩٣ .

أبو القاسم الجنيد الذى كان يقول : « مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة » .

ولكنه ينقد ما سماه « تصوف الملاحدة » الذى انحدر إليه الاتجاه الصوفى فى الجماعة الإسلامية ، بعد أن قبل فى شروح المبادئ الإسلامية عقائد وفكرا ، ترجع إلى المسيحية ، والأفلاطونية الحديثة والبرهمية ، وبعض الديانات الفارسية القديمة كالمانوية[1] .

وكما تصدى ابن تيمية لانحرافات الصوفية وابتداعاتها فى عصره تصدى الإمام محمد عبده ومدرسته لانحرافات الصوفية وابتداعاتها فى عصره ، وإن كان هناك اختلاف في صور الانحراف والابتداع بين العصرين .

وتصدت صحافة الإمام محمد عبده ومدرسته لكثير من الأفعال الشاذة والبدع المنكرة والانحراف عن الطريق القويم التى لجأت إليها الطرق الصوفية ، فحاربتها صحافة هذه المدرسة وعملت على إبطالها وتنقية المجتمع منها ، وكان جهاد صحافة هذه المدرسة لإصلاح الطرق الصوفية وإبطال ما فيها من مفاسد جزء من الإصلاح على النهج الإسلامى الذى قادته فى المجتمع كله .

وقد بدأ الإمام محمد عبده الحملة لإصلاح ما اعوج من الطرق الصوفية فى جريدة الوقائع المصرية فهو ينشر مقالا بعنوان : « إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية »[2] أورد فى أوله خبراً ثم علق على هذا الخبر ، وكان هذا اتجاها جديداً فى الصحافة المصرية ـ إيراد الخبر والتعليق ـ يميل إلى الواقعية فى الإصلاح الاجتماعى بدلا من الطريقة النظرية والإنشائية .

أما الخبر فقد أرسل شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ـ رضى الله عنه ـ خطابا إلى وزارة الأوقاف يقول فيه : إن مجلس ذكر السعدية الذى ينعقد بذلك المسجد فى كل يوم ثلاثاء ، لا يذكر فيه اسم الله إلا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذى الصوت المزعج معروف) ولما فى ذلك من تشويش الأسماع نبهنا عليهم مرارا بإبطال هذه العادة ، وأن يذكر الله ذكرا مجردا عن الطبل فلم تثمر التنبيهات . ونظرا لتشويش صوت الطبل على المصلين وطلاب العلم فى المسجد فقد اعترضوا عليه وقالوا إنه من المحرمات شرعا ، وطلب الخطاب من الحاكم إصدار الأمر بإبطالها .

---

(١) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى فى تطوره ، القاهرة سنة ١٩٨١م ص ٥٤ ـ ٥٦ .

(٢) الوقائع المصرية : العدد ٩٥٨ بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٨٠م :

أرسلت وزارة الأوقاف إلى شيخ الأزهر تستفتيه فى الأمر فأجاب بأن ضرب طبل الباز (أو نحوه) فى المساجد مما لا يسوغ شرعاً ، وعلى ديوان الأوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ، ثم زاد الشيخ فى حاشية خطابه : إن ذلك ليس مختصا بالباز ، بل هو عام بكل ما أوجب تشويشا على المصلين ، حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله فى المسجد إذا ترتب عليه التشويش ، وكذلك ما يترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد ، كاختلاط الفتيان بالفتيات ، ومن ثم أرسلت نظارة الأوقاف إلى مديرى أقسامها فى الأقاليم بوقف هذه الأفعال التى تشوش على المصلين .

هذا هو الخبر الذى نشرته جريدة الوقائع المصرية الرسمية ، وكان من السنن التى استنها الشيخ محمد عبده فى الوقائع التعليق على مثل هذا الخبر نشرا لخير أو دفعا لشر، أو امرا بمعروف أو نهياً عن منكر .

يعلق الشيخ على الخبر قائلا : « إن هذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة ، والسنة القويمة ، وبانتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة ، إذ وجه أولو الأمر منا نظرهم إلى تخفيض شأن البدع وإزالتها » (١) .

ثم يوجه الشكر إلى ناظر الأوقاف لحمايته أماكن العبادة من الله وسيئ الأفعال ، وإلى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يبالى فى نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين .

ويعطى الشيخ محمد عبده لنفسه الحق بصفته رئيسا لتحرير الجريدة الرسمية أن يحصى عددا من البدع والمنكرات التى يشملها المنع فلا يشمل (الباز) ــ الذى تستخدمه الطريقة (السعدية) فقط ، ولكنه يشمل كل ما يؤدى إلى التشويش على المصلين أو الإخلال بحرمة المساجد فيشمل المنع :

ــ طريقة المغاربة المنسوبة للسيد « عبد السلام الأسمر » كذبا وافتراء التى تتخذ طبولا ذات أشكال مختلفة وصوت عنيف ، فإذا قاموا إلى الذكر غضوا شناعة أصوات تلك الطبول الكثيرة بضجتهم المزعجة ، يجأرون بألفاظ لا مدلول لها ، وعندما يشتد خمر الأوهام فى عقولهم يهيجون هيام المعاتيه ، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ويضع النار فى

(١) الوقائع المصرية : نفس المقال .

فمه إلى غير ذلك من الأفعال التى يأتونها فى مسجد سيدنا الحسين بمولده ، ولا يعلم أية سنة تبيح هذه المنكرات التى يجريها الجهلة فى بيوت الله المعظمة ، فإن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم بدون استثناء .

ـ ويشمل حكم المنع أيضا الازدحامات التى تكون فى المساجد الشهيرة فى أيام تعرف « بالحضرات » ، كيومى الأحد والأربعاء بمسجد السيدة زينب ، ويومى السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد الحسين ، إذ يختلط النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعا .

ويختم مقاله بأن أمر نظارة الأوقاف بالمنع قد فتح بابا للخير لابد من الوصول إلى غايته بأن يعم جميع البلاد ، وعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين .

ومن أسوأ البدع التى حاربها الشيخ محمد عبده فى صحيفة الوقائع المصرية ، بدعة (الدوسة) التى يقول عنها إنها ليست من الدين الإسلامى فى شئ بل هى مناقضة له تماما .

وتقضى هذه البدعة أن ينطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد الآخر حتى ينتهى إلى آخرهم ، وهم يظنون أنهم بهذا العمل تنالهم البركة والخير الكثير (١) .

يقول الشيخ محمد عبده : كيف يحدث هذا لمسلمين من أهل الإيمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعى ، بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم بنى آدم على سائر الحيوانات مطلقا ، فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع ، وقد جعلهم الله فى الدرجة الثالثة بعد عزته سبحانه وتعالى فقال : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ (٢) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهاناً على التراب ليطأه حافر البهيم ، وقد نهت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الأموات فضلا عن الأحياء ؟ (٣) .

وينقد الشيخ بدعة الدوسة نقدا شديدا من عدة وجوه ، فإنها قد تسبب ضررا فى أعضاء من يدوسهم الحصان ، والتعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة للارتكاب ، وهى ليست متشابهة لأى شئ فى السنة الغراء حتى يلتمس أحد موافقتها للشرع ،

---

(١) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٧٨ .
(٢) سورة المنافقون : ٨ .
(٣) الوقائع المصرية : العدد ١٠٣٨ بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٨٨١ .

وهى ليست من الكرامات ، فإن العلماء قد نصوا فى كتب التوحيد على أن شروط الكرامة ألا تصير عادة يتعاطاها من يريد إظهارها على حسب إرادته ، فإن صارت كذلك « كأكل النار » و « ضرب السلاح » و « الدوسة » ، ونحوها التى يتعاطاها كل من يأخذ عهدا عن طريقة الرفاعى أو السعدى أو يتولى مشيخة السعدية أياً كان فلا تكون من قبيل الكرامة بل من الحيل المذمومة .

وهو يطالب عامة الناس ممن يجهلون أمور دينهم ألا يتمسكوا بهذه العادة الذميمة قائلاً : « إن المصائب لم تصب علينا ، ولم تصل أيدى الغدر والفجور إلينا ، إلا من يوم أن نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهرياً ، ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده القويمة ، بل زادوا فيه أمورا ظنوها منه ، وهى ليست منه فى شىء ، وإن بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحاً لبطلان عادات كثيرة ، وسنرى البدع الضلالية تبطل شيئاً فشيئاً حتى يرجع الأمر إلى الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة الراشدين »[1] .

وأبطل الخديوى توفيق بدعة (الدوسة)[2] استجابة لما قام ضدها من رأى عام مناهض ، ولكن نفرا ممن ألفوا تلك العادة استفزتهم مصالحهم الخصوصية وتحركت جمعيتهم للمحافظة على عوائدهم البالية ، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكرى ، أن يبيح لهم إعادة (الدوسة) فى مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر ، الذى روى عنه أن الزجاج صف أمام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعتريه اختلال محتجين على حضرة السيد المشار إليه فى طلبهم بأن (الدوسة) فضلاً عن أنها من كرامات أحد الأولياء ، وهو الشيخ يونس ـ فإنه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء والأعلام والسادة الفضلاء ، ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ، ومضت تلك الأزمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف ، فلا يصح بطلانها الآن اتباعاً لسنة الآباء والأجداد ومحافظة على العادات والمشارب[3] .

ويواجه الشيخ محمد عبده محاولات المبتدعين لإعادة الدوسة وينبرى للرد عليهم ، ويتناول ذلك من نواحى الشرع والعقل وكرامة الإنسان وسلطان البدع فى زمن يئس فيه العلماء من مقاومتها فيقول : « إن صح ما عزوه إلى الولى الشهير الشيخ يونس حين (وطأ

---

(١) الوقائع المصرية : المصدر السابق .

(٢) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٧٨ .

(٣) جريدة الوقائع المصرية : العدد ١٠٧٨ فى ٣ أبريل سنة ١٨٨١م .

الزجاج بمناسم فرسه) فتلك كرامة خصه بها المولى عز وجل ، وذلك لا يفيد إباحة الدوسة [1] ، ولو توسعنا فى تلك الرواية غير الموثوق بها ، وقلنا إن ذلك الولى وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ولم يلحقهم ضرر ، فهذا ربما كان ــ لو وقع ــ إظهارا لأمر خارق للعادة على يد رجل من المتقين ، ولا يستلزم جواز وطء أجسام الرجال بمناسم الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة تقع فى كل زمان ومكان ، فإنه لا يكون من باب الكرامات ، ووقوعها بمحضر العلماء لا يستدل به على جوازها ، وهى موجبة لانتهاك حرمة الإنسان ، وعملها تحت اسم كرامة من كرامات الأولياء يؤدى إلى سوء الظن بالمتقين والصلحاء ، فليعلم ــ إذن ــ أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسمهم قد أفلت واستعيض عنها ببزوغ شموس الحق ومصابيح الإرشاد إلى طريق الدين القويم » [2] .

وتابعت صحيفة (الأستاذ) هذه الحملة لنقد الطرق الصوفية ومحاولة إصلاحها ، فكتب النديم مقالاً بعنوان :(الطرق وما فيها من البدع) [3] يقول فيه : « لا تزال هذه الطوائف تبتدع أمورا تضحك السفهاء وتبكى العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة ، وسلط علينا الأجنبى يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ظناً منه أن ما يفعله هؤلاء الجهلة من الدين » ثم أورد أمثلة مما طعن به الإنجليز على الدين الإسلامى زعما منهم أن هذه المراقص والمزامير والأمور التياترية من الإسلام حتى قالوا : « لنا (كرنفال) واحد فى السنة ، ولكم فى كل مولد (كرنفال) » .

وأطال النديم فى وصف الأذكار غير الشرعية ، ودعا إلى ما كان عليه السلف الصالح حيث كانت الطرق محل اعتبار وجلال ، ومرجع هدى ورشاد ، وانتفع بها المسلمون

(١) المصدر السابق ، وقد وضح الإمام محمد عبده رأيه فى الاعتقاد بوقوع كرامات الأولياء وجواز وقوعها ، وذلك فى (رسالة التوحيد) حيث قال : « أما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للمادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية ، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم ــ بإجماع الأمة ــ أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان ، ولا يكون ــ بإنكاره هذا ــ مخالفا لشئ من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم ، فأين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاضل فيها همم الأصفياء ؟ وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون . الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٣ ص ٤٧٣ و ٣٧٤ .

(٢) الوقائع المصرية : نفس المقال . (٣) مجلة الأستاذ : ١١ أبريل ١٨٩٣م .

انتفاعهم بالأخذ عن العلماء ، وأبان أن ذلك لا يتم ، وغالبية المنتمين إلى هذه الطرق جهلة لا يعرفون العقيدة الإسلامية إلا سماعا وتقليداً ، ولذلك ضلوا الطريق وأضلوا العامة .

وبعد أن يشخص النديم فى مقاله السابق عيوب الطرق الصوفية وضلالاتها فى عصره ـ يكتب مقالا آخر بعنوان : « الطرق وإصلاحها » [1] يطرح فيه ما يراه لإصلاح هذه الطرق ، وإعادتها إلى طريق التصوف الإسلامى الصحيح ، وأوضح معالم (الطريق) إلى ذلك ، واستدل بأقوال أئمة الصوفية أنفسهم على أن التصوف الصحيح ينبغى أن يقوم على « التمسك بالكتاب والسنة وإجماع أئمة الدين » ، فإن طرأ علينا أمر عرضناه على كتاب اللّه ثم على السنة الشريفة ثم على الإجماع ثم على القياس ، فإن لم نجده فى واحد من هذه الأصول فهو باطل ، ثم عرض النديم على هذه الأصول كثير من البدع الشائعة فى عهده فلم يستقم ميزانها ، وعرض عليها قول مدعى الطرق الصوفية فى أيامه : « لا اتصال ولا انفصال بين العبد والرب فإن الحقيقة واحدة » ووضع الأدلة التى يعللون بها هذا الرأى موضع الاختبار فلم تنجح فى ميزان العقيدة الصحيحة ، ولم ينجح لديه الرأى ذاته .

وعندما أنشأ الشيخ رشيد رضا مجلة (المنار) شن حملة عنيفة على ما يحدث فى (الموالد) من بدع وأعمال لا يرضى عنها عقل ، وكان هذا الموضوع من أهم الموضوعات ـ إن لم يكن أهمها جميعاً ـ التى شغلت تفكيره واستغرقت جهده فى السنة الأولى من (المنار) .

ففى مناسبة الاحتفال بمولد السيد البدوى (رضى اللّه عنه) يصف ما يحدث فى مسجده من تجمع أخلاط من الناس فى هيئات غريبة مزرية يقومون إلى الذكر (كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وما كان ذكرهم إلا همهمة ودمدمة تخالطها شهقات وزفرات وغيرها من الحركات الشاذة ثم يعقبها نوبات صرع وإغماء ويشترك فى ذلك الرجال والنساء .

ونجد فى المسجد أيضاً المتصدرين للرقى والتمائم وشفاء الأمراض ، والعرافين الذين يدعون معرفة الغيب ويبشرون الناس بقضاء مصالحهم ، والطائفين حول مقصورة السيد البدوى مما لا يجوز إلا للكعبة الشريفة طالبين إليه حوائجهم معتقدين أنه على كل شئ قدير ، والنساء من مدعيات الولاية يقمن بأعمال فاضحة فى مخالطة الرجال وقد ارتفع عنهن

---

(١) مجلة الأستاذ : ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣م .

برقع الحياء(١) .

ثم يقول : إن سكوت العلماء على هذه الأعمال ، بل مشايعتهم لها وتخلية المسجد لمرتكبيها وتهنئتهم بهذا الموسم (الشريف) والدعاء لهم بالحياة لمثله أعواماً وأحوالا ، كل هذا وأمثاله أوقع فى أذهان العامة أن هذه الأعمال من مهمات الدين التى تضاعف بها الحسنات ، وتمحى بها السيئات ، وما هكذا تكون رسالة العلماء(٢) .

وفى مقال آخر يحصى رشيد رضا عشرين من البدع والمنكرات التى تحدث فى مسجد السيد البدوى أو إبان « الموسم الذى يسمونه مولد السيد » فيذكر منها : إبطال قراءة العلم تخلية للمسجد لتلك التجمعات ، وترك صلاة الجماعة الراتبة ، والتشويش على المصلين ، والطواف بقبر السيد كما يطاف بالكعبة ، وطلب الحوائج ، منه ، وتقبيل مقصورته ، وتقذير المسجد وتنجيسه ، واختلاط الرجال بالنساء بصورة لا حياء فيها ، والبيات فى المسجد ، والعزف والتطريب ودق الطبول فى الذكر ، وادعاء العرافة ، والدجل والتمويه بادعاء الولاية ، وغيرها . . وغيرها .

ثم يعلق على ذلك قائلاً : « إن سكوت العلماء فى مصر على هذه الطامات الكبرى مع بروزها بالصيغة الدينية لما يوقع الدهشة والعجب ، يقررون أنه يكره المواظبة على بعض السنن والمستحبات لئلا يتوهم العامة أنها واجبة (ولو اعتقدوها واجبة ما زادتهم إلا إيماناً) ولا يبالون باعتقاد العامة أن تلك البدع والمنكرات من الدين ، مع أنَّ فى استحلال بعضها ردة ومروقا منه »(٣) .

ويقدم الشيخ رشيد رضا اقتراحين محددين للعلماء لمحاربة هذه البدع والمنكرات ، أحدهما قريب المدى والآخر بعيد المدى :

أما الأول : فيكون بتكوين لجنة برئاسة المفتى وشيخ الأزهر ويدعى إليها شيخ الجامع الأحمدى ، وتقرر ـ على ما يظهر لها ، بعد المذاكرة ـ أقرب الوسائل لمنع كل ما يخالف الشرع ويخل بالآداب الإسلامية فى المسجد الأحمدى ، ولو أدى ذلك إلى إقفاله فى أيام (المولد) إلا فى وقت الصلاة مع مراعاة الحكم الشرعى فى ذلك ، مع نشر إعلان فى الجرائد لبيان الممنوعات تفصيلاً .

(١) المنار : عدد ٥ فى ١٢ أبريل سنة ١٨٩٨م مقال بعنوان : (الموالد) .

(٢) المنار : المصدر السابق .

(٣) المنار : عدد ٦ فى ١٩ أبريل سنة ١٨٩٨م مقال بعنوان : (منكرات الموالد) .

وأما الثانى : وهو الطريق البعيد المدى فهو طريق الوعظ والتعليم ، وهو الإصلاح الحقيقى الذى يجب الاجتهاد فيه من كل من له غيرة على الأمة والدين ، وهذا الطريق يتشعب منه ثلاث شعب هى :

١ ــ الخطابة .

٢ ــ تدريس علم الأخلاق والآداب الدينية الصحيحة .

٣ ــ التصوف أو الإرشاد المنوط بأهل الطريق .

وفى العدد التالى [١] تكلم عن طريق إبطال منكرات الموالد بشعبه الثلاثة : الخطابة ، والتعليم الدينى ، والعودة إلى التصوف الإسلامى الصحيح وقيامه بدوره ، ويتضمن ذلك إصلاح الطرق القائمة ، ومنع الجهلة والدجالين من التصدى لسلوك الطريق ، وإناطة ذلك برجال من أهل العلم والتقوى يعرفون كيف يستأصلون البدع ويزيلون المنكرات .

ثالثاً : معالجة عيوب المجتمع المصرى :

كانت المدرسة الصحفية الأولى في مصر من لدن رفاعة الطهطاوى وزملائه قريبة العهد بالعلوم الحديثة ، فاستغرق نقل هذه الثقافة جزءا كبيراً من جهدهم ، واتسمت جهودهم الصحفية عموماً بمحاربة الجهل ونشر الثقافة ، أما المدرسة الصحفية الثانية من لدن محمد عبده وزملائه فقد تخففت نوعا من هذا الجهد وحطت عن كاهلها هذا العبء ، والتفتت إلى لون آخر من ألوان الجهاد القومى ، ونزلت إلى ميادين أخرى من ميادين الإصلاح ، وهى : الإصلاح الاجتماعى ، والإصلاح السياسى ، والإصلاح اللغوى [٢] .

وهذا القول صحيح أيضاً فيما يتعلق بموقف الصحافة من العيوب والأدواء الاجتماعية التى سادت فى مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وخاصة الصحف التى كان جمال الدين الأفغانى وتلامذته من وراء إصدارها أو التحرير فيها .

فنجد صحيفة روضة المدارس ــ كمثال من العهد الأول ــ لا تحارب عيوب المجتمع المصرى مباشرة بل تنشر سلسلة مقالات لرفاعة الطهطاوى عنوانها : « البدع المتقررة فى الشيع المتبربرة » [٣] عن بعض العادات الشاذة الموجودة بين بعض قبائل إفريقيا ، وسؤال بعد

---

(١) المنار: العدد ٧ فى ٢٦ يناير سنة ١٨٩٨ م مقال : (كيف السبيل إلى إبطال منكرات الموالد) .

(٢) د . عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٢ ص ٥ .

(٣) مجلة روضة المدارس : العدد ١٣ الصادر فى ١٥ رجب سنة ١٢٨٧ هـ ثم فى الأعداد ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ من نفس السنة .

المقال الأول أرسل لمفتى المدينة المنورة عن رأى الإسلام فى بعض العادات التى تتبعها بعض القبائل الإسلامية فى السودان مثل نسبة الأبناء إلى أمهاتهم .

ولكننا نجد الصحف الإسلامية فى العهد الثانى ـ محمد عبده ومدرسته ـ تنزل إلى محاربة العيوب والأدواء الاجتماعية ، ومن أشدها فى هذا الميدان صحيفة الوقائع المصرية فى عهد تولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحريرها ، فنجده يتعرض ـ فى هذا الجانب الفكرى ـ إلى عيوب المجتمع المصرى ، وهى نفسها ـ تقريباً ـ عيوب المجتمع الشرقى الإسلامى فى وقته بوجه عام ، وهو يحلل أسبابها وعللها ويذكر ما يراه كفيلاً بإزالتها .

ففى مقال بعنوان : « منتدياتنا العمومية وأحاديثها » [1] يصف أحاديث المجتمع المصرى : بأنها عنوان على سوء فهم الحياة وعلى عدم الجد فيها ، وسوء التربية ، وعدم تهذيب الخلق ، ويرجو أن تتوجه أحاديث المجتمع إلى النافع والصالح ، على نحو ما فى البلاد الأوربية ـ كما كان فى وقته ـ أو على نحو ما كان فى صدر الإسلام أو لدى الأمم الراقية فى التاريخ ، وهذا المقال الجديد فى موضوعه وفى أسلوب تناوله تقديماً وتحليلا وصدق تصوير لأمراض الحديث فى المجتمع المصرى ، قد أثار رد فعل لدى القراء مما جعل الشيخ محمد عبده يكتب مرة ثانية تحت عنوان : « تخصيص لما يوهم التعميم » [2] يقول فيه : « نشرت صحيفتنا فى بعض أعدادها جملة تضمنت المقابلة بين ما يكون فى الأندية الأوربية وبين ما يدور على ألسنة المتجالسين فى ديارنا ، وقد شرحت حقيقة حال كثير من المجالس التى تنعقد وتنحل فى ديارنا على وجه الحق والواقع ، إلا أن بعض قرائنا النبهاء رأوا فيها نوعا من التعميم ربما يجرح حاسة العموم بدون تفاوت ، فساءهم ذلك . وكيف يصح التعميم وبداهة العقل تشهد بأن بلادنا مزهرة برجال فضلاء عقلاء لا يضيعون لحظة من زمانهم إلا فيما يعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والفلاح ، وإن بلادهم لتفخر بهم » .

وفى مقال بعنوان : « خلية الرشوة » [3] يعتبر هذه الرذيلة أمارة على فقد الشعور بالواجب وأدائه فى الأمة والأداة الحكومية على السواء ، « وإنها عادة شنيعة مضرة بالدين والدنيا فى طباع أدنياء الهمم تقربا لذوى المناصب وتذللا خبيثا لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه نفس كل ذى إحساس إنسانى ، ولأنها أمر مضاد لمعنى الإنسانية ، ومضاد

(١) الوقائع المصرية : ٩ فبراير سنة ١٨٨١م .

(٢) الوقائع المصرية : ٢٧ فبراير ١٨٨١م .

(٣) الوقائع المصرية : ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠م .

بالتالى للشرع ولقانون البلاد ، يرى الشيخ محمد عبده أن الراشى والمرتشى شركاء فى هذه الجريمة الخلقية ، بل يرى أن نصيب الراشى فى ذلك أكبر ، وحينئذ فما يلحق الراشى من اللوم أشد مما يلحق المرتشى وإن كان كل منهما مجرماً ؛ لأن الأول ضيع ماله واسترسل مع الجبن وضعف مع الوهم فى مقام يستوى فيه الحاكم والمحكوم أمام القانون ، وأمال المرتشى لأخذ الرشوة ، وقوى طمعه ودله على الشر ، وكلف نفسه بما لم يكلف به » .

وفى مقال بعنوان : « حب الفقر وسفه الفلاح » (١) يعيب على المجتمع المصرى ـ وكذلك على المجتمع الإسلامى والشرقى ـ عدم المبالاة بالمصلحة العامة فيقول : « فانظر إلى هذه الحالة الرديئة التى نشأت من تفرق القلوب وانقطاع الفواصل بين النفوس ، فلا يهتم واحد بعمل يشترك فى منفعته مع آخر ، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كان اشتراك الغير فى المنفعة صيرها مضرة وينبغى اجتنابها . وكان من الواجب أن الاشتراك يدعو إلى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط ، فكأنهم سلبوا الخواص الطبيعية التى لإنسان الجبال والغابات » .

وفى مقال بعنوان : « عادات المآتم » ينقد بشدة العادات السيئة التى تشيع فى المآتم ، حتى إنهم فى حالة الشعور بخطر حالة المريض يجمعون حوله ويخاطبونه بكلمات تدل على اليأس من شفائه ، ومن هذه العادات : « تأخير ميت القوم الأغنياء يومين أو ثلاثة حتى يدفن ، والمغالاة فى الأكفان واتخاذها من الخز والحرير ، واستئجار النادبات ونساء التعزية اللاتى يأتين بأفعال تشيب لها الولدان ، وكثيراً ما أصبن بالصرع ، وقريبات الميت يصبغن وجوههن وأيديهن بالنيلة ويحلقن شعورهن ، أين العقلاء والنبهاء لمنع مثل هذه الأفعال » (٢) .

ومما كتبه الشيخ محمد عبده عن العادات المتبعة فى الأفراح (٣) فى مصر فى ذلك العهد ـ يعتبر صورة صادقة ومفصلة للعادات والتقاليد المصرية فى هذا المجال ، وقد بدا لى المقال كبحث مما يصطنعه علماء الاجتماع فى العصر الحاضر بحثا عن العيوب الاجتماعية ومحاولة إصلاحها ، ومن هذه العادات والعيوب التى انتقدها :

ـ أن أبوى الزوج هما اللذان يختاران له زوجته ، ولا يراعيان فى الاختيار إلا أن

(١) الوقائع المصرية : ٢٩ يناير سنة ١٨٨١م .

(٢) الوقائع المصرية : ٨ يونيو سنة ١٨٨١م .

(٣) الوقائع المصرية : ١٩ مايو سنة ١٨٨١م مقال بعنوان : (عوائد الأفراح) .

تكون من عشيرة تعادلهم فى الثروة والصيت أو تزيد عنهم ، ويكرهان الابن على قبولها ، إذا حاول الاعتراض .

ــ المغالاة فى المهور مما يدفع أسرة الزوج إلى الاستدانة .

ــ إذا حضروا لأخذ العروس ليلة زفافها من بيت أبيها وقف لهم أخوها أو خدمها ، ولا يسمحون لهم بأخذها إلا إذا دفعوا لهم مبلغاً من المال يسمى (البلصة) .

ــ حدوث الهرج والمرج واختلاط الرجال والنساء طوال يوم العرس ، ودق الطبول والصياح بطريقة أقرب إلى القبائل المتوحشة .

« حتى إذا بلغوا المنزل ، ودخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عندها والدتها واثنين معها على الأقل غير « القابلة » فيفترش قميصها ويصلى عليه ركعتين ، والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء ، وإذا نهض إلى فض البكارة ما نعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا من المال قبل أن يحل رباط سروال العروس ، وهذا ما يدعى (حل الدكة) . وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة ، وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات ، وترتفع أصوات القائمين على باب القائمة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصفيق شديد ورقص ، وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على تنجيز فض البكارة ، ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك ، وإن تراخى ولو قليلاً كنوا بالتنديد عليه ، فيفض بكارتها بإصبعه على مرأى من النسوة الحاضرات ، وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفاً فتنوب عنه القابلة . . » .

هذا بعض ما كان يحدث فى الأفراح فى مصر اجتزأناه من الصورة المفصلة لما يحدث فى هذه المناسبة مما يوجه إليه الشيخ محمد عبده نقده العنيف قائلاً : « فلا ترى من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور ، وكأنهم لم يعلموا أن فض البكارة بالإصبع ، وكشف العورة بمحضر جمع من النسوة أمر منكر فى الشرع ، ومستقبح بالعقل ، وأن القابلة تستحق التعذير والتأديب على النظر إلى عورة غيرها ، فضلا عن أن تزيل هى البكارة بنفسها ، وكأنهم ذهلوا عما ورد فى الشرع ، وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة ، هذا إذا لم يعتقد حل ذلك ، وإلا فيحكم عليه بالكفر ، حتى لم ينهوا العريس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء .

وبالجملة فإن كثيرا من العادات التى شرحناها ، إن لم نقل كلها مما لا ينطبق عليه قاعدة شرعية أو أصل عقلى ، بل مصدرها أهواء فاسدة ، وأميال سخيفة ، شأن كل قوم انتشر بينهم جيش الجهل ، وأفل من ربوعهم بدر العلم فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبح والمضار » (١) .

ومن العادات المدمرة التى شن عليها الشيخ محمد عبده الحرب على صفحات الوقائع المصرية ، عادة تعاطى الحشيش التى شاعت بين المصريين فى هذا العهد (٢) .

ومن الصحف التى هاجمت عادة تعاطى الحشيش فى مصر صحيفة (المؤيد) ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه الدكتور حسن باشا محمود بعنوان : « الحشيش ومضاره » بين فيه مضار الحشيش وأثبت تحريمه شرعا كالخمر ، وذلك بعد أن تناهت إلى مسامعه إشاعة أن الخمر محرمة شرعاً ولكن الحشيش غير محرم (٣) .

وعن تفشى المنكرات فى بعض ميادين العاصمة يكتب الشيخ محمد عبده تحت عنوان « قسم غير رسمى . . . فسحة التمثال عند مركز ضبطية العاصمة هو مجمع الأوباش ، ومحط رحال المشعوذين ، ومجال فسيح يتسابق فيه أعوان البطالة ، ويجتمع فى حافتيه ذوو الأخلاق الفاسدة ، والمدارك المنحطة ، وهذا مع كونها وسط المدينة ، وتحفها أشهر المراكز المهمة فيها . . . خاصة بجماعة الحواة والطبالين ، وضاربى الرمل والودع ، وكاشفى ما فى الضمير ، ومستطلعى علوم الغيب ، مع رداءة أحوالهم ، وضيق معيشتهم ، وقذارة أبدانهم وملابسهم » (٤) .

ومن الصحف التى شاركت بنصيب وافر فى محاربة آفات المجتمع المصرى صحيفة (مصباح الشرق) ، فقد كتب إبراهيم المويلحى عدة مقالات تحت عنوان :

« ثلاثة تشقى بها الدار   العرس والمأتم والزار »

واثنان من هذه الثلاثة ـ كما يقول ـ يشارك المصريين فيها أهل الأرض جميعاً ولكن على طريقة يسلم بها العقل ، ولا يحرمها الشرع ، ولا ينفد بها المال الذى هو ملاك الحياة

---

(١) الوقائع المصرية : المصدر السابق .

(٢) الوقائع المصرية : ١٦ أبريل سنة ١٨٨١م مقال بعنوان : « الحشيش » .

(٣) المؤيد :٣ مايو سنة ١٨٩٣م .

(٤) الوقائع المصرية : ٥ يونيو ١٨٨١م .

وقوام المعيشة ، أما الثالث وهو الزار فقد اختص به المصريون دون غيرهم . ولا يكاد يشاركهم فيه أحد [1] ويبين مدى انتشار الزار ومضاره ويطالب الأزهر بتحريمه وتفسيق من يعين عليه وتبكيت من يرضى به لأهله .

وتثابر صحيفة (مصباح الشرق) على محاربة هذه الأدواء وغيرها مثل المضاربة والتنجيم [2] والإسراف فى المآتم [3] ، وغير ذلك من العادات السيئة الشائعة فى المجتمع المصرى .

عملت الصحافة الإسلامية على تكوين رأى عام مناهض لهذه العيوب والآفات التى انتشرت فى المجتمع المصرى فى ذلك العهد ، ومن ثم نجد أن علماء الأزهر قد تحركوا إلى اتخاذ موقف إيجابى لوقف هذه المنكرات بعد أن قيل ـ كما تقول صحيفة المؤيد ـ أن سبب هذه البدع هو تقصير العلماء . فنجد أن علماء الأزهر يجتمعون ويوقعون مذكرة لرفعها للحكومة لإبطال هذه المنكرات ، وتحتوى المذكرة على تسعة بنود تشمل ـ تقريباً ـ على كل العيوب والآفات والبدع التى ذكرناها ، ووقعها سبعة وعشرون من العلماء ، منهم رئيس مجلس إدارة الأزهر ، ومفتى الحقانية ، ورئيس المحكمة الشرعية ، والشيخ محمد عبده عضو مجلس إدارة الأزهر [4] .

---

(١) مصباح الشرق : ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨م مقال بعنوان : « مصر وحدها العادات المصرية » .

(٢) مصباح الشرق : ٢٩ يونيو ١٩٠٠م .

(٣) مصباح الشرق : ٢٧ يوليو سنة ١٩٠٠م .

(٤) المؤيد : ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥م .

الباب الثالث

الصحافة الإسلامية والحضارة الغربية

الفصل الأول : الصحافة الإسلامية والعلمانية .

الفصل الثاني : الصحافة الإسلامية ومحاولة تغريب التعليم فى مصر .

الفصل الثالث : الصحافة الإسلامية ومعركة الحفاظ على اللغة العربية .

الفصل الرابع : الصحافة الإسلامية فى مواجهة التغريب الأخلاقى.

الفصل الخامس : الصحافة الإسلامية وتحرير المرأة .

الصحافة الإسلامية والحضارة الغربية

تعتبر الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م هى الحد الفاصل ونقطة التحول الفعلية الواضحة بين مصر العصور الوسطى ومصر الحديثة ، وكان لها نتائج بعيدة المدى فى حياة مصر نفسها .

وإلى جانب جيش كبير جيد التسليح يتكون من نحو خمسين ألف جندى وبحار ، ويحمله أسطول من نحو أربعمائة سفينة ـ صحب الحملة نخبة من علماء فرنسا وباحثيها وخبرائها فى مختلف مجالات التخصص عدا مئات من العاملين المدنيين وجهاز طباعى كبير (١) .

فتحت الحملة أعين المصريين على حضارة أوربا وأثارت انتباههم لها ، ثم تتالت بعد هذه الحملة الغزوات الاستعمارية على الشرق يدعمها الفكر الاستشراقى ، ولكن هذه الغزوات لم تكن عسكرية فقط ، ولكنها كانت أيضا غزوات للفكر والثقافة والحضارة الإسلامية .

ومنذ بداية القرن التاسع عشر بدأت تتضح فى مصر ثلاثة تيارات تتصارع على الساحة الفكرية :

١ ـ تيار الجمود :

ذلك الذى تمسك بفكر العصور الوسطى المملوكية والعثمانية بما تمثل فيها من ركود وتخلف ، وانتشار الطرق الصوفية التى غرقت فى البدع والخرافات وانقطعت صلاتها بالتصوف الإسلامى الحق .

٢ ـ وتيار التغريب :

ذلك الذى انبهر أهله بتألق الحضارة الغربية وإنجازاتها وانتصاراتها ، خصوصا عندما قارنوا بينها وبين النموذج الحضارى الذى يتمسك به تيار الجمود بعد أن حسبوا ـ لجهلهم بتراثهم الحضارى ـ أن تصور أهل الجمود هذا هو التراث الحضارى للأمة ، فدفعتهم هذه المقارنة إلى إدارة الظهر للتراث ، وتولية الوجه والعقل والقلب إلى الحضارة الأوربية ،

---

(١) د . أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٧٥م ص ١٧ ، ١٨ .

مصدقين زعم الأوربيين أن حضارتهم هذه هي الحضارة « الإنسانية » ومن ثم الوحيدة في هذا العصر ، وأن على من يريد التحضر أن يلحق بها ويذوب فيها ، وينطبع بقسماتها وسماتها فيفكر كما يفكر الأوربيون ، ويحيا كما يحيون ، ويتمثلهم في المقاصد والغايات على السواء .

٣ ـ تيار التجديد الإسلامي :

ذلك الذى أبصر أعلامه العلاقة بين تيارى الجمود والتغريب ، فأهل الجمود يقيمون الدليل ـ وإن يكن كاذبا ـ على عدم صلاحية المواريث العربية الإسلامية كي تنهض بالأمة على النحو الذى يضمن لها مواجهة ما تواجهه من تحديات ، الأمر الذى يدفع فريق « التغريب » وتياره إلى التماس التحضر وقوته وعافيته لدى من فرضوا على الأمة هذه التحديات ، مع إغفال الفريقين لجوهر التراث الأصيل للأمة العربية والإسلامية ، الذى مثل ويمثل صفحات الازدهار الحضارى لها ، والصالح كي يمثل الزاد الذى تتزود به الأمة وهى تصنع حاضرها الراهن وتخطو نحو المستقبل .

ولقد تمثل تيار التغريب ـ الذى ذكرنا ـ أساسا في الأعلام الذين قلدوا الغرب بعد أن درسوا حضارته ، سواء منهم من درسها في عواصمها أو في المؤسسات التعليمية التى نشأت في مصر على نمط مثيلاتها في الغرب فلسفة ومنهاجا ، وسار خلف هذا التيار فريق من أبناء الأمة أعانهم الاستعمار بزمام التوجيه في المدرسة والمعهد ، والصحيفة ، والمنتدى ، وكل أدوات ومؤسسات التحديث (١) .

وقد تمثلت محاولات تغريب المجتمع المصرى في أربعة اتجاهات رئيسية هى :

١ـ نشر الفكر العلمانى .

٢ـ إقامة نظام تعليم غربى .

٣ـ محاولة القضاء على اللغة العربية الفصحى .

٤ـ نشر العادات والتقاليد الغربية في مصر . وهو ما سنقدمه في هذا الباب .

واضطلعت بعض الصحف بنشر الفكر التغريبى والعلمانى ، واضطلعت الصحافة الإسلامية بالتصدى لهذا الفكر والدعوة إلى الفكر والمنهج الإسلامى في مصر .

---

(١) د . محمد عمارة : ماذا يعنى الاستقلال الحضارى لأمتنا ، القاهرة سنة ١٩٨٣م ، ص ٧ ، ٨ .

الفصل الأول

الصحافة الإسلامية والعلمانية

وضعت للعلمانية تعريفات كثيرة ، ففى دائرة المعارف البريطانية « أنها حركة فى المجتمع تجعل حركة التوجيه فيه مصدرها هذا العالم وليس عالم الغيب » وذكرت أن من أسباب ظهورها وجود اتجاه قوى فى العصور الوسطى عند رجال الدين نحو امتهان النواحى البشرية ، واعتبار أنفسهم وسطاء بين الإنسان وبين الله والحياة الآخرة ، وكرد فعل لهذا الاتجاه الذى ساد فى العصور الوسطى ، عبرت العلمانية عن نفسها فى عصر النهضة بتطور الفلسفة الإنسانية humanism ، عندما بدأ الإنسان يبدى اهتماما كبيرا بالإنجازات الثقافية الإنسانية ، وبقدرته على الإنجاز فى العالم .

والمجتمع العلمانى هو الذى تتكون عنده الرغبة والقدرة على تقبل العناصر الثقافية الجديدة والقدرة على التغير ، أما المجتمع المقدس Sacred societ فيعارض الجديد ولا تكون عنده القدرة على التغير (١) .

ويضيف قاموس علم الاجتماع أن « هيوارد بيكر» عالم الاجتماع الأمريكى قد استخدم مصطلح « العلمانى » كمقابل لمصطلح آخر هو « المقدس » وفى ضوء استخدامه يمكن القول أن الثقافة علمانية حينما نقبلها على أسس عقلانيـة « وأن المجتمع العلمانى هـو مجتمع تتميز قيمه الأولية بالنفعية والرشد ، ويساند التغير ويدعو إلى الجديد ويدعمه ، ويتميزالمجتمع العلمانى فى مقابل المجتمع المقدس بفقدان الاهتمام بما هو مقدس أو خارق للطبيعة ، أو بالقيمة المرتبطة بالنزعة التقليدية أو الاتجاه المحافظ » (٢) .

وفى تعريف مجمع اللغة العربية أن مصطلح العلمانية هو نسبة إلى العلم (بفتح العين وسكون اللام) بمعنى العالم ، وهو خلاف الدينى أو الكهنوتى ، والعلمانى هو الذى يتبناها فردا كان أو مجتمعا (٣) .

---

(١) The new ency clopedia britannica (micropaedia) volix 1974 p.9

(٢) د . محمد عاطف غيث : قاموس علم الاجتماع القاهرة سنة ١٩٧٩م ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٣) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، جـ ٢ ـ القاهرة ١٩٨٠ م ص ٦٢٤ ، ومعجم العلوم الاجتماعية القاهرة =

ويقول الدكتور محمد البهى إن « العلمانية » هى فصل بين سلطتين غير متجانستين : بين دين أو كنيسة .. وسلطة زمنية أو دولة ، وأنها فصل فى كتاب الحياة الأوربية عنيت به الخصومة بين الكنيسة والسلطة الزمنية فى المجتمعات الأوربية فى محاولة لاستغلال كل منهما ، أو فى محاولة لمنع الاحتكاك بينهما بعد الشد والتوتر فى علاقتهما طوال القرون الوسطى وسيادة حكم الكنيسة فيها .

وعلى أية حال فالعلمانية كما اتفق على مفهومها رجال الكنيسة والدولة معا : فصل واضح بين تدخل أية من السلطتين القائمتين ـ سلطة الكنيسة وسلطة الدولة ـ فى مجال الأخرى وفى شئونها(1) .

بعد هذا التقديم لمفهوم العلمانية نريد أن نقدم توضيحا لعدد من العناصر تبين كيف دخل الفكر العلمانى مصر ، وماذا كان موقف الصحافة الإسلامية منه ، وهـذه العناصر هى :

١ ـ إن العلمانية ظاهرة أوربية ظهرت فى عصر النهضة كرد فعل لموقف الكنيسة الكاثوليكية الذى تمثل فى الاستبداد السياسى ، ومقاومة التقدم العلمى ، وادعاء سلطة الوساطة بين الإنسان وربه ، والوصاية على عقائد الناس .

٢ ـ وعندما بدأ عصر النهضة فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر حاول دعاة التغريب والمقلدون لأوربا افتعال موقف مشابه لما حدث لأوربا فى عصر نهضتنا ، بالدعوة إلى العلمانية رغم اختلاف الإسلام عن المسيحية الكاثوليكية ، واختلاف الظروف والملابسات فى النهضة المصرية عنها بالنهضة الأوربية .

٣ ـ إن هذا الحوار بين الإسلام والعلمانية كما ظهر فى الفكر المصرى والصحافة المصرية ظهر فى ثلاث قضايا رئيسية هى : موقف الإسلام من التقدم العلمى ، وفصل الدين عن الدولة ، والوساطة بين الإنسان وربه ، وهى القضايا التى ثار حولها الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والدعوة العلمانية فى أوربا ، مع ملاحظة أن موقف الإسلام من هذه القضايا عندما بدأت النهضة المصرية ، اختلف عن موقف الكنيسة الكاثوليكية عندما بدأت النهضة الأوربية ، فقد دعا علماء الإسلام إلى العدل والشورى ودعوا

= سنة ١٩٧٩م ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(١) د . محمد البهى : العلمانية وتطبيقها فى الإسلام ، القاهرة سنة ١٩٨٠م ص ٣ ، ٤ .

إلى الأخذ بالتقدم العلمى الحديث والانتفاع بثمراته وأخذ أسباب القوة ، ولم يدعوا وساطة بين العبد وربه ، ورأوا أن السلطة الدينية والسلطة الزمنية إذا سارتا فى طريقهما الصحيح فهما متعاونتان لا متعارضتان ، ومن ثم لم يكن هناك مجال ـ فى مجتمع إسلامى ـ للدعوة العلمانية كما ظهرت فى أوربا ، وهذا ما سنفصله ونقيم عليه الدليل فى هذا الفصل .

الموقف من التقدم العلمي :

كان من أسباب ظهور العلمانية فى أوربا فى عصر النهضة موقف الكنيسة الكاثوليكية المعارض للتقدم العلمى وهو الموقف الذى يختلف عنه موقف الإسلام كل المخالفة .

وكان اتصال الأوربيين بالمسلمين قد ساعد على ذيوع المذهب التجريبى فى البحث العلمى لدى الأوربيين منذ بداية عصر النهضة ، وقد وصلت العلوم الإسلامية إلى أوربا عن طريقين :

الأول : هو تلقى كثير من الأوربيين التعليم فى المدارس الإسلامية فى الأندلس .

والثانى : هو اتصال الأوربيين بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية (١) .

وقد احتدم النزاع بين الكنيسة والعلماء منذ بداية عصر النهضة حول عدد من المشكلات كان أهمها « مركز الكون » و « قوانين المادة » فقالت الكنيسة بسكون الأرض ودوران الأفلاك من حولها ، وعلقت مقاصد الخلق على هذا الوضع بالنسبة للأرض والأفلاك (٢)

وعندما انساب إلى العلم فى أوربا شىء مما سماه الأوربيون فلسفة ابن رشد اهتمت الكنيسة الكاثوليكية بالأمر وأخذت تحارب كل ما يظهر على ألسنة الناس مما يخالف ما فى الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة .

---

(١) د . محمود عثمان : الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه ، القاهرة سنة ١٩٧٧ م ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٦ ، ٣٩ ، ومجلة المنار عدد ١١ فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م « من رد محمد عبده على فرح أنطون بعنوان : « مقاومة النصرانية للعلم » . هكذا كان موقف الكنيسة الكاثوليكية حسب تصورها ، ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتاب : « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » ط الأنجلو المصرية القاهرة د . ت ، ص ٣٤ « لكنها فى أساسها صورة كاذبة لا أصل لها على الإطلاق فى المعتقدات الدينية ، فليس فى الأديان الكتابية عقيدة توجب على الإنسان أن يؤمن بجمود الأرض فى مكانها ودوران الأفلاك من حولها ، وليس فى الأديان الكبرى قاطبة حكم من الأحكام يعلق الخلق على وضع من أوضاع الفلك ، وما كان لغير العادة المألوفة والفهم الخاطئ دخل فى تصوير العالم على تلك الصورة » .

وحينما قال رومنيس : « إن قوس قزح ليست قوسا حربيا بيد الله ينتقم بها من عباده إذا أراد ، بل هى انعكاس ضوء الشمس فى نقط الماء » جلب إلى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه ، فحكم عليهما وألقيتا فى النار .

وأنشئت محاكم التفتيش واشتدت فى طلب أولئك « المجرمين » طلاب العلم والسعاة فى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها ، فى المدن ، في البيوت ، فى السراديب ، فى المخازن ، فى الحقول ... إلخ فوفت بما كلفت به وحكمت هذه المحاكم من يوم نشأتها سنة ١٤٤٨ إلى سنة ١٨٠٨ م على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة ، منهم نحو مائتى ألف أحرقوا بالنار أحياء (١) .

ظهور الدعوة العلمانية فى مصر :

أما فى مصر فإن الدعوة العلمانية قد أخذت مسارا آخر ، فإذا كان محمد على قد فتح باب البعثات إلى أوربا ، وإسماعيل قد فتح الباب أمام المدارس الأجنبية فى مصر لتنشأ فيها بلا قيود ـ كما سنبين فيما بعد ـ فإن ذلك كان مقدمة ، أما الفترة التى نشطت فيها هذه الدعوة فكانت مع بداية الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وتدل كتابات كرومر أبلغ دلالة على ذلك فيقول : « وفي الحقيقة فإن الشباب المصرى المسلم حين يمر خلال « مصنع » التعليم الأوربى يفقد إسلامه ، أو على أية حال يفقد أحسن جزء من هذا الإسلام وهذا النوع من المصريين المعتنقين للحضارة الأوربية الذين عمل الإنجليز على الإكثار من أعدادهم ، وجعلوا لبعضهم مقاما كبيرا فى الدور السياسى فى مصر منذ الاحتلال ، وإذا استمر المضى فى هذا الطريق أصبح المصرى الآخذ بحضارة أوربا ، أقل مصرية وأكثر ميلا لأوربا ، إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الأوربية أقل إسلاما » (٢) .

كانت سياسة كرومر ـ ممثل الاحتلال الإنجليزى فى مصر ـ أن يقرب من السلطة المصريين الآخذين بالحضارة الغربية ، والذين يبتعدون عن الأخذ بالإسلام فى مجال التوجيه .

وهكذا رسم المعتمد البريطانى الطريق للوقوف فى وجه الإسلام كعقيدة إلى حد أن « أقبل فريق من المسلمين المتأثرين بالحضارة الغربية على كل ما هو غربى وتركوا ماضيهم

(١) مجلة المنار : عدد ١١ فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م ، من ردود الإمام محمد عبده على فرح أنطون ، تحت عنوان : « مراقبة المطبوعات ومحكمة التفتيش » .

(٢) cromer , modern egypt v . iip 228 -231 ..

وتاريخهم ، وأصبحوا لا يكترثون بشئون دينهم الذى ولدوا فيه ولا يهابون التصريح بالإلحاد ، وقد اعتزم « الأحرار » المسلمون اتخاذ القواعد التى جرى عليها الغرب فى تقدمه ورقيه ، واتخاذها أساسا لما أنشأوه من إصلاحات »[1] .

أما الاتجاه العلمانى فى الصحافة المصرية ـ والذى كان الوجه الصحفى لأفكار كرومر فى الحكم فقط ، نظر أصحابه إلى الحضارة الغربية بشقيها المادى والثقافى ككل واحد متكامل ، ومن ثم اعتبروا أن التقدم العلمى والصناعى الذى أحرزته أوربا لا يمكن فصله عن القيم الثقافية والفكرية التى كانت بمثابة قاعدته وأساسه . وإذا كان الأمر كذلك فمن غير الممكن ـ إذن ـ اقتباس الإنجازات المادية دون أن نأخذ معها الأسس الثقافية والفكرية التى تصاحبها ، والقيم التى تقوم عليها ، وتنطلق منها . ولا يبقى من التقاليد إلا ما لا يتعارض مع ذلك[2] .

ولقد تكون هذا الاتجاه أساسا حول عدد من المهاجرين الشوام الذين حضروا إلى مصر ، وتركز عملهم فى الصحافة والتأليف والترجمة .

ومن هؤلاء فرح أنطون (١٨٧٤ م ـ ١٩٢٢ م) الذى أصدر مجلة (الجامعة العثمانية) التى ركزت على الفكر الفرنسى ، وبالذات الأفكار العقلانية ومعاداة الكهنوتية ، والثورة التى عرفتها فرنسا فى القرن الثامن عشر ، وقد نشر فرح أنطون عددا من المقالات فى صحف الجامعة ، والأهرام والأهالى عالج فيها دائرة عريضة من المسائل الاجتماعية والفكرية ، وفى دراسة له ـ مثلا ـ عن ابن رشد ذهب إلى التعاليم الأساسية لكل الأديان فى جوهرها واحدة ، وأن الوحى يمكن أن يفهم على أنه القدرة الفلسفية للأنبياء على تقديم الحقيقة ـ التى هى واحدة ولا يمكن تجزئتها ـ فى رموز دينية ، ولكن النخبة المتعلمة تستطيع أن تصل إليها بالعقل[3] .

وأما المجلة الثانية التى أصدرها الشوام فى مصر فهى مجلة (المقتطف) التى نقلها صاحباها فارس نمر ويعقوب صروف من بيروت إلى مصر سنة ١٨٨٥ م ، ولعبت مقالات

---

(١) Stoddard , the new world of isim , iondon , 1921 , p . 32 . 33 , 88.

(٢) د . علي الدين هلال : التجديد فى الفكر السياسى المصرى الحديث ، القاهرة ١٩٧٥ م ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) ومقالاته عن ابن رشد هذه هى التى رد عليها الإمام محمد عبده فى صحيفة المنار ابتداء من العدد الصادر فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م ، ونشرت ردوده كذلك فى صحيفة المؤيد فى نفس الوقت ، وسنشير إلى هذه المقالات فيما بعد .

المقتطف دوراً هاماً فى شيوع الأفكار الحديثة عن العلوم الطبيعية والاجتماعية ، وبالذات النظريات التطورية لداروين وسبنسر ، وكانت المقالات التى تنشرها المقتطف عن هذه الموضوعات مترجمة عن كبريات المجلات الأوربية ، وكان يتابعها عدد كبير من المثقفين فى الشرق الأوسط (١) .

« وتعد مجلة المقتطف أهم المجلات التى أخذت تدعو إلى التحلل من الدين ، فبرغم ما فيها من المنافع صوب كتبتها غير مرة سهامهم للتعاليم الدينية » (٢) ويؤرخ قسطاكى الحلبى لهذه المجلة بأن « كلمة مقتطف قد ترجع بداهة لذهن القارئ اقتطاف ما فيه نفع للناس من العلوم ، ولكن أصحاب هذه المجلة جعلوا اقتطاف (المقتطف) على كل بدعة ظهرت على وجه الأرض بشرط ألا تعرف فيه أصل مبتدع البدعة ، كالشك فى كل شيء دون أن يقولوا هذه بدعة ، وكذلك التهكم على الأديان دون أن يذكروا فولتير وروسو وماركس وأناتول فرانس بل بالنغمة التى اعتادوا عليها وهى : هذا يقبله العقل وهذا يرفضه ، تضليلا للبسطاء وسليمى النية ، ويطنبون فى عظمة العظماء ، وجبابرة العقول ممن ذكرنا أسماءهم حتى لا يظن أنهم يأخذون عنهم الإلحاد بل يضعونهم فى صف الفلاسفة حتى تتبع تعاليمهم دون واسطة ، وكذا فضل الأغنياء وذم تعاسة الفقراء حتى تشك فى عدل الخالق ، وحيث لا مساواة فلا خالق ، مثل هذا وأمثاله وجد كثيرا فى مجلتهم » (٣) .

وقد ظهرت فى هذه الأثناء نظرية داروين ، وأصبح المقتطف أكبر دعاة هذا المذهب « مذهب النشوء والارتقاء » ودعاة أصحاب المقتطف بمذهب « تنازع البقاء » الذى يقول : « بأن العيش فى هذه الدنيا لا يصلح إلا للقوى وأن الضعيف لابد أن يضمحل ، وهو مذهب حيوانى صرف ، وحيث إن الإنجليز أقوى الأمم وقد احتلوا مصر الضعيفة فعليهم أن يتمتعوا بخيراتها ، وعلى الشعب المصرى الضعيف أن يشكر لهم صنيعهم ويباشر زرع أراضيه بكل اطمئنان ؛ لأن طريق المستعمرات من قناة السويس أصبح مضمونا من الطامعين بمصر ، والهند أصبحت بمأمن من عقاب الجو » (٤) .

وأخطر ما فى أخذ هذه المجلة على عاتقها نشر مذهب النشوء والارتقاء لداروين ، أنها

(١) د . علي الدين هلال : مرجع سابق ص ٤٨ .

(٢) لويس شيخو : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر ، جـ ٢ بيروت سنة ١٩١٠ م ص ٦ .

(٣) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ، الإسكندرية سنة ١٩٢٨ م ص ١٢٥ .

(٤) قسطاكى الحلبى : المرجع السابق ص ١٢٥ .

لم تقتصر على تقديم هذا المذهب على أنه نظرية علمية يمكن دراستها ، بل على أنه فلسفة حياة كاملة ، وتزعم نشر هذا المذهب شبلى شميل الذى ترجم سنة ١٨٨٤ م كتاب « شرح بخنر على مذهب داروين » وقدم له بمقدمة يعلن فيها اقتناعه بهذا المذهب ويدافع عنه ثم زاد عليه بعض الشروح ، والتعليمات ونشره مرة ثانية سنة ١٩١٠ م بعنوان : « فلسفة النشوء والارتقاء » .

وصحب نشر نظرية « النشوء والارتقاء » والدعوة لها لدى شميل ومدرسة (المقتطف) الدعوة إلى ترك العلوم غير التجريبية ، ومن بينها الأديان ، والاستعاضة عنها بالعلوم التجريبية ، وكذلك القول بإنكار عالم الغيب حيث يقول شميل : « فإن الإنسان حسب مذهب داروين جزء من الطبيعة ، وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة ، وليس فيه ما يدل على اتصاله بعالم الروح والغيبيات ، وجميع القوى التى فيه تعمل على حكم الطبيعة » [1] .

وفى دعوته إلى الاقتصار على دراسة العلوم التجريبية ونبذ دراسة العلوم غير التجريبية يطرح شميل سؤالا هو : « ما الفائدة من معرفة الإنسان نفسه أنه حيوان ونفى الديانات ؟ » ، ثم يبدأ فى الإجابة على هذا السؤال قائلا : « كون الإنسان يمكن قوام شأنه وصلاح حاله بدون الديانات ، فمما لا يجب أن يكون فيه شك ، بل لا يصلح حال الأمة إلا كلما ضعفت فيها شوكة الديانات ولا يقوى شأن الديانة إلا كلما انحط شأن الأمة » [2] .

واضطلعت المقتطف بالترويج لهذا المذهب على هذا النحو ، وأخذت تخصص له مقالاتها الافتتاحية قائلة : إنه المذهب « الذى انحاز إليه كافة العلماء » [3] ثم تفرد ثمانى صفحات لشرح المذهب قائلة : « قد بذلنا الجهود فى الوضوح والاختصار مع مراعاة حالة السواد الأعظم من المطالعين ، ليحيط القارئ علما بخلاصة أشهر مذاهب هذه الأيام » [4] ، ولم يخل عدد واحد تقريبا من المقتطف من الحديث عن هذا المذهب والدفاع عنه .

---

(١) شبلى شميل : فلسفة النشوء والارتقاء ، القاهرة سنة ١٩١٠ م ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) مجلة المقتطف : يونيو سنة ١٨٨٢ م .

(٤) مجلة المقتطف : يوليو سنة ١٨٨٢ م .

موقف الصحافة الإسلامية :

بينا فيما سبق أن موقف الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى ضد العلوم الطبيعية والتجريبية كان سببا من أسباب ظهور العلمانية فى عصور النهضة فى أوربا ، ولكن المفكرين الإسلاميين فى عصر النهضة المصرية التى بدأت مع القرن التاسع عشر لم يقفوا ضد دخول هذه العلوم إلى مصر ، بل على العكس طالبوا بدخولها على أساس أنها من أسباب القوة التى طالب الله المسلمين أن يعدوها لأعدائهم ليردوهم بها إذا ما حاولوا الاعتداء عليهم ، ومن هنا فلم يكن هناك مجال لاقتران الدعوة إلى نشر العلوم الطبيعية بالدعوة العلمانية والهجوم على الدين الإسلامى ، ولم يكن لذلك ما يبرره فى مصر ؛ لأنه لا تعارض بين الدين الإسلامى وبين دراسة هذه العلوم والانتفاع بثمراتها ، ولقد ظهر ذلك فى موقف علماء الدين الإسلامى وموقف الصحافة الإسلامية على حد سواء .

فإذا نظرنا إلى موقف علماء الدين الإسلامي ، وقد اتخذ عدد من أعلامهم الصحافة وسيلة للإصلاح على منهجهم ، نجد أنهم كانوا هم أنفسهم فى نفس الوقت رواد الدعوة إلى ما سمى بالعلوم الحديثة فى ذلك الوقت .

فالشيخ حسن العطار الذى عاصر الحملة الفرنسية واتصل بعلمائها ، وكان يعلمهم العربية ويتعلم منهم العلوم التى نبغوا فيها كان يقول : « إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد فيها من العلوم والمعارف ما ليس فيها » ، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة .

وعاش العطار حتى ولى مشيخة الأزهر ، وشهد التغيير فى الأحوال والمعارف الذى تنبأ به ، وخطب فى الحفل الذى أقيم بمناسبة عقد الامتحانات الأولى لمدرسة الطب ، وهو أخيرا صاحب الفضل علي تلميذه رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية الحديثة ، وهو الذى رشحه ليكون إمام البعثة المصرية إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ م (١) وعضوا فيها .

أما رفاعة الطهطاوى شيخ المدرسة الصحفية الأولى فى مصر ، فيطالب علماء الأزهر بدراسة العلوم الحديثة ؛ لأنها فى الأصل علوم إسلامية أخذتها أوربا فى عصر نهضتها وطورتها ، ويرى « أن مدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة (علماء الأزهر) التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ،

---

(١) د . جمال الدين الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى ، دار المعارف بالقاهرة د . ت ص ١٤ .

ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقديم الوطنية ... لا سيما أن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة ، بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة » (1) بل إن جمال الدين الأفغانى مجدد الفكر الإسلامى والصحافة فى مصر يتنبأ بما سوف يحققه العلم فى مستقبل الأيام فيقول فى كلمات يسبق بها عصره : « لبث الإنسان يقلب طرفه فى الفضاء وطبقات الهواء ، يتجاول مع النسور ، والعقبان المحلقة ، ويهب لمجاراتها واللحاق بها ، ثم يقعده الجمود ، ويريه ذلك مستحيلا فيرجع إلى الوراء .

والعقل وهو معتقل بذلك الجمود يحاول فك قيده ليسير إلى الأمام .

وهكذا كان موقف عقل الإنسان مع الحيتان وأسماك البحار ، يناجى نفسه ويقول : إن عندى من القوى وفهم الأسرار ، ما ليس فى الحيتان والعقبان ، فلم لا أفعل فعلها ؟ وأجرى جريها ؟ .

وعندى أنه إذا ظفر العقل بهذا فى هذا العراك والجدل وتغلب إقدامه على الأوهام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح لا يلبث طويلا إلا وتراه قد طار بأسرع من العقبان ، وغاص في البحار يسابق الحيتان ، وسخر البرق بلا سلك لحمل أخباره ، وتحادث عن بعد أشهر مع غيره كأنه عن قاب قوسين أو أدنى . وهل يبقى إيجاد مطية توصله للقمر ، أو الأجرام الأخرى ؟ وما يدرينا بعد ذلك ما يأتيه الإنسان فى مستقبل الزمان ، إذا هو ثابر على هذا السير لكشف السر بعد السر من مجموع أسرار الطبيعة التى ما وجدت إلا للإنسان ، وما وجد الإنسان إلا لها » (2) .

أما الأمام محمد عبده فقد أبلغ فى جلاء هذا الموقف فى كتبه وفى مقالاته الصحفية ففى كتبه جاءت هذه النصوص :

ـ « إن حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل هى حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس

---

(1) فاعة الطهطاوى : الأعمال الكاملة جـ ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(2) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ـ فى الاعمال الكاملة له ـ المؤسسة العامة للتأليف والنشر ، القاهرة د . ت ص ٢٦٥ .

منها فالقصد منه إلى الروح ، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، كى لا يحدث ريبا فى الاعتقاد ولا يصيب أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق » (١) .

ـ « فما يمكن للإنسان أن يصل إليه بنفسه لا يطالب الأنبياء ببيانه ، ومطالبتهم به جهل بوظيفتهم ، وإهمال للمواهب والقوى التى وهبه الله إياها ليصل بها إلى ذلك » (٢) .

ـ « ولو كان من وظيفة النبى أن يبين العلوم الطبيعية والفلكية لكان يجب أن تعطل مواهب الحس والعقل ، وينزع الاستقلال من الإنسان ، ويلزم أن يتلقى كل فرد من أفراده كل شىء بالتسليم ، ولوجب أن يكون عدد الرسل فى كل أمة كافيا لتعليم أفرادها فى كل زمن كل ما يحتاجون إليه من أمور معاشهم ومعادهم ، وإن شئت فقل لوجب أن لا يكون الإنسان هذا النوع الذى نعرفه » (٣) .

وتواتر موقف الصحافة الإسلامية مع موقف علماء الدين فى هذا المجال :

فنشرت « روضة المدارس » (٤) رسالة فى مقارنة مباحث الهيئة بالواردة فى النصوص الشرعية تأليف حضرة عبد الله بك فكرى « وهو من خريجى الأزهر وكان فى ذلك الوقت وكيل ديوان المكاتب الأهلية ، قدم فى هذه الرسالة أقوال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره بعدم وجود تعارض فى الكتاب والسنة لفكرة كروية الأرض ، وكذلك أورد كلام حجة الإسلام الغزالى فى هذا الموضوع فى كتابه : (تهافت الفلاسفة) ثم أورد رأيه هو فى هذا الموضوع فألم بأطرافه وأجاد فى عرضه فقال : « إذا تعارضت مسألة فلكية ونص شرعى فهذه المسألة الفلكية ـ بحسب القضية العقلية ـ لا تخلو من أحد أمرين : إما أن تكون مثبتة بالدلائل القطعية أم لا ، فإذا كان الثانى ، أى كانت هذه المسألة مذكورة فى كلامهم دعوى من غير دليل ولا يقوم عليها برهان صحيح وحجة قاطعة ، فلا حاجة بنا حينئذ إلى التأويل إذ لا ضرورة بنا إلى تقليد كل ما قيل بدليل ومن غير دليل ، لمجرد أن قائله أثبت بعض ما قاله بالدلائل إذ لا يلزم من قيام الدليل على مسألة ثبوت باقى المسائل ، أما إذا

---

(١) محمد عبده : رسالة التوحيد ـ فى الأعمال الكاملة له جـ ٣ص ٤٢٠ .

(٢) محمد عبده : تفسير المنار ـ فى الأعمال الكاملة له جـ ٤ ص ٤٨٦ و ٤٨٧ .

(٣) محمد عبده : نفس المصدر السابق .

(٤) روضة المدارس : العدد ٥ من السنة السابعة (٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ) .

كانت المسألة قد أثبتت بدلائل قطعية وبراهين مسلمة لا تبقى معها شبهة ، فإن عارضها شئ من الظواهر (أى ظواهر النصوص) يقبل التأويل بما تطابقه المسألة ويحتمل الحمل على ما أثبتته الأدلة ، قلنا بذلك التأويل وعلى الله قصد السبيل ، وأما إن عارض تلك المسألة القطعية ـ بالفرض والتقدير والتسليم الجدلى ـ نص شرعى لا نعلم له تأويلا ، فوضنا علمه إلى الله سبحانه وتعالى حتى يعلمنا تأويله ، وعلمنا أن عدم وقوفنا على تأويله ، إنما جاء من قصور أذهاننا عن المضاء فى فهمه والنفوذ إلى معرفته ، فهذا الذى أختاره وأرتضيه » [1] .

وتقارن صحيفة (العروة الوثقى) فى مقال بعنوان : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ـ تقارن بين مبادئ الإسلام ومبادئ المسيحية ، فالمسيحية دين المسالمة والمياسرة ، والزهد فى الدنيا ، ورفع القصاص ، والابتعاد عن المنازعات ، ولكن أهلها الآن آخذون فى المباهات بزينة الدنيا وفتح البلدان والتغلب عليها ، ويخترعون كل يوم فنا جديدا فى فنون الحرب .

أما الديانة الإسلامية فقد وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتها ومن قرأ آية ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ أيقن أن من صبغ بهذا الدين صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل سبيلها والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية فضلا عن الاعتصام بالمنعة من تغلب غيره عليه .

« والناظر فى أصول الديانة الإسلامية يحكم حكما لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول أمة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل فى اختراع آلات القتال ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها ، ومن وازن بين الديانتين المسيحية والإسلامية حار فكره كيف انقلبت الآية فاخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى قبل الثانية ، وكيف وجدت بندقية مارتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ، وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر ، وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب » [2] .

ويكتب النديم فى صحيفة (التنكيت والتبكيت) مقالا بعنوان : « النجم ذو الذنب »

---

(١) روضة المدارس : نفس المصدر ـ نفس الرسالة .

(٢) العروة الوثقى : عدد ٤ ـ ٣ أبريل سنة ١٨٨٤ م .

يبين فيه للمصريين فساد فكرة التنجيم التى يتعلق بها بعض المصريين ، وبين أن ذلك عار فى زمن تقدمت فيه العلوم والصناعات « حتى إن الشرق أصبح مشتغلا بالتنجيم اشتغال الغرب بفنون السياسة والمخترعات » إلى أن يقول : « فيا بنى الشرق أين أحلامكم العظيمة ، وذكاؤكم البديع ، كفاكم من العار فقد الثقة فيكم ، وعدم الركون إليكم فى أعمال وطنكم فضلا عن الغير ، كفاكم ما رميتم به على ألسنة الجرائد الإفرنجية ، بل وبعض الجرائد الوطنية من بعدكم عن مدارك العلوم والصناعة والإدارة ... » (١) .

ويكتب الشيخ محمد عبده فى صحيفة الأهرام متسائلا : « أليس من البين أنه لا دين إلا بدولة ، ولا دولة إلا بصولة ، ولا صولة إلا بقوة ، ولا قوة إلا بثروة ، وليس للدولة تجارة وصناعة ، وإنما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالى إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب ، فإن ذلك أمر قد خفى على ذوى الألباب فضلا عن غيرهم ، كيف لا وقد ولت أزمنة كان التحارب فيها بالأخشاب والنبال والسهام وخزف الجبال ، وحضرنا زمان فيه المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز و (الكروب) وغير ذلك من الأسلحة التى تجددت وستتجدد فيما بعد ، فإن الشر الذى هو أحط عناصر الإنسان ، لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المهلكة لهذا النوع ... فكيف نتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها إن لم نقل ما يزيد عنها » .

ثم يطلب من العلماء أن يحثوا الجمهور على اقتناص العلوم الموصلة إلى ذلك وبيان فوائدها ؛ لأن ذلك خير الأعمال وأحبها إلى الله لأن إعلاء كلمة الحق ، وحفظ بيضة الإسلام مقدم على جميع الشعائر ، ويطالب العلماء أن يقوموا بذلك فى خطبهم ودروسهم فى المساجد على ما هو المعهود فيهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصولته(٢) .

وقد علمنا أن رشيد رضا قد تأثر (بالعروة الوثقى) فى فكرة أخذ الأمم الإسلامية بالنهضة العلمية ، فبعد أن كان يقصر همه فى بداية الإصلاح الإسلامى على إلقاء المواعظ فى طرابلس وضواحيها ، مزهدا الناس فى الدنيا ، مرغبا لهم فى الآخرة معتمدا فى ذلك على كتب مثل « الزواجر عن اقتراف الكبائر » ، إذا هو بعد أن يقرأ مجموعة (العروة

---

(١) التنكيت والتبكيت : ١٠ يوليو سنة ١٨٨١ م .

(٢) جريدة الأهرام : العدد ٣٦ لسنة ١٨٧٧ م مقال بعنوان : « العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية » .

الوثقى) يفكر فى إصلاح العالم الإسلامى كله ، وإرشاده إلى المدنية ، وتنبيهه إلى حفظ ملكه من الطامعين فيه ، ومباراته الأمم العزيزة فى العلوم والصناعات (١) ، وكانت (العروة الوثقى) هى التى أوحت إلى رشيد بأعظم عملين قام بهما فى حياته على الإطلاق وهما : إصدار مجلة (المنار) ونشر (تفسير المنار) .

وحين شرح رشيد رضا منهج صحيفة المنار فى افتتاحية العدد الأول جعل إرشاد المسلمين إلى الأخذ بأسباب المدنية ، ومباراة الأمم الأوربية فى العلوم والفنون والصناعات من أهم أهداف الصحيفة ، فلا يعقل ـ فى رأيه ـ وقد قرن الأوربيون بين الماء والنار لتوليد قوة البخار ، ويغوصون تحت الماء ويستخدمون الكهرباء ، ويتحدثون مع بعضهم البعض وهم متباعدون ، وارتفع نظرهم إلى عالم الفضاء ، لا يعقل والحال هذه أن يقعد المسلمون عن الأخذ بهذه العلوم والفنون فيعيشوا تحت رحمة الأقوياء ، وهم الذين أمرهم دينهم بإعداد القوة (٢) .

ويجمل الإمام محمد عبده الموقف الوسط للإسلام فيقول : « فلو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه ، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخرتهم وهذا لدنياهم ، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم » (٣) .

الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية :

ومن معانى العلمانية فى الحياة الأوربية الخصومة بين الكنيسة والسلطة الزمنية فى المجتمعات الأوربية فى محاولة لاستقلال السلطة الزمنية عن السلطة الدينية (٤) .

ومن أصول الديانة المسيحية ـ التى جاءت الدعوة العلمانية كرد فعل لها ـ السلطة الدينية التى منحت للرؤساء على مرؤسيهم فى عقائدهم وما تكنه ضمائرهم ، فإذا قال الرئيس الكهنوتى لشخص إنه ليس بمسيحى صار كذلك ، وإذا قال له إنه مسيحى فاز بها ، فليس المعتقد حرا يتصرف فى معارفه كما يرشده عقله ، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتى

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٨٤ و ٨٥.

(٢) مجلة المنار : افتتاحية العدد الأول ـ ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ م .

(٣) مجلة المنار : ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م مقال بعنوان : « الاضطهاد فى النصرانية والإسلام » وهو من مقالات الأستاذ الإمام التى رد بها على مقالات فرح أنطون التى كتبها الأخير فى مجلة « الجامعة » .

(٤) د . محمد البهى : العلمانية وتطبيقها فى الإسلام ، مرجع سابق ص ٣ .

رئيسه ، فإذا اهتزت نفسه إلى بحث أو قفها القابض على تلك السلطة ، وهذا الأصل ـ إن تنازع فيه بعض النصارى اليوم ـ فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرناً طوالا [1].

وكذلك فإن من أصول المسيحية كما يقول الإمام محمد عبده فى مجال المقارنة بينها وبين الإسلام : « إن الكتب المعروفة « بالعهد القديم » و « العهد الجديد » تحتوى على كل ما يحتاج البشر إلى علمه ، وما يؤدى إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة ـ على زعمهم ـ فجميع ما جاء فى الكتب السماوية من وصف السماء والأرض وما فيهما ، وتاريخ الأمم مما يجب تسليمه (أى التسليم به) مهما ضارب العقل وخالف شاهد الحس ، فعلى الناس أن يؤمنوا أولا ، ثم يجتهدوا ثانيا فى حمل أنفسهم على فهمه ، أى على تسليمه أيضا » [2] .

كانت هذه أهم الأسباب التى جعلت دعاة العلمانية يقولون بفصل الدين عن الدولة ، ومنع رجال الكنيسة من التدخل فى شئون الدنيا من حيث البحث العلمى والسياسة وغيرها ، فقلدهم دعاة العلمانية المصريون الذين رأوا أن تكون مصر نسخة طبق الأصل من أوربا : كيف فكرت وكيف نهضت متناسين أن التقدم العلمى والاجتماعى والثقافى دعا إليه علماء الدين الإسلامى ، ولم يكونوا فى وقت من الأوقات عقبة فى سبيل التقدم .

فجمال الدين الأفغانى ـ رائد اليقظة الإسلامية والنهضة الصحفية الحديثة ـ يرى أن الهيئة البشرية لا يمكنها أن تستغنى عن سلطتين زمنية وروحية ، وكلتا السلطتين ترمى إلى غاية واحدة فى الجوهر والأصل ، ولكن يمكن أن يطرأ على إحداهما الخلل ، ليس فى أصل الوضع ، فهذا الخلل يجب العمل على إصلاحه ، والوقوف بوجه من أخل ، وإرغامه على الرجوع إلى الأصل .

« والسلطة الزمنية بملكها أو سلطاتها ، إنما استمدت قوتها من الأمة ، لأجل قمع أهل الشر ، وصيانة حقوق العامة والخاصة ، وتوفير الراحة للمجموع بالسهر والأمن ، وتوزيع العدالة المطلقة إلى آخر ما فى الوازع والسلطان من المنافع العامة .

وقصد جمال الدين بالسلطة الدينية النفوذ المعنوى للدين على من يدينون به ، وعدها

---

(١) مجلة المنار : ٤ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م ، من رد الإمام محمد عبده على فرح أنطون بعنوان : « الأصل الثانى فى النصرانية ـ سلطة الرؤساء » .

(٢) المصدر السابق : نفس التاريخ بعنوان : « الأصل الخامس للنصرانية » .

أنفذ فى بعض مواقفها من قوة السلاطين « فإذا تمكن الدين [1] بحقيقته من نفس ، وخلت عن مراقبة السلطان الزمنى ، فهناك يفعل سلطان الروح ويردعه عن سرقة مال لو سرقه لما شهد عليه أحد ، وعن نفس لو قتلها لما تمكن الحاكم الزمنى أن يقتص منه .

وإذا سار الدين فى غايته الشريفة حمدته السلطة الزمنية بلا شك ، وإذا سارت السلطة الزمنية فى الغاية المقصودة منها وهى « العدل المطلق » فالسلطة الروحية حمدتها وشكرتها بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطتان إلا إذا خرجنا عن المحور اللازم لهما والموضوعتان لأجله » [2] .

وتضع « العروة الوثقى » قاعدة للفكر والعمل الإسلامى حتى لا ينفذ الفكر العلمانى إلى العالم الإسلامى وهو فى بداية نهضته الحديثة فيقول : « وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين ، وهى ما تمسكت به ــ الآن ــ أعز الدول الأوربية وأمنعها ، ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعتها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقراً أعجزها وأعوزها » [3] .

فالنهضة الحديثة ــ فى نظر الصحيفة ــ تلزم المسلمين بأمرين :

الأول : هو أن يتمسكوا ببعض ما كان عليه آباؤهم وأسلافهم ، وهذا البعض ــ كما بينت فى مكان آخر ــ هو ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته رضوان الله عليهم وخلفائه الراشدين قبل عصور الاختلاف والضعف لدى المسلمين ، وما جاء به الإسلام ــ فى هذا السبيل ــ هو ما تأخذ به أعز الدول الأوربية فى الجد والعمل والقوة .

والثانى : عدم تقليد أوربا فى اتخاذ نفس الوسائل التى اتخذتها إلى نهضتها ، وخاصة فيما يتعلق بنبذها للدين ، وألا يلجأ المسلم وهو فى بداية نهضته أن يتخذ مواقف الغربى فيما انتهى إليه ، حتى لا يسلم المسلم أمته إلى العجز والعوز .

أما عبد الرحمن الكواكبى فيرى « أن الإسلامية مؤسسة على أصول الحرية ، برفعها

---

(١) نلاحظ استخدام الأفغانى لفظ (الدين) ، وليس (السلطة الدينية) .

(٢) جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة له ، مرجع سابق ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) مجلة العروة الوثقى : ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ــ فاتحة الجريدة .

كل سيطرة وتحكم ، بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء ، وبحضها على الإحسان والتحابب ... ومن المعلوم أنه لا يوجد فى الإسلامية نفوذ دينى مطلقا فى غير مسائل إقامة شعائر الدين » [(١)] .

وفى الجدل الذى ثار بين الإمام محمد عبده ومسيو (هانوتو) على صفحات جريدة المؤيد ، أثار (هانوتو) هذا الموضوع ، وبين الإمام محمد عبده رأى الإسلام فيه حيث يقول الإمام : « يقول مسيو (هانوتو) : أن أوربا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح ، ولكن لم يدر ما معنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين .

لم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا عند الأمم المسيحية عندما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الإلهية » [(٢)] .

وفى صحيفة (المنار) أوضح الإمام محمد عبده موقف الإسلام من السلطة الدينية فى رده على فرح أنطون صاحب صحيفة (الجامعة) ، وكذلك فى (تفسير المنار) .

فالإسلام قد هدم السلطة الدينية ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم [(٣)] ، وليس فى الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم ، كما خولها لأعلاهم يتناول بها من أدناهم [(٤)] .

« وأصل من أصول الإسلام ــ وما أجله ــ قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها، ولم يدع الإسلام لأحد ــ بعد الله ورسوله ــ سلطانا على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه . على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ولا مسيطرا ، وليس لمسلم مهما علا كعبه فى الإسلام على آخر مهما انحطت منزلته منه ، إلا حق النصيحة والإرشاد ، فالمسلمون يتناصحون وهم يقيمون أمة [(٥)] تدعو إلى الخير ، وهم

---

(١) جريدة المؤيد : فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م مقال بعنوان : (الاستبداد والدين) .

(٢) جريدة المؤيد : العدد ٣١٢١ فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠ م .

(٣) مجلة المنار : عدد ١٢ فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م بعنوان : (الأصل الخامس فى الإسلام : قلب السلطة الدينية) .

(٤) المصدر السابق بعنوان : (السلطان فى الإسلام) .

(٥) الأمة هى الجماعة وقد يكون المعنى : يختارون جماعة وهو ما يعرف بالنظام النيابى ، أو يقيمون هيئة للحكم .

المراقبون عليها يردونها إلى سواء السبيل إذا انحرفت عنه ، وتلك الأمة (التى يقيمونها) ليس لها عليهم إلا الدعوة والتذكير والإنذار ، ولا يجوز لها – ولا لأحد من الناس – ولا يسوغ لقوى ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد ، ولا يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته ، أو يتلقى ما يعمل به من أحد إلا عن كتاب الله وسنة رسوله ، ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف أو خلف ، ولكن يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم ، فليس فى الإسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه (١) .

والخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم من الخطأ ولا هو مهبط الوحى ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة وهو مطاع ما دام على المحجة ونهج الكتاب والسنة ، والمسلمون له بالمرصاد ، فإذا انحرف عن النهج أقاموه عليه ، وإذا اعوج قوموه بالنصيحة والإعذار إليه ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فإذا فارق الكتاب والسنة فى عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره ما لم يكن فى استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه ، فالأمة – أو نائب الأمة – هو الذى ينصبه ، والأمة هى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها ، فهو حاكم مدنى فى جميع الوجوه ، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الإفرنج (ثيوكراتيك) أى سلطان إلهى (٢) .

ويرد على ما يقوله بعض الناس من وجود سلطة دينية للقاضى أو للمفتى بأن « الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام وكل سلطة ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد ، أو عبادته لربه أو ينازعه فى طريق نظره (٣) .

« والإيمان بالله يرفع الخضوع والاستعباد للرؤساء الذين استذلوا البشر بالسلطة الدينية ، وهى دعوى القداسة والوساطة عند الله ، ودعوى التشريع والقول على الله بدون علم الله ، أو للسلطة الدنيوية وهى سلطة المُلك والاستبداد » .

« فالمؤمن لا يرضى لنفسه أن يكون عبدا لبشر مثله للقب دينى أودنيوى وقد أعزه الله

---

(١) المنار : عدد ١٢ في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ م بعنوان : (الأصل الخامس فى الإسلام : قلب السلطة الدينية) .
(٢) نفس المصدر السابق .   (٣) نفس المصدر السابق .

بالإيمان ، وإنما أئمة الدين مبلغون لما شرعه الله ، وأئمة الدنيا منفذون لأحكام الله ، وإنما الخضوع الديني لله ولشرعه ، لا لشخوصهم وألقابهم » [1] .

وهكذا كان موقف الصحافة الإسلامية وكتابها فى هذه القضية أيضا مثبتا أنه لا مجال للعلمانية فى المجتمع المصرى الإسلامى ، فإذا كان الإسلام لا يقوم ـ أصلا ـ على وجود سلطة دينية ، بل إن مبادئه تقوم على العدل والمساواة والشورى فلا مجال لهذه الدعوة العلمانية بما تتضمنه من فصل الدين عن الدولة .

الصحافة الإسلامية والماسونية :

أصدر أحد أصحاب (المقتطف) وهو شاهين مكاريوس مجلة (اللطائف) سنة ١٨٨٦ م ، وتخصصت هذه المجلة للدعوة الماسونية فى مصر . ثم أصدروا بعد ذلك جريدة المقطم سنة ١٨٨٩ م ، وبهذا يكون أصحاب (المقتطف) قد تزعموا فى مصر نشاطا تغريبيا ذا ثلاث شعب : **الأول** : فى السياسة ويقوم على الولاء للإنجليز والعمل على تثبيت الاحتلال الإنجليزى وقامت به جريدة (المقطم) ، **والثانى** : يقوم على العلمانية ، وإبعاد الدين عن مجريات الأمور والتوجيه فى الدولة والمجتمع واضطلعت به مجلة (المقتطف) ، ثم أكملوا حصارهم فى محاولة لحصار الرأى العام فى مصر ، فأصدروا مجلة تدعو إلى الماسونية وهى (اللطائف) المشار إليها .

وقد نشأ أصحاب هذه الصحف ـ فارس نمر ، ويعقوب صروف ، وشاهين مكاريوس ـ فى أكبر مدرسة غربية تأسست فى الشرق ، وهى الكلية الأمريكية فى بيروت ، وعرفوا التمدن العصرى ، وبرعوا فى العلوم الجديدة ، وقد اقترن فارس نمر سنة ١٨٨٨ م بابنة قنصل إنجلترا السابق فى الإسكندرية ، ثم سافر إلى لندن ، واجتمع فيها بكبار السياسيين ، ولا غرابة ـ إذن ـ فى أن يصف نمر وجود الإنجليز فى مصر بأنه « كان أكبر نعمة ، وسوف يستمر كذلك لهذا القطر » [2] .

وكانت (اللطائف) أول مجلة جاهرت بالتعاليم السرية الماسونية فى مصر ، وبهذا تم لأصحابها ما أرادوا زرعه من الإلحاد فى أرض مصر والذى سبقتها إليه زميلتها (المقتطف) [3] ، حيث إن من تعاليم الماسونية أن تدخل فى روع الناس أنهم

(١) مجلة المنار : العدد ١٢ فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ م بعنوان : (السلطان فى الإسلام) .

(٢) د . سامى عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى م مرجع سابق ص ٩٧ .

(٣) قسطاكى الحلبى : تاريخ تكوين الصحف المصرية ، مرجع سابق ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

متساوون ؛ وأن الميزات القومية ، والمعتقدات الدينية اصطناعية لا قيمة لها ، وقد أرادت أن تصبح دينا ولكنها أضافت إليه نظاما عمليا لا يمت إلى العاطفة الدينية بصلة ، ولم يتورع الماسون أن يقفوا فى وجه القوانين والقواعد الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى تعارفت عليها المجتمعات الإنسانية وليس أدل على ذلك ، من أن المحافل الإنجليزية ، التى تعتبر النواة الأولى للمحافل الماسونية عامة ، كانت لا تقيم وزنا للاعتبارات الدينية أو الوطنية ، بل كانت تعدها أوهاما يجب على الإنسان أن يتحرر منها (١) .

ومن صفحات اللطائف الاثنين والثلاثين تراوح ما تخصصه الصحيفة للحديث عن الماسونية بين خمس صفحات كحد أدنى (٢) وسبع وعشرين صفحة (٣) ، وبلغ ما خصصته عند وفاة الخديو توفيق (فقيد الماسونية العظيم) أربعين صفحة خصصتها كلها للحديث عن الماسونية (٤) .

وعندما أصدر محمد توفيق صحيفة (النصوح) الأسبوعية سنة ١٨٩٢ م احتل الحديث عن الماسونية معظم صفحاتها داعيا لها ، مبعدا كل شك عنها (٥) ، ويبدو من كلام محمد توفيق أن الماسونية كانت تعمل على جذب الصحفيين إليها حيث يقول : « فمنذ أن نشرنا نصوحنا حتى الآن ، ونحن كلما قابلنا أحد الإخوان العزاز أخبرنا أننا تمادينا فى أمر غير مشكور ، حتى لامونا على امتداح عشيرة الماسون ، مع أن الواقع أننا لم نمدح ولم نذم ، فهى أخبار الماسون وأقوالهم أى أنه يعلل نشره بأنه مجرد رواية وناشر أخبار لهم ، وبجذب الصحفيين إلى الماسونية ، فإنها تتخذ منهم سلاحا خاصا لتنفيذ مأربها « فليس بلد إلا وفيه عدد من الجرائد والنشرات باع كتبتها أقلامهم للماسون ، وانتظموا فى هذه الشيعة أملا بالربح ، فأصبحوا رهناء أوامرها يكتبون ما يلقنهم إياها أصحابها كالببغاوات » (٦) .

واكتنف الغموض الدعوة الماسونية إلى حد كبير ، وكانت لهم مناقشات وقرارات سرية غير مسموح بنشرها إلى حد أن صدر منشور سنة ١٨٩٢ م يحدد للإخوان المحررين فى الجرائد أن يستمدوا أفكارهم من مقررات المجلس الماسونى على أن يتحاشوا ما قيل أو عمل فى المحفل (٧) .

---

(١) د . فورستيه : هذه هى الماسونية ، ترجمه إلى العربية بهيج شعبان دار بيروت سنة ١٩٥٥ م .
(٢) مجلة اللطائف : ١٥ أبريل سنة ١٨٩٠ . (٣) مجلة اللطائف : ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٠ م .
(٤) مجلة اللطائف : ١٥ يناير سنة ١٨٩٢ . (٥) مجلة النصوح : العدد الأول ١٢ أكتوبر سة ١٨٩٢ م .
(٦) لويس شيخو : السر المصون فى الشيعة الفرمسون ، جـ ٣ ـ بيروت سنة ١٩١٠ م ص ٤٢ .
(٧) د . فورستيه : المرجع السابع ص ١١٣ .

وابتعدت المحافل الماسونية وصحفها عن المعارضة والنقد والتدخل فى أعمال الحكومة ؛ لأن مصر ـ على حد قولها ـ ليست كأوربا ، « والنقد والمعارضة ـ فى مصر ـ لا فائدة منهما ، وإنما يؤول إلى إلقاء النفرة والوحشة بين الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة ، مما يفضى إلى الفتنة والثورة وهما مقدمة الخراب والبوار » (١) .

وابتعاد الماسونية عن النقد هو الذى أوجد العداء بينها وبين جمال الدين الأفغانى ، فقد حاول المحفل الماسونى الاسكتلندى ضم الأفغانى ، ولكنه ـ عندما انضم إليه ـ رأى منه إعراضا عن الخوض فى السياسة ، والابتعاد عن مقاومة الظلم والاستبداد وغير ذلك من القضايا الهامة ، فانفصل عن هذا المحفل هو وتلاميذه ، وأنشأوا محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى ، ووجه هجومه إلى المحفل الاسكتلندى قائلا : « إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » (٢) .

وسكت الإنجليز عن جمال الدين الأفغانى طالما هو عضو فى محفلهم فلما انفصل عنه ، وكشف حقيقته بثوا حوله الجواسيس وجمعوا من المعلومات ما أخاف الخديو الذى أمر بإخراجه من القطر المصرى سنة ١٨٧٩ م (٣) .

ونشرت مجلة (اللطائف) أسماء الأشخاص والقاده العسكريين الإنجليز الذين انضموا إلى المحفل الماسونى فى مصر مثل المستر رفاييل بورج قنصل إنجلترا ، والجنرال ولسلى (قائد الحملة على مصر سنة ١٨٨٢ م) والجنرال سميث ، والسردار كتشنر (٤) .

وهذا يوضح ما ذهب إليه عباس حلمى الثانى من أن سبب عدم الكفاية فى تعليم ضباط الجيش المصرى ، يرجع إلى « أن الضباط كانوا يختارون ـ بصفة خاصة ـ ممن ينتسبون ـ فيما يعرف الناس ـ إلى المحفل الماسونى الإنجليزى » (٥) ، ويؤكد ذلك مرة

---

(١) جريدة المقطم : فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩١ م .

(٢) جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة ، القاهرة سنة ١٩٦٩ م ص ٦٩ .

(٣) محمد المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ، بيروت سنة ١٩٣١ م ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) مجلة اللطائف : ١٥ يوليو سنة ١٨٩٠ م و ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ م .

(٥) عباس حلمى الثانى : مذكرات ـ جريدة المصرى ٨ أبريل سنة ١٩٥١ م .

أخرى فى حديثه عن مشاريعه عندما تولى الخديوية فيقول : « لما وصلت إلى مصر اتجهت إلى الجيش أعتمد على ضباطه ، وأشير إلى اتصالى بهم واتخاذى اللباس العسكرى لباس العادى ، ولما أفلت الضباط من يدى ، إذ دخلوا الماسونية الايقوسية (الاسكتلندية) التى كان يرأسها السردار ، تحولت إلى الشباب فلبست اللباس المدنى » (١) .

ومن الأصوات التى ارتفعت لكشف حقيقة الماسونية صوت عبد الله النديم فى مجال هجومه على أصحاب (المقطم) وكشف تاريخ حياتهم ، حيث قال عنهم : « كيف يرجى الصدق والإخلاص ممن خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم ، وكانت بلادهم أولى بالخدمة ، وأقرب الحوادث منا وجود أحد الأجراء خطيبا فى محفل من محافل بيروت الماسونية يحرض فيه الناس على نبذ الطاعة السلطانية والانحياز للغير » (٢) .

وكما كان هجوم الأفغانى العنيف على المحفل الماسونى الإنجليزى فى مصر سببا قويا من أسباب نفيه من مصر ، كذلك كان هجوم النديم على (المقطم) وأصحابه سببا كافيا لإغلاق مجلته ونفيه .

وبالرغم من تغلغل الماسونية فى الحياة المصرية في تلك الفترة وظهور صحافة لها ، فقد كان صوت الصحافة الإسلامية إزاءها خافتا ، فيما عدا صوت النديم المشار إليه ، ولعل ذلك كان يرجع إلى الغموض الذى أحاطت به نفسها وظهورها بمظهر الدعوة الطيبة القائمة على شعار الحرية والإخاء والمساواة ، وإلى القسوة التى كان يقابل بها كل من يجرؤ على مهاجمتها كما حدث للأفغانى والنديم .

---

(١) جريدة المصرى : فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ م حديث للدكتور محمود عزمى مع عباس حلمى الثانى .

(٢) مجلة الأستاذ : فى ٢٣ مايو سنة ١٨٩٣ م .

الفصل الثانى

الصحافة الإسلامية

ومحاولة تغريب التعليم فى مصر

كان التعليم فى مصر فى القرن التاسع عشر على ثلاثة أنواع : النوع الأول هو : التعليم فى الأزهر ، والثانى هو : التعليم الحكومى ، والثالث هو : التعليم الأجنبى .

وكان لكل نوع من الأنواع الثلاثة خصائصه التى تجعل المنتمين إليه بعيدين كل البعد عن المنتمين للنوع الآخر .

فالتعليم فى الأزهر غلب عليه التمسك بالقديم والجمود عليه ، ولم يكن هذا القديم هو القديم الأصيل المأخوذ من الكتاب والسنة وعصور ازدهار الفكر الإسلامى ، ولكنه كان قديماً مأخوذاً من عصور التخلف المملوكية العثمانية التى تحفظ بعض المتون والشروح دون إعمال للعقل فى فهمها أو تقويمها أو نقدها .

والتعليم الحكومى غلب عليه الضعف العام ، وضعف التوجيه الدينى بصفة خاصة ، وغلبة المناهج الغربية عليه ، وخاصة فى عهد الاحتلال البريطانى الذى حاول أن يجعل اللغة الإنجليزية هى لغة التعليم .

أما التعليم الأجنبى فكان يدرس لغة البلاد التى يسمى إليها ودينها وتاريخها وحضارتها ويلتزم بمناهجها التزاماً كاملاً ، وبهذا كان المتخرجون فيه كأنهم أجانب يعيشون فى مصر ، لا يعرفون لغة بلادهم ولا دينهم ولا حضارتهم .

وكان هذا الوضع فى التعليم فى مصر يؤدى إلى وجود فجوة بين تيارين فى الفكر والشعور المصريين ، مع نقص فى كل من التيارين معاً لا يؤهل أيا منهما لقيادة تقدم المجتمع المصرى ، وصنع الحضارة فيه :

اتجاه تغريبى مبهور بحضارة الغرب ، تتلمذ عليها ودرس آدابها وعلومها ، وفكر

بطريقتها مع ضعف معرفته بلغة بلاده ودينها وتاريخها .

واتجاه جامد يأخذ علومه وآدابه عن عصور الضعف والتخلف المملوكية العثمانية ، ولا يمد أبصاره إلى المنابع الأصيلة للإسلام فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وعصور ازدهار الفكر الإسلامى .

وكانت الصحافة الإسلامية هى الصوت الأوضح والأقوى الذى عمل على سد الفجوة بين التيارين ، وملافاة الازدواج فى الفكر والشعور المصرى ، وكان منهجها قائماً على أخذ الفكر الإسلامى من منابعه الأصيلة فى القرآن والسنة فى عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين وعصور الازدهار الإسلامى ، قبل ظهور الضعف والخلاف ، وأن نأخذ من الحضارة الغربية تقدمها الصناعى والعلمى مما لا يتعارض مع مبادئ الإسلام ، وذلك سعياً وراء التقدم والتحضر ، والقوة التى أمر الله المسلمين بإعدادها .

ففيما يختص بالأزهر فقد تناولنا فى فصل سابق جهود الصحافة الإسلامية لإصلاح التعليم فيه وتلخصت فى ثلاثة أمور ، **الأول** : الرجوع فى فهم الإسلام إلى منابعه الأولى فى القرآن والسنة وعصور الإسلام الأولى قبل أن يمزق الخلاف المسلمين ، وقبل أن يدخل فى الإسلام ما ليس منه ، **والثانى** : إدخال ما عرف بالعلوم الحديثة فى الأزهر حتى يستطيع الأزهريون فهم مجتمعهم والمشاركة الفعالة فى شئون حياته ، **والثالث** : الاجتهاد فى فهم الدين حتى يتمكن الناس من معرفة رأى الدين فيما استجد من معاملات وأمور فى هذا العصر .

الصحافة الإسلامية وإصلاح التعليم الحكومى :

كانت أول صحيفة اهتمت بإصلاح التعليم فى مصر هى (الوقائع المصرية) فى عهد تولى الشيخ محمد عبده لرياسة تحريرها ، فكتب مجموعة مقالات ترسم منهجا واضحاً لإصلاح التعليم ، وأهم هذه المقالات : « التربية فى المدارس والمكاتب الأميرية » (١) ، ومقالين بعنوان : « المعارف » (٢) ، و « ما هو الفقر الحقيقى فى البلاد » (٣) ، و « الكتب العلميـة وغيرها » (٤) ، و « تأثير التعليم فى العقيدة » (٥) على حلقتين ، و « التمدن والاعتياد » (٦) .

---

(١) فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠ م .
(٢) فى ٢٠ ، ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م .
(٣) فى ٢٨ ، ٣١ مارس سنة ١٨٨١ م .
(٤) فى ١١ مايو سنة ١٨٨١ م .
(٥) فى ٩ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨١ م .
(٦) فى ٤ مايو سنة ١٨٨٢ م .

وفى هذه المقالات انتقد الشيخ المدارس والمعلمين وطرائق التدريس وسياسة التعليم، وأظهر ما فيها من عجز وقصور، ورسم الطريق إلى إصلاحها.

أما رأيه الذى عرضه فى هذه المقالات فهو أن النهوض بالأمة إنما يكون السبيل إليه السمو بالأفراد، ومن هنا ينبغى تغيير عاداتهم شيئاً فشيئاً، ويكون البدء بتغيير الأبسط والأسهل، وأهم واجبات الأمة هو تهذيب أخلاق أبنائها، والعمل على سمو أفكارهم وأفعالهم وبغير هذا يستحيل الإصلاح، ولكن هذا العمل يحتاج إلى جهد ووقت، وأول خطوة فيه هى إصلاح التربية والتعليم.

واقتنع رياض باشا ناظر النظار بما جاء فى هذه المقالات وعلى أثرها ألف «مجلس المعارف الأعلى» وكان الشيخ محمد عبده عضواً فيه (١).

وكان منهج الإمام محمد عبده فى الإصلاح يقوم على التربية والتعليم، وحين التقى مع جمال الدين الأفغانى فى (باريس) بعد فشل الثورة العرابية، اقترح محمد عبده على جمال الدين أن يتركا السياسة ويذهبا إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات، «ونعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا، فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم، والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار»، فقال له جمال الدين: «إنما أنت مثبط» وعدلا عن هذا الاقتراح إلى نوع من الجهاد يناسب شخصية جمال الدين، وهو العمل فى جمعية «العروة الوثقى» وإصدار صحيفتها (٢).

وإذا كانت الصحافة الإسلامية قد قادت حملة إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر، فإنها أيضاً قد قادت حملة إدخال العلوم الإسلامية فى المدارس الحكومية فى سبيل بناء وحدة الفكر والشعور فى مصر.

فالتربية التى تجعل الإنسان إنسانا حقيقياً ـ فى نظر الإمام محمد عبده ـ هى التربية الإسلامية، وهى «عبارة عن اتباع الأصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعاليم. تعلم الإنسان الصدق، ومحبة نفسه، فإذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.

---

(١) رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام، جـ ١ ص ١٤٤.

(٢) أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، مرجع سابق ص ٨٧.

ولو كنا متربين حقاً لا نبث فينا إحساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجتنا ، وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه وغيره .

إن العلم الحقيقى هو الذى يعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من الأفراد فى جامعته ، فهو ـ إذن ـ يعلم الإنسان : من هو ؟ ومن معه ؟ فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة وهو ما يسمونه بالاتحاد .

ألا إن الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق ، وجذوع وجذور هى الأخلاق الفاضلة بمراتبها ، فعلى المسلمين أن يربوا أنفسهم تربية إسلامية حقيقية ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل أمل باطل ، وكل الأمانى أحلام وأوهام ، وكل احتجاج بغير سعى عجز » (١) .

« وأول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة ، هو التعاليم الدينية الصحيحة ، أعنى ترغيب القلوب بما يرضى الخالق ، وإرهابها مما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغبة التى يراد حث النفوس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع ، بحيث لا تخرج عن مكارم الأخلاق التى حصر الشارع علة بعثته فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« وطالما تشوقت النفوس لأن تكون التربية فى المدارس على هذا النمط المفيد الذى عولت عليه جميع الأمم المتمدنة فى مبادئ تعاليمها ، فإن من تتبع قوانين التعليم فى الممالك الأوروبية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد على ست سنوات تقريباً » (٢) .

وحين يرى ملحوظات مرفقة بنتائج الامتحانات المقدمة إلى نظارة المعارف تفيد أن « بعض المكاتب لم يحصل منها الاعتناء بتعليم قواعد الإسلام . . . » يكتب « إن معرفة قواعد الإسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ، ولا يجوز إغفاله فى حال من الأحوال مطلقاً ، فيلزم تدريسها للتلاميذ بمعرفة خوجات القرآن ، مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم ، بحيث يحفظونها عن ظهر قلب ، ويفهمون معناها فهماً جيداً ، ويعرفون

---

(١) من خطبة للإمام محمد عبده فى احتفال الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٩٦ م نشرها رشيد رضا فى مجلة المنار فى ١٤ مارس ١٩٢٦ م ، وقال إنه عثر عليها فى أوراق الإمام .

(٢) جريدة الوقائع المصرية : فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٨٠ م مقال بعنوان : « التربية فى المدارس والمكاتب الميرية » .

كيفية أدائها على أكمل وجه كما ينبه أن يكون مدرسو الدين الإسلامى قدوة للتلاميذ فيؤمونهم فى أداء الصلاة فى أوقاتها فى المدرسة ، وقدوة فى الأخلاق الإسلامية بصفة عامة » (١) .

أماعبد الله النديم فقد أدرك خطر الازدواج فى التعليم المصرى فى عهده ، وما ينتج عنه من مجتمع متنافر غير متحد الفكر والشعور ، فيدعو إلى وحدة نوعى التعليم الدينى والمدنى فى المدارس ، وأنه « لابد لنا معشر الشرقيين من مجاراة الأمم المتمدينة ، للخروج من مضيق التوحش المنسوب إلينا . . . وإننا لا نصل إلى هذا المقصد إلا بالوسائل التى اتخذتها أوربا ، وكلها محصورة فى طرق التعليم ، وهى أنهم خلطوا التعليم الدينى بالتعليم المدرسى وصيروهما طريقة واحدة » (٢) .

ولقد كانت مجلة (المنار) هى ترجمان الدعوة الإصلاحية للإمام محمد عبده ، وإذا كان حجر الزاوية فى هذه الدعوة الإصلاحية هو التربية والتعليم ، فلا بد أن يكون هذا هو منهج (المنار) أيضاً .

وينقد رشيد رضا بشدة حالة التعليم فى عهده بما فيه من تقصير فى تعليم الدين الإسلامى ، فقد رأى أن « مدارس الحكومة المصرية لا أثر فيها للصبغة الدينية ، بل قيل إن الوليد يدخلها بدين ، ويخرج منها مارقاً ـ والعياذ بالله تعالى ـ إلا إذا كان له أهل وعشيرة أتقياء بصراء ، يتعاهدون سيره ، ويحكمون ربط عقيدته ، ولا أثر فيها للصبغة الوطنية والجنسية أيضاً ، فقد استُبدِلت اللغة الأجنبية باللغة العربية فى التعليم ، وأُقيم التاريخ الإنجليزى مكان التاريخ العثمانى ، واستغنى عن الآداب العربية بالآداب الإفرنجية ، ويُعتاض عن المعلمين الوطنيين بالأجانب شيئا فشيئا ، وكل ذلك مما يغرس فى قلوب المتعلمين عظمة الأمم التى يتعلمون تاريخها وآدابها ، واحتقار أمتهم وجنسيتهم ودولتهم ، ماضيها وحاضرها ، فأى خير يرجى من تعلمهم بهذه الصفة ، واصطباغهم بهذه الصبغة » (٣) .

ويرى أن العلاج فى « أن يكون التعليم النافع للوطن وللبلاد هو ما تحيى به الشعائر الدينية بتهذيب الأخلاق وإصلاح الأعمال ، وتقوى به الروابط الجنسية والوطنية ، بإحياء اللغة العربية ونقل جميع الفنون إليها بالتدريج ، وجعل التعليم بها دون سواها . . . وما دام زمام التعليم بأيدى الأجانب يجذبونه كيف أرادوا ، فلا يمكن أن نحصل إلا على خلاف

---

(١) الوقائع المصرية : نفس المقال .

(٢) مجلة الأستاذ : العدد التاسع فى ١٨ / ١٠ /١٨٩٢ م .

(٣) مجلة المنار : فى ٢٨ يونية سنة ١٨٩٨ م مقال بعنوان : (المدارس الوطنية) .

هذه الرغائب ، وهو استبدال حرية الفساد والفحش بآداب الدين ، واللغة الإنجليزية والفرنسوية باللغة العربية ، وتمزيق الوطنية والجنسية شذر مزر ، وبعد ذلك إما أن يتجنس المتعلمون بشخصية معلميهم ، وإما أن يكونوا عوناً لهم على مصالحهم » (١) .

الصحافة الإسلامية والتحذير من المدارس الأجنبية :

عملت الصحافة الإسلامية على سد الفجوة بين نوعين من التعليم فى مصر والتقريب بينهما ، فدعت إلى إدخال العلوم الحديثة فى الأزهر ، والعناية بتدريس الدين الإسلامى فى مدارس الحكومة ، وعملت على النهوض بالتعليم فى كل من الأزهر ومدارس الحكومة ، أما موقفها ـ الصحافة الإسلامية ـ من المدارس الأجنبية فى مصر ، فقد كان التحذير والاعتراض السافرين .

وقد شهد عصر سعيد وإسماعيل زيادة فى وفود الإرساليات الدينية المسيحية إلى مصر ، وشجع هذان الواليان هذه الإرساليات على إنشاء مدارس لها ، ومنحاها الأرض والمعونات المالية والعينية لإنشاء هذه المدارس (٢) .

وقد افتتح ما يقرب من مائة وثلاثين مدرسة من هذه المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات الدينية فى عصر إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م) ، وقد أمكن الحصول على إحصائيات تدل على أن عدد هذا النوع من المدارس كان ١٥٢ مدرسة سنة ١٨٧٨ م ، وفى الفترة من ١٨٧٥ إلى ١٨٧٨ زاد عدد تلاميذ هذه المدارس بنسبة ٤٠٪ بينما زاد عدد تلاميذ مدارس الحكومة المصرية ومدارس الأوقاف بنسبة ١١٪ (٣) .

وقد خرجت هذه المدارس عدداً كبيراً من رجال الأعمال والمهن وموظفى الحكومة ، وخاصة موظفى البريد والسكك الحديدية والمحال التجارية والبنوك ، وتراجمة القنصليات والمحاكم المختلطة ، ونال كثير منهم الحمايات الأجنبية بواسطة القناصل فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدول الأجنبية وميولهم إليها ، وعدم خضوعهم للنظم الأهلية القضائية والإدارية (٤) .

---

(١) مجلة المنار : المصدر السابق .

(٢) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م ص ٣٧

(٣) Dunns, J Heyworth : An Introduction to the History of Education in Modern Egypt. Lonon 1968 . P . P . 406 - 423 .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ١ ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

وفى عهد الاحتلال الإنجليزى لمصر زاد عدد الإرساليات الدينية الأوربية ، وزاد عدد المدارس الأجنبية ، فقبل الاحتلال كان هناك مدرستان إنجليزيتان فى الإسكندرية ، وكانت مدرستا القاهرة قد توقفتا منذ ١٨٤٨ ، وبعد الاحتلال بلغ عدد المدارس الإنجليزية فى مصر ثمانى عشر مدرسة رئيسية كبيرة فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس (١) .

واطردت هذه الزيادة حتى نهاية القرن ، حتى بلغ عدد المدارس الأمريكية التى كانت تعمل على نشر المذهب البروتستانتى بين أقباط مصر بلغ سنة ١٩٠٠ م (١٨٦) مدرسة تنتشر حتى قرى الصعيد والوجه البحرى (٢) .

وإذا كان لهذه المدارس الأجنبية فضل وحيد وهو أنها خرجت عدداً من المصريين يجيدون اللغات الأجنبية ، فإن لها مضار على تربية الشباب من النواحى الدينية والاجتماعية والسياسية ، فخريجوها لا يعرفون لغتهم العربية ولا تاريخ بلادهم . . تعلموا تمجيد الدول التى تتبعها هذه المدارس ومعظمها دول استعمارية ، وغرست فيهم عن مصر الأفكار التى تريدها هذه الدول مثل : إن مصر دولة زراعية لا تصلح للصناعة وغير ذلك (٣) .

وكانت الصحافة الإسلامية هى الصوت الوحيد ـ تقريباً ـ الذى ارتفع ـ منذ البداية ـ لينبه إلى أضرار التحاق أبناء المسلمين بهذه المدارس الأجنبية ، ويحذر من مغبة انتشارها فى جميع أنحاء البلاد .

وكانت مقالات الشيخ محمد عبده فى صحيفة الوقائع المصرية هى أول من نبه إلى خطورة هذه المدارس على عقيدة أبناء المسلمين المتعلمين فيها خاصة حين يدخلها الطفل صغيرا ، وضرب مثلا على ذلك « ما حدث من مدة سنوات أن أحد أولاد مصطفى أفندى المنشاوى واسمه (أحمد أفندى) كانت تربيته وتعليمه فى مدرسة الأمريكان البروتستانتية ، فاعتنق المذهب البروتستانتى ، ودعا والديه وإخوته إلى اعتناقه ، وأحدثت هذه المسألة ضجة كبيرة ، وتداخلت فيها الحكومة والقنصل الأمريكى ، وانتهت بأن سافر الولد إلى جهة لا يعلمها أهله » كما يذكر حالة طالب آخر فى مدارس الفرير حاول رؤساء هذه المدرسة أن يجعلوه يسافر إلى أوربا بدون علم أهله ، وعندما كتبت (الوقائع المصرية) عن

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ، مرجع سابق ص ١١١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٦١ . (٣) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

تغيبه تنبه ولجأ إلى خاله بالإسكندرية ، وعاد مع والده ـ الذى كان يبحث عنه ـ إلى القاهرة [1] .

وفى نهاية المقال الثانى يقول الشيخ محمد عبده : « إننا نعيد إنذار الآباء ـ هداهم الله ـ بألا يسلكوا بأولادهم فى التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر وتشويش البال ، وألا يبعثوا بأبنائهم إلى المدارس الأجنبية التى تغير مشاربهم ومذهبهم . . وإن ما سبق منا نشره فى الأعداد الماضية يبين أن نفس المعاشرة تؤثر فى العقيدة ، فلا يؤمن على الأطفال من تغيير المذاهب » [2] .

ولم تكن مقالات الشيخ محمد عبده فى (الوقائع المصرية) هى محاولته الوحيدة للوقوف فى وجه التيار الجارف للمدارس الأجنبية فى مصر ، فإن مقالاته الكثيرة فى التربية والتعليم أقنعت رياض باشا ناظر النظار ، أن ينشئ (المجلس الأعلى للمعارف) يشرف على التعليم فى مصر ويعمل على ترقيته فأنشأ هذا المجلس وجعل الشيخ محمد عبده عضوا فيه ، وفى هذا المجلس اقترح الشيخ محمد عبده أن تقوم الحكومة المصرية بدفع مبلغ كبير من المال للمدارس الأجنبية نظرا لما تقوم به من خدمة فى تعليم أبناء مصر [3] ، فهش لهذا الاقتراح الأعضاء الأجانب فى المجلس ، وعارضه أغلب المصريين فيه ، ووافق عليه من المصريين من كان يعرف الخطوة التالية التى يضمرها الشيخ محمد عبده ، فصدر القرار لأغلبية الآراء ، وفى الجلسة التالية اقترح الشيخ أن تكون المدارس الأجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشو النظارة فى نظام التعليم وسيره ، واستطاع بعد جدال أن يقنع الأعضاء الأجانب فى المجلس ، وأن ينال موافقة المجلس على اقتراحه ، وإن كان قد تعثر فى التنفيذ [4] ثم قامت الثورة العرابية وبعدها الاحتلال الإنجليزى ، فأجهض هذا المشروع كغيره من نواحى النهضة الفكرية والنيابية التى ظهرت فى هذه الفترة .

وتواصل صحيفة (المؤيد) التحذير من هذا النوع من التعليم فى مصر حيث « إن جميع المدارس التى فرضت على متعلميها التعاليم الدينية الخاصة بأبناء جلدتها ، واعتقاد

---

(١) الوقائع المصرية : مقالين بعنوان : « تأثير التعليم فى الدين والعقيدة » فى ٩ ، ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨١ م .

(٢) الوقائع المصرية : نفس المصدر .

(٣) كان ٥٢ ٪ من تلاميذ هذه المدارس من المصريين حسب إحصاء سنة ١٨٧٨م ، راجع : جرجس سلامة ـ التعليم الأجنبى فى مصر ـ مرجع سابق ص ٢٧٤ .

(٤) رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

أحكام غير أحكام مذاهبهم ، والتى تبث فى عقولهم روح حب الأجنبى ، وتدس فى أفكارهم دسائس التعصب الجنسى لها ، هذه المدارس لا توافق الأمم المتدينة بدين يخالف دين ذويها ، أو مذهب يخالف مذهبها ، أو البلاد التى لا توافق مصالحها مصالح الدول القائمة تلك المدارس على خدمتها ، حيث تكون سببا فى إضعاف الأديان الأخرى ، ووسيلة لانحطاط الأوطان لعدم انتفاعها بخدمة أوطانها » (١) .

و « هذه المدارس الأجنبية قد وفدت إلى ديارنا ولها عضد من جمعيات فى أوطانها الأصلية تنفق عليها الأموال الطائلة لا حبا فى تربية أبناء البلاد ، ولكن كل طائفة تقصد أن تربى من التلامذة كمن قص علينا حديثه مكاتبنا فى مدرسة الفرير (وغيرها أشبه بها) ، أنه أبى أن ينتسب لأهله ؛ لأنهم جهلاء ، وأبى أن يحب المصرى لأنه غير فرنساوى ، وأبى أن يعتقد مذهبه الأصلى لأنه خرافات ، وأبى أن يسعى فى منفعة وطنه ؛ لأن حق أساتذته عليه يمنعه أن يكون إلا فى خدمة منافعهم ولو أضر بنفسه ، وأبى أن يعد المصريين فى مصاف بنى الإنسان ؛ لأنهم مجردون عن الكمالات » (٢) .

وهكذا كان موقف الصحافة الإسلامية من التعليم الأجنبى هو المعارضة والتحذير من ضرره ، بينما كان موقفها من التعليم الحكومى والأزهرى هو محاولة إصلاحه والنهوض به .

---

(١) جريدة المؤيد : ٣٠ نوفمبر ١٨٩٠ م .

(٢) جريدة المؤيد : فى ١٣ يناير سنة ١٨٩١ م .

الفصل الثالث

الصحافة الإسلامية

ومعركة الحفاظ على اللغة العربية

كانت المعركة بين الصحف التى حاولت القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وبين الصحف التى دافعت عنها واستمسكت بوجودها وتطويرها ، من أهم المعارك التى دارت بين من حاولوا تغريب المجتمع المصرى ، وبين من تمسكوا بالإبقاء على قسماته العربية الإسلامية .

ونستطيع أن نميز فى معركة اللغة العربية هذه بين اتجاهين متصارعين :

اتجاه الصحف العلمانية التغريبية ، وتمثلت فى صحف المقتطف والمقطم ومجلة الأزهر فى سنتها الأخيرة عندما تولى وليم ويكلوكس ـ مهندس خزانات الرى الإنجليزى ـ رئاسة تحريرها .

واتجاه الصحف الإسلامية ، وتمثلت فى صحف : التنكيت والتبكيت ، والأستاذ لعبد الله النديم ، ومجلة الآداب لعلى يوسف ومحمد مسعود ، وجريدة المؤيد لعلى يوسف ، ومجلة المنار لمحمد رشيد رضا .

فالاتجاه الأول ـ العلمانى التغريبى ـ الذى تميز بموالاته للاحتلال الإنجليزى ، وأخذ الحضارة الأوربية بشقيها المادى والفكرى بدون نقد أو تمحيص ، تميز أيضاً بالعداء للغة العربية الفصحى ومحاولة القضاء عليها .

ونعرض أولا لمحاولات الصحافة العلمانية التغريبية القضاء على اللغة العربية الفصحى ، ثم نعرض ـ ثانياً ـ لموقف الصحافة الإسلامية فى الاستمساك باللغة العربية الفصحى ، وتطويرها وتغذيتها بدماء جديدة لتستوعب حضارة العصر وثقافته .

وعبرت صحافة الاتجاه الأول عن اتجاه كرومر والاحتلال الإنجليزى فى مصر ، حيث أرادوا أن يحلوا الثقافة الغربية والإنجليزية منها على التخصيص ـ محل الثقافة العربية الإسلامية ، وأدركوا أن نجاح خطتهم هذه لا يتم إلا بالقضاء على اللغة العربية حتى يتم

لهم اقتلاع الحضارة الإسلامية من جذورها ، وحتى يجعلوا مصر تابعاً لحضارة الغرب ؛ لأن اللغة العربية الفصحى هى رباط المصريين بالقرآن الكريم وكتب التراث التى ألفت على مدى أكثر من ألف عام .

ولقد تمثلت الحرب التى شنتها صحافة هذا الاتجاه على اللغة العربية الفصحى فى ثلاثة أمور :

١ ـ الدعوة إلى الكتابة باللغة العامية المصرية وجعلها لغة التأليف والصحافة والتعليم وإحلالها محل العربية الفصحى .

٢ ـ كتابة اللغة العربية (أو العامية) بحروف لاتينية .

٣ ـ إحلال اللغة الإنجليزية محل العربية فى التعليم والمصالح الحكومية والمحاكم والمعاملات التجارية .

أولاً : الدعوة إلى العامية :

ظهرت الدعوه إلى العامية ـ أول ما ظهرت ـ على صفحات مجلة (المقتطف) ففى سنة ١٨٨١ م طلعت هذه الصحيفة على قرائها باقتراح كتابة العلوم بلغة الحديث ، وزعمت الصحيفة أن لغة التكلم ولغة الكتابة (عندنا نحن المصريين) هى علة تأخرنا ، وقالت : إن أكثر الذين نجحوا بسعيهم وجدهم من الإفرنج كانوا يدرسون العلوم العالية مثل الجبر والهندسة والفلسفة والطبيعة ، وهم يتعاطون أصغر الأعمال ولا يعرفون من العلم سوى القراءة البسيطة ، ذلك لأن لغة الكتب عند الإفرنج لا تفترق كثيراً عن اللغة التى يتكلمون بها ، أما نحن المتكلمين بالعربية فكتبنا ـ ولا سيما كتب العلوم ـ قد كتبت بلغة غير اللغة التى نتكلمها ، والبعد بينهما كالبعد بين الفرنساوية والإنجليزية ، أو ـ بالحرى ـ كالبعد بين اللاتينية والإيطالية ، فلا يقدر عامتنا على إدراك معانى الكتب ما لم يدرسوا لغتها وتصير ملكة فيهم ، وهذا يقتضى وقتاً طويلاً ونفقة هائلة ، وإذا بقى الحال على هذا المنوال فلا أمل أن يستفيد عامتنا من الكتب ، وبما أن العامة هم القسم الأكبر فلا أمل فى النجاح التام .

ونصح بضبط العامية اقتداء بالأمم الأوربية التى ضبطت لهجاتها وهذبتها وكتبت بها ، وجرت بذلك المجرى الطبيعى القاضى على اللغات أن تتغير بتغير الأزمان (١) .

---

(١) مجلة المقتطف : نوفمبر سنة ١٨٨١ م مقال بعنوان : « اللغة العربية والنجاح » .

ثم نشرت (المقتطف) مقالاً لكاتب لم يصرح باسمه ، وسمى نفسه « الممكن » ربما خوفاً من سخط الرأى العام الذى لم يكن قد واجه مثل هذه الدعوى من قبل ، وقدم عددا من الحجج يظهر فيها أنها أثر من ثقافته الأوربية وأهمها :

١ ــ إن اختلاف لغة العامة لا يمنع من استخدام العامية ، فقد كان لقبائل العرب لغات مختلفة استطاع علماء القرون الأولى جمعها .

٢ ــ إمكان نقل المصنفات العربية إلى لغة العامة إذا كان فيها فائدة ، وأردف : إن هذه المؤلفات ليس فيها فائدة يعتمد عليها فى الصناعة والزراعة والتجارة ولا فى العلوم الحديثة ، وما ألف فيها فى الرياضيات والتاريخ أصبح لا قيمة له بعد ظهور مؤلفات الإفرنج .

٣ ــ تبقى كتب الدين والعبادة على ما هى عليه ومن مهمة أمناء الدين دراستها وتفسيرها للعامة ، وعلى المسلمين أن يقتدوا بالنصارى من اللاتين والأروام ، فإن اللاتينيين يقرأون الإنجيل باللاتينية ، والأروام يقرأون إنجيلهم باليونانية ، أما المسلمون من الترك والفرس فهم يقرأون القرآن بالعربية .

٤ ــ وهذه نقطه هامة ، فقد قال : أما كتب الفقه فقد صار العدول عنها إلى النظام (أى القانون الوضعى) ، ولا مانع من كتابة النظام بلغة العامة ليفهمه الخاصة والعامة .

٥ ــ اللغه الفصحى يدرسها من يشاء كما يدرس البعض فى أوربا اللغة اليونانية واللاتينية والسنسكريتية .

وطالب بسرعة الأخذ بالاقتراح لأن الخرق قد اتسع على الراقع ، وصارت اللغة التى نرضعها مع اللبن ، ولا تنطق ألسنتنا إلا بها بعيدة عن اللغة القديمة بعدا شاسعاً ، ولابد للنجاح المأمول أن نعتمد على لغة تفهمها خاصتنا وعامتنا [1] .

وظهرت الدعوة إلى العامية مرة ثانية فى يناير سنة ١٨٩٣ م فى مجلة (الأزهر) ، حين تولى رئاسة تحريرها وليم ويلكوكس مهندس خزانات الرى الإنجليزى .

وقد مرت مجلة الأزهر بعدد من الأطوار حتى تولى ويلكوكس رئاسة تحريرها ، وسخرها فى سبيل دعوته إلى العامية .

فقد صدرت هذه المجلة أولا باسم « الصحة » فى شهر أغسطس سنة ١٨٨٧ م

---

(١) المقتطف : أغسطس سنة ١٨٨٢ م ، باب المناظرة والمراسلة : (مستقبل اللغة العربية) .

لصاحبيها : الدكتور حسن بك رفقى المفتش بمصلحة الصحة العمومية ، وإبراهيم بك مصطفى المدرس بالمدرسة الطبية وناظر مدرسة دار العلوم فيما بعد ، وحشدا لها عدداً من كبار الأطباء ، ونشرت مواد طبية جيدة .

وابتداء من العدد الأول من السنة الرابعة (١٨٩٠ م) تغير اسمها إلى « الأزهر » وأضيفت إلى موضوعاتها بعض الموضوعات الرياضية والهندسية .

وفى العدد الحادى عشر أول ديسمبر سنة ١٨٩٢ م نشر صاحبا المجلة تنبيهاً جاء فيه « نعلن القراء بأننا اتفقنا مع حضرة صديقنا الفاضل مستر ويلكوكس على تخصيص جريدة (الأزهر) للعلوم الرياضية ، وجعلها موضع بحوث المهندسين ، وهو يدير إدارتها كيفما يشاء » .

وفى نفس العدد نشر ويلكوكس إعلاناً جاء فيه : « أتشرف بأن أعلن المصريين عموماً ، والمهندسين وأهل الأدب منهم خصوصا ، بأننى اتفقت مع حضرتى صاحبى مجلة (الأزهر) الغراء على أخذها وجعلها تحت إدارتى وامتيازى ، من أول يناير سنة ١٨٩٣ م ، وقد أشركت معى الشيخ أحمد الأزهرى من متخرجى دار العلوم .

ومنذ العدد الأول من تولى ويلكوكس لها ظهر هدفه من الاستيلاء على هذه المجلة ، فقد نشر فيها محاضرة عنوانها : « لمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن »[١] ، وكان قد ألقى هذه المحاضرة فى نادى الأزبكية .

وفى هذه المحاضرة عرف الاختراع ، وتحدث عن الصفات التى تتوقف على وجودها قوة الاختراع وهى القوة المفكرة ، والقوة الخيالية والحق والثبات والإقدام ، وأشار إلى الأمم التى تميزت – فى رأيه – بقوة الاختراع ، وينصح المصريين بالاقتداء بها ، وهذه الأمم هى التى تكتب علومها باللغة التى تتحدث بها . وخاطب قراءه مؤكداً أن قوة الاختراع لا تزال موجوده فيهم « ولكن بسبب عدم وجود لسان علمى مشهور فيما بينكم لم تتحصلوا على شئ . وأضعتم أعمالكم سدى ، والسبب فى ذلك أن الكتب العلمية الدنيوية يؤلفها أربابها بكلام مثل الجبال (يقصد اللغة الفصحى) وفى آخر الأمر لا يلد هذا الكلام إلا فأراً صغيراً »[٢] .

ويقول إن المصريين أصبح لهم الآن لغتان : لغة ضعيفة هى لغة الكتابة والتأليف ،

---

(١) مجلة الأزهر : يناير سنة ١٨٩٣ م .   (٢) مجلة الأزهر : نفس المصدر .

حيث تدفن بها المعانى فى بطون الكتب ولا يستفيد منها أحد ، ولغة حية قوية هى اللغة التى يتحدثون بها . « لكنكم أيها المصريون أصبحتم تقولون عنها إنها لغة دارجة لا ينبغى اتباعها ، وجنحتم فى مؤلفاتكم إلى اللغة التى ماتت منذ زمن بعيد بسبب المزاحمة القوية لها ، وأقول لكم إذا اتجهتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة بينكم ، وتركتم هذه اللغة الضعيفة تنجحون كثيراً بسبب أن اللغة التى تتكلمون بها هى قلب اللغة ، والتى تكتبون بها كالملابس لها » .

وأغرى « ويلكوكس » المصريين بالمكافآت المالية إذا تباروا فى الكتابة بالعامية ، وكان موضوع المسابقة التى عقدها فى أول عدد من مجلته هو كتابة المحاضرة ــ المشار إليها ــ باللغة الدارجة المصرية ، وقال فى نهاية المحاضرة المنشورة : « إن من قدم لنا هذه الخطبة باللغة الدارجة المصرية وكانت موافقة جدا يكافأ بإعطائه أربعة جنيهات إفرنكية » .

وطالب المهندسين أن يوافوه بأبحاثهم باللغة المصرية الدارجة لينشرها فى صحيفته ، كما واصل الكتابة فى موضوع « اللغة الدارجة » وكتب مقالات بالعامية فى موضوعات أدبية وعلمية ، وترجم فصولا من روايات شكسبير إلى العامية وإن جاءت ركيكة نابية على الذوق (١) .

وفى سنة ١٨٩٨ م ظهرت كراسة مطبوعة مجهولة المؤلف تحمل نفس الدعوة إلى استعمال العامية ، وإن زادت عليها كتابتها بحروف إفرنجية ، وقد لخص رشيد رضا ما زعمه مؤلف هذه الكراسة فوائد استخدام اللغة العامية فى أربع نقاط رد عليها واحدة واحدة ، وهذه الفوائد الأربع ــ فى رأى مؤلف الكراسة المجهول ــ والغوائل الأربعة فى رأى رشيد رضا هى :

١ ــ تسهيل التجارة .

٢ ــ تسهيل التعليم .

٣ ــ حفظ اللغة العربية (العامية) ، ويعلق رشيد على هذه النقطة قائلاً : ولم يخجل مؤلف الكراسة عند ذكره هذه الفائدة من بيان أن اللغة العربية الفصحى آخذة فى الاضمحلال بتعلم اللغة الإنجليزية واللغة الفرنساوية ، وأنه ينبغى الاعتياض عنها بلغة العامة .

---

(١) مجلة الأزهر : مايو سنة ١٨٩٣ م .

٤ ـ قلة نفقات الطبع وتوحيد اللسان بين الوطنيين والأجانب ، وأن ذلك مما يقوى الوطنية » .

ورد رشيد رضا على هذه « الفوائد » التى أوردتها الكراسة فى مقالين طويلين بعنوان : « صدمة جديدة على اللغة العربية »(١) .

ثانياً : الدعوة إلى كتابة العربية بحروف لاتينية أو إحلال الإنجليزية محلها :

ومن الدعوات التى ظهرت فى الصحف العلمانية والموالية للاحتلال الإنجليزى كتابة اللغة العربية بحروف إفرنجية (أو لاتينية) ، وتشجيع إحلال اللغة الإنجليزية محل العربية فى التعليم والقضاء والمصالح الحكومية والمعاملات التجارية .

وبدأت دعوة استعمال الحروف اللاتينية فى الكتابة العربية فى مجلة « المقتطف » ، حيث نشرت مقالا بعنوان : « تصوير اللفظ العربى بحروف إفرنجية » اقترحت فيه ترك الحروف العربية ووضعت جدولا يبين ما يقابل الحروف العربية من حروف إفرنجية مع الحركات العربية من ضمة وكسرة ، ثم تشرح مزايا هذا الأسلوب أن الحروف الإفرنجية كثيرة الأشكال بين كبير وصغير ، فإذا أريد كتابة الكلمات العربية بكل نوع أمكن ذلك بسهولة ، وهذه الطريقة تجعل العربية سهلة ، وقالت المجلة : إن هذه الطريقة قد استنبطت منذ بضع سنين ، وكنا نترقب الفرص لإشهارها ؛ لأنها أسهل مراسا من كل طريقة أخرى (٢) .

أما الكراسة المجهولة المؤلف التى سبقت الإشارة إليها فقد احتوت على الوجوه الثلاثة لهذه الدعوة : العامية ، والحروف اللاتينية ، وإحلال اللغة الإنجليزية محل العربية . فقد نقل عنها رشيد رضا فى مجال تفنيده للآراء التى جاءت بها : « أن استعمال هذه الحروف (الإفرنجية) يحفظ العربية (العامية) فإن كل تلميذ فى المدارس العليا الآن يتعلم الإنجليزية أو الفرنسوية ولا تمضى مدة طويلة حتى يشيع تعلم اللغات الأجنبية فى المدارس الابتدائية أيضاً فى المدن والأرياف ، فيضطر أغلب السكان إلى تعلم لسان أجنبى ، فكم تبقى اللغة العربية بعد ذلك سواء إذا كانت معربة أو غير معربة ؟ كم بقى الآن من اللغة القبطية وقد كانت اللغة العامة فى هذا القطر ؟ وكم تبقى من عربية أهل الجزائر حيث صارت المدارس فرنسوية ؟ فالطريق الوحيد لحفظ اللغة العربية مما حل باللغة القبطية هو حفظ اللسان الحى

---

(١) مجلة المنار العددين ٦ ، ٧ بتاريخ ١٩ ، ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٨ .

(٢) مجلة المقتطف : عدد يناير سنة ١٨٨٩ م .

من الضياع باستعمال حروف هجائية يكتب بها [1] .

وبعد الدعوة إلى اللغة العامية ، والدعوة إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى الكتابة ، كانت الحرب على اللغة العربية الفصحى فى جبهة ثالثة هى إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية فى المدارس المصرية ، وجعلها لغة التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية .

« فقد كانت الدراسة فى السنة الأولى الابتدائية باللغة العربية ، أما السنوات الثلاث التالية فكانت دروس الجغرافيا والأشياء تدرس بالإنجليزية ، هذا بخلاف ما خصص خصوصية لهذه اللغة نفسها .

وكانت مدة الدراسة فى التعليم الثانوى خمس سنين ، والعلوم التى تدرس فى هذه المدة هى : الرياضة (حساب وهندسة وجبر) وتدرس باللغة العربية ، أما الطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ الطبيعى ، والجغرافيا ، والقسموغرافيا ، والتاريخ فتدرس باللغة الإنجليزية ، ثم اللغتان الإنجليزية والفرنسية والرسم والخطان العربى والإفرنجى .

أما مدرسو التعليم الثانوى للمواد الجارى تدريسها باللغة الأجنبية فيدعون من الخارج بمعرفة نظارة المعارف » [2] .

وقد أراد الإنجليز أن يعيدوا فى مصر تجربتهم التى نجحت فى الهند ، وهى نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، فلم يقف فى طريقهم إلا الإسلام الذى يقدس اللغة العربية ، فى حين أن الطريق كان ممهداً فى الهند التى لم يكن لها لغة مقدسة [3] .

وشجعت الصحافة العلمانية الموالية للاحتلال الإنجليزى استخدام اللغة الانجليزية فى التدريس ، وفى غيره من مجالات الحياة وشجعت على نشرها لتصبح لغة تخاطب بين المصريين .

فقد دعت صحيفة (المقطم) الشعب المصرى إلى إتقان اللغة الإنجليزية بعد أن تقرر أن يكون من جملة اللغات الرسمية التى يتم الترافع بها فى المحاكم المختلطة ، وأضافت « أن

---

(١) مجلة المنار : عدد ٧ بتاريخ ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٨م .

(٢) أحمد شفيق (باشا) : مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٢ ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٣) د . محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، جـ ١ ص ٩١ .

اللغة الإنجليزية تنتشر الآن انتشاراً سريعاً فى هذا القطر ، حتى لقد عنى أكثر أبناء الأعيان بتعلمها ، وصارت مما لا يستغنى عنه فريق كبير من المصريين ، وإذا دامت الحال على هذا المنوال فلا تمضى بضع سنين حتى تعم ، لذلك فالحكيم من استعد للانتفاع بها قبل أن يسبقه غيره إلى منافعها » (١) .

وخلال شهر ديسمبر سنة ١٨٩٠ م ظلت المقطم تنشر إعلانا لمن لديه القدرة على الكتابة والإنشاء باللغة الإنجليزية من المصريين بأن يرسل ما يكتبه إلى جريدة (المشرق والمغرب) فى إنجلترا ، وهى جريدة تصدر هناك هدفها وقاية مصالح الشرقيين ، وترحب بنشر ما يرسله إليها المصريون باللغة الإنجليزية مما يكون فيه المصلحة والفائدة ، وكانت هذه طريقة مبتكرة لكى يقبل المصريون على تعلم اللغة الانجليزية وإجادتها .

وكذلك طبعت « المقطم » بعض القواميس الإنجليزية العربية وعملت على الإعلان عنها والترويج لها تمشياً مع هدفها المذكور حيث إن « اللغة الإنجليزية ــ كما لا يخفى ــ من أوسع لغات البشر وأكثرها انتشاراً ؛ لأنها لغة شعبين عظيمين راقيين أعلى مراقى المجد فى هذا العصر ، وهما الشعب الإنجليزى والشعب الأمريكى ، وقد قال بعض الباحثين إنها ستصير لغة الفريق الأكبر من بنى البشر إن لم تصر لغتهم كلهم » ومن ثم تحث المصريين على ضرورة تعلمها .

وشاركت جريدة الاتحاد المصرى فى هذه الدعوة إلى إحلال الإنجليزية محل العربية ، فحثت الأهالى على تعلم اللغة الإنجليزية بعد أن دخلت المحاكم وغيرها « وقد قضت علاقتنا بالإنجليز وهم بجانبنا أن نحسن التكلم بلسانهم فضلا عن درس عاداتهم وأخلاقهم ، فأقبل كثيرون من شبان القطر على تعلمها حتى نبغ عدد كبير منهم ، ولم يعد يلزمهم التعلم بغيرها »(٢) .

وحينما دعا وليم ويلكوكس إلى اتخاذ العامية فى مقاله « لِمَ لمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » كان الخيار الآخر الذى طرحه على المصريين ــ غير العامية ــ أن يأخذوا بلغة أجنبية بدل لغتهم الفصحى زاعماً « أن لغة الإنسان الحية كامرأة حسناء واللغة الأجنبية كالجارية ، والست أحسن من الجارية ، ولكن إذا كانت لغة خفية (يقصد العربية الفصحى) تكون مثل المومياء ، وحينئذ تكون الجارية أحسن منها » (٣) .

---

(١) جريدة المقطم : فى ٣١ نوفمبر سنة ١٨٩٠ م . (٢) جريدة الاتحاد المصرى : فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٠ م .
(٣) مجلة الأزهر : فى أول يناير سنة ١٨٩٣ م .

دفاع الصحافة الإسلامية عن العربية الفصحى :

وإذا كانت الصحافة العلمانية قد دعت إلى العامية ، والحروف اللاتينية وإحلال الإنجليزية محل العربية ، فإن الصحافة الإسلامية قد تصدت للدعوات السابقة واستمسكت باللغة العربية الفصحى ، وعملت على تطويرها حتى تكون لغة الحضارة إلى جانب كونها لغة الدين والتراث والحضارة الإسلامية .

فحينما أصدر محمد على أمره بأن يشرف رفاعة الطهطاوى على « الوقائع المصرية » فى ديسمبر سنة ١٨٤٢ م (١) أحدث فيها من العناية باللغة العربية ما اعتبره بعض الباحثين صحيفة عربية جديدة ، حيث إن الوقائع كانت قبله ـ فى نظرهم ـ صحيفة تركية ، فقد كانت مادة الصحيفة ـ قبل رفاعة ـ توضع باللغة التركية ثم تترجم بأسلوب ركيك ـ وباختصار فى بعض الأحيان ـ إلى اللغة العربية ، فلما تولى رفاعة الإشراف على الصحيفة ، كان من مهمته أن يصوغ ـ بنفسه ـ المادة العربية أولا ثم تترجم إلى التركية ، وكانت المادة التركية قبل رفاعة توضع على اليمين ، فلما تولى رفاعة أصبحت العربية تحتل النهر الأيمن (٢) ، وكذلك فإن رفاعة هو أول صاحب محاولة جادة فى تاريخ الصحافة المصرية لإنشاء المقالة الصحفية ، وتناول موضوعات جديدة فى مقالاته وصاغها بأسلوب جديد كما جاء فى مقالة « تمهيد » فى أول عدد تولى فيه الإشراف على « الوقائع المصرية »(٣) .

أما جمال الدين الأفغانى ـ رائد النهضة الصحفية فى مصر فى القرن الماضى ـ فقد اعتبر اللغة العربية أحد الأركان التى تقوم عليها نهضة الأمة الإسلامية ، فاعتبر أول هذه الأركان قيام حزب وطنى يتمسك بجنسيته ولا يقلد الغرب ، ويقيم حكم الشورى ، وشرح الركن الثانى فى « أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ، ولا يكون له البقاء ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب ، جيدة الأساليب فإن لم يكن لهم ذلك ، لا تستقر فيهم المعارف ولا تقيم بأحيائهم العلوم ، وإن ذهب جماعة منهم إلى أوربا ، وتعلموا اللسان الأجنبى فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ، ووطنهم يكون كالبلد الذى لا ماء فيه ، يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال ، وأهله على شفا الاضمحلال » (٤) .

---

(١) د . إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٨٣ م ص ٧٠ .

(٢) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى ، جـ ١ القاهرة سنة ١٩٧٣ ص ٥٤ .

(٣) جريدة الوقائع المصرية : العدد ٦٢٣ ، فى غرة ربيع الثانى سنة ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) وانظر أيضاً ما كتبناه عن الوقائع المصرية فى الفصل الأول من هذه الرسالة .

(٤) جريدة مصر : عدد ٤٧ فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩ م من خطبة لجمال الدين الأفغانى ألقاها بمسرح (زيزينيا) بالإسكندرية ونشرتها الجريدة .

وتعتبر فترة تولى الشيخ محمد عبده لرئاسة تحرير (الوقائع المصرية) من فترات العمل على التمكين للغة العربية الفصحى والسمو بها ، فإلى جانب أسلوبه ذى المستوى الرفيع فى تحرير المقالات الصحفية ، فقد خدم اللغة العربية الفصحى من زاويتين أخريين :

الأولى : أنه عندما عين رئيساً لتحرير الجريدة ووضع لائحتها ، جعل هذه اللائحة تحتم على إدارات الحكومة ومصالحها ومجالس إدارتها فى العاصمة والمديريات أن تكتب إلى إدارة الجريدة بما عملت فأتمت وبما شرعت فيه فلم تتمه ، وكذلك المحاكم ترسل إليها نتائج أحكامها (١) .

وبناء على ذلك بدأت الجريدة بانتقاد طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات ، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وأضرارها بفهم المعانى المطلوبة ، واقتضاءها لطول المخابرات فى الاستفهامات التى لا طائل تحتها ، ثم ترسم لها الطريقة الفضلى التى يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة ، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الإدارات . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة (٢) .

والثانية : كان من أثر مراقبة إدارة المطبوعات (٣) للجرائد أن اجتهد أصحابها فى انتقاء المحررين ، وقد أنذر الشيخ محمد عبده مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته إذا لم يختر لها محرراً صحيح العبارة فى مدة عينها ، فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يعد يسمح بنشر ما يؤخذ على صحيفته .

وكان من أثر هذا النقد أن رفعت شأن المجيدين ، وفتحت المدارس الليلية لتعليم المقصرين ، وتبرع الشيخ محمد عبده بقراءة دروس فيها ، وكان هذا هو مبدأ النهضة التعليمية الحقيقية فى مصر « كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا » (٤) .

ثم قامت أربع من الصحف الإسلامية للحفاظ على اللغة العربية الفصحى والبحث

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ١٣٨ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٧ .

(٣) تولى رئاستها الشيخ محمد عبده إلى جانب رئاسة تحرير « الوقائع المصرية » .

(٤) المرجع السابق : جـ ١ ص ١٣٩ و ١٤٠ .

فى السبل المؤدية إلى تقويتها وتطويرها لتصبح لغة التعليم والحضارة فى هذا العصر ، وتصدت هذه الصحف الأربع للدعوات الثلاثة : الدعوة إلى العامية ، والدعوة إلى أن تحل الإنجليزية محل العربية ، والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، هذه الدعوات التى استهدفت القضاء على اللغة العربية الفصحى ، وفصم العرى التى تربط المسلمين بالقرآن وتراث الإسلام من ناحية ، والعرى التى تربطهم بإخوانهم فى الأقطار العربية من ناحية أخرى ، هذه الصحف الأربع هى : التنكيت والتبكيت ، والأستاذ ، والمؤيد ، والمنار ، وقامت كتابات هذه الصحف فى دفاعها عن اللغة العربية الفصحى على عدد من الأفكار نجملها فيما يلى :

١ ـ الدعوة إلى إنشاء مجمع للغة العربية فى مصر :

ففى مقال بعنوان : « حاجة اللغة فى الشرق » فى مجلة (الآداب) دعا الشيخ على يوسف إلى إصلاح اللغة العربية ؛ لأن الأمة التى تهمل فى لغتها لا أمل فى مستقبلها ، « واللغة العربية ـ وخصوصاً فى مصر ـ قد رزئت بالدخيل حتى صارت كشكول لغات ، وليس الأمر قاصراً على خطاب العامة بل الخلل صار إلى عبارات المنشئين وفى أساليب المحررين » ولهذا طالب « بإنشاء جمعية لمداواة ما اعتل ، يكون الغرض منها أن تحمل الهمة فى تطبيق المعانى الطارئة على ألفاظ عربية » (١) .

وكتب عبد الله النديم مقالا طويلاً عنوانه : « اللغة والإنشاء » استغرق خمس عشرة صفحة من مجلة « الأستاذ » أرجع فيه تقهقر اللغة العربية إلى « كثرة الكلمات الأجنبية ، واستعمال هذه الكلمات فى المخاطبات الكتابية والخطابية ، واستخدام مصطلحات العلوم بلغاتها الأجنبية ، والنظر متى رأى الجرائد والكتب ممتلئة بالكلمات الأجنبية ، أوصلها إلى الذهن أيضاً فيحوله إلى ما طرأ عليه » .

ولعلاج هذه الحالة وللوصول إلى تقوية اللغة العربية وإحيائها ، يرى النديم أن « على القائمين بأمر الأمم الشرقية أن يحولوا بين اللغة العربية وموتها بإحداث جمعية من علماء الأزهر ومعلمى المدارس الذين جمعوا بين لغتهم العربية وبين اللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيماوية والهندسية ومفردات الكلام أسماء عربية بها تدرس تلك

---

(١) مجلة الآداب : فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٩ م ، ومجلة الآداب أصدرها الشيخ على يوسف سنة ١٨٨٧ م ، وكان يساعده فى تحريرها محمد مسعود ، ثم تركها الشيخ على يوسف ليصدر (المؤيد) فى ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ، وترك تحريرها لزميله محمد مسعود .

العلوم »[1] .

ثم جدد الدعوة مرة ثانية فكتب مقالا تحت عنوان : « مجمع اللغة العربية فى مصر » خصصه لموضوع إنشاء اللغة اللعربية حتى يحول رجاله دون اللغة وموتها ، وذلك بوضع أسماء عربية للمصطلحات الجديدة ، وترجمة الألفاظ الأوربية وإخضاعها لمعايير وأصول قواعد اللغة العربية ، واقترح أن ـ يتكون هذا المجمع من علماء أفاضل متمكنين من اللغة وعلوم شتى بحيث يقدر كل واحد منهم على مراجعة الكتب اللغوية وغيرها ، كما طالب بأن يقسم أعضاء هذا المجمع على حسب قدرتهم العلمية : « فيختص قسم منهم بالمواد اللغوية ، وقسم يختص بالآليات كالنحو والصرف والبيان والبديع والمنطق ، وقسم يختص بالتاريخ وتقويم البلدان ، وقسم يختص بالترجمة ، وقسم يختص بالرياضيات . . . إلخ » وطالب بأن يعقد هذا المجمع جلسة عامة كل شهر ، وأن تكون له جريدة خاصة بتقاريره وخطبه ، واقترح ألا يقصر المجمع أعماله على الديار المصرية بل تتم مخاطبة كل الجهات العربية والشرقية حتى لا يقع خلاف بين المصريين وغيرهم فى هذا الشأن ، وطالب بأن يوضع هذا المجمع تحت رعاية الحكومة وتعضيدها حتى لا يتحول عن وجهته أو يعبث بمصيره أحد[2] .

٢ ـ أن العربية الفصحى هى لغة القرآن :

« الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاشر المسلمين فهو الداعى إلى اللغة العربية الصحيحة ، وهو المقصود لكل محارب للغة ساع فى إماتتها . ورأينا جريدة (الأزهر) تدعونا إلى ما تسوء به عاقبتنا وتسود به وجوهنا ، ونصير به أعجوبة بين الأمم . . على أننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع ، بل مئات ألوف من دعاة أوربا لاستعمال لغة تميت القرآن ما وجدوا آذانا سامعة . . وهل نرى أن المصريين إذا قرأوا القرآن باللغة العامية عند استعمالها ونسيان غيرها ، أن يرضى عنهم المسلمون أم يعدونهم منهم ، وهم يعتقدون أن تغيير حرف واحد منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين »[3] .

ويؤكد الشيخ على يوسف هذا المعنى ويزيد عليه فى صحيفة (المؤيد) فاللغة العربية الفصحى ليست ميتة كما زعموا « لأنها لغة القرآن الشريف ، والقرآن حى معمول به

---

(١) مجلة الأستاذ : فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٢) مجلة الأستاذ : العدد ٢٩ فى ٧ مارس سنة ١٨٩٣ م

(٣) مجلة الأستاذ : فى ٣ يناير سنة ١٨٩٣ م .

تصدع زواجره فى القلوب ، ويتعبد المسلمون بتلاوته ، ولغته الإسلامية الشريفة يتعبد بها نحو ثلاثمائة مليون [1] ، واللغة التى يكون ذلك شأنها لا تكون ميتة ، ولغة الخطابة التى يعظ بها الخطباء على المنابر كل يوم جمعة فيعى كل سامع ما يقول أولئك الخطباء ، ويخرجون يذكّر بعضهم بعضا بما سمعوا من الزواجر والمواعظ الحسنة ، ولغة مناسك الحج الذى يجمع كل سنة من مشارق الأرض ومغاربها مئات الألوف ، وكلهم ينطقون بصوت متحد فى المعنى والوجهة ، ويشعرون أن ما يسمعونه أو ينطقون به يمثل ما فى قلوبهم من الإخلاص وصدق التوجه » [2] .

٣ ـ أن الفصحى هى لغة التعليم والكتب طوال التاريخ الإسلامى :

فقد وضعت باللغة الفصحى ألوف وألوف من كتب العلوم والفنون فى اللغة وآدابها ، وفى الدين من عقيدة وشريعة وأخلاق ، وفى جميع الفنون القديمة والحديثة مخطوطة ومطبوعة [3] . وهى تعد من أفخر ذخائر عصر المدنية الآن ، ويتنافس على تحصيلها كل من لديه استطاعة أن يقرأ سطرا واحدا منها . فماذا نفعل بهذه الكتب هل ننقلها إلى العامية أم نرمى بها فى البحر ؟ أم ندرسها على ما هى عليه ؟ وتكون دراستها فى هذه الحالة على درجة كبيرة من الصعوبة . . وأى علم وضعت فيه مصنفات باللغة العامية ؟ وأى فن دونت فيه الدواوين بها ؟ أم هل نبدأ التأليف بها ، وهذا يستغرق سنوات وسنوات ؟ [4] .

إننا إذا استخدمنا العامية فسنضطر إلى وضع قواعد وقواميس وعلوم لهذه اللغة مثل النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، وهذا لا يتأتى إلا بعد قرون ، فكيف نستخدم هذه اللغة حتى نصل إلى ذلك [5] .

لقد كان الأجدى أن يقترح المستر ويلكوكس تعميم التعليم بين جميع أفراد الأمة باللغة الفصحى ، وحين يكون معظم الشعب من المتعلمين تكون الفصحى هى لغة التخاطب التى يفهمها الشعب جميعه .

وماذا يرى المستر ويلكوكس الجيل الناشئ من المصريين كجيل تائه فى الصحراء وليس لديه أثر أو عمل يظهر له مقام أسلافه وتاريخهم ، وما وصلوا إليه من المدنية والعلم ،

---

(١) تقديره لعدد المسلمين فى عصره (سنة ١٨٩٣ م) .

(٢) المؤيد : ٥ يناير سنة ١٨٩٣ م مقال بعنوان : « حياة الأمة بلغتها ـ الحجج الدامغة » .

(٣) المنار : ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٨ م .

(٤) المؤيد : ٥ يناير سنة ١٨٩٣ م المقال السابق ذكره .

(٥) المؤيد : المصدر السابق .

حيث يصبحون بلغتهم الجديدة منفصلين كل الانفصال عن كل تاريخ لهم مدنيا كان أو دينيا[1] .

٤ ــ أن الفرق بين اللهجات العامية في أنحاء مصر أكبر من الفرق بين اللغة العامية واللغة الفصحى :

فبأى لغة عامية نأخذ ، بلغة الصعيد ، أو لغة الأسكندرية ، أو لغة القاهرة ، أو لغة المنوفية أو لغة البدو ، كما أن الفرق بين اللغات العامية المستخدمة فى أقطار العالم العربى أكبر من الفرق بين العامية والفصحى ، وبالتالى فإن استخدام كل قطر للغته العامية تمزيق لشمل جامعة اللسان بين هذه الأقطار وهو مالا يسعى إليه عاقل يود الخير للعرب المسلمين ، وهو يعنى أن ما يؤلف ويطبع فى قطر عربى لا يقرأ فى الآخر ، وفى ذلك خسارة كبيرة ؛ لأنه يمنع تبادل العلوم والأفكار بين هذه الأقطار [2] .

وكما يكون فى كل معركة صرعى من الجانبين ، فقد لقيت مجلتان مصرعهما فى المعركة بين العامية والفصحى وهما : مجلة (الأزهر) التى دعت إلى العامية ، ومجلة (الأستاذ) التى دافعت عن الفصحى ، ولكن شتان بين الأسباب التى أدت إلى توقف كل مجلة من المجلتين .

أما مجلة (الأزهر) التى دعت إلى العامية فقد تولت الصحف الإسلامية كشف أهدافها وإبطال دعوتها ، حتى إن صاحبها ــ ويلكوكس ــ اعترف بفشله وسجل على نفسه فى آخر عدد أصدره أن القراء « وبخاصة المهندسين أبوا إلا أن يترجموا عن أفكارهم فى المجلة بلغة غير مشهورة (يقصد الفصحى) وأخذوا يرسلون بها الرسائل العديدة بغية رصدها ، فما كان يسعنى إلا قبولها مؤملا أنهم يخلعون نعل الخوف ، ويلبسون رداء الحرية والإقدام فيعبرون عن معلوماتهم باللغة الحية (أى العامية) ، وحيث إنهم استمروا على الطريقة الأولى ، ولم يهتدوا إلى الطريقة المفيدة العامة ، فلا حاجة للاستمرار فى إصدار الجريدة . وقد آن الأوان أن تركد ريح « الأزهر » وتغرب شمسه

---

(١) جريدة المؤيد : المصدر السابق .

(٢) أسهمت جريدة المؤيد فى شرح هذه الفكرة فى بحث نشرته لأمين بك فكرى القاضى بمحكمة الاستئناف ، نشر مسلسلا فى أعدادها الصادرة فى ١٩ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٨ يناير سنة ١٨٩٣ م ، وأمين فكرى كاتب هذا البحث هو ابن عبد الله باشا فكرى الذى كان وزيراً للمعارف فى وزارة العرابيين تحت رئاسة محمود سامى البارودى ، ومن كتاب « روضة المدارس » انظر : كتاب « روضة المدارس » لمحمد عبد الغنى حسن و د . عبد العزيز الدسوقى ــ مرجع سابق ص ٣٣٤ .

ويحجب عن الظهور بعد هذا العدد » (١) ، وتوقفت المجلة وكان سبب توقفها المقاومة التى لقيتها .

أما مجلة (الأستاذ) فقد وجهت اهتمامها إلى إيضاح خطر الدعوة إلى العامية على القرآن والشريعة والعقيدة الإسلامية ، وكانت عنيفة فى ردها على دعوة ويلكوكس تمشياً مع موقفها من الاحتلال الانجليزى بصفة عامة ، وهو الموقف الذى لم يحتمله كرومر ، فأوعز إلى الخديو عباس حلمى الثانى أن ينفى عبد اللّه النديم من مصر فنفاه ، وودع النديم قراءه فى العدد الذى صدر من (الأستاذ) فى ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣ م .

ولم تتوقف حلقات الدعوة إلى العامية بل استمرت بعد نهاية القرن التاسع عشر أيضاً ، هذه الدعوة التى بدأت فى صحيفة « المقتطف » سنة ١٨٨١ م ، ثم فى مجلة (الأزهر) سنة ١٨٩٣ م ، ثم فى الكراسة المجهولة المؤلف التى طبعت ووزعت فى مصر وعرفنا بها من ردود رشيد رضا عليها فى مجلة المنار سنة ١٨٩٨ م . وظهرت حلقة جديدة من هذه الدعوة سنة ١٩٠١ م حين وضع سلدن ولمور Silen Wilmore كتابه بالإنجليزية عن اللغة العامية المصرية بعنوان : « لغة الحديث العربية فى مصر » The Spoken Arabic of Egypt ودعا فيه بنفس الدعوة ـ أى الاقتصار على العامية فى التأليف والتعليم ـ وأشادت بالكتاب مجلة (المقتطف) وروجت له (٢) .

ووجدت هذه المحاولة أيضاً من يتصدى لها بقوة ، ويورد الحجج التى أوردها كتاب الصحافة الإسلامية فى مواجهة الدعوات السابقة ، وهو الشيخ رشيد رضا ، وطالب معلمى اللغة العربية ومتعلميها أن يجعلوا لغة التخاطب بينهم فى دروسهم وفى حياتهم هى العربية الفصحى لتصبح لغة التخاطب ـ وهو الاقتراح الذى كان الشيخ على يوسف قد طرحه من قبل ـ ووعد بأن يقود حملة صحفية من أجل أن يقوم معلمو اللغة العربية بواجبهم فى هذا المجال (٣) .

---

(١) مجلة الأزهر : أول ديسمبر سنة ١٨٩٣ م .

(٢) مجلة المقتطف : فبراير ١٩٠٢ م باب التقريظ والانتقاد .

(٣) مجلة المنار : فى ٢٦ يناير و٩ فبراير سنة ١٩٠٢ م .

الفصل الرابع

الصحافة الإسلامية

في مواجهة التغريب الأخلاقي

قامت النهضة الحديثة فى أوربا على التقدم فى الاختراع والصناعة والزراعة والإدارة ، مما وفر الرفاهية للأفراد والمجتمعات فيها ، وقد استطاعت أوربا بهذا التفوق ، أن تدخل المجتمعات الإسلامية مستعمرة بقوة الجيوش ، وقوة المال ، والأكثر من ذلك أنها أرادت أن تحل فكرها محل الفكر الإسلامي .

وكان مدخل أوربا إلى نشر قيمها فى العالم الإسلامي ـ أن هذه القيم الأوربية هى التى أدت إلى هذا التقدم الصناعى فى أوربا فلابد أن يأخذ الشرقيون بهذه القيم إذا أرادوا تقدما مماثلاً .

ولقد رأينا فى الفصول السابقة أن الصحافة الإسلامية كانت الداعية إلى الأخذ بوسائل التقدم الصناعى والاختراعات الحديثة ؛ لأننا لا نستطيع أن نقف فى وجه الاستعمار الأوربى ، ونعد القوة للأعداء المتربصين إلا إذا بارينا أوربا فى هذه المجالات .

وصاحب التغلغل الأجنبى فى مصر انتشار بعض العادات والتقاليد الأوربية التى كان لها أثرها الفتاك فى المجتمع المصرى ، والتى قلد فيها المصريون الأوربيين تقليداً أعمى باعتبارها تمدنا من التمدن .

صاحب التغلغل الأجنبى فى الحياة المصرية عادات : شرب الخمر ولعب الميسر والتحلل الجنسى والسفه فى الإنفاق تقليداً لحياة الأوربيين ، وحينما كان المصرى الذى يقع فى براثن هذه العادات يحتاج إلى المال يجد المرابى الأوربى فى انتظاره يقرضه ما يريد من المال ، فإذا عجز عن سداد ديونه التى حصل عليها بالربا الفاحش استولى المرابى الأوربى على عقاراته وممتلكاته .

وحين أوقع الأوربيون المصريين فى هذه الدائرة الشيطانية استطاعوا ـ الأوربيون ـ أن يسيطروا على الاقتصاد المصرى من ناحية ، وأن ينشئوا فئة من المصريين ـ الذين يدعون

التمدن ــ ساقطة الهمة ، مقبلة على اللذات الرخيصة ، محطمة النفس ، لا تعرف إلى الكفاح الوطنى سبيلا .

والباحث فى الصحافة الإسلامية فى القرن التاسع عشر يرى إلى أى مدى انتشرت هذه العادات فى المجتمع المصرى ، ويرى كيف تصدت الصحافة الإسلامية لهذه العادات وجاهدت فى سبيل إبطالها تمسكا بالأخلاق الإسلامية الأصيلة ، ويمى أن هذه الصحافة نجحت فى تحقيق الكثير من أهدافها ، ولكنها أيضاً ــ ونظرا لشدة التيار ــ فشلت فى تحقيق الكثير من أهدافها كذلك ــ إذا جاز هذا القول .

وإذا كان الغزو العسكرى والسيطرة السياسية على مصر ــ ومثلها غيرها من الدول العربية والإسلامية ــ قد كتب عنهما الكثير من الباحثين ، فإن الغزو الفكرى والثقافى ، بل والاجتماعى والنفسى ما يزال فى حاجة إلى تتبع جذوره وبداياته إذا أردنا أن نفهم الصراع القائم اليوم بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى ، وهذا الغزو الفكرى والثقافى يتضح أكثر ما يتضح فى صحافة هذا العصر ، وبدون دراسة هذه الصحافة تظل صورته ناقصة .

وقد ظهر اتجاه المصريين نحو الغرب والحياة الغربية بوضوح فى نهاية حكم إسماعيل حيث مال الناس إلى محاكاة الأوربيين فى المسكن ، والملبس والمأكل ، وما إلى ذلك من أنماط الحياة الغربية ، ثم ظهر أكثر وضوحا فى عهد الاحتلال ، الذى شهد صراعا خطيرا بين القديم والحديث ، وبين التقاليد الشرقية ، والتقاليد الغربية ، وأقبل الناس على كل ما هو آت من الغرب حتى على الآفات الاجتماعية ، فانتشر الربا انتشاراً ذريعاً ، وساعد على ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات من قصر النظر ، وعدم تقدير العواقب ، وحب الظهور والإسراف ، ووجد المرابون من هذا الضعف ، ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغلون فى مختلف الأوساط فى العواصم والبنادر والقرى القريبة والبعيدة ، فكبلوا الأهلين بالديون مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثير منهم ، وانتشار الفقر والبؤس فى الطبقات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة (١) .

أما الصحافة الإسلامية فقد استشعرت هذا الخطر فى بداية وقوعه وحذرت منه منذ بدايته وقبل تفاقمه ، فنجد الشيخ محمد عبده يكتب سلسلة مقالات فى (الوقائع المصرية) بعنوان « خطأ العقلاء » يذهب فيها إلى أن تاريخ الدول الأوربية العظيمة يظهرنا

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة سنة ١٩٤٨ م ص ١٨٩ .

على أنها لم تصل إلى درجتها الحالية من المدنية إلا بعد أن عانت عناء شديداً ، وضحت تضحيات عظيمة . ومع هذا فلا تزال تلك الدول بعيدة عن الغاية التى ترمى إليها ، وبعد أن صهرت بوتقة الزمن عقليتها ، وساقتها ضرورات الحياة إلى يقظة وعيها ، وأدى الصراع الحربى والاقتصادى بينها إلى تطور الفكر فيها .

ولكن بعض المصريين اندفعوا إلى محاكاة الأوربيين فى مظاهر مدنيتهم وأعراضها فحسب ، كمظاهر الأبهة والترف ، دون أن يسائلوا أنفسهم عن جوهر تلك المدنية وروحها ، وكان لهذه المحاكاة للغرب أثر كبير على عدد كبير من أغنيائنا فقد تورطوا فى الحماقات ، وسعوا وراء اللذات ، وأولعوا بالترف ، وأهملوا جوهر المدنية الصحيح ألا وهو قداسة القانون الأخلاقى ، والشعور بالحقوق الطبيعية ، وأداء الواجبات الاجتماعية (١) .

ويقول الشيخ محمد عبده فى ختام مقاله : « إننا نخشى لو تمادينا فى هذا التقليد الأعمى ، واستمر بنا الأخذ بالنهايات الزائدة قبل البدايات الواجبة أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا ، وأن يكون انتقالنا عنها على وجه تقليدى أيضاً فلا يفيد » (٢) .

وتواصل « العروة الوثقى » التحذير من هذا التقليد الأعمى للأوربيين ، فإن الظهور بمظهر القوة لدفع الكوارث ــ فى رأيها ــ « إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى الأصول التى تمسكت بها أعز الدول الأوربية وأمنعها أيضاً ، ولا ضرورة فى إيجاد المنعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التى جمعتها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا أعجزها وأعوزها » (٣) .

فبعض هذه الأصول التى تمسكت بها أعز الدول الأوربية وأمنعها هى التقدم الصناعى والعلمى ، أما البعض الآخر الذى ترى المجلة عدم الأخذ به فهو التمادى فى الحرية الشخصية والإسراف والانحلال الخلقى مما لا تتحمله حالة البلاد .

وفى بداية إصدار النديم لصحيفة الأستاذ يرى هذا الانكباب الأعمى على تقليد الغرب ، فيضع قاعدة أو قانونا يصلح للتطبيق فى عهده وفيما يلى من السنين فيما نأخذ وما

(١) الوقائع المصرية : فى ٧ أبريل سنة ١٨٨١ م ، المقالة الثانية فى سلسلة : « خطأ العقلاء » .

(٢) الوقائع المصرية : فى ١٩ أبريل المقالة الثالثة من سلسلة : « خطأ العقلاء » .

(٣) مجلة العروة الوثقى : العدد الأول ــ ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م .

ندع من الحضارة الغربية فيقول : « ينبغى لمن يغير عاداته بعادات الغير أن ينظر فى أصل عادته وفوائدها ومضارها ، ثم ينظر فى عادة الغير بنفس الطريقة ، فإن رأى حسن عادته ، وأنها من لوازم حفظ المظهر ، أو الثروة ، أو الوطنية ، أو الجنسية أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها ، وإن لم تحسن فى عين الخليط ، وإن رآها مضرة بذاته أو وطنه ، أو الهيئة الاجتماعية غير منها مالا يفقده الاعتقاد الدينى ، والشعور الجنسى والغيرة الوطنية » (١) .

ويذكر رشيد رضا أن الأوربيين قد علموا أن الترف مهلك للأمم « فساقوا على الشرق خمسة فيالق وهى : الخمر والميسر والربا والبغاء والتجارة ، فنسفوا بذلك ثروته ، وقتلوا غيرته ، وأضعفوا همته ، وأفسدوا ما كان له من بقايا أدب ودين » (٢) .

وأهم الآفات الاجتماعية التى انتقلت إلى مصر مع الأوربيين واستشرت فى ظلال الاحتلال البريطانى ، واستبسلت الصحافة الإسلامية فى حربها هى :

الخمر :

لم يكن الخمر من الآفات الاجتماعية المعروفة فى مصر قبل الاحتلال الإنجليزى لمصر ، ولكن المصريين عرفوا هذه الآفة ، وانتشرت بينهم انتشارا بعد الاحتلال الإنجليزى ، ووفود الأجانب بأعداد كبيرة إلى مصر ، يظهر ذلك من استقراء حملات الإصلاح الخلقى التى قامت بها الصحف فى كلا العهدين ، وكما يظهر من كتابات الكتاب والمؤرخين المعاصرين لكلا العهدين .

فإننا إذا قرأنا أعداد مجلة « التنكيت والتبكيت » التى أصدرها عبد الله النديم قبل الاحتلال (٣) لم نكد نعثر على خبر أو مقال واحد يتعلق بالخمر وشاربيها مع أن هذه المجلة اهتمت بالإصلاح الخلقى .

وإذا قرأنا أعداد مجلة « الأستاذ » التى أصدرها النديم بعد الاحتلال الإنجليزى (٤) ، فلا نكاد نجد أى عدد من أعدادها يخلو من مقال طويل أو قصير عن الخمر وأضرارها ، أو من محاوراته التى يجريها بين سيدتين تتحدثان عن زوجيهما وانغماسهما فى شرب الخمر ، ثم يدس النديم نفسه فى الحوار ليقول عن مساوئ الخمر ما يشاء .

---

(١) مجلة الأستاذ : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢م . .

(٢) مجلة المنار : فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م ، مقال بعنوان : « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » .

(٣) صدرت فى يوليو سنة ١٨٨١ م .

(٤) صدرت فى أغسطس سنة ١٨٩٢ م .

وإذا كانت « الوقائع المصرية » إبان تولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحريرها ، وكذلك مجلة « المنار » ، تعبران عن منهج الشيخ محمد عبده فى الإصلاح قبل الاحتلال وبعده ، فإننا نلاحظ نفس الملاحظة ، فمقالات الشيخ محمد عبده الإصلاحية فى « الوقائع المصرية » ليس فيها إشارة إلى الخمر ، أما فى المنار فنجد مقالات تقاوم بعنف هذه الآفة المنتشرة .

ويصف رشيد رضا انتشار الحانات فيقول : « تجول فى شوارع القاهرة وأسواقها فلا يغيب عن نظرك مرأى الحانات دقيقة واحدة ، حتى يخيل للجائل أن هذه الحانات تزيد على حاجة السكان ولو كانوا كلهم من السكارى ، وأنها تمثل لعينى ناظرها كأنها ثكنات عساكرها القوارير المصفوفة المرتبة ، وقوادها الغيد والغادات من اليونان والطليان وسائر أصناف الإفرنج [١] .

وكان انتشار هذه الآفة الاجتماعية يتم تحت رعاية الاحتلال وحمايته ، وصارت محلات المسكرات تفتح فى كل مكان ففتكت بعدد من الأهالى ، وأفسدت على بعضهم صحتهم وأخلاقهم ودينهم ، وأنقصت مقدرتهم على العمل والإنتاج ، وساعدت على زيادة حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام [٢] ومما يؤكد ذلك ما ذكره بلنت عن « فضل الإنجليز على أصحاب الحانات من اليونانيين الذين انتشروا فى القرى ، فالفلاح الذى يشرب الخمر لن يلبث أن يمد يده للدين ويسقط أكثر وأكثر فى مهاوى المنكرات ، وقد حاولت إثارة الموضوع مرارا مع يارنج ، ووعد باتخاذ الإجراءات اللازمة ، وكانت النتيجة التى وجدتها بعد فترة هى الزيادة فى عدد الحانات » [٣] .

وتميزت صحيفتان فى التصدى لهذه الآفة الأخلاقية ومحاولة منع تفاقمها ، وهما صحيفتا « الأستاذ » و « المنار » .

فالنديم يرسم سياسته فى محاربة هذه الآفة فيقول : « أنا حاسأل عن أحوال الجدعان دول واجتماعاتهم فى الحانات والبير [٤] والبيوت التلفانة ، ويعرفوا أن النديم حبيب

---

(١) مجلة المنار : العدد ١٧ فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م من مقال بعنوان : « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ـ القاهرة ١٩٤٨ م ص ١٨٩ .

(٣) -- Blunt, w.s, : My diaries, part i (-1888 -- 1900) London 1919 P. 41 -- 44 .

(٤) البِيَّر : جمع بيرة وهو المحل الذى يقدم هذا النوع من الشراب .

الإنسانية ، وأخلى الحكومة تقول عفارم يانديم باللى فتحت مدرسة تهذيب بجريدتك ، وجعلتها أجعص من البوليس السرى ، إحنا بطلنا الضرب بالكرباج وأنت جيت تضرب بالكلام المؤلم » (١) .

وابتكر النديم لعلاج هذه الآفة طريقة الحوار بين سيدتين تتحدثان عن زوجيهما وانغماسهما فى شرب الخمر ، ثم يتدخل النديم فى الحوار الدائر بينهما بما يريد أن يقول ، وتقول إحدى السيدتين للأخرى : « وتلاقى البيه زعلان من « الأستاذ » ما كان راح فى داهية ، رجع يمسك لنا آفية السكارى ويجرسنا » (٢) .

ويتحدث بعض أصدقاء النديم إليه ، بأن بعض الناس انقبض صدره عندما رأى المحاورات حول السكارى ، ويجيب النديم : « إذا كان المتغيظ سكيرا فما قيل قليل جداً عما يلزم لتأديبه ، وإذا كان غير سكير فليكن مساعداً لنا فى سد باب المفاسد » ويفند قول البعض بأن كلامه فى السكارى ضار بمصالح الدول الأجنبية على زعم « أن المصريين إذا تابوا عن الخمر ، نقص من الجمرك مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه سنوياً وأفلس عشرون ألف تاجر أوربى ، وبالجملة فإن رجوع المصريين عن الخمر يفوت على الأوربيين أكثر من مليون جنيه ، فضلا عن أضراره بقانون التصفية ، فيجيب النديم : بأن قانون التصفية ليس به بنود تقضى بأن نشرب » (٣) .

ويقدم النديم أمثلة لأشخاص أقلعوا عن شرب الخمر لعل الآخرين يقتدون بهم ، فهذا واحد منهم بعد أن أقلع عن الخمر « بدأ يبنى لنفسه بيتا بدل من اللى كان بيروح منه كل شهر ١٢ جنيه كانوا بيروحوا فى طريق الشيطان الرجيم » ثم يؤكد مثابرته على الكتابة فى « الأستاذ » لمحاربة السكارى : « واهو « الأستاذ » مش مخلى وراه ورا ، وخد من التل يختل لما ربنا يصلح حالهم » (٤) .

أما رشيد رضا فقد حمل على الخمر لأنها « أم الخبائث » وداعية الفجور وموقظة الفتن ، وآفة الثروة ، ومولدة الأمراض ، ومقصرة الآجال ، فمضرتها للجسم والعقل ، وإفسادها للدنيا والدين مما لا يجهله أحد ، وإنما يدمنها الفساق تغليبا للذة على المصلحة ، وترجيحا للشهوة على المنفعة .

(١) مجلة الأستاذ : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .
(٢) مجلة الأستاذ : فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٩٢ م .
(٣) مجلة الأستاذ : فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .
(٤) مجلة الأستاذ : فى ٨ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م .

« وربما ينفق المصريون فى يوم واحد على الخمور أكثر مما أنفقته الحكومة فى حرب السودان من بدايتها إلى الآن ، وقد بلغنا أن من أمرائهم ومنهم من ينفق فى الليلة الواحدة العشرات والمئات من الجنيهات على معاقرة الراح ، ومنادمة الصباح ، لبئس ما سولت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، فأنفقوا أموالهم على تخريب بيوتهم وإتلاف أمتهم ، وتسليم بلادهم للأجانب ، ولا أعنى أنهم سلموا أزمة سياستها ، بل أريد رقبتها وجملتها »(١) .

ويصف رشيد ذلك الازدواج المخل أو ذلك التناقض الغريب فى الجمع بين العادات الغربية والعادات الشرقية فى حفلات الأفراح ، وامتداد هذا التناقض إلى المدن المصرية الأخرى غير القاهرة ، وذلك أنه نشر خطابا أرسله إليه جماعة من القراء من إحدى مديريات مصر يقولون : إنهم تلقوا دعوة لحضور فرح ولما ذهبوا وجدوا الحفل حفلين : حفل أقامه صاحبه فى بيته على الطريقة الوؤربية فقدم (بوفيها) عليه المأكولات ومعها الخمر ومستلزماتها ، ودعا إليه الأكابر والوجهاء ، وحفل آخر استعار له مكانا فى بيت جاره يتلى فيه القرآن ولا تقدم الخمور ودعا إليه المشايخ والبسطاء من الناس (٢) .

ويبين رشيد للمصريين مغبة اندفاعهم فى هذا الطريق ويطلب منهم أن يتقوا الله فى دينهم ، وفى وطنهم ، ويحذرهم من أن بعض مفكرى أوربا يرون أن انقراض الأمم المتوحشة سيكون على يد الأشربة الروحية ويعدون المصريين من هذه الأمم ، ثم يطلب إليهم أن يتقوا الله فى أهلهم وعيالهم الذين ترتكب أمامهم أمثال هذه الأعمال التى تمثل خطرا على تربيتهم ، وعليهم بدلا من هذا الإسراف أن يعملوا على إنشاء المدارس والشركات المالية للنهوض بالبلاد (٣) .

الميسر :

زاد عدد دور القمار فى عهد الاحتلال الإنجليزى زيادة كبيرة ففى ثمانى سنوات زاد إلى ٧٤٧٥ داراً للعب وكانت قبل ذلك ٣١٦ دارا فقط أى أن الزيادة بلغت ٧١٥٩ داراً فى القاهرة وحدها (٤) .

ومن أوائل الصحف التى عالجت آفة القمار مجلة « الآداب » فى عهد تولى الشيخ

---

(١) مجلة المنار : فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م مقال بعنوان : « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » .

(٢) مجلة المنار : فى ٧ يونيه سنة ١٨٩٨ م مقال بعنوان : « البوفيه وما فيه » .

(٣) مجلة المنار : نفس العدد ــ نفس المقال .

(٤) د . عبد اللطيف حمزة : مستقبل الصحافة : فى مصر ، جـ ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ القاهرة سنة ١٩٦١ م .

على يوسف رئاسة تحريرها ، وقبل أن يتركها لزميله محمد مسعود إلى جريدة (المؤيد) . فقد كشفت المجلة أخطار هذه الآفة الفتاكة ، ووصفت المغامرين من الأجانب بأنهم « تسوروا بلادنا ونصبوا لنا شباكا ليستنزفوا ماء الثروة ، ويمتصوا عروق الحياة » (١) .

وتحاول إظهار مدى استغلال الأجنبى للمصرى عن هذا الطريق فتقول : « فيأيها المغرور المصرى ، أخبرنى هل كان أولئك الناس يتكبدون المشاق من الأماكن الشاسعة شفقة عليك ، ورغبة فيك ليكسبوك درهما أو يمنحوك ديناراً ، ثم تسمى الميسر (حرفة) وفى مقالات عديدة تتحدث المجلة ــ ساخرة ــ عن هذه الحرفة النافعة ، والمهنة الشريفة التى قد درسها وبرع فيها معظم أبناء الشرق ، وخصوصا أشراف الأمة المصرية فى مدارس الخسران على يد حضرات الأساتذة الأجانب ، الذين درسوها لهم دروس مشاهدة ، ولما كانت هذه الحرفة عالية على مدارك البعض ، أحببت أن أذكر السبب الذى دفع الناس إلى غراس هذه الثمرة فى أرض مصر التى أصبحت بفضل همتهم هشيماً تذروه الرياح ، وذلك أن بعض المتمدنين أبناء أعاظم مصر قد أتقنوها » (٢) .

وينعى عبد الله النديم على هؤلاء المقامرين المصريين أنهم ينفقون أموالهم على موائد القمار فيما لا يفيدهم ولا يفيد بلادهم ، ويدعوهم « أن نوفر القرشين اللى معانا نشتغل بيهم فى تجارة علشان نصبح أغنياء وتفضل البلد ما سكة حيلها شوية »(٣).

ويشرح رشيد رضا الآثار المخربة للقمار التى استشرت بانتقال عدواه من الرجال إلى النساء اللاتى يقلدنهم فى كل ما يفعلونه ، فكيف بالأبناء الذين يتولدون من هذه الأصول الخبيثة ، كيف يستطيع مثل هؤلاء النساء ، أن يقمن بإدارة المنزل وتربية الأبناء ، وهن اللائى شببن عن الطوق ، وتشبثن بأذيال من التمدن الأوربى مسحوبة على أرض قذرة تجر من تعلق بها عليها حتى يكون عبرة للناظرين » (٤) .

البغاء :

وقد زاد زيادة كبيرة فى عهد الاحتلال الإنجليزى وكثرت المحلات المخصصة له وخاصة فى القاهرة والإسكندرية ، فكنت أينما ذهبت وجدت دور الدعارة الأوربية التى

---

(١) مجلة الآداب : فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م .

(٢) مجلة الآداب : فى ١٩ فبراير سنة ١٨٨٨ م .

(٣) مجلة الأستاذ : فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٩٢ م .

(٤) مجلة المنار : ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ مقال : « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » .

عمل الإنجليز على تشجيع وجودها وانتشارها » (1) .

وربطت الصحافة الإسلامية بين هذه الآفة الخلقية وغيرها من الآفات ، ففى محاورات النديم نجده يلخص الآفات الاجتماعية فى مصر وأسبابها فى : إهمال الحكومة لشئون البلاد ، وإهمال اللغة العربية ، وضعف التعليم ، واستخدام اللغة الأجنبية ، والتفرنج والاستهتار بالدين والجنسية ، وانتشار الخمور والدعارة (2) .

ويرى رشيد رضا أن البغاء هو أحد الجيوش المعنوية التى جردها الغرب لهزيمة الشرق ويصفه بأنه « ارتياد الفاحشة الكبرى وتطلب النقيصة السوءى من جماعة من النساء يستعدون لذلك ويتجاهرن به والزنا مولد الأدواء المشوهة القاتلة ، ومقلل النسل ، ومضيع الأنساب ، ومتلف الأموال ، ومفسد نظام العائلات ، وأن المجاهرة به مدعاة لتعميمه ، وتعميمه فتنة كبرى فى الأرض وفساد كبير وبلاء على الأمم وبيل » .

ولهذه المصيبة من الضرر المالى فى مصر ما ليس لها فى بلاد أوربا ؛ لأن معظم المال الذى ينفق على الفحش فى مصر إنما ينقصه الأجانب من ثروة البلاد ؛ لأن معظم المسافحات وذوات الأخدان فيها من الإفرنج ، ولا سيما صواحب الوجهاء والأمراء اللواتى يفاض عليهن المال جزافا بلا عد ولا كيل ، وبهذا المعنى تعد البغايا والمومسات من الجند الفاتح للبلاد فإنهن ما نزلن فى عراص قوم إلا مهدن لأبناء جنسهن فيها المقام ، وأورثتهم أرضهم وديارهم وأموالهم .

ثم يطلب ممن ابتلى بهذه النقيصة أن يعرف مضارها ، ويقلع عنها ، أو يتستر مراعيا اللّه فى وطنه ومواطنيه وأهله وأبنائه (3) .

السفه والإسراف وتقليد مظاهر الحياة الغربية :

لا شك أن كل ما ذكرناه ــ آنفا ــ من الآفات الاجتماعية والأخلاقية يجر إلى هذه الآفة التى نحن بصددها الآن ، وهى السفه والإسراف المهلكان فى الحياة المصرية وكانت الصحافة الإسلامية قد دقت ناقوس الخطر محذرة من مغبة هذه العادات السيئة منذ بدأت تستشرى فى عهد إسماعيل وحسين بلغت ذروتها فى عهد الاحتلال الإنجليزى .

---

(1) Fredlin, Gohn bull sur le nil, croqis de l occupation anglaise, paris 1886 p. 121 `` 124 `` 168 `` 169 .

(2) مجلة الأستاذ : فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .

(3) مجلة المنار : فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م مقال : (الجيوش الغربية) السابق ذكره .

ففى (الوقائع المصرية) ينتقد الشيخ محمد عبده الذين يتخيلون أن نقل أفكار الغرب وعاداته إلى بلادهم سيصل بها بعد زمن وجيز إلى درجة من المدنية تماثل مدنية الغرب وهؤلاء يخطئون خطأ كبيراً ، فهم يبدأون بما هو فى الحقيقة نهاية تطور طويل المدى ، فإن تاريخ الدول الأوربية العظيمة يظهرنا على أنها لم تصل إلى درجتها الحالية من المدنية إلا بعد أن عانت عناءً شديداً وضحت تضحيات عظيمة [1] .

وتضع مجلة (العروة الوثقى) هذا الفكر ضمن منهجها حيث « لا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الغربى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك ، ومن طلبه فقد أوقر نفسه وأمته وقرا وأعجزها وأعوزها » [2] .

وفى مقال بعنوان : « الناس من خوف الفقر فى فقر » [3] يقدم الشيخ عبد الكريم سلمان منهج الإسلام فى الاعتدال فى الإنفاق ، ومحاربة السرف اعتمادا على الآيتين الكريمتين : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا** ﴾ [4] و ﴿ **الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ [5] .

وفى مقال بعنوان : « المسألة الإسلامية فى الجزائر » تبين صحيفة (المؤيد) التشابه بين الاستعمار الغربى فى كل مكان وتنقل عن أحد المؤلفين الفرنسيين قوله عن الحالة فى الجزائر : « يؤكد جميع العرب الذين ارتضعوا ثدى المعارف فصفت عقولهم واستنارت بصائرهم أن النتيجة الوحيدة التى ترتبت على تربيتنا إنما كانت إفساد أخلاق مواطنيهم ، وإلزامهم باحتياجات كانوا فى غنى عنها ، مع عدم توفيقهم فى الحصول على نوالها وذلك كله قد آل بهم إلى التعاسة والبؤس والشقاء » [6] .

وفى عهد الاحتلال الإنجليزى نرى الصحافة الإسلامية تنازل هذه العادات المهلكة التى انتشرت بين المصريين « إذ هجم الوطنى الفقير والغنى والأمير على المحسنات الغربية يشتريها بنفيس الذهب ، وقد أماتوا بهذا الإسراف الاقتصاد والشرف فماتت معه ثروة كثير من أصحاب الحرف . . والفلاح الذى كان يعيش فى رغد صار الآن « يزرع المائة فدان ، ولا تراه إلا مقترضا ، ولا يجد من القوت إلا الضرورى ، وكذلك المستخدم ، لا

(١) الوقائع المصرية : فى ١٧ أبريل سنة ١٨٨١ م ، المقال الثانى من سلسلة مقالات : « خطأ العقلاء » .

(٢) مجلة العروة الوثقى :١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م ، « منهج الجريدة » .

(٣) جريدة المؤيد : فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

(٤) سورة الإسراء : ٢٩ .

(٥) سورة الفرقان : ٦٧ .

(٦) جريدة المؤيد : فى ١٦ يونية سنة ١٨٩١ م .

ترى فى صندوقه جنيها ، ولا يجد عقاراً ، وربما وجدته مدينا ، فلو أخذنا من محسنات الغرب مالا به منه ، واقتصرنا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق الانتفاع بثمرة الاقتصاد الشرقى ، ولكن طرنا حول الأهواء ، وجرينا خلف المرئيات المزخرفة وتتبعنا ــ فى ذلك ــ سير الغربى حتى سبقناه (١) .

وينبه رشيد رضا إلى « أن الغرب قد اندفع على الشرق بخميس من الأزياء وكتائب من الحلى ، وجحافل من الماعون النفيس ، وفيالق من اللذائذ ، فلم تجد هذه الجنود المجندة من الشرق أقل مقاومة ولا أدنى مدافعة ، فطفقت تفتكُ بالنفوس بعوامل الترف وفى الأموال بعوامل السرف وما زال القوم يعدون هذه العوامل من علائم الشرف حتى وقفت بهم على شفا جرف وأكبتهم على مناخرهم فى مهاوى التلف » .

ويطالب بأن نفرق بين ما نقلد فيه الغرب وأصبح ضروريا كالأدوات والماعون والنسيج وبين الزخارف الكمالية والأشربة التى تنسف ثروة البلاد وترميها بالفقر والعجز .

وبوضح أن « تطرز الإفرنج وتورنهم ، وتماديهم فى الترف كل ذلك يزيد فى إحياء صنائعهم ونموها وكمالها ، ولا تتحول به أثباج ثروتهم ومجاريها إلى غير بلادهم بل تبقى دائرة فيها . . ومع ذلك لا ينغمسون فى الترف ــ كأمرائنا ــ انغماساً ينتهى بالغرق » (٢) .

الربا :

وجاء الربا ليحكم الدائرة الشيطانية التى جعل الغرب المجتمع المصرى يدور فيها ، فإن الذى يدمن الخمر والميسر وينحرف إلى البغاء وينفق فى سرف وسفه على الملذات والمظاهر لابد أن يمد يده ليستدين « ووجد المرابون فى هذا الضعف ومن النظم والقوانين ، ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغلون فى مختلف الأوساط فى العواصم والبنادر والقرى ، فكبلوا الأهالى بالديون مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم وانتشار الفقر والبؤس فى الطبقات الفقيرة والمتوسطة والكبيرة » (٣) .

« فالربا هو الذى مكن للأوربيين فى أرض مصر (كغيرها من ممالك الشرق) فاستولى

---

(١) مجلة الأستاذ : فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٩٢ م ، وتناول عبد الله النديم كذلك تقليد المصريين لمظاهر الحياة الأوربية مما جرهم إلى الإسراف وضياع الثروة فى أعداد ٢٠ سبتمبر ، ٢٥ أكتوبر ، ١٨ نوفمبر ، ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٩٢ م .

(٢) مجلة المنار : ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م مقال : « الجيوش الغربية المعنوية . . » .

(٣) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، مرجع سابق ص ١٨٩ .

دائنوهم على صفاصفها (أرضها السهلة) ، وساستهم على إتاواتها وخراجها ، ثم على سائر الإدارات فيها حتى أوشكت أن تكون بلادا أوربية حاكما ومحكوما ، ضغط الربا على جثمان هذه البلاد رويدا حتى اشتبكت الأضلاع بالأضلاع ، واختلط اللحم بالعظم ، وما شعرت حكومتها بضغط ولا أحس أفرادها بألم حتى سحق الضغط كلا من الحاكم والمحكوم ، وما أكل الربا أضعافا مضاعفة فى بلاد كهذه البلاد ، وما أضر بقوم كما أضر بأهلها ، ظلم حكامها رعيتهم فألجأوهم إلى الاستدانة بالربا الفاحش ، ومن ظلم رعيته كان لنفسه أظلم » (١) .

وكانت الصحافة الإسلامية فى هذه الفترة هى القوة الحقيقة التى جاهدت لمنع ما آلت إليه طبقات الشعب من حالة سيئة ، فالطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين قد اتجهت فى مجموعها جهة الولاء للاحتلال والحياة النفعية ، فخلت الحياة من المفاخر ؛ لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صغار فى النفوس يتنافر مع كل ما هو عظيم ونبيل ، واجتمع إلى ذلك الإسراف والبذخ ، والرغبة فى الظهور الكاذب ، واقتباس مفاسد المدنية الغربية دون محاسنها ، فصارت هذه الطبقة فى مجموعها عنوان الانحلال فى الوطنية والأخلاق ، وأداة للاستغلال الأجنبى للبلاد ، وتقطعت الروابط بين الطبقات لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية دون الحياة القومية .

« أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم . فهذه انصرفت أيضاً إلي الحياة النفعية تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ ، فلم يعد على البلاد من جهودها آية فائدة » .

والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال ، وهم غالبية الشعب قد ازدادت حالتهم سوءا فى عهد الاحتلال ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية ، وساءت حالتهم المادية والمعنوية ، وفقدوا مع الزمن صفات الصدق والعرفان وحب الخير والبر والإحسان » (٢) .

هذا ما كانت تسير إليه حالة المجتمع المصرى ، وهذا ـ أيضا ـ يوضح لنا الدور الذى اضطلعت به الصحافة الإسلامية فى المحافظة على الأصالة والأخلاق الإسلامية ، فى مواجهة هذا الطوفان العنيف القادم من الغرب فى هذه الفترة من التاريخ المصرى .

---

(١) المنار : فى ١٢ يوليو سنة ١٨٩٨ م .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، مرجع سابق ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

الفصل الخامس

الصحافة الإسلامية وتحرير المرأة

كان لمطلب تحرير المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر معنيان مختلفان اتخذ كل معنى منهما فريق من فريقين :

المعنى الأول : هو تقليد المرأة المصرية للمرأة الأوربية فى فكرها وسلوكها الاجتماعى ، وزيها وما تتمتع به من حقوق نابعة من التقاليد الغربية ، وكذلك ما تتمتع به من حرية شخصية قد تصل إلى حد المغالاة .

المعنى الثانى : هو النهوض بالمرأة المصرية لتأخذ دورها الإيجابى فى المجتمع فى إطار ادئ الشريعة الإسلامية وذلك بتعليمها وتهذيبها وتثقيفها ، ومنحها مالها من حقوق وقيامها بما عليها من واجبات ، واعتقد هذا الفريق أن النهوض بالمرأة المصرية ودورها فى المجتمع ، هو جزء من النهضة الحديثة التى بدأت مع القرن التاسع عشر ولا تتم هذه النهضة إلا به .

بدأت بوادر الاتجاه الأوربى فى تحرير المرأة مع الحملة الفرنسية ورصده المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى ، وظهر فى عصر إسماعيل مع رغبة هذا الوالى أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، ومع كثرة عدد العائدين من البعثات فى عصره ، ومع كثرة عدد الأجانب فى مصر ، ووجد هذا الاتجاه قوة تفرضه على الواقع المصرى بالاحتلال الإنجليزى لمصر ، والذى يقرأ كتاب اللورد كرومر ــ مصر الحديثة modern egypt يجد أن من خططه فى جعل مصر تابعة لحضارة الغرب أن يبدأ بتربية المرأة على النظام الغربى ، وفي عهده أنشئت أول صحيفة نسائية فى مصر هى صحيفة (الفتاة) سنة ١٨٩٢ م لهند نوفل ، تدعو إلى اقتباس المرأة المصرية لمظاهر الحياة الإنجليزية .

أما الاتجاه الثانى وهو تحرير المرأة المصرية من الجهل والسلبية والتفكير الخرافى شريطة أن يتم هذا التحرير فى إطار مبادئ الشريعة الإسلامية ، فقد اضطلعت به الصحف الإسلامية ، وقاده كتاب إسلاميون ، إما أنهم تخرجوا فى الأزهر مثل رفاعة الطهطاوى ،

ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، وعلى يوسف ، أو أنهم درسوا دراسة دينية وتتلمذ على أيديهم أزهريون مثل جمال الدين الأفغانى ، أو درسوا دراسة دينية وتتلمذوا على أزهريين مثل رشيد رضا .

أما الصحف التى اضطلعت بهذه الدعوة فهى : روضة المدارس وصحيفة مصر لأديب إسحاق [1] ، والوقائع المصرية فى عهد تولى محمد عبده لرياسة تحريرها ، والتنكيت والتبكيت لعبد الله النديم ، والمؤيد لعلى يوسف ، والمنار لرشيد رضا .

والواقع أن هذا الاتجاه الإسلامى فى تحرير المرأة هو الاتجاه الواضح والرئيسى فى القرن التاسع عشر ، وأن الكتاب الإسلاميين الذين أتينا على ذكرهم الآن قد طرحوا فكرا فى هذا الميدان لا يقل نضجا وجرأة عن فكر قاسم أمين ، وإن كان يرتكز على أساس إسلامى من القرآن الكريم والسنة النبوية مع الاجتهاد فى فهم النصوص بما يلائم ماجد من ظروف العصر .

ويهدف هذا الفصل إلى إقامة الدليل على هذه القضية ، وهو ما لم يكن يتسنى لنا دون استقصاء لجهود الكتاب الإسلاميين فى الصحف المذكورة .

وقد دأب الذين كتبوا عن حركة تحرير المرأة على أن يسندوا دور الريادة فى هذه الحركة إلى قاسم أمين ، وفى هذا بعض التجنى على الرواد الحقيقيين أمثال رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده .

إن البداية الحقيقية لهذه الحركة هى مع بداية نشر الطهطاوى لفصول بعنوان : (المرشد الأمين للبنات والبنين) فى مجلة روضة المدارس فى العدد « ١٦ » من السنة الخامسة بتاريخ : غاية شعبان سنة ١٢٩١ هـ [2] سنة ١٨٧٤ م ، وظلت تنشر فيها تباعا حتى العدد الثالث والعشرين من السنة السادسة (١٢٩٢ هـ ــ ١٨٧٥ م) ، وجمعت هذه الفصول بعد ذلك فى كتاب كبير الحجم يحمل هذا الاسم .

وتضمنت هذه الفصول مناقشة قضايا لم تكن مطروحة على الرأى العام فى مصر من قبل ، مثل تعليم المرأة ، وعملها ، وحجابها وحقوقها وواجباتها ودورها فى الأسرة

---

(١) حيث كتاب جمال الدين الأفغانى فى هذا الموضوع كما سيجئ .

(٢) صدر العدد الأول من هذه الصحيفة فى ١٥ من المحرم سنة ١٢٨٧ هـ (أبريل سنة ١٨٧٠ م) ولم تثبت الصحيفة التاريخ الميلادى على أعدادها .

والمجتمع ، وهى نفس القضايا التى طرحها قاسم أمين من بعد .

أما قاسم أمين فقد بدأ حياته الفكرية بعد عودته من فرنسا بما يسلكه فى سلك المحافظين والمقلدين فيما يتعلق بحركة تحرير المرأة ، وظهر ذلك فى كتابه « المصريون » الذى نشره باللغة الفرنسية ، ورد فيه على لورد (داركور) حيث دافع فى هذا الكتاب عن الحجاب بمفهوم عصره ، وعن بقاء المرأة المسلمة على ما هى عليه .

أما دفاعه عن حرية المرأة فقد كان أثر من أثار تلمذته على الشيخ محمد عبده كما سيجئ .

ودأب كتاب آخرون على أن حركة تحرير المرأة كانت محاولة مستمرة من دعاتها لأن تقفو المرأة الأوربية فى كل شئ ، وتقلدها فى كل مجال من مجالات الحياة مع عدم وضع أى اعتبار لكونها تعيش فى مجتمع مسلم [1] ، وهذا ما سوف ننقضه فى هذا الفصل .

دور الصحافة الإسلامية

رفاعة الطهطاوى وروضة المدارس :

دعوته إلى تعليم المرأة :

كان رفاعة الطهطاوى أول من دعا إلى تعليم البنات فى مصر ، وذلك فى فصوله التى نشرها فى روضة المدارس تحت عنوان : (المرشد الأمين للبنات والبنين) والتى جمعت بعد ذلك فى كتابه المعروف بهذا الاسم .

١ ــ إن « تعليم البنات والصبيان معا لازم لحسن المعاشرة الزوجية ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فإن ذلك مما يزيدهن أدبا وعقلا ، ويجعلهن بالمعروف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها » .

٢ ــ والتعليم « يمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما

---

(١) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جـ ٢ القاهرة سنة ١٩٦٩ م ص ٣٢ ، ١١٢ ، ٢١٣ .

يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمة فى حق الرجال ، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فإن المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ، ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها ، ..... وهكذا » [1] .

٣ ـ المرأة المتعلمة أفضل فى تربية أبنائها لأن « آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا فى أخلاق أولادها ، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت ، والاشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها ، بخلاف ما إذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير لازمة ، حيث تتصور البنت من الصغر أن جميع النساء كذلك ، فتألف ذلك من صغرها ، فشتان ما بين هذه وبين من تعتمد على معارفها وآدابها ، وتفعل ما فيه إرضاء زوجها وتربية أولادها لأنها شبت على ذلك » .

٤ ـ إن التشدد فى حرمان البنات من التعليم عادة جاهلية وليس من تعاليم الإسلام حيث يقول رفاعة : « وليس مرجع التشدد فى حرمان البنات من تعلم الكتابة إلا التغالى فى الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن ـ أياما كانت ـ فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بجمعية جاهلية [2] ، ولعل ما يقصده بالجمعية الجاهلية : المجتمع الجاهلى الذى يقول به البعض فى الوقت الحاضر .

أما فى الإسلام فقد روت النساء أحاديث كثيرة عن الرسول عليه الصلاة والسلام « وقد كان فى زمان الرسول من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء (كالشفاء) أم سليمان ، فقد أخرج أبو الدرداء عن « الشفاء بنت عبد الله » قالت : « دخل علىّ النبى ﷺ وأنا عند حفصة فقال : ألا تعلمين هذه رقية النملة (أى الخط والهجاء) كما علمتها الكتاب « القرآن الكريم » وهذا الحديث يدل على أن تعلم النساء الكتابة جائز وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به حيث اشتركن معهم فى أصل الطبائع والغرائز ، فليتمسك

(١) روضة المدارس : غاية شوال ١٢٩١ هـ ـ الفصل الثالث من الباب الثالث بعنوان : « فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » .

(٢) روضة المدارس : نفس العدد ـ نفس الفصل .

كل من الفريقين ـ الذكور والإناث ـ بالأحاديث الواردة فى فضل التعلم والتعليم، ويتشبثوا جميعا بأذيال المدارسة والمطالعة ليقتطفا من أثمار العلوم النافعة » [١] .

٥ ـ « ولا شك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة ، وعلى التخلق بالأخلاق الكريمة والاطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الكمال ، وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال ؛ فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال ، لكن الجمال لا يغنى عن الأدب ؛ لأن الجمال الحسى فى المرأة عرض زائل » [٢] .

« وليست المعارف والآداب فى النساء إلا محامد كالرجال ... والأدب للنساء جمال ثان معنوى ، وهو يصلح السرائر ، والمطلوب عند العقلاء إنما هو إصلاح السرائر لا مجرد الجمال الظاهر » . كما أن المعارف والآداب عند المرأة تساعدها على تحسين المقاصد ، وإصلاح العقائد ، والانقياد إلى الأوامر الإلهية ، وتلقى ما فى الصحف السماوية ، كما أشار إليه صاحب المراتب الظاهرة والباطنة وقطب دائرة الكائنات فى الدنيا والآخرة بقوله « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » ، وصلاحه لا يكون إلا بملازمة الشريعة المطهرة ، والتخلق بأخلاق صاحبها المضيئة النيرة » [٣] وهذه عند رفاعة ـ الدين والشريعة ـ أحسن أنواع المعارف التى يجب أن تتعلمها المرأة ، كما يعمل على إصلاح نفسها معرفتها بآثار الشعر والنثر [٤] .

عمل المرأة :

حين تحدث رفاعة عن تعليم المرأة قال : إن التعليم « يمكن المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأعمال والأشغال ما يتعطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل .... إلخ » [٥] .

(١) روضة المدارس : نفس العدد ، نفس الفصل . (٢) روضة المدارس : نفس العدد ، نفس الفصل .

(٣) روضة المدارس : ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٩٢ هـ ـ الفصل السادس من الباب الخامس بعنوان : « فى الحسن والجمال » .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) روضة المدارس : غاية شوال سنة ١٨٩١ هـ ـ الفصل الثالث من الباب الثالث بعنوان : « فى تشريك البنات مع الصبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » .

وهـو يطالب نسـاء عصـره أن يقتدين بالنسـاء فى عصـر رسـول الله ـ ﷺ فيقـول : « وينبغى أن يكون لنساء هذه الأعصر فى خدمتهن لمنزلهن ، اقتداء بنساء النبى ﷺ ونساء أصحابه ، كن يسعين على عيالهن ، ويخدمن أزواجهن ويمتهن أنفسهن (أى يتخذن لهن مهنة) ، قالت عائشة : كنت أفتل قلائد هدى [١] رسول الله ﷺ ، فيقلد هديه ، وقالت فى زينب بنت جحش : « لم أر امرأة قط خيرا منها فى الدين وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل » ، وفى الصحيح قالت أم الربيع : « كنا نغزو مع النبى ﷺ فنسقى القوم ونخدمهم ونرد القتلى إلى المدينة ، ونداوى الجرحى » ، وقالت أم عطية : « غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، أخلفهم فى رحالهم ، وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى » ، وقالت أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنها امرأة الزبير وهى أخت عائشة رضى الله عنها ـ : « كنت أعلف فرسه ـ يعنى فرس الزبير ـ وأسقى الماء ، وأخرز غربه ، وأعجن ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعها النبى ﷺ وأحمله على رأسى ـ وهى على ثلثى فرسخ من المدينة فجئت يوما والنوى على رأسى فلقيت النبى ومعه نفر من الأنصار ، فدعانى ثم قال : أخ أخ ليحملنى خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ، فعرف الرسول ﷺ أننى استحييت ، فمضى . قالت : ثم أعطانى ﷺ خادما فكفتنى سياسة الفرس » فكل هذه دلائل مصرحة بأن نساءهم كن يشتغلن بالخدمة وبالمهنة رضى الله عنهن » [٢] .

ويورد رفاعة أكثر من حديث نبوى شريف يبين أن صناعة الغزل فى عهد رسول الله ﷺ كانت من مهام النساء ، وأن عمل المرأة بمغزلها من أحسن الأعمال عند الله ، ويورد حديث ابن عباس : « إذا أدت المرأة فريضة ربها ، وأطاعت بعلها ، وحركت المغزل كانت كأنها تسبح ..... وما دام المغزل فى يدها كانت كأنها تصلى جماعة ، وعمل المرأة بمغزلها مثل عمارة القناطر والربط ، وثلاثة أصوات تبلغ تحت العرش ، أحدها : قسى الغزاة المجاهدين فى سبيل الله ، والثانى : صرير أقلام العلماء ، والثالث : أصوات مغازل المصونات من النساء ، والمرأة إذا كست زوجها ، أعطاها الله ثواب من حج واعتمر » [٣].
وكالعالم الذى يلم بأطراف موضوعه يناقش رفاعه قضية لم تكن مطروحة فى عصره ،

---

(١) الهدى : المراد هنا الحيوان ـ الشاه ـ التى يضحى بها فى موسم الحج .

(٢) روضة المدارس : ١٥ حمادى الثانى ١٢٩٢ هـ ، الفصل الرابع من الباب السادس بعنوان : « فى التوادد بين الزوجين » .

(٣) المصدر السابق : نفس الفصل .

وهى تولى المرأة أعمال الولاية العامة ، ونستطيع أن نستخلص رأى الطهطاوى فى هذه المسألة فيما يلى :

أولا : أن الشريعة الإسلامية قد قضت بقصر السلطة على الرجال دون النساء وأن النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية ، ولا يلبسن التاج الملوكى ، ومنح السلطنة للنساء إنما يكون فى البلاد التى قوانينها محض سياسة وضعية بشرية ، أما تمدن البلاد الإسلامية فمؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين بدون مدخل للعقل تحسينا وتقبيحا ، حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع (١) .

ثانيا : أن الإسلام بذلك يصون المرأة من مشاق هذا العمل الذى يتطلب مخالطة الموظفين من الأمراء الملكية والجهادية ، ومعاشرة جميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم (٢) ، وأن ذلك يدخلها فى مجال المنافسة والمعاداة واتهامها بالخروج عن الحياء ، فلا يبرئها أحد مما يقال فيها (٣) .

ثالثا : أن عدم تولى المرأة منصب الولاية العامة أو السلطنة ليس مرجعه ـ فى رأى رفاعة إلى نقص فى كفاءتها ، وإنما هو فى توزيع الأعمال حسب الطبيعة البشرية فيقول : وليس عدم استخلاف النساء لعدم وجود من تصلح لذلك ، فقد قال عروة بن الزبير لذكوان : لو كانت إمرة لا مرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة (٤) يقول ذلك فى مقام ذكر تفوق عائشة فى الحديث والعلم على الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله .

حجاب المرأة :

كان طبيعيا حين طرح رفاعة قضية تعليم المرأة وعمل المرأة أن يطرح قضيةحجاب المرأة .

وقد حدث خلط وعدم تحديد فى الحديث عن الحجاب ، فقصد به أحيانا اللباس

---

(١) روضة المدارس : غاية ذو الحجة ١٢٩١ هـ ، الفصل الرابع من الباب الرابع بعنوان : « فى قصر رتبة السلطنة على الرجال دون النساء » .

(٢) روضة المدارس : غاية ذى الحجة ١٢٩١ ، الفصل الرابع من الباب الرابع بعنوان : «قصر رتبة السلطنة على الرجال دون النساء» .

(٣) روضة المدارس : ١٥ شوال ١٢٩١ هـ ، الفصل الثانى من الباب الثانى بعنوان : « في سلطنة النساء على قلوب الرجال » .

(٤) روضة المدارس : غرة ذى الحجة ١٢٩١ هـ ، الفصل الثالث من الباب الرابع بعنوان : « فى الملة والدولة فى العرف وما يتعلق به » .

الذى يغطى كل جسم المرأة بما فى ذلك تغطية وجهها بالنقاب ، وقصد به أحيانا أخرى الحجاب الشرعى ، وهو أن تغطى المرأة كل جسمها فيما عدا الوجه والكفين ، وقصد به أحيانا ثالثة ملازمة المرأة لبيتها وفصل مجتمع الرجال عن مجتمع النساء .

فماذا كان رأى رفاعة فى الحجاب بكل هذه المعانى ؟

يتبين من كلام رفاعة أنه يفضل الحجاب الشرعى ، أى ستر المرأة لكل جسمها فيما عدا الوجه والكفين ، فإن الذى يطالب للمرأة بالتعليم والعمل على الوجه الذى بيناه لا يتصور أن يطالب للمرأة بوضع النقاب على وجهها ، ويؤيد قولنا هذا ــ إلى جانب ما سبق من حديثه ــ قوله : « ولا يجوز النظر فيما لا يحل إلا لأسباب **أحدها** : النظر للمداواة بقدر الحاجة ، **ثانيها** : النظر للوجه والكفين لمن يريد أن يتزوجها ، **ثالثها** : النظر فى المعاملة المفتقرة للشهادة عليها ، والتعريف لها ، ونحو ذلك مما تدعو إليه ضرورة المعاملة . فينظر الشاهد إلى الوجه لا غير ، **رابعها** : المعلم ينظر بقدر الحاجة والضرورة [١] .

أما قضية بقاء المرأة فى بيتها ، وفصل مجتمع النساء عن مجتمع الرجال أو تعاملها مع المجتمع الخارجى إذا دعت الضرورة ، فإن ما قدمناه من دعوة رفاعة إلى تعليم المرأة وعملها ما يلقى الضوء على جوانب من رأيه فى هذا الموضوع ، وهو بالطبع يحرم أن يخلو رجل بامرأة أجنبية ، ولكن إذا زاد العدد وتوافرت الثقة فإن الطهطاوى يقرر إباحة هذا الجمع فيقول : « ولا بأس أن يخلو رجل أو عدة رجال بنسوة ثقات ، لا رجل واحد أو عدة رجال بامرأة واحدة » [٢] .

ويرى الطهطاوى أن حسن التربية هو الأساس المتين لما يباح من الاختلاط فى المجتمع ، ويضرب لذلك مثلا تاريخيا وشرعيا فى نفس الوقت ، ففى لقاء ابنة نبى الله « شعيب » بموسى عليه السلام «قال شعيب لإحداهما (إحدى ابنتيه) اذهبى فادعيه (أى موسى) لى ، فأرسلها شعيب إلى موسى مع أنها شابة وهو شاب ؛ لأنه عليه السلام قد علم بالوحى أو من حسن التربية طهارتها وبراءتها ، فكان يعتمد عليها [٣] .

---

(١) روضة المدارس : غرة رجب ١٢٩٢ هـ ، الفصل الخامس من الباب السادس بعنوان : « فى بعض حقوق يلزم كلا من الزوجة والزوج مراعاتها » .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية .

النواحى العاطفية والحقوق الزوجية :

كان للطهطاوى آراء تعتبر جديدة وجريئة فى عصره فيما يختص بهذه النواحى ، وهى فى رأيه تقيم دعائم الأسرة ـ التى هى أساس المجتمع ـ على أسس قوية من المحبة والتعاون والاحترام المتبادل .

فهو يعترف بشرعية الحب للبنت ويطالب الآباء أن يزوجوا بناتهم لمن يحببنهم ، ويقول : « إن من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه » (١) ، وهو بذلك يستوحى مبادئ الإسلام التى تشترط رضا البنت بمن سيكون زوجا لها .

وهو ينبه إلى أن هناك حقوقا لكل من الزوجين على الآخر فيقول : « وكثير من الرجال يرى أن له حقا على زوجته وليس لها عليه حق ، وأن جميع ما يفعله معها جميل ، وقد وبخ مثل هذا بعضهم بقوله :

له حق وليس عليه حق ... ومهما قال فالحسن الجميل

وقد كان الرسول يرى حقوقا ... عليه لغيره وهو الرسول (٢)

وهو يرى أن توطيد دعائم الأسرة وتماسكها وسعادتها هو مسئولية مشتركة بين الزوجين كليهما « فإن الزوجين المجتمعين فى بيت واحد والمتحدين قلبا وقالبا بالمحبة والألفة يتوطنان فيه ويحبانه ، ولا يخرج أحدهما إلا لعذر ، فبهذا يسارعان فى تحصيل ما يلزم لهذا المنزل من الأثاث والأهبة ، ويحسنان إدارته ؛ فتجد كلا من الزوجين مجتهدا فى تربية ما يرزق من الذرية .... ومتى سلك الزوجان مسلكا حسنا فى تحسين أحوال منزلهما وعائلتهما عاشا فى السعة والاعتبار ، بخلاف ما إذا نقض أحدهما أوكلاهما عهد المحبة والوداد ، وزالت الأمانة من بينهما ، فإن البركة تذهب من البيت ، ويكثر فيه التشاجر والشقاق ، وتشويش الخواطر والبغضاء والشحناء ، حتى يسرى ذلك من الآباء للأبناء » (٣) .

وحب الزوجين أحدهما للآخر فى نظره هو أساس الحياة الزوجية السعيدة ، فيقول :

---

(١) روضة المدارس : الفصل الثالث من الباب السابع : « تزويج البنت بمن تحب » .

(٢) روضة المدارس : ١٥ جمادى الثانى ١٢٩٢ هـ ، الفصل الخامس من الباب السادس بعنوان : « فى بعض حقوق يلزم كلا من الزوج والزوجة مراعاتها » .

(٣) روضة المدارس : ١٥ جمادى الثانى ١٢٩٢ هـ ، الفصل الرابع من الباب السادس بعنوان : «فى أن التوادد والتحابب بين الزوجين مما ينتج حسن العشرة بينهما وبين ذريتهما » .

« إن معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس ، وإن كان صعباً فى حد ذاته ؛ لأنه يستدعى كمال التربية والإنصاف والعدل ، وقوة العقل وذكاء الفطنة ، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما ، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن ، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها الصداقة بين الزوجين لاشتراكهما فى المنفعة العمومية » (١) .

والحب بين الزوجين يتحول إلى صداقة « والصداقة هى التى ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف فى جميع الحركات والسكنات ، والأحوال والأطوار ، مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب بالمسامرة والمحادثة والتبسم ، وإظهار التلطف والتعطف ، من كل ما يؤثر فى النفس تأكيد المحبة فتستحيل إلى عشق الشمائل المعنوية التى تبقى فى المرأة دائما وأبدا فتخلف الجمال الظاهرى الزائل ، وإنما يستحضر ــ فقط ــ ما كان عليه المعشوق حتى إن بعض الرجال يرى زوجته بالعين التى رآها بها يوم عرسها » (٢) .

وهكذا مضى رفاعة فى شرح تفاصيل المعاملة الكريمة والاحترام المتبادل التى يجب أن تسود بين الزوجين ، مما كان أساسا لفكر عصر النهضة فى هذه القضية الهامة « علاقة الرجل والمرأة » .

ونحن نستطيع ــ مع كثير من الاطمئنان ــ أن نعقد لواء الريادة لرفاعة الطهطاوى فى هذا الميدان ، وندرك مدى ما فى آرائه من جدة وجرأة فى الإصلاح الاجتماعى إذا عرفنا وضع المرأة فى العصر الذى طرح فيه أفكاره ، وكيف سلب منها هذا العصر ما أعطاه الله لها من حقوق .

يقول أحمد شفيق باشا ــ وهو ممن أرخوا لهذا العصر ــ وهو يتحدث عن الحياة الاجتماعية فى عهد الخديو توفيق :

« وكانت رسوم الزواج تتم خفية عن الزوجين ، فلا يعلمان عنها شيئا ، وكانت الأسرة هى التى تتولى أمر الخطبة ، أو ينيبون عنهم الخاطبة دون أن يكون للخطيبين نفسيهما أية إرادة ، بل لقد كان الغلو فى ذلك يصل إلى حد أن بعض أفراد أسرة الخطيب نفسها لا تعرف شيئا عن خطيبته إلا ما ترويه (الخاطبة) ، وقد حدث ذلك لى مع أسرة شريفة فبعد أن انتخبتنى هذه الأسرة لأكون زوجا لابنتها ، عدل عن ذلك لمجرد رغبة

(١) روضة المدارس : المصدر السابق .

(٢) روضة المدارس : نهاية ربيع الآخر ١٢٩٢ هـ بقية بحث بعنوان : « عشق الحواس وعشق القلب » .

والدتى فى رؤية الفتاة المخطوبة ، وقد كان لهذه العادة عيوبها ، إذ كان يحدث نفور بين الزوجين أحياناً فى ليلة الزفاف كنتيجة لعدم تعارفهما من قبل أن يكونا أسرة ، على أن الشرع يبيح رؤية الخطيبة »[1] .

وإذا كان هذا يحدث لأحمد شفيق (باشا) الذى تعلم فى فرنسا ، وشغل أرفع المناصب ، فإننا نستطيع أن نرى حال المرأة فى المجتمع فى ذلك العصر الذى نشر فيه رفاعة هذه الفصول الإصلاحية فى (روضة المدارس) .

دعوة الأفغانى فى صحيفة مصر :

فى يوم السبت ٢٤ مايو ١٨٧٩ م الموافق ٤ جمادى الآخرة نشرت صحيفة مصر التى كانت تصدر فى الإسكندرية ، خطبة على جانب كبير من الأهمية كان جمال الدين الأفغانى قد ألقاها فى مسرح زيزينيا بالأسكندرية فى ذلك الوقت ، وتنبع أهمية هذه الخطبة من أنها تشكل نظرية كاملة أو برنامجا عاما للإصلاح فى مصر وفى غيرها من بلاد الشرق كما رآه الأفغانى .

وفى هذه الخطبة تحدث الأفغانى عن الماضى المجيد للمصريين وأجدادهم لبعث الثقة فى نفوسهم ، ثم وضح الأسباب التى ينبغى الأخذ بها للنهوض بمصر ، وهى : محاربة الاستبداد ، والأخذ بنظام الشورى ، وأن هذا لا يكون إلا بحزب من الوطنيين يعملون بروح من الوطنية والاستقلال وعدم التبعية للغرب ، ثم الحفاظ على اللغة العربية وجعلها لغة العلوم والمعارف وإنهاض الصحافة والخطابة .

وختم جمال الدين الأفغانى خطبته عن هذا البرنامج الشامل للإصلاح والنهوض بأنه لا يمكن أن يتم إلا إذا قام به الرجال والنساء على السواء ، ولا يمكن لمجتمع أن يتقدم ونصفه جاهل مشلول الإرادة ، فيقول هذا القول الذى أصبح دستور التلاميذ من بعده :

« ولكنى أجلكم ـ أيها السادة ـ أن تحسبوا أنكم تنالون مزايا المدنية ، وتحوزون المعارف والعلوم ،وتستكملون أسباب التقدم والسعادة ، وتبلغون ذروة المجد والشرف إن كان العلم فيكم مقصورا على الرجال .... بل أعيذكم من أن تجهلوا أنه لا يمكن لنا الخروج من خطة الخسف والجهل ، ومن محبس الذل والفاقة ، ومن ورطة الضعف والخمول ، ما دامت النساء محرومات مَنْ الحقوق ، وغير عالمات بالواجبات ، فإنهن

---

(١)أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ١ مرجع سابق ص ٤٩٨ .

الأمهات التى تصدر عنهن التربية الابتدائية ، والأخلاق الأولية ، ولا شك أن أول ما ينقش فى لوح ذهن الإنسان يكون ثابتا صعب الزوال ، وقد قيل « العلم فى صغر كالنقش على الحجر » وأقول : إن هـذا النقش هـو السبب الأصلى فى اختلاف المـذاهب ، وتنوع المشارب ، فإن وجدت فيه الكدورة ، فلا صفاء فى الذهن ، ولا سلامة فى المشرب ، ولكن إذا كانت الأمهات عارفات بحقوقهن الإنسانية متأدبات على ما تقتضيه أحكام الشرف والمدنية ، فلا شك أن أولادهن يخلقون بأخلاقهن ويكتسبون منهن تلك المزايا الفاضلة ، وعندى أنه إذا حصل التساهل فى تربية المرأة ، وكان رجال الأمة جميعا راسخين فى العلم مترقين فى درجـات الكمال ، فـلا يمكن بقـاء الأمة على تلك الحـال المكتسبة إلا مـدة بقاء أولئك الرجال ، فإذا انقــرضوا وخانهم الأبناء المتخلقون بأخلاق أمهاتهم على ما بهن مـن النقص فى الكمالات العلية ، رجعـت أمتهم إلـى ما كانت عليه مـن الخسـف وسوء الحال ... » .

دعوة محمد عبده فى الوقائع المصرية :

كتب محمد عبده إبان توليه لرئاسة تحرير (الوقائع المصرية) عددا من المقالات الطويلة تتناول شئون المرأة والزواج فكتب عن « حاجة الإنسان إلى الزواج » (١) ، و« حكم الشريعة فى تعدد الزوجات » (٢) ، و « فوائد المصاهرة » (٣) ، و « عوائد الأفراح » (٤) .

وفى هذه المقالات ينقد العيوب الشائعة فى المجتمع المصرى فى مجال الزواج وعلاقة الرجل بالمرأة ، ويضع العلاج لإقامة علاقات صحيحة ، ولعل أهم ما فى هذه المقالات نقده الشديد لعادة شاعت بين المصريين ـ فقراء وأغنياء ـ وهى عادة تعدد الزوجات ، ويتحدث عن الزواج كضرورة اجتماعية ، وأن الاختيار فى الزواج قائم على طبيعة الإنسان ، باعتبار أنها طبيعة مفكرة لها اختيار من جانب ، وأن لديها الميل الغريزى إلى التعاون من جانب آخر ، وكل من الأمرين يتطلب من الإنسان أن يتخير إذا تزوج ، فالأول يميز المرغوب من غير المرغوب فيه ، والثانى يحدد من يمكن التعاون معه (٥) .

أما الزواج بأكثر من واحدة : فيرى الشيخ محمد عبده أن الناس غنيهم وفقيرهم قد اتخذوه لصرف الشهوة ، وغفلوا عن القصد الحقيقى منه ، وهذا لا تجيزه الشريعة ، ولا

---

(١) الوقائع المصرية : فى ٢٧ مارس ١٨٨١ م .
(٢) الوقائع المصرية : فى ٨ مارس ١٨٨١ م .
(٣) الوقائع المصرية : في ١٢ مارس ١٨٨١ م .
(٤) الوقائع المصرية : فى ١٩ مايو ١٨٨١ م .
(٥) الوقائع المصرية : فى ٧ مارس ١٨٨١ م مقال بعنوان : « حاجة الإنسان إلى الزواج » .

يقبله العقل « فاللازم الاقتصار على واحدة إذا لم يقدروا على العدل ـ كما هو مشاهد ـ عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ [1] ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ [2] فهى مقيدة بآية ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ فواجب عليهم أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات ، فيما يجب عليهم شرعا من (العدل) وحفظ الألفة » . ويورد صورة العدل كما يجب أن يكون ، وكما شرعه الإسلام ثم يعلق قائلا : « أفبعد هذا الوعيد الشرعى ، وذاك الإلزام الدقيق الحتمى الذى لا يحتمل تأويلا ولا تحويلا ، يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفاسد ، ومخالفة الشرع الشريف .

كما يجب على الذين يطلبون التعدد أن يتبصروا فيما يجب عليهم شرعا من (العدل) وحفظ الألفة بين الأولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة ، ولا يحملوهن على الإضرار بهم وبأولادهم ، ولا يطلقون إلا لداع ومقتضى شرعى ، شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرمات النساء وحقوقهن ، ويعاشروهن بالمعروف ، أويفارقوهن عند الحاجة .... » [3] .

ويعتبر عبد الله النديم من مدرسة جمال الدين الأفغانى التى تعتبر النهوض بالمرأة وتعليمها وتهذيبها وتوعيتها بحقوقها وواجباتها ـ تعتبر ذلك جزءاً لا يتجزأ من الخطة العامة لإصلاح المجتمع كله ، فلا يعقل ـ فى رأى هذه المدرسة ـ النهوض بالمجتمع وحال النساء ـ نصف المجتمع ـ على ما هن عليه من الجهل والتأخر ، فنراه يكتب مقالين متتالين بعنوان : « تهذيب البنات من الواجبات » [4] يدعو فى الأول إلى ضرورة تعليم البنات القراءة والكتابة وتهذيبهن بالمعارف حتى يكن عونا للرجل فى حفظ ماله وتربية أبنائه ، وهو واجب كبير لو استطعن تأديته بإتقان . وفى المقال الثانى يرجع سبب الفقر والتأخر فى الأسرة وفى المجتمع إلى جهل البنات ، وعدم تهذيبهن وتربيتهن التربية الصحيحة .

وترسل إليه إحدى القارئات تسأله الرأى فى دعوة البعض بالمساواة بين الرجل والمرأة ، فيرد النديم بأنه ليست هناك امرأة مصرية واحدة فيما يتعلق بموضوع المساواة بين الرجل

---

(١) سورة النساء : ٣ . (٢) سورة النساء : ٣ .

(٣) الوقائع المصرية : فى ٨ مارس ١٨٨١ م مقال : « حكم التشريعة فى تعدد الزوجات » .

(٤) مجلة التنكيت والتبكيت : فى ٢٤ يوليو و ٧ أغسطس ١٨٨١ م .

والمرأة ، وأن ما تقوم به المرأة من عمل وما تؤديه من الواجبات هو المعيار الذى يؤخذ به فى المساواة بين الرجل والمرأة ، فالفلاحة أكثر تعبا من الرجل فى الأعمال ولا فرق بينها وبين الرجل ولا تعانى من مشكلة ما ، وفقيرة المدن تساوى الرجل المستقل بعمل لطيف ــ لا النجار والحداد والبناء مثلا ــ والمرأة الغنية لا شغل لها إلا ذاتها اللطيفة ولا عمل لها إلا فيما يختص بالزينة والقلع واللبس والنوم واليقظة وتحايل ربات الرفاهية على مساواة الرجال بدعاويهن غير مقبول عند ذوى الاختيار ... ونحن نقول : « إن غير الفلاحة والفقيرة من النساء لا يساوين الرجال فى شيء من الأتعاب ــ وعلى الخصوص الفتيات اللاتى لا يشتغلن بغير ذاتهن فإنهن على فراش الراحة فى الليل والنهار » (١) .

أثر مدرسة الأفغانى ومحمد عبده فى قاسم أمين :

بدأ قاسم أمين حياته فيما يختص بقضية المرأة محافظا من المحافظين ، فعندما أصدر الدوق داركور الفرنسى كتابه (المصريون) وأرجع فيه تأخر المجتمع المصرى إلى حجاب المرأة وعزلتها وجهلها رد عليه قاسم أمين بكتابه (المصريون) أيضا ــ الذى ألفه بالفرنسية ــ دافع فيه عن الحجاب واعتبره أساسا لحفظ الفضيلة كما دافع عن وجود المرأة فى البيت ؛ لأن هذا هو مكانها ، وأقر فصل مجتمع النساء عن مجتمع الرجال ، وأقصى ما طالب به هو أن تحظى المرأة ببعض التعليم حتى إذا سألها طفلها استطاعت أن تجيبه إجابة صحيحة ، ولم يحدد الطريقة التى تتعلم بها ــ فى المدرسة أم فى المنزل .

ولكن هذه الآراء التى دعا إليها قاسم أمين كانت عكس الاتجاه الذى نادت به مدرسة الأفغانى ومحمد عبده فى تحرير المرأة من الجهل والخرافة والسلبية ، ومنحها حقوقها ، وأدائها لواجباتها ، وكانت الصلة بين محمد عبده وقاسم أمين قائمة منذ زمن قبل تأليف قاسم أمين لهذا الكتاب ، فقد التقيا حين كان محمد عبده يشارك فى إصدار « العروة الوثقى » فى باريس ، وكان قاسم أمين يدرس الحقوق هناك ، وعمل أثناءها مترجما للشيخ محمد عبده (٢) .

ولكن مرحلة « العروة الوثقى » هذه غلب عليها الكفاح السياسى لصد الهجمة الاستعمارية عن العالم الإسلامى ، ولم يكن فيها مجال للمسائل الاجتماعية مثل قضية المرأة .

ولكن كان من الطبيعى أن يقوم حوار بين قاسم أمين بنزعته المحافظة ، وبين الشيخ

(١) مجلة الأستاذ : فى ٤ أكتوبر ١٨٩٢ م مقال بعنوان : « المساواة بين الرجال والنساء » .

(٢) د . محمد عمارة : الأعمال الكاملة لقاسم أمين ــ ص ٢١ .

محمد عبده ممثل مدرسة جمال الدين الأفغانى وأستاذها فى ذلك الوقت ، والتى ترى أن النهوض بالمجتمع كله لا يتم إلا إذا شاركت فيه المرأة ـ نصف المجتمع ـ وذلك بما يتلائم مع طبيعتها ، وأن الحقوق التى يجب أن تمنح للمرأة هى الحقوق التى منحها لها الإسلام ، وقد سواها بالرجل مع وجود بعض الاعتبارات التى تخص طبيعة كل منهم ، وقد اتخذت هذه المدرسة من الصحافة أهم وسيلة لدعوتها تلك .

تطور فكر قاسم أمين فى قضية المرأة :

بدأ قاسم أمين كتاباته فى قضية المرأة محافظا يدافع عن حجاب المرأة بمعناه المتعارف عليه عند نساء الطبقة المتوسطة فى المدينة فى عصره ... الحجاب بمعنى أن تضع المرأة النقاب على وجهها ، ويكون لها مجتمع قائم بذاته منفصل عن مجتمع الرجال ، ويظهر ذلك بوضوح فى كتابه (المصريون) .

فقد أصدر الدوق داركور كتابا باللغة الفرنسية سماه (المصريون) ١٨٩٣ م امتلأ بالهجوم عليهم ، وحاول فيه الطعن على الإسلام والمسلمين ، وهاجم المرأة المسلمة حسب الصورة التى ظنها ، وأرجع تأخر المسلمين إلى ما ظنه تعاليم الإسلام فى عزلة المرأة وسلبيتها .

ورد عليه قاسم أمين ١٨٩٤ م بكتاب بالفرنسية سماه (المصريون) أيضا ، دافع فيه عن النقاب التى تغطى به المرأة وجهها وحبذ أن يكون للرجال مجتمعهم والنساء مجتمعهم ، وهاجم الاختلاط السائد فى المجتمعات الغربية ، ودمغ الرجال والنساء فى أوروبا ـ غالبا ـ بالتحلل والافتقار إلى العفة وصيانة الأعراض (١) .

وفى هذا الكتاب يرى قاسم أمين أن الشريعة الإسلامية كما فرضت عزلة مجتمع النساء عن مجتمع الرجال ، كذلك فرضت عزلة مجتمع الرجال عن مجتمع النساء ، فهناك مساواة فى هذا المجال يقول : « إن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله بل ويفعلنه وكل ما هو مباح لنا مباح لهن ، وكل ما هو محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرم علينا نحن الرجال أن ندخل مجتمع النساء ، فيبدو لى من

---

(١) ظل كتاب (المصريون) لقاسم أمين حبيس أصله الفرنسى إلى أن ظهرت ترجمته فى الأعمال الكاملة لقاسم أمين ـ دراسة وتحقيق الدكتور محمد عمارة ـ طبعة بيروت ١٩٧٦ م ترجمة محمد البخارى ـ انظر : الأعمال الكاملة لقاسم أمين جـ ١ ص ٢٤٧ ، وقد أدت هذه الترجمة إلى معرفة ما حدث لفكر قاسم أمين من تطور فى هذه القضية وتحليل أسبابه ونتائجه ، وهو ما نعرض له فى هذا الفصل .

الطبيعى أن يقع نفس التحريم على نسائنا ، وإننى أكرر من وجهة النظر هذه أن وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما » (١) .

وهو يرى ـ فى هذا المرحلة من حياته وفكره ـ أن فصل مجتمع الرجال عن مجتمع النساء هو التطبيق الأمثل لوصايا الدين وتعاليمه « لأن ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقبلن بينهن رجلاً واحدا ، ولقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذرى على مصدر الشر » (٢) .

ويصور عادة الاختلاط فى أوربا بأنها تؤدى إلى فقدان المرأة عفتها ، وإلى تفريط الرجل فى عرضه ، ويقارن بين هذا وبين المواقف والعادات والتقاليد الشرقية فيقول :

« إنه على نقيض العادات والتقاليد الأوربية ، التى يبدو أنها خلقت لنشر المتعة على الأرض ، تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة . إن فى العالم الإسلامى مفكرين متحررين ، وملاحدة متشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوربية فى كل تفاصيل حياتهم غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الأوربية ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود .

إن عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل إلى نسائنا روحا ما زالت نقية ، وقلبا ما زال مكتمل الحنان ، وحواس أكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم ، فالزواج عندنا بداية ، فى حين أنه عندهم تقريبا ـ دائما ـ نهاية » (٣) .

وهو كذلك ضد فرض أية قيود من أجل علاج بعض العادات التى شاعت فى عصره من سوء استخدام الرجال لحقهم وإسرافهم فى الطلاق وتعدد الزوجات (٤) .

هكذا كان موقف قاسم أمين من قضية المرأة فى كتابه (المصريون) سنة ١٨٩٤ م ، وهو ما وصل إلى نقيضه تماما فى كتابه : « تحرير المرأة » الذى أصدره سنة ١٨٩٩ م وهو ما يجعلنا نتساءل عما أدى إلى هذا التطور فى فكره .

---

(١) قاسم أمين : المصريون ـ فى الأعمال الكاملة جـ ١ مرجع سابق ص ٢٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٨٥ و ٨٧ و ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

وهناك ملاحظة أخرى ـ قبل أن نجيب على هذا التساؤل ـ وهى أن التطور الفكرى الذى حدث لقاسم أمين يتصل بتحديد رأى الشرع الإسلامى من القضايا التى كانت مثارة يؤمئذ بين الباحثين فى قضايا الأسرة والمرأة وشئونها ، وبالتحديد فى قضايا الحجاب وعمل المرأة وتعليمها . والطلاق وتعدد الزوجات ، حيث حدث تطور لفكره فيما يتصل بهذه القضايا فى كتاب تحرير المرأة .

ففى الحجاب :

لم يطلب قاسم أمين سفور المرأة ، ولا بخلوة المرأة برجل ليس بمحرم ، وإنما طالب بكسر أسوار العزلة التى تمنع الرجال من التعامل مع مجتمع النساء ، وتحريرها من الحجاب الذى يعوقها عن ممارسة ما أباحه لها الشرع من أعمال ووظائف طبيعية وضرورية ودعا إلى الحجاب الشرعى وفق آراء الفقهاء ، ويقول فى ذلك :

« ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة لكن الحقيقة غير ذلك ، فإننى لا أزال أدافع عن الحجاب ، وأعتبره أصلا من أصول الآداب التى يلزم التمسك بها غير أننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية ، وهو على ما فى تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة فى الاحتياط والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة » .

« والذى أراه ـ فى هذا الموضوع ـ هو أن الغربيين قد غلوا فى إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب عليها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى مطلب التحجب ، والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التى أعدت لها بمقتضى الفطرة الإنسانية وبين هذين الطرفين وسط هو الحجاب الشرعى وهو الذى أدعو إليه » (١) .

وهو ينفى أن الحجاب المتعارف عليه فى عصره تنفيذ لتعاليم الإسلام ، فهو عادة لا شرع ، فيقول « إن الأوامر الإلهية يجب الإذعان لها دون بحث ولا مناقشة ، ولكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة ، وإنما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين والدين منها براء » (٢) .

---

(١) قاسم أمين : تحرير المرأة في الأعمال الكاملة جـ ٢ ـ مرجع سابق ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٥ .

ويقول : « إن الشريعة خولت للمرأة ما للرجال من حقوق وألقت عليها تبعة أعمالها المدنية والجنائية ، فللمرأة الحق فى إدارة أموالها والتصرف فيها بنفسها ، فكيف يمكن للرجل أن يتعاقد معها من غير أن يراها ويتحقق من شخصيتها ؟ » .

وكذلك يورد ما أباحته الشريعة للمرأة الفقيرة والتى لا عائل لها أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ، وأنها تقف أمام القضاء خصما أو شاهدا ، وما أباحته الشريعة للخاطب أن ينظر إلى المرأة التى يريد أن يتزوجها ، عملا بالحديث الشريف « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » . ثم يعلق على ذلك قائلا :

« هذه النصوص وروايات الأحاديث ، وأقوال أئمة الفقه كلها واضحة وجلية فى أن الله تعالى قد أباح للمرأة كشف وجهها وكفيها ، وذلك للحكم التى لا يصعب إدراكها على كل عقل » .

« وهذا حكم الشريعة الإسلامية كله يسر ولا عسر فيه ، لا على النساء ولا على الرجال ، ولا يضرب بين الفريقين بحجاب لا يخفى ما فيه من الحرج عليهما فى المعاملات ، والمشقة فى أداء كل منهما ما كلف به من الأعمال سواء كان تكليفا شرعياً أو تكليفا قضت به ضرورة المعاش » (١) .

ثم يتحدث عما يتعلق بالحجاب بمعنى قصر المرأة فى بيتها ، والحظر عليها أن تخالط الرجال فيقول « إن غاية ما ورد فى كتب الفقه عنه حديث النبى ﷺ « لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذى محرم » وأباح تعامل النساء مع الرجال فى الحالات التى تنتفى فيها هذه الخلوة وذكر هذه الحالات » (٢) .

وبعد أن كان يرى فى (المصريون) حق الرجل فى تعدد الزوجات مع العدل والنفقة ، عاد فى (تحرير المرأة) ينقد هذه العادة ويبين ما ينتج عنها من مضار مثل عدم القدرة على العدل بين الزوجات ، وفساد العائلات وتعدى الحدود الشرعية ، وقيام العداوة بين العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك إلى حد يكاد يكون عاما ، مما يبيح للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة » (٣) .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥١ ، ٥٢ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

وبعد أن كان قاسم أمين يقول فى (المصريون) : « أنا لا أفهم أن يقيم الإنسان دعوى ليحصل على الطلاق فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى » [1] . نراه فى (تحرير المرأة) ينقد إسراف الرجال فى استخدام حق الطلاق بلا مبرر ، ويقترح أن يسن تشريع يكون فيه الطلاق أمام القاضى أو المأذون وأمام شهود ، وأن يبين له القاضى أو المأذون ما فى الطلاق من ضرر فإن أصر يختار حكمين لمحاولة الإصلاح ، فإن أخفقا تم التطليق بحضور الشهود [2] ، وذلك للتحقق من قصد من يريد الطلاق وجديته وتقديره لمسئولية ما هو مقدم عليه .

مشاركة الشيخ محمد عبده فى كتاب (تحرير المرأة) :

رأينا أن التطور الفكرى لقاسم أمين كان فى تحديد رأى الشرع الإسلامى من القضايا التى كانت مثارة بين الباحثين حول الأسرة والمرأة وشئونهما ، وبالتحديد قضايا الحجاب وعمل المرأة وتعليمها ، والطلاق وتعدد الزوجات .

ويرجع هذا التطور إلى اتصال قاسم أمين بالشيخ محمد عبده والحوار الذى دار بينهما فى هذا الموضوع ، والذى أدى إلى اشتراك الشيخ محمد عبده فى هذا الكتاب بكتابة المقالات الخاصة بالنواحى الفقهية والشرعية فيه [3] ، والذى جعل قاسم أمين ــ بعد أن كان محافظا على الأوضاع والتقاليد القائمة ــ يتبنى فكر مدرسة الأفغانى ومحمد عبده فى قضية المرأة من تعليمها وإعطائها حقوقها الشرعية والنهوض بها كجزء من الخطة الشاملة لإصلاح المجتمع كله ، أما الأدلة على ذلك فهى :

١ ــ فى الكتاب الذى وضعته الدكتورة درية شفيق ــ ابنه أحمد شفيق باشا ــ بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم عبده عن : (تطور النهضة النسائية فى مصر) ، نقرأ صراحة أن الذى شارك قاسم أمين فى هذا العمل هو الأستاذ الإمام ، فيقول الكتاب : « أما الأمور التى عالجها الشيخ محمد عبده من الناحية الدينية فيما يختص بحقوق المرأة « فقد تناولها قاسم أمين بالبحث من الناحية الاجتماعية ، وقد وجدت آراء قاسم أمين تأييدا تاما من الشيخ محمد عبده ، وحدث فى عام ١٨٩٧ م أن اجتمع الأستاذ الإمام وسعد

(١) قاسم أمين : المصريون ، وفى الأعمال الكاملة جـ١ مرجع سابق ص ٢٩٠ .

(٢) قاسم أمين : تحرير المرأة فى الأعمال الكاملة جـ٢ مرجع سابق ث ١٠١ ــ ١٠٤ .

(٣) وهى مقالات : « حجاب النساء من الوجهة الدينية » و « الزواج » و « الطلاق » و « تعدد الزوجات » .

باشا زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين فى جنيف ، وأخذ الأخير يتلو على الإمام بعض فصول من كتابه تحرير المرأة ، فكان يوافق على ما فيها ، وقيل إن بعض فقرات هذا الكتاب تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه » (١) .

٢ ـ أن رونالد ستورز السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى عهد كرومر ، تعرض لهذا الموضوع فى كتابه المعروف باسم (شرقيات) ، فقال ما ملخصه إن ما كتبه قاسم أمين فى كتاب (المصريون) ، ومقالاته فى صحيفة (المؤيد) فى هذه الفترة أغضبت الأميرة نازلى فاضل التى كانت تسعى إلى تعليم المرأة ورفع مستواها ، وطلبت من الشيخ محمد عبده أن يناقشه فى آرائه هذه وتصحيحها له ، وأنها مستعدة أن تجادله بالحسنى قبل أن تهاجمه علنا ، وصحب محمد عبده قاسم إلى صالون نازلى فاضل ، وهناك وبتأثير الشيخ محمد عبده حدث لأفكاره التطور المعروف .

« ولما كانت أداته فى التعبير هى الكتابة ، وكان قد استعمل هذه الأداة فى شجب المرأة المصرية ، دفعته شجاعته الأدبية أن يكتب ما يناقض ما سبق له كتابته ولم يصر على ما فعل » .

« نشر أول مقالة له بعد تحوله إلى النقيض فى (المؤيد) فى ١٥ مايو ١٨٩٩ م ، والثانية فى ٢٠ مايو ، والثالثة فى ٢٨ مايو . ثم جمعت فى كتاب سماه (تحرير المرأة) صدر فى نفس العام مما يبين نجاح واكتساح هذه المقالات للرأى العام » (٢) .

٣ ـ حين نشرت المؤيد مقالات (تحريرالمرأة) توقف النشر عند المقالات التى كتبها قاسم أمين ، أما المقالات التى كتبها الشيخ محمد عبده فظهرت معها حين جمعت فى كتاب ، فقد نشر (المؤيد) مقال : « حالة المرأة فى الهيئة الاجتماعية تابعة لحالة الآداب فيها » فى ٢٠ مايو ١٨٩٩ م و « تربية المرأة » فى ٢٨ مايو ١٨٩٩ م ، وتكملة له بعنوان : « أما بالنسبة للوظيفة العائلية » فى ٢٩ مايو ١٨٩٩ م ثم توقف النشر ، والمعروف أن المقال التالى مباشرة لما تم نشره ، وهو « حجاب المرأة من الوجهة الدينية » . ينسب إلى الشيخ محمد عبده ، ولم تنشر المقالات الأخرى التى تنسب إليه إلا فى كتاب تحرير المرأة .

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ١ مرجع سابق ص ٢٥٣ .

(٢) د . السيد فهمى الشناوى : صالون ناظلى هانم ـ مجلة الهلال ـ القاهرة سبتمبر سنة ١٩٨٢ م .

٤ ـ أن القضايا المتصلة برأى الشريعة الإسلامية ، وهى التى تغير منها فكر قاسم أمين تغيرا حادا منذ كتاب (المصريون) ، وهى التى أثارت فى نفس الوقت أوسع الجدل حول كتاب (تحرير المرأة) وأهمها الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، هذه القضايا كان الشيخ محمد عبده قد أعلن رأيه فيها كما جاء فى (تحرير المرأة) ، ولكن فى مواضع أخرى غير الكتاب ، حتى إن أحد هذه الآراء عن تعدد الزوجات كان الشيخ محمد عبده قد أعلنه فى (الوقائع المصرية) قبل صدور (تحرير المرأة) بما يقرب من ثمانية عشر عاما :

أ ـ أن نقده لسوء استخدام الرجال لحقهم فى تعدد الزوجات وخروجهم عن الحكمة الشرعية له ، والأضرار التى تنتج عنه ، والذى جاء فى كتابه (تحرير المرأة) (١) . يكاد يكون هو بنصه النقد الذى وجهه فى « الوقائع المصرية » فى مقاله بعنوان : « حكم الشريعة فى تعدد الزوجات » فى ٨ مارس ١٨٨١ م ، كما أبدى هذا الرأى ـ يكاد يكون بنصه أيضا ـ فى فتوى تجيز للحاكم ، أو للقائم على الشرع أن يمنع تعدد الزوجات الذى يغلب عليه عدم إمكان العدل ، والتقصير فى النفقة ، وفساد الأسر ، والذى لا تلجئ إليه ضرورة (٢) .

ب ـ أن الاقتراح الذى ورد فى كتاب (تحرير المرأة) بجعل الطلاق يتم أمام القاضى ، وأن يبعث القاضى حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة للإصلاح قبل وقوع الطلاق ـ هذا الاقتراح جاء بنصه فى فتوى للإمام محمد عبده حينما كان مفتيا للديار المصرية (٣) ، وهذا دليل آخر على أن مقال (الطلاق) فى كتاب تحرير المرأة هو للإمام محمد عبده .

٥ ـ الاختلاف بين الكاتبين فى المنهج والمراجع وأسلوب الكتابة ، ففى المقالات التى كتبها قاسم أمين تبدو قسمات المنهج الاجتماعى عنده ، وهو المنهج الذى تأثر فيه بالمفكرين الأوربيين فى الفترة التى قضاها فى فرنسا (١٨٨١ م ـ ١٨٨٥ م) (٤) ، أما فى المقالات التى كتبها الإمام محمد عبده : الحجاب الشرعى ، الزواج ، تعدد الزوجات

---

(١) قاسم أمين : تحرير المرأة ـ فى الأعمال الكاملة جـ ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٢ مرجع سابق ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٣) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده جـ ٦ مرجع سابق ص ٣٨٣

(٤) د . إبراهيم الهوارى : فكرة المنهج الاجتماعى عند قاسم أمين ـ مجلة الكويت يناير سنة ١٩٨١ م ص ١٥ .

والطلاق ، فى هذه المقالات نلتقى بمجموعة من الآراء الفقهية والمناقشات لا يستطيع أن يبحثها ، ولا أن يستخلصها قاسم أمين إذا وضعنا فى اعتبارنا كتاباته وثقافته بصفة عامة ، كما نجد أحكاما كلية تدل على أن صاحبها ومصدرها قد استقصى بحث الأمر فى جميع مصادره الرئيسية فى الفكر الإسلامى على اختلاف مذاهبه وتياراته الفكرية ، وهو الأمر الذى لا يستطيعه إلا الإمام محمد عبده (١) .

أما المراجع التى يرجع إليها قاسم أمين فى تحرير المرأة فنجد أسماء مؤلفين مثل : (لاروس) و (ريناان) و (دودريه) و (زولا) و (فولتير) (٢). وأما مراجع الإمام محمد عبده فنجده يعتمد على الكتاب والسنة وكتب التفسير والحديث ، فينقل عن تفسير الطبرى وعن الإمام الغزالى ، وعن (حواشى ابن عابدين) ، وعن كتاب (الروضة فى المذهب الشافعى) ، وعن كتاب (تبيين الحقائق فى شرح كنز الدقائق) لعثمان بن على الزيلعى ، وعن كتاب (حسن الأسوة) للسيد محمد صديق خان بهادر ، وعن (تاريخ الرسل والملوك) للطبرى ، مع الغوص فى هذه المراجع والاقتباس عنها ، وتوثيق النصوص المقتبسة بذكر اسم المرجع ورقم الجزء ورقم الصفحة فى صلب الكتاب وفى هوامشه كما يصنع كبار المحققين (٣) .

أما من ناحية الأسلوب ، فنحن إذا أمعنا النظر فى كتابات قاسم أمين وجدناها متحلية بزينة الأسلوب الأدبى ، فيها حلاوته وطلاوته ، وفيها أحياناً شاعريته ، وهى صفات لا نجدها أبدا عند الأستاذ الإمام ، الذى نشعر ونحن نقرأ له أن العقل هو الذى يلقى إلينا بالجمل والكلمات (٤) ، والذى يطيل القراءة لكل من الكاتبين لا يلبث أن يميز أسلوب كل منهما فى مقالاتهما فى كتاب (تحرير المرأة) .

٦ ـ موقف مجلة المنار : أثبتنا فى فصول سابقة بأقوال محمد عبده ورشيد رضا أن (المنار) هى حاملة دعوة الإمام محمد عبده الإصلاحية ، وقد رأينا تشابها فى منهج الإصلاح بين (الوقائع المصرية) إبان تولى محمد عبده رئاسة تحريرها ، وبين مجلة المنار هذا المنهج الذى يقوم على إصلاح التربية والتعليم والأخلاق ، ومحاربة البدع والخرافات والعادات الضارة .

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ، جـ ١ مرجع سابق ص ٢٥٨ .

(٢) Larousse , Rinan , Daudet , Zola , Voltair .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٠ .

(٤) الأعمال الكاملة لقاسم أمين ، جـ ١ مرجع سابق ص ١٤٣ .

وموقف (المنار) من كتاب (تحرير المرأة) يؤيد الرأى القائل باشتراك الشيخ محمد عبده فى تأليف الكتاب بالموضوعات المتعلقة بالشريعة الإسلامية ، وقد قدم رشيد رضا الكتاب وقرظه ، ودافع عما جاء به من آراء فى أكثر من مقال ، فكتب مقالا بعنوان : (الكتابان الجليلان) قرظ فيه كتابى (تحرير المرأة) لقاسم أمين و (سر تقدم الإنجليز السكسونيين) ترجمة أحمد فتحى زغلول ، وقال عن كتاب (تحرير المرأة) : « وددت لو ينشر فى المنار . . . حكمة رائعة فى عبارة بارعة ، ومعنى دقيق فى لفظ رقيق ، وما رأيت مكتوبا فى الأنام جعل الحكمة على طرف التمام مثل الذى رأيت فى هذا الكتاب » (١) .

كما نشر رشيد رضا مقالا بعنوان : « كلمة فى الحجاب » تعليقا على ما سببه كتاب (تحرير المرأة) من خلاف فى الرأى حول هذا الموضوع ، والمقال تأييد وتأكيد للآراء والأفكار التى جاءت فى مقال « حجاب المرأة من الوجهة الدينية » فى كتاب تحرير المرأة ، وإذا كانت (المنار) هى ترجمان أفكار محمد عبده كما صرح هو بذلك وكما صرح رشيد رضا ، فإن هذه قرينة على دور محمد عبده فى كتاب (تحرير المرأة) ، وختم رشيد المقال بقوله : « لو كانت عوائدنا فيما يتعلق بالنساء لها أساس فى شريعتنا لكان فى ميلنا إلى المحافظة عليها ما يشفع لنا ، أما وقد برهنا على أن كل ما عرضناه من أوجه الإصلاح يتفق تمام الاتفاق مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فلم يبق لنا عذر فى التمسك بها سوى أنها قد تقدست بمرور الزمان الطويل وأننا غفلنا عن مصالحنا وتدبير شئوننا » (٢) ، كما نشر فى نفس العدد خاتمة كتاب (تحرير المرأة) .

ومن مظاهر تأييد رشيد رضا لآراء (تحرير المرأة) أنه نشر فى (المنار) قصيدة لحافظ إبراهيم يؤيد فيها دعوة قاسم أمين يقول فى مطلعها :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقهوا فى السفر ما أنت كاتبه

إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالة ... فمنذا تناديه ؟ ومنذا تخاطبه (٣) .

وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به الشيخ محمد عبده ومجلة (المنار) فى مجال (تحرير المرأة) ، فإن هذا الدور لم يلفت انتباه الباحثين أو يستحوذ على

(١) مجلة المنار : ١٥ يوليو ١٨٩٩ م .

(٢) مجلة المنار : ٢٦ أغسطس ١٨٩٩ م .

(٣) مجلة المنار : ٢٠ يناير ١٩٠١ م .

اهتمامهم ، ربما جريا وراء فكرة خاطئة مؤداها أن علماء الدين يميلون إلى التحفظ فى قضية تحرير المرأة ، فنجد تشارلز آدمس فى كتابه (الإسلام والتجديد فى مصر) لا يستحوذ منه هذا الموضوع إلا على عبارة مختصرة وخاطئة فى نفس الوقت ، فهو يعلق على موقف (المنار) من كتاب (تحرير المرأة) وقاسم أمين فيقول : « وكان حكم « المنار » عليه أنه إلى رجال الفكر أقرب منه إلى رجال العمل ، وله نظرات فى الدين والاجتماع هى أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة » [1] ، ولكن ما قدمناه عن دور الشيخ محمد عبده ومجلة (المنار) يبين الخطأ التام فى عبارة تشارلز آدمس المذكورة .

الاتجاه الغربى فى تحرير المرأة

إذا كان تيار الصحافة الإسلامية والكتاب الإسلاميين فى مصر هو التيار الأصيل فى تحرير المرأة على النهج الإسلامى ، فقد وجد تيار آخر يناقضه فى الفكر والسياسة والصحافة المصرية ، يريد أن يجعل حركة تحرير المرأة حركة أوربية صرفة ، وامتداداً مباشرا لحركة تحرير المرأة فى أوربا وتقليدا أعمى لها ، ووجد هذا التيار أنصارا له فى واقع الحياة المصرية ، فى أعضاء البعثات العائدين من أوربا ، ومن الذين تعلموا فى المدارس الأجنبية وممن انبهروا بمظاهر الحضارة الغربية مع ضعف ثقافتهم الإسلامية بصفة عامة ، وغيرهم .

ونأخذ لهذا التيار ثلاثة نماذج تعبر عنه ، فى الفكر : كتاب الدكتور لويس عوض (تاريخ الفكر المصرى الحديث) ، وفى السياسة : اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى عهد الاحتلال ، وفى الصحافة مجلة (الفتاة) التى أصدرتها هند نوفل سنة ١٨٩٢ م .

أما الدكتور لويس عوض فيأخذ بعض عبارات من (الجبرتى) ويلوى هذه العبارات ، ويحملها فوق طاقتها ثم يستخلص منها أن اختلاط المصريين بالفرنسيين أحدث (ثورة نسائية) وحركة لتحرير المرأة ، فينقل عن الجبرتى عبارات مثل قوله :

« ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء ، وهو أنه لما حضر

(١) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، مرجع سابق ص ٢٢٣ .

الفرنسيس إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم ، وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن » .

« وكان ذلك التداخل أولا مع بعض الاحتشام وخشية العار ومبالغة فى إخفائه ، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيس بولاق ، وفتكوا فى أهلها وغنموا أموالها ، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم ، فزيوهن بزى نسائهم ، وأجروهن على طريقتهن فى كامل الأحوال ، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية » (١) .

وينقل عن الجبرتى قوله : « وأما الجوارى السود فإنهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الأنثى ذهبن إليهم أفواجا فرادى وأزواجا ، فنططن الحيطان ، وتسلقن إليهم من الطيقان ، ودلوهم على مخبآت أسيادهم ، وخبايا أموالهم ومتاعهم ، وغير ذلك » (٢) .

والذى يهمنا هنا هو أن نعرض ما استنتجه الكاتب من عبارات الجبرتى فيما يختص بحركة تحرير المرأة فى مصر ثم نعرض رأينا فى استنتاجاته .

فالكاتب يفسر ــ أولا ــ كلمة (غالبهن) فى العبارة الأولى أن غالبية المصريات تبرجن وخرجن عن الحشمة والحياء (٣) . وهذا تفسير غير مقبول عقلا إذا وضعنا فى الاعتبار حالة العصر ، والمعقول أن اللاتى تبرجن وخرجن عن الحشمة والحياء (غالبية) الفرنسيات ومن مالت إليهن نفوسهن من النساء (الأسافل والفواحش) حسب تسمية الجبرتى لهن .

أما المأسورات من النساء والبنات فى حرب بولاق ممن ذكرن فى العبارة السابقة واللاتى خلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية ، فهؤلاء كن مكرهات تحت قهر الأسر .

ويقول الكاتب : « والذى يفهم من كلام الجبرتى إذا قبلناه بحذافيره ، هو أنه كانت هناك « ثورة نساء » ، « أو ثورة حريم » فى مصر أو على الأقل فى القاهرة سنة ١٨٠٠ م »

---

(١) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، حـ ٢ القاهرة ١٩٦٩ م ص ٣٣ .

(٢) د . لويس عوض : المرجع السابق ص ٣٥   (٣) المرجع السابق ص ٣٦ .

ونحن لا نرى في عبارات الجبرتي التي ساقها الكاتب ما يمكن أن نستخلص منه ذلك .

ولعل أغرب استنتاج يأتي به الكاتب تعليقا على عبارة الجبرتي السابقة عن الجوارى السوداء قوله : « وربما كان أهم ما ورد في الجبرتي عن موضوع تحرير المرأة ، تلك الفقرة التي تصور هرب (الجوارى السود) من بيوت أسيادهن والتجائهن إلى الفرنسيين طلبا للحرية ، لما علمن رغبة القوم في « مطلق الأنثى » ، أى تحرير المرأة كما نقول اليوم أو إطلاقها من عقالها ، ويبدو أن هذه الانطلاقة المفاجئة كانت مقترنة « بألوان من المغامرة العنيفة » (١) .

فأى علاقة بين تحرير المرأة وبين هروب (الجوارى السود) من أسيادهن المنهزمين إلى أسياد جدد منتصرين ، وكان نظام الرق ما يزال موجودا ، وهؤلاء استبدلن رقا برق ، وبأى عقل نفهم معنى رغبة القوم ــ الفرنسيين ــ في « مطلق الأنثى » على أنها رغبتهم في تحرير المرأة ، ولكن الكاتب يلوى الحقائق ، ويستنتج من العبارات ما ليس فيها ويحملها ما لا تطيق ، رغبة منه في جعل حركة تحرير المرأة في مصر حركة أوربية صرفة ، وامتدادا لهذه الحركة في الغرب مع استبعاد أى ذكر للتوجيه الإسلامي فيها .

ويمثل كرومر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ــ السلطة السياسية ــ التي اتبعت الاتجاه التغريبي في تحرير المرأة ، حيث يذكر في كتاباته أن إضعاف العقيدة الدينية عند المرأة المسلمة هو شرط لتقدم فكرها وشخصيتها على النمط الأوربي فيقول : « إن وضع المرأة في مصر ــ وفي البلدان الإسلامية عامة ــ يقف عقبة صعبة في سبيل أى تقدم في التفكير والشخصية ، وهو ما يجب أن يصاحب انتشار الحضارة الغربية ، إذا أردنا أن نجتنى ثمارها في مصر » (٢) .

ويقول : « وبالرغم من أن عقيدة المرأة المسلمة أضعف من عقيدة الرجل ، فإن تمسكها واحترامها للعادات والتقاليد الإسلامية قوى كقوته في الرجل ، وأن الرجل المصرى الآخذ بالحضارة الغربية أصبح (لا أوربيا) في عقيدته ، وأصبح مقلدا للجوانب الأقل أهمية في الحضارة الغربية ، وأنا لا أجد مانعا في بث هذه اللادراية في عقيدة المرأة المسلمة طالما أن عقيدتها أضعف من عقيدة الرجل » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١ .

(٢) Cromer : Ibid V . II P . 539 .

(٣) Cromer Ibid . V . II P . 541 .

ويطالب كرومر بإطالة فترة تعليم الفتاة ورفع مستواها ؛ لأن ذلك يمكنها من أن تمارس تأثيرا على الرجال فى مجال الأخذ بالحضارة الغربية (١) .

وقد عمل كرومر على نشر التعليم بين الفتيات المصريات ، وظن أن تعليم البنت المصرية وتلقينها الثقافة الإنجليزية ، يهيئ الفرصة لوجود جيل من الأبناء يحب الإنجليز ويعطف عليهم (٢) .

المجلة النسائية الأولى فى مصر وصبغتها الإنجليزية :

وتجاوبا مع هذا التيار التغريبى فى مجال المرأة ، ظهرت فى مصر أول مجلة نسائية ١٨٩٢ م ، لكنها كانت ذات صبغة إنجليزية ورحبت بها الصحف الموالية للاحتلال الإنجليزى (٣) ، وهى مجلة الفتاة لهند نوفل .

فمنذ عددها الأول وفى أعداد تالية أشادت « بجلالة ملكة إنجلترا ، وهى ملكة المملكة المتحدة فى بريطانيا العظمى ، وأيرلندا ومن مهاجريها وملحقاتها فى أوربا وأسيا وإفريقيا والأوقيانوس ، وحامية الدين والإيمان وإمبراطورية الهند » (٤) .

وحاولت المجلة أن تعلى من القيم السائدة فى مجال العلاقات الأسرية فى إنجلترا ووضعها نموذجا للاقتباس أمام المرأة المصرية فى مثل قولها « فالحياء من أجل الصفات المعتبرة فى النساء ، وحسبنا شاهدا ما نراه من التقليدات الإنجليزية ، فإن الرجل منهم لا يقدر أن يأتى بأى عمل يؤدى بتكدير حاسات النساء ، ولا أن يتلفظ بأقل كلمة ذات معان كثيرة احتراما وإجلالا لهن ، وهكذا من واجب المرأة الإنجليزية مع ما هى عليه من السلطة الإدارية والسيادة الأدبية ألا تخرج من بيتها بدون رأى زوجها » (٥) .

وطالبت المجلة بالحقوق السياسية للنساء منوهة بما حصلت عليه المرأة الإنجليزية من الحقوق ، وما أعطاها القانون الحديث من المكانة الاجتماعية والسياسية « وأنهن فى المجال السياسى نلن نصيبا من الحقوق العامة ، وخصوصا حق الانتخاب ، وكانت النساء عامة تحت إمرة الرجل ، إلى أن قام الفيلسوف الإنجليزى ستيوارت مل وكتب فى استعباد

---

(١) Cromer Ibid . V . II P . 540 .

(٢) عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث جـ ٢ القاهرة د . ت ص ١٦ .

(٣) جريدة المقطم وجريدة وادى النيل : فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٢ م .

(٤) مجلة الفتاة : فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩٢ م وفى أول يناير ١٨٩٣ م .

(٥) المصدر السابق : أول مارس ١٨٩٣ م .

النساء ، أما اليوم فقد انقلبت الآية ، وأصبحت المرأة الإنجليزية متصرفة بنفسها ، حرة فى شغلها وفى المبالغ التى تستثمرها وما تملكه ، وعليه يكون الانقلاب تماما فى أسر النساء من حيث القانون الخاص الذى كان لتغييره أعظم تأثير على القانون العام اجتماعيا وسياسيا ، إذ إن المرأة الإنجليزية عندما أصبحت أمينة على مالها وملكها وحقوقها طلبت التعليم ، وإذا تعلمت طلبت الحقوق السياسية ؛ لأنها اعتبرت نفسها أحق بالانتخاب من رجال كثيرين هى أسمى منهم »[1] .

وتتجاوز الصحيفة ذلك إلى مطالبتها بتولى المرأة المناصب السياسية العليا مساواة لها بالرجال ، « فللمرأة فى السياسة مناقب لا تقصر عمالها فى سواها ، ولو فتحنا التاريخ وجمعنا أسماء الملوك والملكات لوجدنا أن النساء هن اللواتى برهن فى أغلب الأحيان على تمام الأهلية للحكم »[2] .

وهكذا أظهرت الصورة فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر تيارا إسلاميا يجاهد من أجل رفع مستوى المرأة ، وتحريرها من الجهل والخرافة والسلبية لتشارك بنصيبها فى النهضة الشاملة ، وكانت دعوة هذا التيار قائمة على أساس الشريعة الإسلامية ومبادئ الإسلام مع مقاومة العادات القديمة الضارة من جانب ، والدعوات التغريبية من جانب آخر ، وهو تيار ثرى بفكره وكبار كتابه وصحفه ، وتيار آخر مقلد للغرب يتبعه فكريا وثقافيا وتقليدا فى واقع الحياة ، وهذا التيار وجد له أتباعا تعلموا على المناهج الغربية سواء فى مصر أو فى خارجها ، وفى غيرهم ممن انبهروا بالحضارة الغربية بدون تفكير أو نقد ، وفى الكتاب الذين حاولوا تأصيله والترويج له ، وفى سلطة الاحتلال تدعمه ، وفى صحف تدعو له مثل صحيفة (الفتاة) المذكورة وصحف الاحتلال الأخرى .

---

(١) مجلة الفتاة : أول مارس ١٨٩٣ م .

(٢) مجلة الفتاة : أول مارس ١٨٩٣ م .

الباب الرابع

الصحافة الإسلامية والحركة الوطنية فى مصر

الفصل الأول : أثر صحافة تلاميذ الأفغانى فى الحركة الوطنية .

الفصل الثانى : الدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد بعد نفى الأفغانى .

الفصل الثالث : الصحافة الإسلامية ومقاومة الاحتلال الإنجليزى .

الصحافة الإسلامية والحركة الوطنية فى مصر

قدمت مدرسة الأفغانى تصورا فكريا شاملا للإصلاح الإسلامى ، فى أمور الدنيا والدين ، والمعاش والمعاد ، ففى العقيدة دعت هذه المدرسة المسلمين إلى الرجوع إلى الينابيع الأولى لمعرفة الإسلام فى القرآن الكريم والسنة الشريفة وسيرة الخلفاء الراشدين ، وحاربت ـ بلا هوادة ـ الأفكار الفاسدة التى دخلت على الإسلام كعقيدة الجبر ، وغيرها من البدع والخرافات ، واحتل العقل مكانا رفيعا فى فكر هذه المدرسة ؛ لأن الإيمان الحقيقى ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ لا يقوم إلا على الاقتناع لا على التقليد [١] .

وفى الموقف من الحضارة الغربية رفضت هذه المدرسة الانسياق الأعمى وراء حضارة الغرب والانبهار بها وتقليدها فى كل شىء ، بل وقفت من هذه الحضارة موقفا نقديا يرفض فكرها العلمانى ، ونظم تعليمها التى تضعف العقيدة الإسلامية وأخلاقها التى تتنافى مع مبادئ الإسلام ، ولكنها طالبت بأن يأخذ المسلمون من هذه الحضارة تقدمها فى الفنون والصنائع ـ أى ما نطلق عليه الآن التقنية أو التكنولوجيا ـ وغيرها من نواحى التقدم المادى والعمرانى ، مما يحث عليها الإسلام حين أمر المسلمين أن يعدوا القوة التى تمكنهم من قهر أعدائهم والمحافظة على دينهم وأرضهم [٢] .

أما الجانب الثالث الذى يكتمل به الفكر الشامل لهذه المدرسة فهو فكرها فيما يتعلق بالنواحى الوطنية والقومية ، وفى بناء الدولة على أساس من الشورى والعدل والمساواة ، ومقاومة الاستعمار والتدخل الأجنبى ، وفكرها فيما يتصل بالجامعة الإسلامية والعروبة ، وهو ما نخصص له هذا الباب والباب الذى يليه .

لقد اتخذت مدرسة الأفغانى من الصحافة أهم وسيلة للدعوة إلى منهجها الفكرى والإصلاحى الشامل لأمور الدين والدنيا جميعا ، بحيث إنه لا يمكن تبين صورة هذا المنهج الشامل إلا إذا درسنا صحافة هذه المدرسة دراسة متأنية ، وإذا كنا قد حددنا مفهوم الصحافة الإسلامية فى هذا البحث بأنها الصحف الدينية المتخصصة ، والمادة التحريرية الدينية فى الصحف العامة ، فإننا نتابع فكر « الأفغانى » وتلاميذه ودعوتهم فى الحركة الوطنية فى صحافة هذه الفترة بوجه عام ، وعلى سبيل المثال لا يمنعنا من تتبع دعوة هذه المدرسة إلى نظام الشورى ـ باعتباره نظاما إسلاميا ـ فى صحافة ذلك العهد أن تشترك

(١) انظر الباب الثانى من هذه الرسالة بعنوان : « الصحافة الإسلامية والتفقيه والإرشاد الدينى » .

(٢) انظر الباب الثالث من هذه الرسالة بعنوان « الصحافة الإسلامية والحضارة الغربية » .

فيها صحف ذات صبغة وطنية أكثر منها إسلامية ، أو أن يشترك فى الدعوة كاتب ينادى بها من وجهة نظر وطنية ، فلا يضير الكاتب الإسلامى أن ينشر دعوته فى صحيفة عامة أو غير إسلامية ، وأن يحاول إقناع غير المسلمين بما يدعو إليه ، كما فعل الأفغانى حين أقر دستور سنة ١٨٧٩ م وما يحويه من مبدأ مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب ، وكتبت صحيفة « الديبا les dabats » معلقة على ذلك أن نظام الشورى والتقيد برأى نواب الأمة لا يصلح فى بلد إسلامى ، فكتب الأفغانى فى صحيفة « مصر » مبيناً أن الشورى نظام إسلامى وأن الإسلام لا يقر الاستبداد ، واستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ووقائع التاريخ فى عهد الخلفاء الراشدين (١) .

لقد رفضت مدرسة « الأفغانى » الفكر العلمانى المتمثل فى وجود سلطتين منفصلتين : سلطة زمنية وسلطة روحية (دينية) ، وفى التفرقة بين ما هو دينى وما هو دنيوى ، واعتبرت هذه المدرسة الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا ، ودنيا وآخرة ، ودينا ودولة ، ومنظما لأمور المعاد والمعاش جميعا ، ونحن حين نقدم فى هذا الباب الفكر السياسى للأفغانى وتلاميذه ، وجهادهم فى الحركة الوطنية من خلال صحافتهم ، نستكمل هذا الفكر الشامل الذى جاءوا به ، ونكون ــ فى الوقت نفسه ــ قد سرنا على منهجهم فى أن الإسلام لا يفرق بين ما هو دينى وما هو دنيوى .

ويؤكد الدكتور محمد البهى هذا المعنى بقوله : إن حركة الأفغانى ، وإن بدت فى مظهرها حركة سياسية ، فهى فى جوهرها حركة إسلامية ، فهو « ينقد سلطان الأستانة وشاه إيران وخديوى مصر ؛ لأن كل واحد من هؤلاء لا يرغب فى إعطاء الشعب حرية الرأى والقول والمشورة ، ولا يرغب فى إعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين ، ويأتى نقده لمصلحة الشعب ، فتبدو عليه مسحة العمل السياسى ، ولكن هذا النقد أسس على الإسلام ، وعلى مبادئه التى تصون هذه المقدسات : حرية الشعب ، وسيادته ، ووضع الحاكم منه وضع المنفذ لمشيئته ، لا وضع السيد صاحب السيادة المطلقة عليه .

« ويدعو إلى الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الإسلامية . وإلى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم ، فتبدو دعوته هذه فى مظهر « الشرقية » أو « الوطنية » تبدو سياسة ، ولذلك يميل بعض المؤرخين لجمال الدين أن يسمى حركته هذه « بالحركة الشرقية » ، ولكن هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل إسلامى ؛ لأنه يستند إلى

(١) جريدة مصر : فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩م ، وسنعود إلى هذه المناظرة بشئ من التفصيل فيما بعد .

الإسلام فى تاريخ الفتوح ، وفى تعاليمه فى الصلة بين المسلم وغيره ، سواء فى مكان واحد أو فى مكانين مختلفين » [1] .

إن من أهم ما فى المنهج الفكرى والإصلاحى المتكامل للأفغانى ومدرسته ، هو أنه يمثل الوسط الإسلامى بين تيارين متطرفين هما : تيار الجمود ، وتيار التغريب .

أما تيار الجمود فيتضمن فئتين وصفهما الشيخ محمد عبده بنفسه ، **الأولى** : معظم الأزهريين فى ذلك الوقت الذين « لا يتعلمون فى الأزهر إلا بعض المسائل الفقهية ، وطرفا من العقائد يبعد عن حقائق الدين أكثر مما يقرب منها ، وجل معلوماتهم تلك الزوائد التى عرضت على الدين ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها ، وأبناء الأزهر المعروفون « بالعلماء » أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من العامة ، وأسرع إلى مشايعتها منهم ، فبقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها » [2] ، **والفئة الثانية** : هى الحركات الإسلامية التى نشأت فى بيئات بدوية ، ولم يتسع أفقها لاستيعاب حضارة العصر كالحركة الوهابية التى يصفها الشيخ محمد عبده بأنها « أضيق عطنا ، وأحرج صدرا من المقلدين ، فهم وإن أنكروا كثيرا من البدع ، ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد والتقيد به ، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين ، وإليها كانت الدعوة ، ولأجلها منحت النبوة ، فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدنية السليمة أحباء » [3] .

أما التيار المتطرف الآخر ــ تيار التغريب ـ فيصفه الأفغانى بقوله : « ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش وسائر الماعون ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم ، وأماتوا أرباب الصنائع من قومهم ، وهذا جدع لأنف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها .... لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها ...

(١) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الطبعة التاسعة ــ القاهرة سنة ١٨٨١ م ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٢) محمد عبده : مشروع إصلاح التربية فى مصر د فى الأعمال الكاملة جـ ٣ ص ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) محمد عبده : الإسلام اليوم والاحتجاج بالمسلمين على الإسلام ــ من رد الإمام محمد عبده على فرح أنطون ، مجلة المنار ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٢ م .

وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم » [١].

أما تيار الأفغاني ومدرسته ، وهو التيار الوسط بين التيارين السابقين المتطرفين ، فهو يدعو إلى « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى » [٢] ، وتنقيته مما ألحق به من البدع والخرافات ، ومن ناحية أخرى لا يندفع مع الحضارة الغربية اندفاعا أعمى ، بل يقف منها موقف الناقد الواثق بنفسه الذى يعرف ما ينفع المسلمين منها وما يضرهم .

ولعل الخوف من بعث هذا التيار الفكرى ـ الذى هو فى رأينا أصلح ما يعبر عنه الفكر الإسلامى الصحيح فى العصر الحديث ـ هو الذى دفع أصحاب التيارين المتطرفين : تيار التغريب وتيار الجمود أن يخوضوا ضده حربا شرسة ـ حتى اليوم ـ حتى لا يلتف حوله المسلمون فيكون بعثا للأمة الإسلامية ، خاصة إذا ارتبط هذا الفكر فى نشأته بمصر ، وفي إمكان بعثه بمصر أيضا [٣] .

---

(١) جمال الدين الأفغانى : خاطرات جمال الدين الأفغانى فى الأعمال الكاملة ص ١٩٦ .

(٢) محمد عبده : سيرتى ، فى الأعمال الكاملة جـ ٢ ص ٣١٨ .

(٣) انظر فى هجوم المفكرين التغريبيين على الأفغانى ومدرسته ، سلسلة مقالات للدكتور لويس عوض فى مجلة (التضامن) الصادرة فى لندن بعنوان : « الإيرانى الغامض فى مصر » الأعداد من ١ إلى ٢٢ سنة ١٩٨٣ م ، وفى هجوم المفكرين الممثلين لتيار المقلدين كتاب الدكتور محمد محمد حسين : الإسلام وحضارة الغرب ـ الطبعة الرابعة بيروت سنة ١٩٨١م ، وهو مجموعة محاضرات ألقيت فى جامعة الرياض سنة ١٩٧٥ م ، كما جاء فى مقدمة الكتاب .

الفصل الأول

أثر صحافة تلاميذ الأفغانى فى الحركة الوطنية

ظهور الصحافة الشعبية :

مهدت عدة عوامل لبزوغ الاتجاه الإسلامى فى الصحافة ثم سطوعه فى القرن التاسع عشر ، بدأ ذلك بنشأة الصحافة الشعبية فى عصر إسماعيل ، حيث كانت الصحف قبل ذلك كلها رسمية ، وكانت الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٦م مناسبة أضفت الحيوية على هذه الصحف الشعبية ، وعملت على إثارة اهتمام الرأى العام الناشئ فى تلك الفترة ، وجعلت القراء يهتمون بما يجرى خارج مصر ويقارنونه بما يجرى فى داخلها ، ثم كان من أبرز العوامل التى شجعت على ظهور الاتجاه الإسلامى فى الصحافة حضور السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر حيث أخذ يبذر بذور الثورة الفكرية ، ويدعو إلى الحرية والشورى ومقاومة الظلم والاستبداد ، وتتلمذ عليه طائفة من الكتاب الذين حملوا لواء الصحافة الإسلامية بعد ذلك هم ومن أخذ عنهم .

وكان مما قوى الاتجاه الإسلامى فى الصحافة المصرية المواجهة التى قامت بين الحضارة الغربية الغازية بفكرها وأخلاقها وقيمها من جانب ، وبين الصحافة الإسلامية المدافعة عن الفكر الإسلامى المتمسكة بالأخلاق والقيم الإسلامية من جانب آخر ، فهذه المواجهة قد استثارت الهمم وقوت العزائم وجعلت المدافعين يبذلون أقصى ما عندهم من جهود .

وتحدد الحملة الفرنسية على مصر تاريخ ظهور لون من الصحافة فى مصر ، ولكنها لا تحدد تاريخ نشأة الصحافة المصرية ، فالصحيفتان اللتان أنشأهما الفرنسيون فى مصر صدرتا باللغة الفرنسية ، ولم يقصد بهما المصريون فى شئ فقصد بأولاهما لوكوريبه وليجبت le corrier de l'Egypte أعلام جنود الحملة ، بينما قصد بالأخرى la Decads Egyptienne أن تكون سجلا لنشاط « المجمع العلمى المصرى » الذى أنشأه بونابرت من العلماء الفرنسيين المصاحبين للحملة [1] .

(١) د . أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٧٥م ، ص ٤٧ ، ٥٥ .

وعرفت مصر الصحافة الرسمية فى عهد محمد على الذى أدرك أنه من الخير ان يكون الشعب على صلة بأعمال الحكومة ، فأصدر جريدة « الوقائع المصرية » فى ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، وقامت فكرتها على الدعاية لمحمد على وجهوده ، وكانت توزع على جميع موظفى الحكومة بلا استثناء ، ممن يتقاضون ألف قرش فأكثر شهريا بشرط أن يدفعوا الاشتراك (١) .

أما الصحافة الشعبية فقد عرفتها مصر فى عهد إسماعيل ، فإن هذا الوالى كان يطمح ــ كما قال ــ إلى جعل مصر قطعة من أوربا ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن إسماعيل كان يرضخ للتطور فى المجتمع المصرى نتيجة لتفاعل عدة عوامل ، ولهذه الأسباب نفسها أنشأ فى سنة ١٨٦٦ م مجلس شورى النواب ، وكان هدفه من إنشاء هذا المجلس هو كسب أعضائه من كبار ملاك الأراضى الزراعية فى الريف لمساعدته فى حل أزمته المالية التى نتجت عن ديونه لأوربا من جانب ، ومن جانب آخر إيجاد مظهر من مظاهر الحياة النيابية الموجودة فى أوربا ، والدعاية لنفسه ولأعماله من جانب ثالث ، غير أن هذا المجلس كانت اقتراحاته التى ترفع إلى الخديوى استشارية ، له أن يأخذ بها أو لا ، كما حظر نشر أى شئ مما يدور فيه (٢) ، ونظرا لأن إسماعيل كان يحكم مصر بعقلية الحاكم المطلق ، فقد بقى هذا المجلس أداة طيعة له لا يقوى على معارضته ، أو لعله لم يعرف بعد كيف يأخذ المعارضة (٣) ، وظل الحال على ذلك إلى أن ظهرت تباشير المعارضة فى الدورة التى عقدت فى بداية سنة ١٨٧٩ م .

وكذلك كان هدف إسماعيل من السماح بإنشاء الصحافة الشعبية أن تكون وسيلة للدعاية له ولمشروعاته ، وللدفاع عنه ضد السلطنة العثمانية والدول الأوربية الطامعة فى التدخل فى مصر (٤) ، ومعبرة عن مجلس شورى النواب الذى رأى أنه لا يجوز أن تعبر عنه صحيفة رسمية (٥) ، ولهذا أوحى إلى (عبد الله أفندى أبو السعود) أن يصدر

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ، القاهرة ١٩٦٠ م ص ١١ ، ١٢ وقد استخدم المؤلف كلمة « الشعب » فى هذه الفقرة ، ونحن نوردها هنا بتحفظ حيث إن قراء الجريدة كانوا موظفى الوالى والمسئولين فى حكومته ، وطلاب البعثات ومن إليهم .

(٢) د . عبد العزيز الرفاعى : فجر الحياة النيابية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٤ م ص ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ .

(٣) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، مرجع سابق ص ٥٩ .

(٤) د . عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ، ص ٥٩ .

(٥) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، مرجع سابق ص ٥٩

صحيفة « وادى النيل » فى نفس العام الذى افتتح فيه مجلس شورى النواب ، ولكن هذه الصحيفة كانت شبه رسمية أو كانت صورة دقيقة من الوقائع المصرية (١) .

وبعد ذلك أصدر كاتبان معروفان فى عصر إسماعيل هما إبراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال مجلة « نزهة الأفكار » سنة ١٨٦٩م ، وكانا يظنان أنهما يستطيعان أن يتمتعا بالحرية الصحفية الصحيحة وأن ينتقدا أعمال الحكومة ، وأن يحققا فى نفس الوقت الغرض الذى يسعى إليه الخديوى ، وهو الدفاع عن سياسته ضد الدولة العثمانية والدول الأوربية (٢) ، ولكن شاهين باشا ناظر الحربية أقنع إسماعيل بأنها تهيج الخواطر وتبعث على الفتن ، فصدر أمر إسماعيل بإلغائها (٣) ، ولم يكن قد صدر منها إلا عددان فقط (٤) ، ثم أباح إسماعيل لمحمد أنسى ـ ابن عبد الله أبى السعود ـ إصدار صحيفة « روضة الأخبار » سنة ١٨٧٥ م ، وقد تخصصت فى نشر العلم والأدب والزراعة والتجارة ، وفى نفس العام صدرت صحيفة الأهرام (٥) .

وفى سنة ١٨٧٦م نشبت الحرب الروسية التركية ، وكانت هذه الحرب مفترق طرق فى دور الصحافة ورسالتها ، ووجد الناس فى أنفسهم لذة فى الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية ـ صاحبة السيادة عليهم ـ مع أعدائها ، وتطلعوا إلى ما يرد من أخبار الحرب ، وحدث بين الناس نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، وأخذت الصحف تنشر عن أحوال الأمم الأخرى التفاصيل الغريبة ، وتشرح حالتها السياسية والاجتماعية والمالية ، وتقارنها بما عليه مصر من سوء الأحوال (٦) .

وتلك هى المرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث التى سمح فيها الوالى للصحف المصرية بالخوض فى الشئون السياسية ، ومن ثم كان فضل الحرب الروسية التركية على الصحافة المصرية عظيما وأثرها كبيرا فى تحويلها إلى صحافة جديرة باسمها متمتعة

---

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٢٧ .

(٢) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ٢٩ .

(٣) فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة جـ ١ ص ٧٨ و جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٤) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٦٢ .

(٥) د . عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ٣٠ .

(٦) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٥ ، ٣٧ ، وأحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ١٠٨ ، ود . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٧٦ ، ٧٧ .

بحريتها على هذا النحو [1] ، وقد ساعد على ذلك وجود جمال الدين الأفغانى فى مصر قبل هذه الحرب وأثناءها .

جمال الدين الأفغانى وأثره فى الصحافة المصرية :

يتفق معظم المؤرخين على أن مجئ السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر وإقامته بها منذ سنة ١٨٧١م ، كان عاملا حاسما فى بدء النهضة الفكرية وبداية تكوين الرأى العام فى مصر ، وبداية اهتمام المصريين بأحوال بلادهم السياسية ومطالبتهم بحقوقهم فى العدل والشورى ومقاومة التدخل الأجنبى فى بلادهم [2] .

كان الأهالى فى مصر ـ قبل الأفغانى ـ يرون شئونهم العامة بل والخاصة ، ملكا لحاكمهم الأعلى ومن يستنيبه عنه فى تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأيا يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده [3] . حتى أتى جمال الدين الأفغانى إلى مصر وأخذ يلقى دروسه وخطبه فكان لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ويطهرالعقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها [4] ، وأراد بخطبه الملتهبة وبياناته المتطرفة أن يغير ما وقر فى عقول العامة من أن الحاكم هو السيد المطاع ، وقبيل خلع إسماعيل خطب فى الأسكندرية خطبة جاء فيها : « أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، ويقوم بأود العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » بهذه الجرأة المدهشة كان الرجل يخطب ويتحدث ، ولم يكن للناس عهد بمثل هذا فكانوا يسحرون بمنطقه ويدهشون له [5] .

وقد حضر مجالس جمال الدين كثير من رجال الدولة والمفكرين مثل رياض باشا ، وأحمد خيرى باشا ، ومصطفى وهبى باشا ، ومحمود سامى البارودى باشا ، وعبد السلام المويلحى بك (زعيم المعارضة فى مجلس النواب) وأخيه إبراهيم المويلحى صاحب

(١) د . عبد اللطيف حمزة : الصحافة المصرية فى مائة عام ص ٣٤ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ جـ ١ ص ٣٥ ، ٣٧ ، وأحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن ـ جـ ١ ص ١٠٨ ، ود . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٣) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٥) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ١ ص ١٠٩ .

صحيفة « مصباح الشرق » فيما بعد ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ سعد زغلول ، وسليم النقاش ، وأديب إسحاق ، وإبراهيم الهلباوى ، وإبراهيم اللقانى ، وعبد الله النديم ، وغيرهم ممن كانوا قادة الفكر والسياسة والصحافة فيما بعد [١] ، وكان من تلاميذه كذلك يعقوب صنوع الذي وضع معه خطة إنشاء صحيفة « أبو نضارة زرقا » [٢] ، وكذلك اتصل به الشيخ على يوسف فى بداية حضوره إلى القاهرة لطلب العلم بالأزهر وكتب بعض المقالات فى صحيفة « مرآة الشرق » وهى من صحف تلاميذ الأفغانى [٣] .

وكان الذين يسمعون الأفغانى يذهبون إلى مجالسهم الخاصة فيتحدثون بما سمعوه لجلسائهم وأقربائهم مما جعل النفوس تتنبه قليلا قليلا ، وتلتفت إلى علاقة الحاكم بالمحكوم ، وواجب كل منهما نحو الآخر ، وتنفى عن الأذهان عقيدة الحق الإلهى فى الحكم ، وتبحث فى تصرفات رجال الحكومة وتنقدها [٤] ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد [٥] .

يقول الشيخ محمد عبده : « وحمل جمال الدين تلاميذه على الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والعلمية والدينية ؛ فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه ، وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرة على الإجادة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكرى ، وخيرى باشا ، ومحمد باشا سيد أحمد ــ على ضعف فيه ــ ومصطفى باشا وهبى ـ على اختصاص فيه ــ ومن عدا هؤلاء ، إما ساجعون فى المراسلات الخاصة وإما مصنفون فى بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها » .

ولكن بعد حضور جمال الدين الأفغانى « وجد فى القطر المصرى كتاب لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمادهم ، وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة وما منهم إلا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ، ومنكر ذلك مكابر ، وللحق

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة ، ومحمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٦.

(٢) أحمد شفيق باشا : المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) د . عبد الباسط محمد حسن : جمال الدين الأفغانى ص ٢٣٤ .

(٤) أحمد شفيق باشا : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٥) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٧ .

مدابر »[1] .

حول جمال الدين وتلاميذه مجرى التحرير والإنشاء فى مصر ، فإذا تصفحنا آثار أدباء مصر قبل جمال الدين من أمثال السيد على أبو النصر ، والشيخ على الليثى ، وعبد الله باشا فكرى ، فما نرى إلا غزلا فى حبيب ، أورسالة إلى صديق أو مدحا لأمير ، أو استعطافا له ، أو اعتذارا إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكرا على هدية ، أما مصر وحالة شعبها ، وبؤس قومها ، وظلم حكامها ، وحقوق الناس وواجبات الحكومة فلا تعثر منها على شئ[2] .

وكان الأدب قبل جمال الدين عبد الأرستقراطية لا هم له إلا مدح الملوك والأمراء ، والتغنى بأفعالهم وصفاتهم مهما بلغ من ظلمهم ، فأتى جمال الدين فأتى بأدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلي الحاكم ، وينشد الحرية ، ويخلع العبودية ويفيض فى حقوق الناس وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأدب مشرفا على الأمراء لا سائلا يمد يده للأغنياء ، وهذه نغمة جديدة لم يعرفها المسلمون منذ بدأ عهد الاستبداد[3] .

وقد آمن كل من جمال الدين وتلاميذه بالصحافة كوسيلة فعالة للتعبير عن حركته ولتحقيق أهدافه فى إصلاح المجتمع الإسلامى ، فاشتغل هو وكل تلاميذه تقريبا بالصحافة كأصحاب صحف أو رؤساء تحرير أو محررين .

وقبل أن نبسط القول فى هذا الموضوع نرد على تساؤل يثيره بعض المشككين فى جمال الدين الأفغانى ومدرسته ، وهو : كيف تكون حركة جمال الدين حركة إسلامية بينما كان من بين تلاميذه مسيحيون ويهود مثل الصحفى اليهودى يعقوب صنوع والصحفى المسيحى أديب إسحاق ؟

ويرد على هذا التساؤل المفكر الإسلامى الدكتور محمد البهى فيقول : « كان جمال الدين الأفغانى يدعو إلى الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الإسلامية ، وإلى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم ، فتبدو دعوته هذه فى مظهر « الشرقية » أو « الوطنية » ـ تبدو سياسية ، ولذلك يميل بعض المؤرخين لجمال الدين أن يسمى حركته هذه « الحركة الشرقية » .. ولكن هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٢ .

(٢) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .

إسلامى ؛ لأنه يستند إلى الإسلام فى تاريخ الفتوح ، وفى تعاليمه فى الصلة بين المسلم وغيره ، سواء فى مكان واحد أو فى مكانين مختلفين » [1] .

إن أجمل ما حفل به تاريخ الصحافة فى السنوات التى وجد فيها الأفغانى فى مصر ، أنها كانت بعيدة أشد البعد عن التعصب الدينى ، ولم تبحث يوما فى موضوع يثير هذه الناحية التى تبرأت منها القضية المصرية فى ذلك الوقت [2] ، وقد ظهر هذا التعصب بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، حيث اعتمد الإنجليز على سياسة « فرق تسد » فظهرت بوادر الفتنة الطائفية بين المسلمين والأقباط فى أواخر القرن التاسع عشر وانفجرت فى أوائل القرن العشرين ، وهو ما نكتفى ــ فقط ــ بالإشارة إليه هنا .

كان جمال الدين الأفغانى يفخر دائما بعمله فى الصحافة ، على حين كان آخرون فى ذلك التاريخ يرون الصحافة مهنة لا تليق بالأشراف والنابهين من أبناء البيوت الكبيرة ، ومن كلماته فى الرد علي هذا الموقف : « إن الصحافة عمل شريف ، وأنا صحافى ، وكان لى فى باريس جريدة أكتب فيها ... » [3] .

وقد رأى الأفغانى ــ بثاقب نظره ــ الدور الكبير الذى يمكن أن تقوم به الصحافة ، فسعى إلى إنشاء الصحف الشعبية فى مصر ــ وهى الصحف التى كانت لسان حركة الإصلاح والتجديد التى قادها ــ فدفع تلاميذه إلى إنشاء الصحف وشاركهم فى الكتابة فيها ، حتى أصبح من سمات حركته الإصلاحية اتخاذ الصحافة وسيلة جهاد لتحقيق أهداف تلك الحركة ، وقد كانت جهود جمال الدين فى إنشاء هذه الصحف وتحريرها جزءا من جهوده فى الحركة الوطنية المصرية ؛ لأن هذه الصحف هى التى حملت لواء هذه الحركة وعبرت عنها .

فحين حضر أديب إسحاق إلى مصر اتصل بجمال الدين وتتلمذ عليه ، وتوثقت الصلة بينهما [4] حتى صار من خاصة تلاميذه وأكثرهم اتصالا به ، وكان ــ على حد قول أديب نفسه ــ من محبيه ومريديه [5] .

---

(١) الدكتور محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ١٩٨١ م ص ٦٧ .

(٢) د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

(٣) جمال الدين الأفغانى : الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م ص ٣٩ .

(٤) د . عبد الباسط محمد حسن : جمال الدين الأفغانى ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٥) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ١ ص ٤١ ، من ترجمة أديب إسحاق لجمال الدين الأفغانى .

وآنس جمال الدين من تلميذه أديب إسحاق قوة بيان وقدرة فذة على الكتابة والإنشاء ، فاقترح عليه أن ينشئ جريدة عربية ، فأصدر جريدة « مصر » أسبوعية فى ٣٠ يولية سنة ١٨٧٧ م ، وساعده جمال الدين فى تأسيس مطبعة لها وهيأ له فيها حروفا من حروف المطبعة الأميرية في بولاق (١) ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة فى القاهرة حتى أشار عليه جمال الدين أن ينقل إدارتها إلى الأسكندرية ؛ لأنها أقرب إلى « اصطياد الأخبار » لقربها من أوربا وكثرة الجالية الأجنبية بها ، وشاركه فى تحريرها يومئذ صديقه سليم النقاش ، واستطاع جمال الدين أن يحصل لهما على امتياز آخر لصحيفة هى « التجارة » التى صدرت يومية فى ٢٣ مايو سنة ١٨٧٨ م ، وأمد جمال الدين هاتين الجريدتين بمقالاته كما طلب من بعض تلاميذه كالشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى أن يشتركا فى تحريرهما .

ونشـر جمـال الدين عـددا مـن المقـالات فى صحـف أديب إسحاق ، منها مقالـة « روح البيان فى الإنكليز والأفغان » وهى من المقالات « التى ترنحت لها أعطاف أولى العلم طربا ، ومالت إليها أعناق الحكام السياسيين عجبا ، حتى إن غلادستون زعيم الحرية فى إنجلترا أثبت فى بعض الصحف رسالة تشهد له أنه من أعلام الشرق ، وأعيان العلماء ، فى حين أن الإنكليز من أعدائه الألداء » (٢) .

ومن المقالات التى نشرها جمال الدين الأفغانى في صحيفة مصر : « الحكومات الاستبدادية » (٣) و « كُتاب دائـرة المعارف » (٤) وخطبته فـى مسـرح زيزينيا فى الإسكندرية(٥) و « شباب الإسكندرية » (٦) .

أما الشيخ محمد عبده فقد بدأ جمال الدين فى تدريبه على العمل بالصحافة منذ كان الأول ما يزال طالبا بالأزهر ، ففى هذه الفترة كان الشيخ محمد عبده يلخص الدروس التى يلقيها جمال الدين وينشرها ممهورة باسمه ــ محمد عبده ــ فى صحيفة مصر ، وبدأ نشر هذه الدروس فى أول يونيو سنـة ١٨٧٦ م بعنوان « فلسفة التربيـة » مقدمـا لها بقوله : « انعقد درس الأستاذ جمال الدين الأفغانى ، وانتظم فى سلكه جم غفير من نبهاء طلبة العلم وفضلائهم ، وكثير من الأفندية مستخدمى الدواوين ، بمحضر هؤلاء وأولئك شنف

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) سليم العنحورى : ترجمة جمال الدين الأفغانى ، فى المرجع السابق ص ٤٥ ، ولعله يقصد بزعيم الحرية زعيم حزب الأحرار .

(٣) جريدة مصر : فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩ م .

(٤) جريدة مصر : فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

(٥) جريدة مصر : فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩ م .

(٦) جريدة مصر : فى ٣١ مايو سنة ١٨٧٩ م .

المسامع بمقال جليل فى شأن تربية الأمة وما يلزم أن يسلك من سبلها ... » .

ومنذ ذلك التاريخ ظل العمل الصحفى ملازما للشيخ محمد عبده فعمل رئيسا لتحرير « الوقائع المصرية » ، وحينما نفى إلى بيروت بعد الثورة العرابية كتب في صحيفة « ثمرات الفنون » ، ثم عمل مع الأفغاني ـ في باريس ـ في تحرير صحيفة « العروة الوثقى » ، ثم نشر مقالاته الطويلة فى الرد على هانوتو وفرح أنطون فى جريدة المؤيد ، ثم نشأت مجلة المنار ترجمانا لأفكاره ، ورافعة للواء دعوته كما قال محمد رشيد رضا .

وحين حضر الكاتب السورى سليم العنحورى إلى القاهرة سنة ١٨٧٨ م تعرف بجمال الدين وانتفع بصحبته ، ولازمه حينا من الدهر فى أوقات اجتماعه وخلوته ، ودفعه جمال الدين إلى العمل بالصحافة ، وساعده فى الحصول على امتياز صحيفة سماها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) (١) .

ولكن سليم العنحورى لم يستطع أن يجارى الروح الثورية لجمال الدين فترك الصحيفة ليرأس تحريرها إبراهيم اللقانى ورحل إلى بلاده الشام ، يقول سليم العنحورى فى ذلك : « ولما ظهرت بوادر الثورة العرابية واجتمع فى بيت الشيخ البكرى ، ثم فى بيت راغب باشا لفيف من أعيان البلاد وعمد الأرياف وأجمعوا على تغيير الوزارة النوبارية ثم التوفيقية ، ثم زاد انتشار الخواطر الثورية ، وكسبت صحف الأخبار أهمية ما كان لها أن تكسبها فى أسمى البلاد مدنية ، حينئذ رأى المؤلف أن هذا المسلك وعر ، والموقف خطر ، فمال إلى إلغاء التحرير بالتى هى أحسن ، والجنوح فى هذا الأمر العسير للتى هى أقوم ، فاعتزل الجريدة بعد أن أحال امتيازها إلى رجل أصارها طوع إشارة الأفغانى ، فوكل بها إلى كاتبه إبراهيم اللقانى فبدأ من العدد السادس عشر بإيعابها مبادئ الثورة ، وأمالى الشكاوى والتعريض ، وبعد حين ناب الأفغانى عن الأمة فى سفارة إلى الخديو ، فذكرت ذلك « مرآة الشرق » بطنطنة عادت عليه بالوبال ، وعليها بالتعطيل والنكال ، وكان السبب الحقيقى لتعطيلها هو انتماؤها للأفغانى » (٢) .

---

(١) سليم العنحورى : ترجمة السيد جمال الدين الأفغانى عن محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الأمام جـ ١ ص ٤٦ .

(٢) سليم العنحورى : المرجع السابق ص ٤٨ ، وقد ذكر الدكتور إبراهيم عبده فى كتاب : تطور الصحافة المصرية طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م ص ٧٧ عن صحيفة (مرآة الشرق) ، أن صاحبها سليم العنحورى تخلى عنها ـ لمرضه ـ إلى إبراهيم اللقانى ، ولكن ما كتبه سليم العنحورى بنفسه عن نفسه وعن جريدته يبين خطأ هذا القول ، إذ إن سبب تركه الجريدة هو ما ذكرناه الآن ، ولم يذكر العنحورى فى هذا الصدد كلمة المرض إطلاقا .

وحين أسند رياض باشا إلى الشيخ محمد عبده رياسة تحرير الوقائع المصرية فى سبتمبر سنة ١٨٨٠ م اختار – بعد قليل من رياسته – اثنين من المحررين ليساعداه فى عمله ، وكانا – مثل الشيخ محمد عبده – من تلاميذ جمال الدين الأفغانى الذين درب أقلامهم على الإنشاء والتحرير وممن قرأوا عليه وانحازوا إلى أفكاره ، وهذان المحرران هما الشيخ عبد الكريم سليمان – صديق محمد عبده ونصيره – والشيخ سعد زغلول الذى كان يومئذ طالبا فى الأزهر فى نحو الحادية والعشرين من عمره ، والذى أصبح فيما بعد الزعيم الوطنى للحركة السياسية الاستقلالية فى مصر (١) .

ومن تلاميذ جمال الدين الأفغانى الذين ضربوا بسهم وافر فى نهضة الصحافة واتخذوها وسيلة للجهاد من أجل تحقيق أهداف حركة جمال الدين – من هؤلاء التلاميذ عبد الله النديم .

وكان النديم فى بدء شبابه قد ترك مسقط رأسه – الأسكندرية – وتقلب فى القاهرة وبعض مدن الوجه البحرى بحثا عن الرزق ، وفى القاهرة اختلف إلى القسم الحر فى الأزهر ، وحضر بعض مجالس جمال الدين ، واشتغل بحرف شتى فى القاهرة والمنصورة وطنطا ، ثم فى سنة ١٨٧٩م رجع إلى مسقط رأسه فى الأسكندرية فوجد فيها حياة غير تلك التى وجدها فيها من قبل ، وجد تلاميذ جمال الدين الأفغانى : أديب إسحاق وسليم النقاش يصدران صحف (مصر) و (التجارة) ، والناس يتحدثون فى السياسة ومصالح الأمة والتدخل الأجنبى ووقوع البلاد فى أسر الدين ، وهنا بدأ النديم حياة جادة غير تلك الحياة اللاهية التى كانت له من قبل ، وبدأ انخراطه فى حركة جمال الدين ، وبدأ – مثل تلاميذه الآخرين – يحرر فى صحف « مصر » و « التجارة » و « العصر الجديدة » و « المحروسة » ، ثم أصدر النديم بعد ذلك صحيفتى « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ، وهما من الصحف التى نعتمد عليها فى بحثنا هذا فى مواضع كثيرة (٢) .

ومن تلاميذ جمال الدين الأفغانى الذين كان لهم دور فى الزعامة الصحفية فى العصر

(١) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ، مرجع سابق ص ٤٤ ، ٤٥ ومجلة المنار : مجلد السنة الثانية ص ٤٠٦ .

(٢) راجع فى تلمذة عبد الله النديم على جمال الدين الأفغانى : سليم العنحورى – ترجمة جمال الدين الأفغانى – فى تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٦ ، وأحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢٢٩ ، ود . عبد الباسط محمد حسن : جمال الدين الأفغانى ص ٢٢١ و ٢٢٢ ، ونجيب رزق : عبد الله النديم ،خطيب الثورة العرابية . القاهرة د . ت ص ٤١ .

الذى عاشوا فيه : إبراهيم المويلحى وابنه محمد صاحبا جريدة « مصباح الشرق » .

ومن تلاميذه كذلك الشيخ على يوسف الذى اتصل بجمال الدين فترة وجيزة فى بداية حضوره إلى القاهرة لطلب العلم بالأزهر ، وكتب بعض المقالات فى صحافة ذلك العهد ، كما وجهه جمال الدين أن يمد ــ مع الشيخ محمد عبده ــ بمقالاته صحيفة « مرآة الشرق » (١) ، ثم أصدر الشيخ على يوسف بعد ذلك صحيفتى « الآداب » و « المؤيد » اللتين تأثرتا فى اتجاههما الإسلامى بآراء جمال الدين وأفكاره .

وكان رشيد رضا ــ فى صحافته ــ تلميذا لجمال الدين ومحمد عبده ولكن عن طريق قراءته لصحيفة « العروة الوثقى » ، فقد نسخ بيده كل موادها وحفظها ، وسعى إلى لقاء ناشريها واستوحى منها منهج كفاحه فى مستقبل حياته كلها (٢) .

الدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد :

بدأت الصحافة المعبرة عن حركة جمال الدين الأفغانى تدعو إلى الشورى ، ومقاومة الحكم المطلق قبيل دور الانعقاد الثالث لمجلس شورى النواب (٣) الذى استمر من يناير إلى يولية سنة ١٨٧٩م ، واستمرت فى هذه الدعوة طوال دور الانعقاد هذا ، وفى هذا الدور ظهرت المعارضة التى قادها تلاميذ جمال الدين والتى دعمتها صحافة جمال الدين أيضا .

فقد جرت الانتخابات فى عصر إسماعيل لثلاثة مجالس نيابية : الأول سنة ١٨٦٦م ، والثانى سنة ١٨٧٠م ، والثالث سنة ١٨٧٦م وظهر إبداء الرأى على استحياء فى الدورة الأولى من المجلس الثالث ، ثم ظهرت المعارضة وتمسك النواب بحقهم فى مناقشة ميزانية الدولة ومحاسبة الوزيرين الأجنبيين فى وزارة نوبار ــ ظهر ذلك فى الدورة الثالثة من هذا المجلس الثالث أيضا ، أما المجلسان الأول والثانى فكانا طوع أمر الخديوى ، وكان أكثر همه منهما توطيد صلته بعمد الريف وأعيانه ، ليعرف أحسن السبل للحصول على الأموال من ملاك الأراضى الزراعية ، ليقوى على تسديد ديونه .

أما الأسباب التى أدت إلى تطور الحركة النيابية فى بداية سنة ١٨٧٩م ــ المشار إليها فأهمها :

---

(١) د .إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ٧٧ هامش (٣) . ود . عبد الباسط محمد حسن : جمال الدين الأفغانى ص ٢٤٣ .

(٢) راجع ما كتبناه عن صحيفة (المنار) فى الفصل الثانى من الباب الأول .

(٣) وهو ثالث مجلس نواب فى عهد إسماعيل .

١ ـ دروس جمال الدين ومحاضراته التي كان يلقيها منذ حضوره إلى مصر سنة ١٨٧١م وظهـور الصحافة الشعبية التى نفخ فيها جمال الديـن مـن روحـه ، وأهمها صحـف (مصر) و (التجارة) و (مرآة الشرق) .

٢ ـ تفاقم مشكلة الدين ، واتخاذ إنجلترا وفرنسا من هذه المشكلة ذريعة للتدخل فى شئون مصر ، وتعيين وزيرين أجنبيين فى وزارة نوبار التى تألفت فى أغسطس سنة ١٨٧٨ أحدهما إنجليزى وهو المستر ريفرز ويلسون للمالية ، والثانى فرنسى وهو المسيو دى بلنيير للأشغال (١) .

٣ ـ قيام ما سمى بالحزب الوطني وهو الاسم الذى أطلق على الوطنيين الأحرار من تلاميذ الأفغانى ، ومن تعاطف معهم فى المطالبة بالأهداف الوطنية فى ذلك الوقت ـ تلك الأهداف التى تمثلت فى مقاومة التدخل الأجنبى ، والمطالبة بحكم الشورى والدستور والإصلاح الاجتماعى ، وقد ظهر استخدام تعبير « الحزب الوطنى » فى الصحافة المصرية عقب انسحاب الأفغانى من المحفل الماسونى الإسكتلندى وهجومه عليه ، وقصد بهذا التعبير الوطنيون المصريون الذين يفكرون ويعملون من أجل تحقيق الأهداف الوطنية السالفة الذكر ، وذلك بصرف النظر عن مفهوم كلمة « الحزب » فى المصطلح السياسى الحديث (٢) .

قبل أن يعقد مجلس شورى النواب أولى جلساته فى هذه الدورة فى ٢ يناير سنة ١٨٧٩م ، كان هناك تمهيد من جمال الدين وتلاميذه وصحفهم لما ظهر فيها من حرية الرأى وتمسكهم بحقوقهم فى مناقشة الميزانية المصرية .

ففى جريدة (مصر) كتب الأفغانى مقالا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٨م بعنوان « العلة

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٥٩ .

(٢) عن انسحاب الأفغانى وتلاميذه من المحفل الماسونى الأول الذى انضم إليه ، وحملته العنيفة على الماسونية ، انظر : الفصل الأول من الباب الثالث من هذه الرسالة تحت عنوان : « الصحافة الإسلامية والماسونية » ، وقد حدث بعد ذلك بأكثر من سنتين محاولة لكى يأخذ هذا الحزب شكلا أكثر تحديدا ووضوحا ، فكتب الشيخ محمد عبده برنامجا له سمى « برنامج الحزب الوطنى » ونشر فى كتاب :
Blunt : Wilfrid Scaun : Secret History of the English Occupation of Egypt , London , t . Fisher , unwin 1907 Appendsix v p 556 .
" Pro grammeaf the National Parly of Egypt "

الحقيقية لسعادة الإنسان » ، قال فيه : « إنه لا طاعة للحكام إلا إذا قاموا بحماية شعوبهم ، وحكموا بالقوانين العادلة ، أما الحكام الجشعون أو الظالمون فلا تجب لهم طاعة ، ولا نجاة للناس من شقائهم إلا بالاحتكام إلى العقل فى كل شئ ، وبتحرير أعناقهم من السلاطين الأنانيين والخروج عن طاعتهم .. » .

وحين نشر خبر دعوة المجلس إلى الانعقاد ، دعت جريدة « التجارة » النواب أن يتمسكوا بحقوقهم ، حتى تعلم البلاد المعنى الحقيقى لوجود البرلمان « وتدرك كنهه حسا ومعنى ، وتجنى باكورة ثماره » . وعلقت الجريدة أملها بقيام النواب بواجباتهم ، وتقديرهم حاجات البلاد ومطالبها ، قائلة : « ولم لا ؟ ، وإن كان من أعضائه لرجالا لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، مع العلم بواجباتهم وحقوق الأمة وما ألم بها من الآلام ، وبودهم لو افتدوا الإصلاح بدمائهم » وتضيف الصحيفة إلى ذلك قولها : « وتناقل الثقات خبرا آخر ، وهو أنه سيسمح لمراسلى الجرائد بحضور جلسات المجلس لاستماع المفاوضة فيه ونقلها إلى الجرائد فبشروا أهل مصر بعصر جديد ، يغنى به طارف المجد عن التليد » [(١)] .

وقد بدأ المجلس أعماله بأن طلب من وزير المالية الإنجليزى المستر ويلسون ، أن يرُسل مشروعات وزارته لعرضها على المجلس ومناقشتها ، ولكن الوزير لم يرسل هذه المشروعات ، وطلب المجلس من الوزير الحضور لمناقشته ، ولكنه تحدى المجلس بعدم حضوره .

وقد حمل لواء المعارضة فى مجلس النواب عبد السلام المويلحى ، وحملت جريدة « التجارة » وصاحبها أديب إسحاق لواء التعبير عن حركة المعارضة فى المجلس وتأييدها ، والجميع ــ المويلحى وجريدة التجارة وأديب إسحاق ــ أثر من آثار الأفغانى ومعبر عن آرائه وأهدافه ، فقد كان عبد السلام المويلحى عضوا فى جمعية (الماسون العربية) التى ألفها جمال الدين الأفغانى بعد أن انسحب من المحفل الإسكتلندى الإنجليزى وفى هذه الجمعية ، وفى صحبة الأفغانى عقد المويلحى صداقة مع أديب إسحاق صاحب جريدتى « مصر » و « والتجارة » [(٢)] واشترك معه فى تحرير جريدة التجارة ، حيث كتب فيها مقالات ثائرة تحت عنوان : « خواطر » قدمتها الجريدة على أنها « لفتى وطنى المشرب »

---

(١) جريدة التجارة : العدد ١٥٣ ، ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م . ويلاحظ أن ما اقترحته الجريدة فيما يتعلق بحضور مراسلى الصحف جلسات المجلس لم يتحقق ، والأكثر من ذلك أن رياض باشا ناظر الداخلية استدعى أصحاب الصحف ، وطلب منهم عدم إدراج أى شئ من صحفهم مما يتعلق بمجلس الشورى والأجانب ــ انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٧٩ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٦ .

وجيه المكانة ، نبيه الخاطر ، بعث بها إلينا مع الرجاء بنشرها على تبعته إشارة إلى صحة وطنيته » [1] .

وقد بدأت المعارضة فى مجلس النواب وفى الصحافة ، حول موضوع حق المجلس فى نظر ميزانية الدولة ومشروعات وزارة المالية التى كان يتولاها مستر ريفرز ويلسون الإنجليزى ، ورفض الأخير عرض الميزانية والمشروعات على المجلس .

وبدأت المعارضة حين قدم النائبان عبد السلام المويلحى ومحمود العطار إنهاء (مشروع قرار) يقوم على أساسين :

الأول : أن المرسوم الذى أصدرته حكومة نوبار فى ٦ يناير ١٨٧٩ م ، يقضى بأن القوانين المتعلقة بالشئون المالية تصدر بعد تقريرها فى مجلس الوزراء والتصديق عليها من الخديوى ، « ولم نر لمجلس النواب فى هذا الدكريتو اسما ولا خبرا » .

الثانى : أن خطاب العرش الذى ألقاه الخديوى أمام المجلس تضمن أن ينظر المجلس فى الأمور المالية ، والمجلس يتمسك بهذا الحق ووافق الأعضاء على ذلك على أن يستدعى المجلس نوبار باشا لمناقشته فى مشروع القرار .

وقد صيغ القرار بعبارات قوية ، ونشرت جريدة التجارة هذا (الإنهاء) مظهرة ابتهاجا به وقالت عنه : « إن من يتصفح ذلك التقرير يعلم أن فى السويداء رجالا سودتهم نفوسهم ، فلا تسام خسفا ، ولا تضام عسفا » [2] .

واستدعى المجلس نوبار باشا ليعرض (الإنهاء) عليه ، فحضر ولكنه فى مناقشته مع النواب راوغ وتهرب وأظهر عدم اقتناعه ، ثم وعد بالمذاكرة فى هذا الموضوع فى مجلس الوزراء ومع جناب الخديوى ، وكان واضحا أنه يريد التسويف وكسب الوقت ، فزاد هذا من استياء النواب ، واتساع مجال المعارضة داخل المجلس وخارجه .

وقد نشرت جريدة (التجارة) ما يشبه أن يكون محضرا لهذه الجلسة التى دار فيها الحوار بين نوبار وأعضاء المجلس [3] ، وهاجمت ريفرز ويلسون لإغفاله مجلس النواب ، وكانت نتيجة هذا الموقف أن عطلت الحكومة هذه الجريدة خمسة عشر يوما ، فقابلت الجريدة قرار التعطيل بروح وطنية عالية ، وبإصرار على المعارضة قائلة : « فإن (التجارة)

(١) جريدة التجارة : فى ٢٤ يوليو و ٢٨ يوليو سنة ١٨٧٩ م .

(٢) جريدة التجارة : فى ٣ فبراير سنة ١٨٧٩ م .

(٣) جريدة التجارة : فى ٨ فبراير سنة ١٨٧٩ م .

تحسب حب الوطن دينا ، والمدافعة عنه جهادا ، فإن عاشت فهى سعيدة ، وإن ماتت فهى شهيدة ، وقد آتاها الله النعمتين وأتاح لها الحسنيين فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة فى ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، رغم أنوف حاسديها الذين أوّلوا كلامنا إلى ما لم نقصد ، وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » (١) .

وحين ازداد تدخل الوزيرين الأجنبيين عن حده ، وأصبحا يتدخلان فى شئون الدولة جميعها بدأت الصحافة فى كشف هذا التدخل ، وكان لمقالاتها أبعد الأثر فى نفوس أعضاء مجلس شورى النواب ، فنشط أعضاؤه ، وأخذوا على عاتقهم مهام لم تعطها لهم لائحة المجلس الأولى ، ولكنهم تشجعوا بعد أن رأوا فى الصحف قوة تنصرهم وتدفعهم وتدافع عنهم ، فقد كانت الصحف لهم « فى هذه الأيام بمنزلة المصابيح فى ظلمات الأحوال » (٢) .

وفى هذه الأثناء كانت مقالات جمال الدين الأفغانى تطرح آراء جديدة فى الفكر السياسى المصرى ، لا نقول إنها غير معهودة فى مصر فحسب ، ولكنها كانت تصدم الفكر المصرى فتوقظه من سبات طال عليه الأمد .

فنرى له فى صحيفة « مصر » مقالة بعنوان : « الحكومة الاستبدادية » (٣) أوضح فيها لأول مرة فى الصحافة المصرية مزايا النظام الجمهورى ، وذهب فيها إلى أن طول الاستبداد الذى تعرض له الشرقيون ، والذل الذى لقوه كاد أن يغير فطرتهم وما انطوت عليه نفوسهم من القوة والمقدرة ، وأن امتداد زمن توغلهم فى الخرافات ومعارضة العلوم الحقيقية أوقعهم فى ظلمات لا يهتدون إلى الخروج منها ، وأن هذه الأسباب قد منعت القلم حتى ذلك الوقت : « أن يجرى على القرطاس بيد شرقى فى البلاد الشرقية بذكر الحكومة الجمهورية وبيان حقيقتها ومزاياها ، وأن المسوسين بها أعلا شأنا ، وأرفع مكانة من سائر أفراد الإنسان ، بل هم الذين يليق بهم أن يدخلوا تحت هذا الاسم دون ما عداهم ، فإن الإنسان الحقيقى هو الذى لا يحكم عليه سوى القانون الحق المؤسس على دعائم العدل الذى قد سنه لنفسه ، يحدد به حركاته وسكناته ومعاملاته مع غيره على وجه يصعد به إلى أوج السعادة الحقيقية ، وهى نفسها الأسباب التى تقيد القلم عن أن يرقم على

---

(١) جريدة التجارة : في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٩م .

(٢) جريدة التجارة : فى ٥ فبراير سنة ١٨٧٩ م .

(٣) جريدة مصر : فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٩ م .

صفحات الأوراق ما يكشف عن ماهية الحكومة المقيدة ويوضح عن فوائدها وثمراتها ، ويبين أن المحكومين بها قد هزتهم الفطرة الإنسانية فنبهتهم للخروج من حضيض البهيمية والترقى إلى أول درجات الكمال ، وإلقاء أوزار ما تكلفهم به الحكومة المطلقة ، وتطلب مشاركة أولى الأمر فى آرائهم وكبح شره النهمين منهم الطالبين للاستئثار بالسعادة دونهم »[١] .

ولما كان الشرق لم يعرف بعد النظام الجمهورى ، ولاينتظر أن يأخذ به فى عصر الأفغانى ، فقد ذكر فى مقاله ـ بعد ذلك ـ أنواع الحكومات الاستبدادية ، ودعا الشرقيين أن يقيموا أكثر أنواعها نفعا لبلادهم .

قسم الحكومات الاستبدادية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : شبهه بقطاع الطريق وجعل منها الحكومة الفارسية فى عهده ، والقسم الثانى : الحكومة الظالمة مثل الحكومة البريطانية فى الهند ، والقسم الثالث الحكومة الرحيمة ، وقسمها بدورها إلى قسمين : حكومة جاهلة وحكومة عالمة ، وقسم الأخيرة إلى قسمين أيضا : الحكومة الأقينة الغرة ، والحكومة المتنطسة ، ودعا الشرقيين أن تكون حكوماتهم من هذا النوع الأخير وذكر أن من سماتها نشر التعليم ، وإنهاض الزراعة والصناعة ، وإنشاء المحاكم التى تحكم بقانون عادل منصف يحتوى على كل صغيرة وكبيرة حتى أرش الخدش[٢] ، وتستعين على ذلك بانتخاب رجال يقظين عارفين بأحوال الدول وقواها يساعدون الحكام على نهضة البلاد .

وفى نهاية مقاله يوجه كلمة إلى كل حاكم فى بلاد الشرق ، ثم كلمة أخرى إلى أبناء الشرق .

فيخاطب الحاكم قائلا : « أتريد أن تظلمنا ونكافئك بالشكر ؟ وتغصب حقوقنا ونجازيك بالثناء ؟ أو تظن أنك تقدر أن تغر كل العالم وتعمى بصائره وأن تنزل بالملك عندهم منزلة الحق ؟ وأن تجلس جورك مجلس العدل ، وأن تقيم سيئاتك مقام الحسنات ؟ وأن تقعد رذائلك مقعد الفضائل ، لعلك اغتررت بتمجيد المتملقين ، وتعظيم المتبصبصين ، وتبجيل المتملقين أمامك » .

ثم يقول : « أما أنتم يأبناء الشرق فلا أخاطبكم ، ولا أذكركم بواجباتكم فقد ألفتم

(١) جريدة مصر العدد السابق ذكره .

(٢) الأرش شرعا : بدل الدم أو الجناية ، أو هو للأطراف كالدية للنفس .

الذل ، ورضيتم بالمعيشة الدنيئة ، واستبدلتم القوة بالتأسف والتلهف [1] ، وصرتم كالعجائز لا تقدرون على الدرء والإقدام ، والجلب والدفاع والمنع والرفع . فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وكان من الممكن أن تمر ثورة الضباط فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ م [2] ، دون أن يكون لها صدى كبير فى نفوس المصريين من فلاحين مرهقين بالضرائب وموظفين تأخر صرف رواتبهم ، لولا أن جريدة (التجارة) نقلت أحداث هذه الثورة إلى الرأى العام المصرى على أن هؤلاء الضباط يمثلون المصريين جميعا بالظلم الذى وقع عليهم ، والثورة التى قاموا بها على الحكومة ، وعلى الأوضاع القائمة ، ونوهت بعلو همة الضباط وعدالة مطالبهم [3] .

وكانت (ثورة الضباط) هذه سببا مباشرا فى استقالة وزارة نوبار ، بالإضافة إلى سخط جميع فئات المصريين عليها ، وتولى الوزارة بعد نوبار باشا ولى العهد الذى أبقى الوزيرين الأجنبيين فى الوزارة ، وزاد من سلطاتهما بما منحهما من حق الاعتراض (الفيتو) على قرارات مجلس النظار [4] ، مما زاد من تدخلهما أكثر من ذى قبل فى شئون الحكم فى مصر .

ورأى الوزيران الأوربيان فى بقاء مجلس شورى النواب واحتمال وقوفه تجاه الوزارة الجديدة موقف المعارضة ما يخلق العقبات فى طريقهما ، وكانا يبغيان لهما الكلمة العليا فى

---

(١) هكذا فى الأصل وصحتها لغويا « واستبدلتم التأسف والتلهف بالقوة » ؛لأن ما يتبع الباء هو الشىء المتروك ، قال تعالى : ﴿ **قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير** ﴾ سورة البقرة : ٦١ .

(٢) انظر عن هذه (الثورة) : عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ سنة ١٩٤٨ م ص ١٧٠ ، حيث قررت حكومة نوبار ــ وكان بها وزيران أجنبيان ــ إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع توفيرا للنفقات حيث إنها خصصت معظم إيرادات الحكومة لسداد أقساط الديون ، وكان لهؤلاء الضباط رواتب متأخرة وشمل قرار الإحالة إلى الاستيداع أن يحضر هؤلاء الضباط لتسليم أسلحتهم فى ثكنات العباسية أو القلعة ، وفى يوم الثلاثاء ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩م اجتمع نحو ستمائة ضابط برياسة البكباشى لطيف سليم ومعهم نحو ألفى جندى وعدد من طلاب المدرسة الحربية واتجهوا فى مظاهرة إلى وزارة المالية لرفع ظلامتهم إلى نوبار باشا والسير ريفرز ويلسون ، وتصادف خروج نوبار باشا من الوزارة فاعتدى عليه الضباط بالضرب ، واقتادوه هو ومستر ويلسون حيث حبسوهما فى إحدى غرف الوزارة ، واحتلوا الوزارة إلى أن جاء الخديوى وطلب منهم الاعتماد عليه فى صرف رواتبهم ،ثم تفرق المتظاهرون .

(٣) جريدة التجارة : فى ٨ و ١٣ مارس سنة ١٨٧٩ م .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٧٣ و ١٧٤ .

إدارة شئون البلاد دون رقيب ولا حسيب ، فاعتزما التخلص من المجلس ، ووافقهما رياض باشا [1] على عزمهما لما عرف عنه من الميول الاستبدادية ، فاستقر رأى الوزارة على فض المجلس بحجة أن مدة نيابته وهى ثلاث سنوات قد انتهت ، واستصدرت من الخديو المرسوم المؤذن بانتهاء مدته وانفضاضه ، وعهدت إلى رياض باشا ـ وكان وزير داخلية أيضا ـ أن يتوجه إلي المجلس لإبلا غ الأعضاء المرسوم المذكور وإنفاذه ، وقد علم الأعضاء بما بيتته الوزارة ، فاعتزموا عدم الإذعان لإرادتها ، ووقفوا تجاهها موقفا مشرفا يعد من المواقف الرائعة فى حياة مصر الدستورية [٢] .

وعندما أنهى رياض باشا إلى المجلس قرار الوزارة بانفضاض المجلس لانقضاء مدة الثلاث سنوات المبينة بلائحته ، انبرى له زعماء المعارضة أمثال عبد السلام المويلحى ومحمد راضى وغيرهما مؤكدين أن مدة السنوات الثلاث لم تنته بعد ، وأن المجلس لم ينظر الشئون المالية التى تقررها له اللائحة ، ورغم طلب بيانات عنها لم ترسل إليه ومن ثم رفض الأعضاء فض الدورة ، وكان مما قاله عبد السلام المويلحى : « إن المجلس طالب عدم قطع أمر فى أى شئ كان إلا باشتراكه وأن بعض الأعضاء يقول إنه إذا لم يحصل ذلك فربما يحصل من الأهالى أمور لا يصح وقوعها ، ويكون مجلس النظار تحت المسئولية » [٣] .

ثم تحول النواب إلى مناقشة وزير الداخلية فى موضوع حرية الصحافة ونشر ما يدور داخل المجلس .

فقال محمد أفندى راضى : « المجلس لم يزل باقيا له مدة وقد سمع المجلس أن سيادتكم أحضرتم أصحاب الجرانيل ، وأكدتم عليهم بعدم درج شئ فى جرانيلهم مما يتعلق بمجلس الشورى والأجانب ، وهذا فيه نوع من التضييق » .

عبد السلام بك المويلحى : « من ضمن ما قلتموه سيادتكم أن أهالى مصر همج ، وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال فى الجرانيل ، مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالى الوطن لهذه الحالة التى لا تليق » [٤] .

---

(١) وكان قد تولى رئاسة الوزارة بعد توفيق .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٧٨ .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وانتهت الجلسة بقول محمد افندى راضى : « لا نتوجه بطرف الأعتاب إلا إذا أعطى لمجلس النواب حقوقه وأجيبت طلباته ، وها نحن منتظرون الجواب الذى يرد عن ذلك » .

واستقر رأى المجلس على عدم فض الدورة ، وإرسال صورة من محضر الجلسة إلى المعية السنية (الخديو) وصورة أخرى لمجلس النظار (١) .

وكما دافع مجلس النواب عن حق الصحافة فى نشر ما يدور داخل المجلس من مناقشات ، ورفض قول وزير الداخلية أن قراءها همج لا يفهمون ما ينشر فيها ، فكذلك دافعت الصحافة عن المجلس ، ورأت أن تذيع ما دار بين وزير الداخلية والنواب ، حتى يتبين الناخبون أن نوابهم لم يقصروا فى المطالبة بحقوقهم ، وحتى « يشهدوا المعركة بين الاستبداد والحرية » ، وطالبت بتنقيح قانون المجلس القديم ــ إن صح أن له قانونا ــ على أن يراعى فى وضعه ظروف الزمان والمكان ، وألحت فى إطلاق حرية الصحافة وسن قانون لها ينظم أمورها (٢) .

وقدم مجلس النواب احتجاجا إلى الخديوى عما حدث من الحكومة ، وعلى اللائحة المالية التى أعدتها ، واعتبرت فيها مصر فى حالة إفلاس مما يعنى بقاء الرقابة الأجنبية على ماليتها(٣) .

وفى هذه الأثناء اجتمع الأحرار فى دار السيد على البكرى نقيب الأشراف ، وخطب فيهم عبد السلام المويلحى خطبة طويلة ضمنها أسفه لعدم استجابة الوزارة لمطالب مجلس النواب ، وبين ضرورة تعاون الوزارة مع المجلس لتجنى الأمة ثمرة هذا التعاون (٤) ، ثم اجتمعوا بعد ذلك فى دار إسماعيل راغب باشا ، وقدمت صحف جمال الدين هذه الاجتماعات على أنها اجتماعات « الجمعية الوطنية » تارة ، وعلى أنها اجتماعات « الحزب الوطنى » (٥) تارة أخرى ، وكانت هذه أول مرة يذكر فيها قيام الحزب الوطنى فى مصر واتفق المجتمعون على وضع لائحة ضمنوها مطالبهم وسميت « اللائحة الوطنية » . وتضمنت (أولا) مشروع تسوية مالية عارضوا به مشروع ريفرز ويلسون ، ويقوم على أساس أن إيرادات الحكومة تكفى مصروفاتها بما فيها أقساط الديون العامة ، بعكس مشروع ويلسون الذى كان يعتبر البلاد فى حالة إفلاس ، و (ثانيا)

(١) المرجع السابق ص ١٨٠ .

(٢) جريدة الوطن : فى ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

(٣) عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٨٠

(٤) جريد مصر : فى ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

(٥) جريدة مصر : فى ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ م ، وجريدة التجارة : فى ٩ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

المطالبة بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجالس النيابية فى أوربا، وتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمامه [1] .

وقد بلغ عدد الموقعين على اللائحة ستين من أعضاء مجلس شورى النواب وستين من العلماء والهيئات الدينية ، وفى مقدمتهم شيخ الإسلام وبطريرك الأقباط وحاخام الإسرائيليين ، و ٤٢ من الأعيان والتجار ، و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين ، و٩٣ ضابطا [2] . وقد قبل الخديوى إسماعيل اللائحة رغم احتجاج الوزيرين الأجنبيين ، وكلف شريف باشا بتأليف الوزارة الجديدة لإنفاذها ، وألف شريف باشا الوزارة دون أن يكون بها وزيران أجنبيان ، وإن كان قد أقر بمبدأ الرقابة الأجنبية على إيرادات الحكومة ومصروفاتها لضمان حقوق الدائنين ، وقدمت الوزارة دستور سنة ١٨٧٩م إلى مجلس النواب ، وهو الدستور الذى أقر بمبدأ حق مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب [3] .

وأقر هذا الدستور ــ فى مادته الرابعة عشرة ــ مبدأ علنية جلسات مجلس النواب ، وبهذا تحقق ما نادت به جريدة (التجارة) فى بداية هذه الدورة النيابية ، حين قالت قبيل انعقاد أولى جلسات المجلس : « وتناقل الثقات خبرا آخر وهو أنه سيسمح لمراسلى الجرائد بحضور جلسات المجلس لاستماع المفاوضة فيها ونقلها إلى الصحف » [4] .

وقد تكفلت صحف مدرسة جمال الدين الأفغانى ــ مصر والتجارة ومرآة الشرق ــ بالحفاظ على الانتصارات التى تحققت والدفاع عنها ، ونشرت هذه الصحف كتاب الخديوى إلى قناصل الدول الذى تضمن قبوله للائحة الوطنية وتعيينه شريف باشا ، وأبرزت فى إعجاب قوله : « إن الأمة قد أجمعت على تنفيذ مقتضى هذه اللائحة ومعلوم لجنابكم أن الأمة إذا اتفقت كلمتها ــ وإن كان على خلع ملك أو سلطان فلابد من تنفيذ إرادتها وإجابة رغبتها. » [5] ووصفت جريدة التجارة حفلات الابتهاج بالحكم الوطنى الجديد ، وما أقيم فيها من مآدب وزينات [6] .

---

(١) جريدة مصر : فى ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٣) انظر نص هذا الدستور فى : عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها تحت عنوان « دستور ١٨٧٩م » .

(٤) جريدة التجارة : فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٨ م .

(٥) جريدة التجارة : فى ٩ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

(٦) جريدة التجارة : فى ٣٠ أبريل سنة ١٨٧٩ م .

وأنكرت الصحف الأوربية فى مصر وخارجها أن يوجد نظام الشورى فى بلد إسلامى لا يصلح فيه إلا النظام الاستبدادى الذى ألفه الشرقيون ، فنقلت جريدة (مصر) عن جريدة (الديبا) las dabats مقالا نشرته الأخيرة بتاريخ عشرة من أبريل سنة ١٨٧٩م وردت جريدة (مصر) عليه .

قالت (الديبا) : « إن ما حصل فى مصر وفى الأستانة من قبلها[1] يؤيد حجة القائلين بأن الدول الشرقية عموما ، والإسلامية خصوصا ، لا تدخل أبواب النجاح ولا تسلك مسالك المدنية ، فإن أمراءها قد ألفوا الاستبداد فرسخت فيه أصولهم ، ونمت فروعهم ، فلا يستطيعون الصبر على سيطرة المراقبين ، وتعقب المحاسبين ، فإذا وعدوا بذلك فهم مخلفون ، وإذا عاهدوا فهم ناكثون ، ولذلك لم يثق الأوربيون بما صرح به الجناب الخديوى من عزمه على التقيد برأى نواب الأمة ، والأخذ بأسباب الشورى ، ولكن إذا كانت طبائع الدول الإسلامية مغايرة للأحوال المدنية ، فهل يقتضى ذلك محو اسمها من كل الوجود ، وهل ينبغى ذلك ؟ وعلى فرض ذلك فهل تجيز أحكام الحرية أن يكره عليها من لا يريدها ؟ وماذا يضر أوربا إن لم تستقر الشورى فى الأستانة أو المحروسة أو كابل ؟ وإن لم يحصل أهلها على الراحة بعد العناء ، والسعادة بعد الشقاء ، لا جرم أن بث أنوار النجاح من فروض ذوى الإنسانية ، وإخراج العالم الشرقى من دركات الرق والاستعباد إلى درجات الحرية والشورى من واجبات العالم المتمدن ، إلا أن هذه الحرية الجليلة فى البلاد الإسلامية ستكون ذات نتائج وبيلة تعود بالضرر على أوربا ، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه » .

وطالبت الجريدة دول أوربا أن تعود إلى مبدأ الحماية فتشد أزر قناصلها فيقوى عضدهم ، وتضعف دول الشرق ، أما إسماعيل فعائد لا محالة إلى الدول الأوربية لتنقذه من ضائقته المالية « فلننظر كيف تكون العاقبة » .

وردت صحيفة (مصر) على صحيفة (الديبا) : « إن العاقبة للمستقيمين الآخذين بأسباب العدل القائمين بأمر الحق ، الذائدين عن الوطن ، المعتصمين بعروة الاتحاد الذين لا تزهيهم النعمة ، ولا تضعف أنفسهم النقمة ، ذلك ما نجيب به صحيفة (الديبا) عما سألت فى ختام مقالتها ، أما قولها إن الدول الشرقية عموما والإسلامية خصوصا لا تألف المدنية، ولا تستطيع دخول أبواب النجاح ، ولا تقوى على جعل أمرها شورى ، فإنا لا نكاد نراه جديرا بالرد ، فهلا رجعت هاته الصحيفة إلى التاريخ ، تراجعه قبل الحكم الفاسد المبنى

(١) يقصد حركة مدحت باشا .

على الوهم أو هوى النفس ، لتعرف أن المدنية قد رفعت على الشرق أعلامها ، وضربت فيه خيامها على حين كان سكان أرض غالية وحوشا يسكنون القفار ، ويغتذون بثمار الأشجار وأن إنسان الغرب على جلالة قدره ورفعة شأنه ، لم يرتفع حجاب الجهالة عن بصيرته إلا بيد التمدن العربى ، ولم يهتد إلى الخروج من ظلمات الضلالة إلا بما اقتبس من أنوار العلم الشرقى ، فإن أنكرت ذلك فهذه شروح ابن رشد ترشدها إلى الصواب ، وهذا شفاء ابن سينا يشفيها من مرض الغرض ، وهذا حى بن يقظان يوقظها من رقدة التعصب ، وإن زعمت أنا وإن أصبنا من العلم نصيبا ، فلم نصب من الشورى والحرية شيئا ، فهذه آية ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ وكلمة القائل لعمر : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف » تشهد فى محكمة العدل بأن من يتهمنا بالنفرة عن التمدن لفى ضلال مبين ، إذ كيف يعدم الإنسان الشرقى ما كان من غرائزه منذ حين ، أفليست هذه أرضه ؟ وهذا هواؤه ؟ وذلك ماؤه ؟ وتلك سماؤه ؟ لقد ــ والله ــ أساء الإفرنج تحمل التعمة ، ولم يشكروا حق المنعم » [1] .

إن الذى يعيش فترة مع كتابات كتّاب هذه الفترة فى الصحافة المصرية ، لا يسعه إلا أن يستشعر أسلوب الأفغانى وفكره فى هذا الرد وإن لم تضع الصحيفة اسمه عليه .

ومن قبيل تشويه الصحف الأوربية فى مصر للحركة الوطنية المصرية ما نشرته صحيفة لاريفورم les reforme ، التى ادعت أن بعض الذوات قد أمضى اللائحة الوطنية مقابل أربعة آلاف جنيه على سبيل الرشوة ، وأن غيرهم من النواب ذهبوا إلى القنصل الإنجليزى مؤكدين له بعدهم عن هذه الحركة ، وأن كثيرين من سراة الأقاليم وأعيان مصر أبوا التوقيع على هذه اللائحة مخافة أن يعود إلى مصر استبداد إسماعيل ، فتصدت لها جريدة (التجارة) وردت عليها ردا عنيفا وكذبت كل ما جاء فى مقالها وفندته تفنيدا [2] .

أما صحيفة (مرآة الشرق) التى اعتبرت نفسها لسان الحزب الوطنى [3] فقد ربطت بين الشورى ومعالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، فناقشت المذاهب السياسية فى روسيا كالسوسياليست والنهيلست ــ أى حزب المساواة ــ والكومون ــ أى الإباحيين ــ [4] ثم تشرح أفكارهم وأغراضهم فى أكثر من مقال ، وتعقب على ذلك بأن ظهور مثل مذهب الكومون مرجعه ظلم الراعى للرعية ، وتحمل على قيصر روسيا الظالم المستبد ، ثم تحمد

(١) جريدة (مصر) : فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩م .
(٢) جريدة [illegible]
(٣) جريدة « مرآة الشرق » : فى ٢٤ يوليو سنة ١٨٧٩ م
(٤) مرآة الشرق : فى ٥ مايو سنة ١٨٧٩ م .

للحكومة أنها قررت الشورى للبلاد وهى بذلك « جعلتنا آمنين شر مثل هذه الفتن » .

ومن بين صحف تلاميذ جمال الدين تميزت جريدة (مرآة الشرق) باتجاه معارضتها اتجاها اقتصاديا فتنقد الأمراء الذين هم « فى غفلة لا يرفعون رؤوسهم عن وسائد الغرور ، ولا يقصرون عن تشييد القصور ، ولا يفيقون من سكر اللهو ، ولا ينهضون من خطة الإهمال ، نبذوا مصالح البلاد وراء ظهورهم ، حتى أصبحنا آلة فى يد غيرنا يستعملها فى منافعه الخاصة ، كأن لم يكن صانع العالم قد منحنا استقلال الوجود » وبعد أن تنقد بشدة الموقف الإنجليزى والموقف الفرنسى فى مصر ، تعود فترجع فساد الأحوال فى مصر إلى « فساد أخلاق الأمراء وولاة الأمور وجهلهم بواجباتهم وسوء تدبيرهم واختلال إدارتهم ، لا يعرفون شرعا ، ولا يرضون قانونا ، ولا يسمعون رأيا ، ولا يقبلون نصحا ، بل تعدوا الحدود ، وانتهكوا المحارم ، وثلموا الأعراض ، وحاربوا العدل ، وقاوموا الإنصاف ، فطغوا وبغوا ، ونهبوا وسلبوا ، وفتكوا وهتكوا ، حباً فى أغراضهم ، وكرامة لشهواتهم » .

وتلفت الصحيفة الأنظار إلى ما يقوم به هؤلاء الأمراء حيث « إنهم شادوا القصور وغرسوا البساتين واقتنوا الحور والولدان ، وتأنقوا فى المأكل ، وتفننوا فى المشرب ، وزينوا الملابس ، وسحبوا مطارف العجب والخيلاء ، وأفراد الرعية على مرآى منهم حفاة عراة يتضورون جوعا ، ويتلظون ظمأ ، ويموتون بردا » (١) .

وقد نشرت جريدة (مصر) بالعدد (٤٢) فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩م خطبة لجمال الدين الأفغانى ألقاها فى مسرح (زيزينيا) بالأسكندرية ، ونظرا لأهمية الخطبة فى التعبير عن حركة جمال الدين الأفغانى والحزب الوطنى فإنها تستحق وقفة خاصة :

١ ـ أشار إلى هذه الخطبة سليم العنحورى فى ترجمته لجمال الدين الأفغانى فقال : « وكان قبل ذلك قد قطع فى الأسكندرية بضعة أيام ، خطب فى أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة جمعت ألوفا من الفرنكات ، فوزعت بإيماء منه على الفقراء (٢) .

٢ ـ أن دعوته لزيارة الأسكندرية كانت موجهة إليه من أوليائه ومريديه بهذه المدينة ، وكان على رأسهم أديب إسحاق وسليم النقاش وعبد الله النديم كما قال العنحورى أيضا ، وقد نشرت الخطبة فى جريدة مصر التى كان يصدرها أديب إسحاق وسليم النقاش (٣) .

---

(١) جريدة « مرآة الشرق » : فى ٢٨ أبريل وأول مايو سنة ١٨٧٩ .

(٢) سليم العنحورى : ترجمة جمال الدين الأفغانى ـ فى محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦ .

٣ ـ أن الخطبة تعبر تعبيرا واضحا عن الأفكار الوطنية التى دعا إليها الأفغانى ، ومن التف حوله من الوطنيين المصريين الذين أطلقت عليهم صحافة ذلك العصر الحزب الوطنى ، وجاءت الخطبة معبرة عن أهدافهم ، فقد تحدث عن الجراثيم الشريفة الكامنة فى نفوس الشرقيين ، ودعا إلى أن يكون أساس التقدم عندهم النهوض بالعلم الذى يستتبعه النهوض بالزراعة والصناعة والتجارة ومعرفة الحقوق والواجبات ثم ذكر الشرقيين بمجد آبائهم وأجدادهم وأرجع تأخر الشرقيين إلى سببين :

أ ـ التعصب

ب ـ الاستبداد .

وشرح كلا منهما داعيا إلى القضاء عليهما والوصول إلى نقيضهما وهما : الوحدة ، والشورى ، ثم أشار إلى ما نالته مصر من « الحكومة الشورية » ، ودعا للمحافظة عليها وإلا فإنها سوف تزول ثم بين أن تحقيق هذه الأهداف لا يكون إلا بازدياد الشعور بالغيرة الوطنية عند المصريين ، ويوضح الطريق إلى ذلك فيقول : « ولا شك أن الغيرة لا تحصل إلا بحزب من الوطنيين يعلمون أن لا شرف لهم إلا بجنسهم ، ولا قوة لأمتهم ولا فخر إلا بوطنهم ، وأنهم إذا أرادوا تحصيل الشرف بالانتماء إلى غيرهم يكونون بمنزلة الرقعة فى الثوب الجديد ، أو بمنزلة العبد الذى يفتخر بسيده ، ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزبا وطنيا يصون لوطنكم حقوقه ويحفظ عليه بهاءه ، على أنى لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين ، فإن ذلك لم يكن إلا فرارا من الظلم ، وحرصا على الحقوق الإنسانية والمدنية ، ولكنى أومل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن ، وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ، ليستقيم أمر العدل والإنصاف ، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبى ، بل تمزقوا أوراق الانتماء ، وتذاكر الحمايات حتى يكون شرفكم منكم وإليكم ، وحمايتكم فى ظل قوانينكم ، ولا تعودوا رقعة فى ثوب الأجنبى الجديد » .

٤ ـ أن قوة الوطنيين المصريين لا تكون إلا بقوة لغتهم وتمسكهم بها ، وبأن يكون للمصريين شخصية قوية لا تقلد أوربا فيقول : « ولا شك أنكم تعلمون أن الحزب الوطنى لا تحصل له القوة ، ولا يكون له البقاء ما لم يكن لأهل الوطن لغة جامعة مهذبة التراكيب جيدة الأساليب ، فإن لم يكن لهم ذلك ، لا تستقر فيهم المعارف ،

ولا تقوم بأحيائهم العلوم ، وإن ذهب جماعة كثيرة منهم إلى أوربا وتعلموا اللسان الأجنبى ، فإن معارفهم المكتسبة تكون سريعة الزوال ووطنهم يكون كالبلد الذى لا ماء فيه ، يجلب لأهله الماء من ضواحيه ، فهو عرضة للظمأ وسوء الحال ، وأهله على شفا الاضمحلال » .

٥ ـ ومن برامج الكفاح الوطنى المصرى ـ كما يؤخذ من هذه الخطبة ـ الاهتمام بحرية الخطابة والاجتماع ، وحرية الصحافة وتعليم المرأة ، والنهوض بها وتعريفها حقوقها وواجباتها على أساس أنها مربية الأجيال التى ستتحمل المسئولية فى المستقبل .

٦ ـ دعا الأفغانى المصريين أن يعتمدوا فى نوال حقوقهم على أنفسهم ، لا عن طريق الانتماء إلى الأجانب وذلك على حد تعبيره « لا يكون إلا بحزب من الوطنيين يعلمون ألا شرف لهم إلا بجنسهم ... » وكانت هذه الدعوة تعبر فى نفس الوقت عن قوة متنامية للوطنيين المصريين وللرأى العام المصرى الذى أخذ يشارك فى مجريات الأمور ، ويلتف حول الأهداف الوطنية سعيا وراء تحقيق مصالحه مما يمكن أن يعتبر إرهاصات بظهور حزب وطنى مصرى ، ولكن ظروف كثيرة تكاثفت على عدم نضجه كان أولها نفى الأفغانى وآخرها الاحتلال الإنجليزى لمصر .

على أن الدول الأوربية لم يرضها التقارب الذى حدث بين الخديو إسماعيل ومجلس النواب ، ورضوخه لمطالب الوطنيين المصريين ، فبعث الوزيران الأوربيان احتجاجا إلى الخديوى إسماعيل فى ٧ أبريل سنة ١٨٧٩م ، وكذلك استقالت لجنة التحقيق الأوربية لزعمها أن إصلاح مالية مصر غير ممكن فى غياب الوزيرين الأوربيين [١] ، وعملت الدول على استصدار فرمان من السلطان العثمانى بخلع إسماعيل .

وقد نشرت جريدة « مصر » فى عددها الصادر بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٩ وقائع المقابلة التى تمت بين جمال الدين الأفغانى والمسيو تريكو قنصل فرنسا فى مصر ، وطلب جمال الدين ـ باسم الحزب الوطنى ـ خلع إسماعيل وتولية توفيق مكانه ، ونظراً لما لهذه المقابلة من دلالات كبيرة فى تاريخ هذه الفترة وإلقائها أضواء جديدة على تطور الحركة الوطنية المصرية ودور الصحافة الوطنية فيها ، فإننا نثبت ما ذكرته جريدة « مصر » بهذا الشأن ، ثم نعلق عليه بما يتناسب مع أهميته وبما نستخلصه منه من نتائج .

---

(١) عبدالرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٨٥ ، ص ٢٤٤ .

نشرت جريدة مصر تحت عنوان :

« توفيق مصر »

« وفى صبيحة هذا اليوم « الخميس » سادس وعشرين من شهر يونيو سنة ١٨٧٩م الموافق السابع من رجب الخير سنة ١٢٦٩ هـ ـ ورد من الباب العالى تلغراف مفاده : « أن الخديوى إسماعيل باشا يتنازل لولى عهده » فقوبل هذا التلغراف بالإذعان والامتثال ، واستدعى الخديوى إلى حضرته ولى عهده والوزراء وأخبرهم بالأمر ، ثم تنازل عن حقوقه الخديوية على مسمع منهم جميعا ، وللحال بويع لتوفيق باشا فصار خديو مصر وصاحب أمرها ، وعزم الخديو السابق على التوجه إلى الأسكندرية ليسير منها على الباخرة المحروسة إلى الأستانة ، وكتب بذلك إلى الباب العالى بتلغراف بعث به فى الساعة الرابعة من النهار (عربية) وتعين وقت التشريفات لتهنئة الخديو الجديد فى الساعة العاشرة (عربية) فى سراى القلعة .

ولما انتشرت هذه البشرى عدها الناس نعمة كبرى ، وشملهم فيها السرور وانشرحت منهم الصدور ، كما سروا بحصول مثل هذا الأمر الخطير من غير وقوع اختلال ، أو حدوث ما يكدر صفوة الراحة ، فحق لهم أن يتخذوا هذا اليوم عيدا يذكر فى صفحات تاريخ مصر ، وتزين به آثار هذا العصر ، فبشرى للحزب الوطنى الحر وأبناء مصر الفتاة ، فقد وافقهم السعد إذ وافاهم التوفيق بأن ولى أمرهم فتى وطنى حر الآراء ، جميل المقاصد ، طاهر الأخلاق ، يؤيد بالتفاتة الفتيان النبهاء الأذكياء ، ويبعد عن سماء قربه كل مداهن موالس ، ومتملق مدالس تعود المخاتلة والرياء وربيت عليهما نفسه الخبيثة ، فصارا من ملكاتها المتمكنة ، فإن هذا الأمير ـ والحق كلمة لا يخجل قائلها ـ قد أشرب حب الحرية المعتدلة ، فنفرت نفسه عن الأوهام الموجبة للذهول ، الداعية إلى الخمول ، ولسوف نرى من مساعيه ما يؤيد رؤى الحزب الحرفية ، ويبقى فى قلوب أبناء مصر الفتاة حبا مقيما ، ويمكن له فى أذهانهم مقاما عظيما .

أما كيفية حدوث هذا الانقلاب العظيم من السعى ، وما تخلله من الحوادث فإنى أوردها عليكم ليقف عليها المصرى المحب لوطنه ، فيعلم أن الحزب الوطنى لم يقم إلا بالحق ، ولم يصدر إلا عن الحزم ، ولم يأخذ إلا بالحكمة ، ولم يقصد إلا إخراج هذا الوطن من مهاوى الذل والفاقة والعناء ، إلى مقامات العز والثروة والهناء .

إنه فى مدة الوزارة الولسنية [1] ، رأى الحزب الوطنى الحر أن إدارة الأمور على مثل

(١) يقصد ريفرز ويلسون وزير المالية الإنجليزى فى وزارة نوبار .

ما كانت عليه مجحفة بحقوق البلاد مفسدة لمصالح سكانها ، تقضى بهم إلى العبودية ، بل تهبطهم من درجة الإنسانية إلى المنزلة الآلية ، وتجعلهم ضحية على مذهب حب الذات الذى ظهر فى السياسة الولسنية حتى شهدت به الجرائد الإنجليزية عينها ، فعمل ذلك الحزب على قلب الوزارة المومأ إليها ، وسعى إلى تلك الغاية النبيلة سعى من لم يألف الوهن ولم يعرف الخوف ، فأدرك بعض الأمنية ، إذ تشكلت الوزارة الجديدة تحت رياسة دولتك شريف باشا الوطنى الهمام ، وأخذت فى نظم ما اختل من الأمور ، ومعالجة ما اعتل من الشئون ، ثم رأى الحزب المومأ إليه أن دول أوربا غير راضية بما وقع ، وغير واثقة بالحكومة ، وعلم سر عدم رضاها وثقتها إنما هو بقاء الخديو إسماعيل على رئاسة الحكومة المصرية ، فاجتمع للنظر فى هذا الأمر والتوصل إلى حفظ المصلحة الوطنية بما لا يوجب القلق والاضطراب ، ولا يذهب بالراحة والأمن ، وكانت الدول فى خلال ذلك ترسل إلينا الوكلاء يقيمون الحجة ويجهرون بالمعارضة ، ويصرحون بالوعيد والإنذار ، إلى أن وفد علينا جناب المسيو تريكو قنصل فرنسا الجنرال ، فأظهر قصد الدول على الوجه الواضح الجلى ، إذ طلب من الجناب الخديوى أن يتنازل لولى عهده ليوطد الملك فى بيته ، فاستنفر من ذلك وأبى ، وتلونت فى هذه الأقوال والآراء على حسب تنوع الأفكار والأهواء ، ورأى الحزب الوطنى أن إصرار الخديوى على الإباء يذهب بمصلحة الوطن ، ويجعل استقلاله على خطر مبين ، فاجتمع رؤساؤه ، ونبهاؤه فى العاصمة ، وتفاوضوا فى أمرهم ثم تحالفوا على السعى والاستماتة فى تأييد مبدأهم الحق ، فبثوا رسلهم فى أنحاء القطر يستطلعون الأخبار ويستجلبون الأفكار ، ويحلفون القلوب لرأيهم غير مبالين بالأخطار المحدقة بهم ، وكانت جرائدهم ــ وهى مصر والمرآة والتجارة ــ تمهد بين أيديهم ، وتبث فى الأنفس أنوار مبادئهم ، ليعلم أهل الوطن المصرى أن لا سبيل لانتعاش وطنهم من عثرة الشقاء ونجاته من ربقة العناد ، ووصوله إلى غاية الراحة والهناء إلا بتنازل الخديوى وتولية ولى العهد ، فينشطوا لالتماس ذلك الأمر على يد الوطنيين لا الأجانب ، وكان فى جملة ما أجروه بعد توالى الاجتماع ، وتواتر المفاوضة أنهم عينوا من قبلهم حضرة الأستاذ الفيلسوف الأكبر السيد جمال الدين الأفغانى ، لمقابلة المسيو تريكو ومفاوضته فى الأمر فسار إليه مستصحبا حضرة الفاضل سليم أفندى النقاش مدير جريدتكم رفيقا وترجمانا ، فوفدا على جناب القنصل المومأ إليه فى دار قنصليته ، فجرت بينه وبين الأستاذ المشار إليه المحاورة الآتية :

لقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن الحزب الماسونى ، والحزب الوطنى الحر

المنتشر فى جميع أنحاء القطر المصرى لأقدم لجناب القنصل احترامنا ، ثم أبدى له أنه لما كان من المعلوم المقرر لدينا أن دولة فرنسا هى مصدر الحرية ، ومحتد الإنسانية ، ومعدن الجمهورية الحرة ، وكان طلبها لتنازل الجناب الخديوى موافقا لآرائنا ، مؤيدا لمشروعنا ، علما بأن بقاءه على عرش الخديوية يعدم ثقة أوربا بهذه البلاد وحكومتها ، ويقف حركة سيرها فى سبيل التقدم ، رأينا أن نظهر عواطفنا ونرفع الحجاب عن مقاصدنا لدى وكيل هذه الدولة الرفيعة الشأن ، ونبدى له على صورة رسمية أنا متأهبون لإجراء ما نستطيع — وليس ما نستطيعه بقليل — لمداركة أمرنا قبل فوات الفرصة ووقوع البلاء ، وإنا مستعدون لكثير من الأعمال المهمة لإدراك هذه الغاية السامية إذا أصر الخديوى على إبائه ، علما بأن هذا الإباء يعود على البلاء بالضرر العظيم .

فأجاب القنصل :

لقد سرنى ما أظهرتم من العواطف النبيلة ، وفى ظنى أنه لابد من التنازل ولكنى أرغب إليكم أن لا تأخذوا بالأسباب الموجبة للقلاقل والاضطراب ، فربما عاد ذلك بالضرر على ولى العهد .

فقال الأستاذ :

إن الحزب الوطنى الحرقد فرغ صبره ، وصار يخشى أن يترتب على امتناع الخديوى بلبلة عظيمة وفتنة جسيمة ، فأعاد القنصل معنى كلامه الأول بعبارة توجب الاطمئنان ، وقال : لابد من الصبر فإن التنازل صار أمرا مقررا وشيك الوقوع .

وبذلك ختمت المحاورة ، وعاد الأستاذ إلى منتدى الحزب وأعاد على المتألبين فيه كلام القنصل فسكنوا إليه وعولوا عليه ، واستقر رأيهم على التزام السكينة حرصا على حقوق ولى العهد ، ومخافة حدوث الفتن الموجبة لتداخل الأجنبيين (١) .

وحينما نشر هذا المقال علق عليه أعضاء الكوكب الشرقى بقولهم :

إن « جمال الدين » لم يكن نائبا عن الأمة بأكملها حينما قابل المسيو « تريكو » وأنه لم يمثل الحزب الوطنى الحر ، وأتو بشهادة بعض رؤساء المحافل الماسونية الأجنبية على أنهم لم يستنيبوه فى زيارته لقنصل فرنسا الجنرال ، فردت صحيفة مصر على ذلك بقولها :

« إن جمال الدين لم يدع النيابة عن الأجانب ، ولا عن المنتمين إليهم من الذين لا

---

(١) جريدة مصر : العدد ٥٢ الصادر بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٩ .

تهمهم مصلحة الوطن ، ولا عن هيئة كوكب الشرق الذى كان السيد رئيسه إلى ليلة السبت حادى عشر الشهر ، ثم خرج منه بمريديه الوطنيين الحقيقيين ، ولم يذكر فى مخاطبته لجناب الوكيل ذلك المحفل أو غيره من المحافل المصرية ، وإنما توجه إليه بالنيابة عن الوطنيين الأحرار الذين خرجوا من محفل الكوكب مع رئيسهم المرفع » (١) .

إن ما نشرته جريدة « مصر » هذا ــ مؤيدا بما سبق أن نشرته صحافة مدرسة الأفغانى ــ يلقى الضوء على قضيتين هامتين فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية :

١ ــ **القضية الأولى** : تتعلق بالدور الكبير الذى أصبحت تقوم به ثلاثة عناصر متفاعلة فى الحركة الوطنية المصرية ، هذه العناصر الثلاثة هى : جمال الدين الأفغانى ، والصحافة الشعبية التى حملت دعوته ، والوطنيون المصريون من تلاميذه وممن تأثروا بدعوته وتعاليمه .

لقد نما هذا الدور واتضح وكادت هذه العناصر تتوحد بعضها مع بعض لتشكل قوة وطنية جديدة تؤثر فى مجريات الأمور ، فهذه القوة تعقد الاجتماعات ، وترسل مبعوثين إلى الأقاليم لتعبر عن آرائها فى الأحداث السياسية ، وتجمع الآراء حول أهدافها الوطنية ، وتوفد جمال الدين لمقابلة القنصل الفرنسى للتعبير عن وجهة نظرها ، ولها صحفها التى تقول صراحة أنها تعبر عنها ، ويتداول أعضاؤها فى اجتماعاتهم فى أن خلع إسماعيل يجب أن يتم على أيديهم وليس على أيدى الأجانب ، ولقد سمت هذه القوة نفسها الوطنيين الأحرار تارة ، والجمعية الوطنية تارة ثانية ، والحزب الوطنى تارة ثالثة كما سبق أن أوضحنا ، وكما عبرت عن ذلك الصحافة الشعبية فى ذلك الوقت .

لقد اتحد هدف هذه القوة الوطنية المتنامية مع أهداف الدول الأوربية فى عزل إسماعيل ، ولكن الأهداف اختلفت لدى كل منهم ، فالوطنيون المصريون كانوا يرون أن إسماعيل وإسرافه ، هو سبب التدخل الأجنبى فى مصر ، وأن إسماعيل حاكم مطلق ولن يتخلى عن ذلك ، وأن سبب لجوئه إلى الوطنيين هو أن الدول الأوربية قيدت سلطاته ، ورهنت أملاكه لصالح الدائنين الأوربيين ، وجعلت كل السلطات للوزارة التى بها وزيران أجنبيان ، ولم يكن هذا بالأمر الهين على إسماعيل الذى تعود على الحكم المطلق خمسة عشر عاما (٢) ، وكان جمال الدين والوطنيون المصريون والصحافة الشعبية يرون أن توفيق أفضل من أبيه ، وكان توفيق عضوا فى المحفل الماسونى الوطنى المسمى كوكب الشرق الذى أسسه جمال الدين الأفغانى بعد انسحابه من المحفل الإسكتلندى ، وكان هناك اتفاق

(١) جريدة مصر : فى ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٩م .
(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل جـ ٢ ص ١٦٨ .

بين الأفغانى وتوفيق على إقامة الحكم الشورى والقيام بالإصلاح اللازم عند تولية الحكم [١] .

أما الأوربيون فكان خوفهم على حقوق الدائنين ومن انحياز إسماعيل للحركة الوطنية المصرية .

٢ ـ والقضية الثانية : تتعلق باتهام الأفغانى بالماسونية ، هذا الاتهام الذى يقصد به ـ عادة ـ تشويه دعوته إلى إصلاح العقدية والغض من دوره فى الحركة الوطنية ، ولكننا باستقراء مواقف الأفغانى وآثاره ، واستقراء الصحافة الشعبية التى عبرت عن حركته فى مصر لا نجد لهذا الاتهام أى ظل من الحقيقة ، فقد دخل الأفغانى المحفل الماسونى الإسكتلندى الذى جذبه إليه شعار « الحرية والإخاء والمساواة » الذى كانت ترفعه المحافل الماسونية ، ولم تكن صلة الماسونية بالاستعمار العالمى والصهيونية قد اتضحت بعد ، ولكنه خرج من هذا المحفل وكانت الأسباب التى ذكرها لانسحابه أعنف هجوم وجه إلى الماسونية فى ذلك العصر ، قال : « إننى للآن ما عرفت لنفسى ـ بصفتى ماسونيا ـ ولا لمطلق الماسونية تعريفا يجعل لها صورة فى الذهن ، أو وصفا ينطبق على من ينخرط فى تلك العشيرة ... .

كنت أنتظر أن أسمع وأرى فى مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية ... إذا لم تدخل الماسونية فى سياسة الكون ـ وفيها كل بناء حر ـ وإذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة ، وإخاء ومساواة تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة .... ماسونيتكم اليوم لا تتجاوز

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٦ ، ص ٤٧ ، د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٨٨٢م القاهرة د . ت ص ٨٦ . وقد لاحظنا أن المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الفترة لم يعطوا الاهتمام الكافى لدور القوة الوطنية المصرية فى واقعة عزل إسماعيل كما عبرت عن هذا الدور صحيفة مصر فى الموضوع المتقدم ، فعبد الرحمن الرافعى فى كتابه : « عصر إسماعيل » جـ ٢ القاهرة ١٩٤٨ م ص ٢٢٤ تحت عنوان : « خاتمة النزاع بين الخديوى والدائنين » قد أطنب فى شرح دور الدول الأوربية ومواقفها ، ودور الدولة العثمانية ، ولكنه لم يشر من قريب ولا من بعيد إلى دور جمال الدين الأفغانى والصحافة الشعبية والوطنيين الأحرار ، وانظر كذلك كتاب : « الحياة النيابية والأحزاب السياسية فى مصر من سنة ١٨٦٦م إلى سنة ١٩٥٢ م » تأليف جاكوب لاندو وترجمة سامى الليثى ط مدبولى بالقاهرة د . ت ، ولم ترد فيه الإشارة إلى جمال الدين الأفغانى والصحافة الشعبية والوطنيين المصريين فيما يتعلق بالواقعة المذكورة ، وانظر أيضا كتاب : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى : « مصر والمسألة المصرية من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٨٨٢م » ط . دار المعارف بالقاهرة د . ت ، حيث أشار إشارة عابرة إلى مقابلة جمال الدين للمسيو تريكو فى سياق حديثه عن مشاورات الدول الأوربية لعزل إسماعيل .

كبس أعمال ، وقبول أخ يتلى عليه من أساطير الأولين ما يمل ويخل فى عقيدة الداخل ، وهى رموز لا يفقه أكثرنا مغزاها ولا المراد من وضعها » [1] .

وفى خطبته التى ألقاها فى مسرح « زيزينيا » فى الإسكندرية والتى نشرتها جريدة مصر فى العدد ٤٧ الصادر فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٩م دعا المصريين إلى الاعتماد على أنفسهم وعدم الاعتماد على الأجانب فى شيء فقال : « ولهذا أرجو منكم أيها السادة أن تقيموا حزبا وطنيا يصون لوطنكم حقوقه ، ويحفظ عليه بهاءه ، على أنى لا ألومكم على انتماء بعضكم إلى الأجنبيين ، فإن ذلك لم يكن إلا فرارا من الظلم ، وحرصا على الحقوق الإنسانية والمدنية ، ولكنى أومل منكم أن تؤيدوا أمر الوطن ، وتشيدوا فيه الحكومة الشورية ليستقيم العدل والإنصاف ، فلا يعود بكم من حاجة إلى حماية الأجنبى » .

ثم هذه المقالة التى نحن بصددها ــ والتى نشرتها جريدة « مصر » ، والتى أعلن فيها أعضاء كوكب الشرق الماسونى أنه لا يتحدث باسمهم ، والتى أعلن هو فيها براءته من الماسونية وكل ما يتصل بالأجانب ، وأنه يمثل الوطنيين المصريين الأحرار أو الحزب الوطنى الحر « المنتشر فى جميع أنحاء القطر المصرى » كما جاء فى حديث الأفغانى إلى قنصل فرنسا .

على أنه إذا كان لانضمام الأفغانى إلى محفل ماسونى من ميزة ، فهى أنه استطاع أن يتعرف على عدد من كتاب مصر وسياسييها ووطنييها ، كون منهم قوة وطنية وسياسية مؤثرة فى مجريات الأمور فى البلاد ، وكانوا ــ هم ومن أخذ عنهم ــ زعماء مصر فى مختلف المجالات فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

---

(١) محمد باشا المخزومى : خاطرات جمال الدين الأفغانى ، ط بيروت سنة ١٩٣١ م ص ٤١ ــ ٤٥ .

الفصل الثانى

الدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد بعد نفى الأفغانى

عندما تولى توفيق الحكم لم يحقق آمال الوطنيين فيه ، فنفى الأفغانى ، وأوقف الصحف التى تعبر عن أفكاره ، وأقال وزارة شريف التى وضعت دستور سنة ١٨٧٩ م ، وألف هو الوزارة ، وأعاد المراقبة الثنائية لانجلترا وفرنسا على مالية مصر ، ثم ما لبث أن أسند الوزارة إلى رياض باشا المعروف بعدائه للنظام النيابى ، وعطل الحياة النيابية لمدة سنتين تقريبا حتى عادت بطلب من الثورة العرابية وبقوة الجيش التى رضخ لها الخديوى .

وقد رأينا كيف قامت الصحف المعبرة عن حركة الأفغانى بالدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد أثناء وجوده فى مصر ، وبعد نفى الأفغانى ، ومع قيام الثورة العرابية ومطالبة الثوار بعودة الدستور ومجلس النواب ـ الذى افتتح يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ م ـ قام جدال فى الصحافة المصرية حول موضوع « الشورى فى الإسلام » وهل هى واجبة على الحكام والمحكومين أو غير واجبة ؟

عمت البهجة الصحافة المصرية بقرب افتتاح مجلس النواب الجديد ، ورأت فيه الصحف المنادية بالشورى تحقيقا لآمالها ، إلا أن صحيفة « البرهان » نشرت مقالا ضد هذا التيار ، فتصدى لها الشيخ محمد عبده بثلاثة مقالات عن « الشورى » فى صحيفة « الوقائع المصرية » .

وكانت صحيفة « البرهان » هى المعبرة عن الخديوى توفيق الداعية له المؤيدة لسلطانه ، وقد أنشأها معوض فريد فى الأسكندرية سنة ١٨٨١ م ، وقام على تحريرها الشيخ حمزة فتح الله الأديب واللغوى المصرى المعروف ، ولم تكن واسعة الانتشار ، وكانت « البرهان » تعلن أنها صحيفة السراى وتفخر بذلك كل الفخر ، فقد « حلت صحيفة البرهان من أعتابه العليا محل القبول ، وأن جنابه الفخيم ـ أى الخديوى ـ يكاد يستوعبها تلاوة وأنه أمر بأكثر من ثلاثين نسخة اشتراكا للمعية ، والخديوى عند المحرر

آية من آيات الدهر ، فإذا رأيته ألفيت فى محياه ما يجذب التسبيح إلى الأفواه ، ولا سيما إذا ترقرق ماء البشر فى غرته ، وتفتق نور المجد من أسرته » (١) .

واذا كانت الصحافة العربية على اختلاف مشاربها - فى ذلك الوقت - تحبذ الشورى ، وتقاوم الظلم ، وتحمل على الاستبداد ، فإن الشيخ حمزة فتح الله يقول بغير ذلك فى مقال طويل بعنوان : « الشورى ومجلس النواب المصرى » وذلك قبيل أيام من افتتاح المجلس « ونحن وإن كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العميمة ، والمنافع الجسيمة ، وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يكن يمنعنا من إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى : الشورى ، والتفرد بالرأى المعروف بالاستبداد ، أما الشورى فإنها وإن كانت ممدوحة عقلا وشرعا بما ورد فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ أحكامهم ؛ لأن هذا مالا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الأمور التى ندبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق » .

ثم يمضى الكاتب مبيناً وجهة نظره المعارضة للشورى فيقول : « وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قد ترك الأمور شورية فهو غلط ظاهر ... » ولكن الكاتب يستمد صور الحكم - فى رأيه - من الملوك الذين جاءوا بعد زمن الخلفاء الراشدين ويدعو لهذه الصورة قائلا : « ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، ولا يجوز الخروج عن طاعتهم ، ولا البغى عليهم ، ولا تخاف ذمتهم ، ولا تنكث بيعتهم ولا ينقض عهدهم فى حال من الأحوال اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل » (٢) .

ورد الشيخ محمد عبده على هذا المقال بثلاثة مقالات فى جريدة « الوقائع المصرية » نشر الأول منها فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨١م ، وجعل عنوانه : « فى الشورى والاستبداد » ، والثانى فى ١٣ ديسمبر ، وعنوانه : « الشورى » ، والثالث فى ٢٥ ديسمبر وعنوانه : « الشورى » .

وخصص المقال الأول لإثبات أن الشورى من الواجبات فى الشريعة الإسلامية ، وليست من المندوبات كما قال محرر جريدة البرهان ، وأن الشريعة لا تقرر استبداد

---

(١) صحيفة « البرهان » : فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨١ م .

(٢) جريدة « البرهان » : فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

الحكام بحال من الأحوال « ويؤيد ذلك أقوال الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ فى خطاباتهم ومقالاتهم عند انعقاد المحافل كقول عمر ـ رضى الله عنه ـ بعد أن تولى الخلافة : « أيها الناس ، من رأى فى اعوجاجا فليقومه » فرد بعض الحاضرين قائلا : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .

والشريعة توجب تقييد الحاكم بالسنة والقانون ، والشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها ولا يكفى فى تقييد الحاكم بها علمه بأصولها ، بل لابد فى ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها ، ويظهرون بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ، ويحضونه على ملازمتها ويحثونه على السير فى طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ الناس فى خطبته إلى تقويم ما عساه يكون منه من اعوجاج فى تنفيذ أحكام الشريعة ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (١) واستخلص الشيخ محمد عبده من هذه الآيه الكريمة ومن أقوال الفقهاء فى تفسيرها عدة أحكام تتعلق بالشورى :

أ ـ أنها أمر للأمة الإسلامية أو لعامة المسلمين أن يستخلصوا من بينهم « أمة » ، ومعناها فى اللغة طائفة أو جماعة تقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، « وليس الأمر هنا للندب ـ كما فهم بعضهم ـ بل للوجوب والفرض على ما صرح به العلماء ، ويؤيده أن قيام تلك (الأمة) بذلك مما لا يتم الواجب المفروض ـ وهو التقيد بالشريعة ـ إلا به ، فيكون واجبا على حكم القاعدة عند فقهاء الشرع « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » ، وقالوا : إن هذه الطائفة يجب تأليفها من أفراد الأمة وجوبا كفائيا ، على معنى أنها إن لم تقم فيهم أثمت أفراد الأمة بجملتها ، واستحقت العقاب برمتها ، ولما كانت الأمة بتمامها لا يمكنها القيام بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيجب عليها اختصاص ذلك بمن تحتم عليها ـ بمقتضى تلك الآية ـ استخلاصهم منها ، عارفين بالواجب فيدعون إليه ، والممنوع فينهون عنه » (٢) وواضح من كلام الشيخ محمد عبده عن هذه الأمة (الجماعة أو الهيئة) أنها المجلس النيابى .

ب ـ أن الآية الشريفة عامة فى دعوة الملوك وغيرهم ، على معنى أن تلك الأمة (الطائفة أو الجماعة) تدعو الملوك وغيرهم إلى الخير ، وتأمرهم بالمعروف ، وتنهاهم عن

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

(٢) جريدة الوقائع المصرية : فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨١م مقال : « فى الشورى والاستبداد » .

المنكر ، ليقوم بها الدين ، ولا يخرج أحدهم عن حده ، حفاظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدون ».

والملوك والسلاطين داخلون تحت من يجب على تلك الأمة أو الطائفة إرشادهم ، وذلك لتضافر الأحاديث الصحيحة والأخبار الشريفة على وجوب نصيحة الأمراء ، قال ﷺ : « إن الدين النصيحة » ثلاث مرات ، قيل لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وقال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم .... الحديث » وقوله عليه الصلاة والسلام : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »[1] .

حـ ـ وكما كلفت الشريعة المطهرة جماعة المسلمين بمناصحة أولياء الأمور والأخذ على أيدى الظالم فيهم ، وانتقاء طائفة من خيارهم للهداية والإرشاد ، ووعدتهم بقرب العقاب إذا لم يردوا الظالم عن ظلمه عند إحساسهم به ، كذلك كلفت ولاة الأمور بأن يأخذوا آراء رعاياهم فيما ينظرون فيه من مظان المنافع ومجاليها ، قال تعالى مخاطبا لنبيه الذى لا ينطق عن الهوى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ [2] وأورد قول ابن عباس : « وقد علم الله أن ما به إليهم من حاجة ، ولكن أراد أن يستن به من بعده « فمناصحة الأمراء أمر واجب على الرعية ، وكذلك على ولاة الأمر ألا يمنعوهم من قضاء هذا الواجب ، فالأمر فى قوله تعالى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ للوجوب لا للندب .

د ـ ومعلوم أن الشرع لم يجئ ببيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام ، ولا طريقة معروفة للمشورة عليهم ، كما لم يمنع كيفية من كيفياتها الموجبة لبلوغ المراد منها ، فالشورى واجب شرعى وكيفية إجرائها غير محصورة فى طريق معين ، فاختيار الطريق المعين باق على الأصل من الإباحة والجواز كما هو القاعدة فيما لم يرد نص بنفيه أو إثباته ، وإذا كان الأمر كذلك ندب لنا أن نوافق فى كيفية الشورى ومناصحة أولياء الأمر الأمم التى أخذت هذا الواجب نقلا عنا [3] وأنشأت له نظاما مخصوصا ، متى رأينا فى الموافقة نفعا ، ووجدنا منها فائدة تعود على الأمة والدين ، وإلا اخترنا من الكيفيات والهيئات ما

---

(١) الوقائع المصرية : المقال السابق . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٣) يقصد الدول الأوربية الحديثة ، على أن كتاب الغرب يرون أن أوربا أخذت نظام الشورى (الديمقراطية) عن اليونان القدماء وليس عن المسلمين .

يلائم مصالحنا ويطابق منافعنا ، ويثبت بيننا قواعد العدل وأركانه .

وبناء على ما تقدم « فإن نزوع الناس إلى طلب الشورى ونفورهم من الاستبداد ليس واردا عليهم من طريق التقليد للأجانب ، بل ذلك نزوع إلى ما هو واجب بالشرع ، ونفور عما منعه الدين وقبحه العلماء » [1] .

وهذا المقال الأول من مقالات الشيخ محمد عبده فى « الوقائع المصرية » فى رده علي الشيخ حمزة فتح الله فى صحيفة « البرهان » ، يمثل المستوى الرفيع لأدب الحوار فى الإسلام ، وتحقيق قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ ، فقد ركز فى مقاله على توضيح الموضوع وإيراد الحجج والبراهين المؤيدة لرأيه مبتعدا كل البعد عن تجريح خصمه فى شخصه أو اتهامه بالجهل أو الخيانة أو ممالأة الحاكم الظالم ، بل هو يجل شخص خصمه ويحترمه فى حين يعارض آراءه ، فهو يقول فى مقدمة مقاله : « إن ما نعهده فى حضرة هذا المحرر من حسن القصد وسلامة النية ، يجعلنا فى ريب من أن يكون الاستبداد ممدوحا له ومقصوداً بالثناء عليه ، بل ما نعتقده فيه من التفقه فى الدين ، والتضلع فيه يصور لنا أن ليس المقصود من تلك العبارات ما تدل عليه ظواهرها التى أوقعت فى أوهام كثير من مطالعيها خلاف ما عليه شرعنا » .

ويقول عن مناظره فى موضع آخر : « وذهاب المحرر فى هذه العبارة خلف فكرة يعد من سبق القلم وجريانه بما هو خلاف التحقيق .

فمناظره فقيه عالم سليم النية ، والمقصود من عبارته ليس ما تدل عليه ظواهرها من مناصرة الاستبداد وعدم وجوب الشورى ، وآراؤه ليست أخطاء وجهلا منه ولكنها من سبق قلمه وجريانه قبل التحقيق اللازم » وهكذا يمضى مقال الشيخ محمد عبده فى عبارات عفيفة سمحة وحجة قوية واضحة تليق بكاتب سمى بعد ذلك إمام المسلمين .

واذا كانت « مقالات الشيخ محمد عبده فى « الوقائع » قد اشتملت على معظم الأفكار التى كرس لها جهوده فى الفترة التالية من حياته ، فى تصحيح العقيدة الإسلامية وإصلاح المجتمع المصرى » [2] ، فإن إصلاح المجتمع – فى رأيه – يجب أن يبنى على العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وأن الشعور الدينى قوة دافعة للإصلاح الاجتماعى المنشود ،

---

(١) الوقائع المصرية : العدد السابق – المقال السابق .

(٢) al - sawi : ibid , preface .

وهذا ثابت من نصوص كثيرة للإمام فى هذا الصدد ، فهو يقول حين يتحدث عن المطالبين بإصلاح المجتمع على نهج إسلامى : « فقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه فى تقويم شئونه ، ويمكن أن يقال : إن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الأفراد واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة » [1] .

وفى رأيه أن دفع الأفراد إلى الأعمال المرغوب فيها فى حياتهم ، يجب أن يقوم على أساس دينى ، « فإن أول مبدأ يجب أن يكون أساسا لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة والنفوس بالصفات الكريمة هو التعاليم الدينية الصحيحة ، أعنى ترغيب القلوب بما يرضى الخالق ، وإرهابها بما يغضبه ، ثم يؤتى بالرغبة التى يراد حث النفوس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع ، بحيث لا تخرج عن مكارم الأخلاق التى حصر الشارع علة بعثته فيها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » [2] .

وهناك أمثلة عديدة ــ أخرى ــ على أن هذا هو نهج الإمام : يبين أن المفاسد والآفات الاجتماعية مما يحرمه الدين ، وأن الإصلاحات الاجتماعية مما يوجبه الدين ، وهذا هو النهج الذى سار عليه فى كتابته عن الشورى ، ففى مقاله الأول قدم براهين وحججا قوية على أن الشورى واجبة فى الإسلام ، وفى مقاليه التاليين تحدث عن إمكان قيام الشورى فى مصر والمنافع التى يجنيها المصريون من تطبيقها ، وما يمكن أن تحدث من أثر فى المجتمع المصرى بصفة عامة ، وهو ما أثبت فى مقاله الأول أن الإسلام يوجبه ويحث عليه .

ففى المقال الثانى وعنوانه : « فى الشورى » [3] تحدث الشيخ محمد عبده عن إمكان قيام الشورى فى مصر والمنافع التى تعود عليها منها ، فالأهالى انتقلوا من حال الغفلة إلى حال الاستبصار خاصتهم وعامتهم ، وأصبحوا يطلبون العدل والمساواة وأصبح بإمكانهم أن يختاروا جماعة منهم يقدرون على القيام بمهام المصالح ويمتلكون من العلم والتجربة ما يؤهلهم لذلك ، والخديوى أظهر منذ نشأته الأولى ميلا إلى الشورى ونفورا من الاستبداد ،

---

(١) جريدة المؤيد : ٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠ م ، المقال الخامس فى رد الإمام محمد عبده على هانوتو .

(٢) جريدة الوقائع المصرية : ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٠ م ، مقال بعنوان : « التربية فى المدارس والمكاتب الميرية » .

(٣) جريدة الوقائع المصرية : فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١ م .

وشريف باشا رئيس مجلس النظار له ميل كلى إليها، ومن ثم فكل الظروف مهيأة لقيامها في مصر ، والمنافع التى تعود عليها من الشورى لامراء فيها .

وأما المقال الثالث وعنوانه : « الشورى والقانون »[1] فهو بحث قيم فى تكامل وتفاعل عدد من العناصر التى يقوم عليها نظام الشورى ، وهذه العناصر ثلاثة هى الرأى العام ، ومجلس النواب ، والصحافة ، يليها عنصر رابع يصدر عنها جميعها وهو القانون الذى يضع أساس العدل والمساواة بين الناس .

فالأمة إذا تقدمت فى مراقى الاجتماع ، وتوالت عليها الحوادث وعلمتها أسفار الأخبار طرفا من حياة الأمم الأخرى نشأ فيها ما يسمى الرأى العام الذى يعنى اتفاق الجماعة على السعى إلى مصلحتهم العامة ، وفى هذه الحالة يسعون إلى ضبط المصالح وتقييد الأعمال بحدود مقدسة تصان ولا تهان ، وهذا لا يكون إلا بالقانون العادل .

ولما كان أفراد الجماعة لا يمكنهم أن يباشروا ـ جميعا ـ وضع القانون ، إذ منهم من تمنعهم مواقع قوية عن ذلك ، فلم يبق إلا أن ينتخبوا منهم نوابا بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ، ومن كل ذوى حرفة ، ليكونوا جميعا على علم بأحوال موكليهم عموما ، وطبائع أمكنتهم ، فإذا أتموا هذا القانون على وجه كامل شامل ، بعد البحث الدقيق ـ وإن استغرق عمله أمدا ـ كان هو المعمول به علما وعملا .

أما علما فلأن من وضعه هم نواب عمن انتخبوهم ، فيبحثون ويناقشون كل الطرق الموصلة لمصلحة هؤلاء الناخبين « ولأن صحف الأخبار التى لايخلو منها قطر من الأقطار تتكفل بنشر المفاوضات والأحكام فى كل مسألة ، فتكون هى السفراء بين « مجلس النواب » وبين الرعية على اختلافهم »[2] .

وأما عملا فإن القانون الذى يتم وضعه بالطريقة السابقة يكون عادلا منطبقا على المصالح ، فواضعوه نواب الأمة ولسانها المعبر عنها ، والذين أقسموا على الأخذ بالأنفع فى كل شئ ، وهم لذلك لابد أن يعملوا على تطبيقه فى واقع الحياة ، ويكون حقيقا أن ترسمه الأمة على صفحات القلوب .

وبعد الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢م أصاب الفتور « الدعوة إلى الشورى ومقاومة الاستبداد » ، إلى أن استأنفتها جريدة « المؤيد » بعد صدورها سنة ١٨٨٩م .

---

(١) جريدة الوقائع المصرية : فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨١ م

(٢) جريدة الوقائع المصرية : العدد السابق .

وقد هاجم الشيخ على يوسف استبداد سلطات الاحتلال والوزارة التى تأتمر بأمره ، ولكنه لم يذكر سلطات الخديوى بشىء ، فقد أنكر الدعاية الإنجليزية فى مصر وأوربا التى تقول : إن مصر بعد الاحتلال « صارت بلاد الدستور والعدالة ، وأن لا سلطة فيها فوق سلطة القانون ، لذلك فقد أصبحت سعيدة بعد أن كانت شقية ، وحكومتها عادلة بعد أن كانت مستبدة ، وحبذا لو صح ما يقولون ، وما أعظمها من شهادة لمصر لو صدقوا فيما يزعمون » (١) .

ثم فند الشيخ على يوسف هذه الدعاية الإنجليزية بقوله : « إن الحقيقة تؤكد أن الدستور فى مصر اسم لا مسمى له إلا الأهواء السياسية وشهوات القابضين على أزمتها ، وأن القانون فيها مداس بالأرجل ينفذه أصحاب السيطرة متى شاءوا ويبطلونه متى شاءوا ، فإرادة القوة فوق القانون .... وإذا تبع القانون فى بلد إرادة الحكام وأهواءهم سقطت كرامة النفوس وصارت الهيبة والرهبة من الحكام لا من القانون ، وذلك شأن الحكومات الاستبدادية لا محالة ، وما أتعس حال الأمة عندما يصبح القانون فى قبضة حكومتها لتقضى به بما تشاء منه على من تشاء من الناس ولتمثل معه من جهة أخرى حالة الفوضى وإطلاق العنان للمفسدين » (٢) .

ونشرت جريدة « المؤيد » أيضا مقالا لصاحب الدولة الأمير (ملكم خان ميرازا) (٣) عن الاستبداد الشرقى مترجما عن مجلة (باريس) التى كانت تصدر فى باريس ، ويذهب كاتب المقال إلى أن سبب انحطاط الشرق هو « الاستبداد الأسيوى » وهو ذلك النوع من الحكم الذى « لا وازع له من الشفقة والذمة ، ولا يقف عند حد القانون بل يدوسه بالأقدام ، فهو والحالة هذه سطوة عمياء تمحق كل الحقوق الإنسانية وتبيد جميع عناصر التقدم والارتقاء ، وهو أيضا مصدر شقاء جميع شعوب الشرق » (٤) .

ويذكر الكاتب أن الإسلام فى مبدأ ظهوره حارب هذا الاستبداد ، ولكن لما وهنت قوى البلدان الإسلامية وهنت مقاومة الاستبداد وتحكم فى الشرق ، ثم عملت أوربا على تقوية هذا الاستبداد ، وتأييده « بكل ما يتصوره العقل من الكفالات والضمانات » ويطالب

---

(١) جريدة المؤيد : فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٩ م .   (٢) المصدر السابق .

(٣) قالت الجريدة عن كاتب المقال إنه « ليس من أهل فارس ، ولا من نسب يدلى به إلى العائلة المالكة في إيران ، بل هو مسيحى الأصل اندرج فى خدمة العائلة المالكة الإيرانية وأخلص فى محبتها ، وعلى كل حال فالرجل له أفكار سامية ، وكتابات شتى يذب فيها عن الإسلام » .

(٤) جريدة المؤيد : فى ١٣ يناير سنة ١٨٩٩ م .

الكاتب أوربا ألا تساعد الاستبداد فى الشرق ، وبأن يقتصر فعل أوربا على ترك الحكم المطلق الراهن كما هو عليه ، ومساعدة حركة التقدم بالوسائل القانونية ودفعها بالسرعة التامة نحو زمام الأحكام ، وإشهار حكومة مقيدة ونظام نيابى موافق لمقتضيات الزمن .

ولقد وقع الكاتب ــ وهو أوربى ــ فى خطأ حين تصور أن تقيم أوربا حكما نيابيا فى البلاد الشرقية الإسلامية لأن ذلك يتناقض مع مصالحها الاستعمارية ، فالحكم النيابى يعمل على ظهور القوى الشعبية التى تقف ضد نفوذ الاستعمار واستغلاله فى بلدان الشرق .

وجاء عبد الرحمن الكواكبى إلى مصر عام ١٨٩٨م هربا من الاستبداد العثمانى فى الشام ، وقد عرف عنه اهتمامه بأسباب ضعف الفكر الإسلامى وتخلف المسلمين ، والوسائل التى يمكن بها ملافاة ذلك (١) ، وفى ذلك الوقت كانت جريدة « المؤيد » هى المدافعة عن الفكر الإسلامى فى مواجهة جريدة « المقطم » ذات النزعة الإنجليزية و « الأهرام » ذات النزعة الفرنسية ، وكان طبيعيا ــ حينما بدأ الكواكبى ينشر مقالاته عن « طبائع الاستبداد » ــ أن ينشرها فى جريدة « المؤيد » للتوافق بين فكر الكواكبى وسياسة الصحيفة ، وكتب أول مقال له بعد اقتراح الموضوع للمناقشة وتعريف الاستبداد ــ بعنوان الاستبداد والدين ذهب فيه إلى أن الدين الإسلامى يحارب الاستبداد ويوجب العدل ، والمساواة ، كما دأب على تأكيد هذا المعنى فى مقالاته الأخرى كلما كانت هناك مناسبة لذلك .

بدأت جريدة المؤيد فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠م سلسلة من المقالات عن الاستبداد أولها تحت عنوان : « اقتراح على المحررين السياسيين » لعبد الرحمن الكواكبى (٢) .

وفى مقاله الأول « اقتراح على المحررين السياسيين » تحدث عن علم السياسة والذين ألفوا فيه قديما وحديثا من العرب والأوربيين ، وقال إن المحررين السياسيين من العرب قد

---

(١) د . أحمد عبدالرحيم مصطفى :حركة التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث ، القاهرة ١٩٧١م ص ٧٤، وقد تناول المؤلف مقالات : « طبائع الاستبداد » فى إطار تناوله لحركة التجديد الإسلامى فى العالم العربى ، وأنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة ، ١٩٧٨م ص ١٤١، وقد اعتبر المؤلف كتابات الكواكبى ومن بينها « طبائع الاستبداد » من مظاهر اليقظة الإسلامية .

(٢) كان عبد الرحمن الكواكبى يخفى اسمه «ووقع المقال الأول » باسم مجيب ، ثم قدمت الجريدة المقالات التالية على أنها تعلم « أحد أفاضل الكتاب المجيدين ثم عرف بعد ذلك أنها لعبد الرحمن الكواكبى ، وكان الكواكبى يخفى اسمه خوفا من بطش السلطان العثمانى ،.وقد منعت جريدة المؤيد من دخول الممالك العثمانية بسبب هذه المقالات » .

كثروا اليوم بدليل ما يظهر من منشوراتهم فى الجرائد والمجالات فى مواضيع كثيرة ، ودعاهم إلى ميدان المسابقة فى خير خدمة ينيرون بها أفكار إخوانهم الشرقيين وينبهونهم ـ لا سيما العرب منهم ـ لما هم عنه غافلون ، فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الأمثال والتحليل فى : (ما هو داء الشرق ؟ وما هو دواؤه) وذهب إلى أن داء الشرق هو الاستبداد ، ودواؤه هو التخلص منه ، واقترح على المحررين السياسيين تشخيص هذا الداء ووصف ذلك الدواء .

وأجاب الكواكبى على هذا الاقتراح بسبعة أجوبة فى سبعة مقالات عناوينها على التوالى : « ما هو الاستبداد » (١) و « الاستبداد والدين » (٢) و « الاستبداد والعلم » (٣) و « والاستبداد والمجد » (٤) و « الاستبداد والمال » (٥) و « الاستبداد والأخلاق » (٦) و « الاستبداد والترقى » (٧) ثم ختمها بمقال عن « الاستبداد والتخلص منه » (٨) .

ويعرف الكواكبى الاستبداد بأنه « صفة للحكومة المطلقة العنان التى تتصرف فى شئون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محققين .... ومنشأ الاستبداد ما هو من كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفاتها على شريعة أو على إرادة الأمة ، وهذه حالة الحكومات المطلقة ، أو هى مقيدة بنوع من ذلك ، ولكنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى » (٩) .

وقد ذهب عبد الرحمن الكواكبى إلى ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده من قبل فى تفسير الآية الكريمة : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ (١٠) فاستنتج منها وجوب اختيار مجالس من نواب الأمة تراقب أعمال الحكومة أو حسب قوله « السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية » ، وخالف الفقهاء الذين اعتبروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية واعتبرها فرض عين ، ونفى أن يكون المراد من الآية سيطرة أفراد المسلمين بعضهم على بعض ، ولكن المراد منها « إقامة فئة تسيطر على حكامهم كما اهتدت إلى ذلك الأمم الموفقة للخير ، فخصصت منها

---

(١) جريدة المؤيد : فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .
(٢) جريدة المؤيد : في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م .
(٣) جريدة المؤيد : فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٠ م .
(٤) جريدة المؤيد : فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٠٠ م .
(٥) جريدة المؤيد : فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .
(٦) جريدة المؤيد : فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .
(٧) جريدة المؤيد : فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م .
(٨) جريدة المؤيد : فى ١٣ يناير سنة ١٩٠١ م .
(٩) جريدة المؤيد : فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م ، مقال « ما هو الاستبداد » .
(١٠) سورة آل عمران : ١٠٤ م .

جماعات باسم مجالس نواب وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية : السياسية والمالية والتشريعية ، فتخلصوا بذلك من شآمة الاستبداد » (١) .

وتقديس المستبد وتعظيمه ظاهرة فى الأمم المنحطة « حتى يقال إنه ما من مستبد سياسى إلى الآن إلا ويتخذ له صفة قدسية يشارك بها الله ، أو تعطيه مقام ذى علاقة مع الله ، ولا أقل من أن يتخذ بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله ، وأقل ما يعينون به الاستبداد تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع تقاوم بعضها بعضا » (٢) .

وفى مجال العلوم لا يخشى المستبد علوم اللغة والأدب ولا علوم الدين المتعلقة بالمعاد ، بل هو يستخدم العلماء من هذا القبيل لتأييده فى استبداده بالإغداق عليهم ، إنما هو يخشى من الفلسفة العقلية ودراسة حقوق الأمم ، وعلوم السياسة والاجتماع ، والتاريخ المفصل والقدرة على الخطابة الأدبية ، وغير ذلك مما يشحذ تفكير الإنسان ، ويعرفه حقوقه وكيف يطلبها وكيف يحافظ عليها لأن المستبد سارق للحقوق ، والعلماء من هذا القبيل يكشفون السرقة (٣) .

والاستبداد يقتل فى نفوس الناس الطموح إلى المجد ، ويعنى به رغبة الإنسان أن تكون له منزلة حب واحترام فى قلوب الناس ، ويغرس فى نفوسهم بدلا من المجد التمجد أو المجد الكاذب ، وهو أن يكون الإنسان مستبدا صغيرا فى كنف المستبد الأعظم ، ومن هنا ظهرت فى الأمم نغمة التمجد بالأصالة والأنساب ، والحكومة المستبدة يظهر استبدادها فى كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطى إلى الفراش ، ولايكون كل صنف من هؤلاء إلا من أسفل طبقته ، لأنه لا يهمهم المجد باستجلاب محبة الناس ، إنما يهمهم باكتساب ثقة رئيسهم المستبد ، والوزير فى الحكومة الاستبدادية وزيرالمستبد الأعظم لا وزير الأمة ، وكذلك من تحته من أعوانه ، فالهيئة تتمجد ولا تمجد وكلهم شركاء فى جريمة الضغط على الأمة وظلمها ، فالاستبداد يقتل المجد ويحيى التمجد (٤) .

وفى مقال « الاستبداد والمال » يرى أن الأغنياء أعداء الاستبداد فكرا ولكنهم أوتاده عملا ، فهم ربائط المستبد ، يذلهم فيئنون ، ويستدرهم فيحنون ، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر غنى أغنيائها وإن لم يزد عددهم عن الواحد فى المائة ، وأما الفقراء

(١) المؤيد : فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م مقال : (الاستبداد والدين) .

(٢) المؤيد : المقال السابق .

(٣) المؤيد : فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م مقال بعنوان : « الاستبداد والعلم » .

(٤) جريدة المؤيد : في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٠ م مقال : « الاستبداد والمجد » .

فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب ، والحكومة الاستبدادية تخصص المال الكثير لترف المستبد وسرفه ، وتغدق على صنائعها ، ومن تستخدمه لتحصيل شهواتها ، ومن يعينها على طغيانها ، وسائر أفراد الشعب فى شقاء وفقر وبؤس [1] .

والاستبداد يتصرف فى أكثر الميول الطبيعية والأخلاق الفاضلة فيضعفها أو يفسدها ، ولكن أخطر ما فيه أنه يؤثر فى الناس « فهو يرغم الأخيار منهم على ألفة الرياء والنفاق ، ويعين الأشرار على إجراء ما فى نفوسهم آمنين حتى من الانتقاد ؛ لأن أكثر أعمالهم تبقى مستورة يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة » [2] .

والاستبداد يمنع الترقى بجميع أنواعه : الترقى فى الجسم صحة وتلذذا ، والترقى فى الاجتماع بالعائلة والعشيرة ، والترقى فى القوة بالعلم والمال ، والترقى بالخصال والمفاخر ، والترقى الروحى لكسب نعيم الحياة الآخرة بالترقى إليها على سلم الرحمة والإحسان ، ولا سبيل إلى ترقى الأمم إلا بالقضاء على الاستبداد « وخلاصة القول أن الأمم التى أسعدها جدها لتبيد استبدادها ، نالت من الشرف الحسى والمعنوى ما لا يخطر على فكر أنصار الاستبداد » [3] .

ونظر الكواكبى إلى سطوة الاستبداد فى عهده فذهب إلى « أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، إنما يقاوم بالحكمة والتدرج ... فالاستبداد محفوف بأنواع القوات التى منها قوة الإرهاب بالعظمة ، وقوة الجند ، لا سيما إذا كان الجند غريب الجنس وقوة المال ، وقوة الألفة على القسوة ، وقوة رجال الدين [4] ، وقوة أهل الثروات وقوة الأنصار من الأجانب .... فالاستبداد ينبغى ألا يقاوم بالعنف حتى لا تكون فتنة تحصد الناس حصدا ، ولكن الكواكبى يقدم وسائل القضاء على الاستبداد كما يراها ، وهى ترقى الأمة فى الإدراك والإحساس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس ، وتهيئة ما يستبدل بالاستبداد ، أى تقرير شكل الحكومة التى يمكن أن تستبدل بالاستبداد ، والمصابرة على تعريفها للخواص والعوام لسنوات طويلة ، فوضوح الهدف ومعرفة الجميع به والإصرار عليه واجب قبل الإقدام على العمل » .

---

(١) جريدة المؤيد : فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م مقال : « الاستبداد والمال » .

(٢) جريدة المؤيد : فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م مقال : « الاستبداد والأخلاق » .

(٣) جريدة المؤيد : فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٠٠ م مقال : « الاستبداد والترقى » .

(٤) يقصد بعض رجال الدين الذين يمالئون المستبدين وقد شرح ذلك فى غير هذا المكان .

ولكن الاستبداد قد يبلغ من الشدة درجة تنفجر عندها الفتنة انفجارا طبيعيا فإذا كان في الأمة عقلاء فإنهم يتباعدون عنها حتى إذا سكنت ثورتها نوعا ، وقضت وظيفتها في حصد المنافقين ، حينئذ يستعملون الحكمة فى توجيه الأفكار نحو تأسيس العدالة ، وخير ما تؤسس به هو إقامة حكومة لا عهد لرجالها بالاستبداد ولا علاقة لهم بالفتنة [1] .

(١) جريدةالمؤيد : فى ١٣ يناير سنة ١٩٠١ م مقال : «الاستبداد والتخلص منه» .

الفصل الثالث

الصحافة الإسلامية
ومقاومة الاحتلال الإنجليزى

كانت دعوة صحافة تلاميذ الأفغانى إلى الشورى والحياة النيابية الصحيحة فى أثناء وجوده فى مصر ـ مرتبطة فى الوقت نفسه بالدعوة إلى مقاومة النفوذ الأجنبى المتمثل فى الرقابة الثنائية على مالية مصر ، ومرتبطة أيضا بالمطالبة بأن يكون من حق مجلس النواب مراقبة أعمال الوزيرين الأجنبيين كما سبق أن أوضحنا .

وبعد نفى جمال الدين الأفغانى واحتلال الإنجليز لمصر ، كانت صحيفة « العروة الوثقى » هى الصيحة المدوية التى أيقظت النفوس على خطر الاحتلال الإنجليزى لمصر بعد فترة من الاستسلام والذهول ، وقبل أن نتناول جهاد هذه الصحيفة فى هذا المجال نشير ـ فى فقرات موجزة ـ إلى جهود بعض الصحف ـ التى نفخ فيها الأفغانى من روحه ـ فى مقاومة التدخل الأجنبى .

فبعد إبعاد الأفغانى عن مصر واصلت صحيفتا « مصر » و« التجارة » حملتها على الأجانب وعلى الرقيبين الأجنبيين ، وعلى التدخل الأجنبى عامة ، وأصرت الصحيفتان على هذه الحملة رغم إنذارهما ، فعطلتهما الحكومة وجاء فى قرار التعطيل « حيث سبق صدور الإنذارات مرارا عديدة وتنبيهات شفهية من إدارة المطبوعات إلى أصحابها امتياز الجرائد الأهلية عموما ، وإلى صاحب امتياز جريدتى « مصر » و « التجارة » خصوصا بعدم خروجهما عن حدود وظائفهم ، ولا ينشرون ما يوجب تشويش الأفكار ، صدر له آخر إنذار أنه إذا رجع لمثل ذلك فتلغى جريدتاه بالكلية ، وحيث إنه بعد هذا الإنذار لم يترك مسلكه الأول ، لما نشره فى جريدة « التجارة » نمرة ١٢٣ الصريح فى أنه لا يرجع عما هو مصر عليه ، وحيث إن ما اعتادت على نشره هاتان الجريدتان ضرره أكثر من نفعه اقتضى الحال إلى صدور الأمر من إدارة المطبوعات بإلغائهما مؤبدا » (١) .

---

(١) جريدة الوطن : فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٧٩م عن د . إبرهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

أما الصحيفة الأخرى التى نادت بأفكار الأفغانى ـ مرآة الشرق ـ فقد أوقفت قبل ذلك ، حيث كانت هى الصحيفة الوحيدة التى رفضت نشر بيان من وزارة الداخلية عن نفى الأفغانى ، وظلت تذكره بأحسن الصفات فصدر قرار بتعطيلها خمسة أشهر ؛ « لأنها اعتادت الدخول فيما لا يعنيها ونشرت مطالعات سخيفة مخترعة من تلقاء نفسها خرجت فيها عن حددو وظائفها » (١) وكان هذا توطئة لتعطيلها نهائيا (٢) .

لم يفت فى عضد الأفغانى نفيه عن مصر وإيقاف صحفه وتشريد تلاميذه بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، بل ازداد رغبة وقوة فى مقاومة الاستعمار ، فلقد كان الأفغانى على موعد مع تلك العاصفة التى اجتاحت بها أوربا أقطار العرب وديار الإسلام ـ عاصفة الاستعمار الحديث ـ فقبل ثمانى سنوات من ميلاده بدأ احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م ، وفى نفس عام مولده (١٨٣٨ م) احتلت إنجلترا عدن ، وبعد ثلاثة أعوام من ذلك التاريخ نجحت إنجلترا متعاونة مع السلطان العثمانى فى إرغام مصر على التراجع داخل حدودها الإقليمية سنة ١٨٤١م ، وفى سنة ١٨٦٠م فجر الاستعمار الإنجليزى والفرنسى الأحداث الطائفية فى الشام ، وفى سنة ١٨٦٨ م انتصر التيار الممالئ للإنجليز فى الدولة الأفغانية ، وهو التيار الذى حاربه جمال الدين ، وحول هذه السنوات وفيها كان الزحف الاستعمارى دائما وحثيثا على كل من إيران ومصر وتونس وليبيا والسودان ، وقبل ذلك كانت الهند قد سقطت فى شراك الإنجليز (٣) .

وهذا يفسر ما استشعره الأفغانى من خطر على ديار الإسلام وثورته ضد الاستعمار ـ والإنجليز منه بالذات ـ فى كل مكان حل به .

وبعد أن أخفقت الثورة العرابية واحتل الانجليز مصر كان طبيعيا أن تختفى الصحف الوطنية ، إما لأن أصحابها كانوا من أنصار الثورة العرابية مثل أديب إسحاق وعبد الله النديم وإبراهيم اللقانى ، وإما بسبب القسوة التى واجهت بها سلطات الاحتلال أية صحيفة تعارض هذا الاحتلال .

وكانت حالة مصر فى السنوات الأولى للاحتلال حالة أمة خرجت مهزومة بعد ثورة

---

(١) جريدة الوقائع المصرية : فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٩ م عن د . إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ص ١٠٦ .

(٢) سليم العنحورى : ترجمة جمال الدين الأفغانى ـ فى محمد رشيد رضا ـ تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٨ .

(٣) د . محمد عمارة : تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٨٢ م ص ٢١٢ .

قومية لتقرير حقوقها السياسية والدستورية ، وأخفقت الثورة وضاعت هذه الحقوق بل وضاع معها الاستقلال إذ كان إخفاق الثورة على يد انجلترا التى استبقت احتلالها تحقيقا لأطماعها الاستعمارية ووضعت يدها على زمام الحكم ، وصار إليها الأمر والنهى فى كل شيء ، واستسلمت الحكومة لسلطان الاحتلال كما استسلم الخديوى ، وخيم على البلاد جو من الخضوع والإذعان للحكم الأجنبى [1] .

وشاعت فى الصحف فى السنوات الأولي للاحتلال الدعوة للاستكانة والخضوع والرضا بالأمر الواقع ، وظهرت صحف البرهان والزمان والصادق وغيرها تؤيد الاحتلال ، وتدعو إلى تسليم أمور البلاد للإنجليز وتطالب بالضرب على يد كل من يقاوم سلطاتهم[2] .

وكانت أحداث سنة ١٨٨٢ م ضربة فظيعة لمصر ، فقد نشرت فى أرجائها الارتباك والانقسام ، وفقد كل امرئ فيها طريقه وسط القلق العام ، واختفت عند خدام الدولة فكرة الواجب ، ولم يعودوا يعرفون أين الخلاص . وإنما تدفعهم غرائزهم إلى إرضاء مصالحهم دون أن تدفعهم إلى النشاط الوطنى المنزه عن الغرض [3] ، ووجد الأهالى أنفسهم فى جو مضطرب من الأحداث لا يعرفون كيف يخرجون منه ، وأحاط بهم جو غريب من الفزع والأحاسيس المتضاربة [4] .

وحين خيم اليأس والاستسلام ظهرت صحيفة « العروة الوثقى »شعاع فجر جديد لليقظة والمقاومة ، تأخذ بيد التائهين إلى طريق الجهاد الوطنى الصحيح ، وتزرع الأمل ، وتؤكد حتمية النصر على الاستعمار الزاحف على ديار الإسلام ، ونجد صوت جمال الدين الأفغانى يؤذن فى أرجاء العالم الإسلامى « لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادلهمت فيه ظلمات الخطوب وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج » [5] .

ومن أجل أن يبعث شعاع الأمل فى النفوس فيوقظها لتسترد حريتها من غاصبيها ، جعل الأفغانى من بين أهداف صحيفته « أن تحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ، القاهرة سنة ١٩٤٨ ص ١٧٤ .

(٢) د . سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ، مرجع سابق ص ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٣) عباس حلمي: مذكرات ــ جريدة المصرى فى ٦ مايو سنة ١٩٥١ م .

(٤) د . سامي عزيز : المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٥) محمد المخزومي : خاطرات جمال الدين الأفغانى ط بيروت ١٩٣١ ص ١٣٩ .

إلى نقطة الخلاص المرغوب إلى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الإدبار عن المطلوب ، وهو تحت الجناح ، ويكفى فى الوصول إليه إلى عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة » (1) .

وهو يقول إن غير المسلمين إذا جاز لهم أن ييأسوا أو يقنطوا « فإن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله ، وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ، ويرضوا بالضيم ، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم » ويجعل عنوان المقال آيتين من القرآن الكريم : **﴿ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾** » (2).

وكان منهج الجريدة فى مقاومة الاستعمار : القوة والثورة ، فإن توازن القوى هو الذى يمنع الاعتداء فى المجال الدولى ، ويمنع طمع دولة فى أخرى فالجريدة ترى : « أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ، فإن فقد التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف » (3) .

كان الأفغانى يؤمن بالجهاد من خلال تكوين الأحزاب ؛ لأن الحزب هو الذى يستطيع أن يواصل الجهاد بعد توقف أفراده بسبب موتهم أو إبعادهم لأى سبب آخر ، ومن ثم فإن صحافة جمال الدين هى صحافة أحزاب لها برامجها فى الجهاد الوطنى .

ولقد ألقينا الضوء على تكوينه للحزب الوطنى أثناء مقامه فى مصر قبل الثورة العرابية ، وتحدثنا عن الصحف التى عبرت عن هذا الحزب ـ (مرآة الشرق) و (مصر) و (التجارة) ـ وظل هذا الحزب يحمل راية الكفاح الوطنى ـ بعد نفى الأفغانى عن مصر ـ إبان الثورة العرابية .

إن ما يساعدنا على تقدير أهمية صحيفة « العروة الوثقى » فى العمل الصحفى الإسلامى هو النظر إليها على أنها لسان لحزب على أعلى مستوى من التنظيم أنشأه جمال الدين الأفغانى وسماه « جمعية العروة الوثقى » .

---

(1) صحيفة العروة الوثقى : العدد الأول فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م ، بعنوان : « الجريدة ومنهجها » .

(2) العروة الوثقى : العدد ١١ فى ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤ م .

(3) يقصد الاحتلال الإنجليزى فى مصر وهو ما يفهم من السياق .

لقد كتب باحثون عن أسلوب تحرير هذه الصحيفة والأفكار التى عبرت عنها والنواحى البلاغية فيها ، ولكننا نرى أن أخطر ما فى هذه الصحيفة هو تعبيرها عن الحزب المذكور وهو ما لم يلفت نظر الباحثين فى الصحافة حتى اليوم .

وقبل أن نبين خطورة « جمعية العروة الوثقى » فى الجهاد الإسلامى فى تلك الفترة نقدم عنها عددا من الحقائق :

الأولى : أن الأفغانى كان قد اتخذ مصر قاعدة لجهاده واستكثر فيها من التلاميذ ، فلما احتل الإنجليز مصر ، كان احتلالها هو السبب المباشر لإنشاء حزبه المسمى « جمعية العروة الوثقى » ليواصل به الجهاد الذى بدأه فى مصر ، وهذا باعتراف الأفغانى نفسه فى صحيفة « العروة الوثقى » عند حديثها عن مصر : « إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق (١) جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف » ولهذا أيضا : « تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار خصوصا فى البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، ولا ينون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حى على حياته » (٢).

الثانية : أن أعضاء حزب جمعية العروة الوثقى « هم الذين كلفوا جمال الدين الأفغانى بإصدار الصحيفة ، فهم الذين اختاروا أن تكون لهم فى هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل نادى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال » (٣) .

---

(١) يقصد الاحتلال الإنجليزى فى مصر وهو ما يفهم من السياق .

(٢) صحيفة العروةالوثقى : العدد الأول فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م (فاتحة الجريدة) .

(٣) صحيفة العروة الوثقى : العدد الأول فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م (فاتحة الجريدة) .

الثالثة : أن الصحيفة كان لها غرضين : غرض قريب وهو : « إنقاذ مصر والسودان من الاحتلال الإنجليزى » وغرض بعيد وهو : « إعادة الحكم الإسلامى وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال فى العصر الأول ، بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة فى الدين ، وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام فى أمور الدنيا ، ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم » (١) .

ولا شك أن دراسة جمهور صحيفة ما ، هو جزء أساسى فى دراسة الصحيفة نفسها ، وجمهور صحيفة « العروة الوثقى » هم أعضاء الجمعية المعروفة باسمها ، وهم جمهور يتميز بخصائصه الثقافية والقيادية والتنظيمية ، وهم فى نفس الوقت على اتصال وترابط بعضهم ببعض .

كانت رئاسة الجمعية فى باريس ، فإذا أطلق لفظ « العروة الوثقى » مجردا انصرف إلى رئاستها فى باريس ، وكان رئيس الحزب هو الأفغانى ونائبه هو محمد عبده ، وكان لهذ الحزب فروع تسمى (العقود) منتشرة فى مختلف البلاد الإسلامية وخاصة فى مصر والهند كما قالت الصحيفة ، وكان من هذه العقود ما هو رئيسى وما هو فرعى .

والذى بقى من وثائق « الجمعية » هو « الأصول العملية الداخلية للعقد الرابع » (٢) وهو بلغة عصرنا (قانون) العقد الرابع أولائحته التنظيمية ، كما بقى القسم الذى كان يقسمه أعضاء الجمعية (٣) وعدد من الخطابات أرسلها الشيخ محمد عبده نائب رئيس الجمعية إلى بعض أعضاء العقد الرابع للجمعية (٤) ، ونحن نرجح بعد قراءة هذه الخطابات أن العقد الرابع كان فى مصر .

أما فيما عدا هذا فيقول الشيخ محمد رشيد رضا « ولم يذكر لى الأستاذ الإمام ـ رحمه الله تعالى ـ شيئا عن القانون الأساسى للجمعية ، وقد فاتنى أن أسأله عنه .. » ، ولعل التنقيب عن هذا القانون فى بعض دور الوثائق والمكتبات فى باريس أو غيرها من العواصم الأوربية ، يمكننا من العثور على تلك الوثائق المتصلة بنشاط (الجمعية) الذى يكتسب أهمية خاصة فى تراثنا الوطنى فى مجال القدرة على التنظيم ومقاومة الاستعمار .

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٢٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٧ .

(٤) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ من ص ٥٥٣ إلى ص ٥٨٢ .

ولائحة العقد الرابع من عقود تنظيم جمعية العروة الوثقى ، تبين الأهداف الفكرية والسياسية والتنظيمية لهذا العقد كما تبين النظام المالى له ، وكل ما يتصل بالعلاقة بين الأعضاء داخل العقد ، وعلاقتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، كما يلقى ضوءا جديدا على نوع الجمهور الذى يقرأ صحيفة « العروة الوثقى » ولهذا آثرنا أن نذكره بنصه لكى يعطى صورة أكثر صدقا من تلخيصه أو التعليق عليه :

لائحة العقد الرابع من عقود « جمعية العروة الوثقى » [1] :

١ ــ ينعقد بثلاثة يقسمون اليمين المعهود .

٢ ــ مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون فى أمور : التذكير بآيات الله ــ النظر فى حالة الإسلام عند بدئه وما كان عليه النبى وخلفاؤه فقط [2] ــ البحث فى السبب الذى امتدت به سطوة الإسلام حتى صال على جميع الأديان وكاد يبتلعها فى زمن قصير ــ كيف انقلب الحال وآل إلى ما نراه ؟

٣ ــ يلاحظ كل باحث أن ذاته فى موضوع البحث ، فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها فى غيره ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والإنصاف .

٤ ــ مدارسة أحكام الجهاد وحقوق المسلم وما هو مكلف به فى معاملة غيره . وما يفرض عليه إذا زحف الأعداء لخضد شوكة الإسلام .

٥ ــ النظر فى حال المسلمين لهذا الوقت أخذا من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على إحساسهم الدينى ، ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .

٦ ــ كتابة كل فكر وتدوينه مفصلا ثم مجملا مع ما تستقر عليه الآراء .

٧ ــ العمل فى الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال فى مساعدة من يقوم بنصر الدين وحمل السلاح للمقاتلة بين يديه عند المكنة .

٨ ــ كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل ، وإعداد أسبابه ، وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به ، مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقدا ،

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٨٤ .

(٢) أى استلهام العبرة والعظات فى بناء المجتمعات الإسلامية وإصلاحها من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين .

والثقة بمريد الانضمام إنما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها .

٩ ــ يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين للأمر من ذوى المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء ورؤساء عشائر وغيرهم ، وفريضة كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوله الله .

١٠ ــ فى كل حال يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط ، حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا العمل ، وبذل المال والروح ، والأول أقرب الدليلين .

١١ ــ على أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحى الوطن الحالين به ، وإلى المواطن المستعد من غيره ، متى أمكنهم ذلك .

١٢ ــ لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقد ملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة فى تصريف القول ، وتوفيق النصح مع طباع المنصوحين وحالة السلطة العارضة عليهم ، فيكون حكيما فى عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم يلاحظ عمله .

١٣ ــ يسمح للعقد أن يبعث رسلا من الخارجين عنه على أنهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ، ويؤيدون مناطيق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحةبدون أن يعرفوا أن هناك عقدا .

١٤ ــ على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .

١٥ ــ من استحق باستعداده أن يدخل فى العقد فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداءه ، على شريطة أن يبذل العالم وسعه فى تبيين الحق وبثه ، والمعتقد جهده فى حمل معتقديه على العمل فى مقاصد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها .

١٦ ــ يجتمع أهل العقد فى كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه فى الفصل الأول وما بعده .

١٧ ـ يجب على كل واحد أن يؤدى فى آخر كل جلسة مقدارا من النقد على حسب استطاعته قليلا أو كثيرا ، ويدور على الحاضرين أصغرهم سنا بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر ، ولا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق « صندوق التبرع » .

١٨ ـ يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أمينا .

١٩ ـ يودع فى ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف فيه « لعقد الإخلاص » تحت رئاسة فلان (بذكر اسم الرئيس) .

٢٠ ـ يستعمل هذا المال فى النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفى سبيل نشر المشرب ، وإرسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفى إغاثة المقصرين ممن ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) إما مباشرة أو على يد أحد نوابها .

٢١ ـ يكون للعقد أربعة دفاتر : (أحدها) لحصر أسماء رجاله ، و (ثانيها) لأسماء رسله ، و (ثالثها) لحصر النقد المتجمع ، و (رابعها) لإحصاء النفقات .

٢٢ ـ إذا توفر فى الصندوق مبلغ من النقد وافر ، وأمكن تنميته على وجه شرعى مأمون الخسارة ، فعلى أهل العقد أن يدبروا أمر نموه .

٢٣ ـ على القائم بضبط الحساب فى الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة فى مركز العقد ، وأن يضعوا لها نظاما حسب المعروف فى بلادهم .

٢٤ ـ لا يصرف شىء إلا بقرار من أهل العقد ، يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم .

٢٥ ـ إذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقاصد الجمعية ، وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت ، واحتيج إلى نفقة تقتضى زيادة عن الموجود ، وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما فى وسعهم لإتمام العمل .

٢٦ ـ لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئا من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكرتهم عند من ليس من مقصده فى شئ ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد .

٢٧ ـ على رجال العقد أن يحمى بعضهم بعضا ، ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة

٢٨ ـ الاستطاعة لا تفسر بالأهواء حتى يعد كل وهم عجزا ، وإنما هى المعروفة عند المخلصين ، التى لا يعدمها الإنسان ما دام حيا قادرا على الحركة .

٢٩ ـ إذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئا فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون .

٣٠ ـ القانون الداخلى للاجتماع يضعه أهل العقد .

اليمين الذى يحلفه المرتبطون بالعقد (١) :

وهو اليمين الذى يحلفه أى عضو ينضم إلى أى عقد (فرع) من عقود حزب (جمعية العروة الوثقى). ويبين اليمين مبادئ الحزب والأهداف التى يسعى إلى تحقيقها ، وهى نفسها أهداف ومبادئ صحيفة :« العروة الوثقى » التى تسعى إلى غرسها فى نفوس قرائها واليمين هو :

« أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمّنَّ كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل ، ولأجيبنَّ داعيه فيما دعا إليه ، ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا نهى ، ولأدعون لنصرته ، ولأقومنَّ بها ما دمت حيا ، ولا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا .

أقسم بالله مالك روحى ومالى ، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن ما فى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأراعينها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصبدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام ، فإني أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ،وآخذ على نفسى فى أثره ما أخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شيء يتفق رأى أكثرهم عليه ،

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٨٧

وعلى عهد الله وميثاقه ، وأن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى الوجودى . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين » .

الوحدة العضوية بين الصحيفة والجمعية :

وتعتبر الخطابات التى أرسلها الشيخ محمد عبده إلى أعضاء حزب « جمعية العروة الوثقى » ذات أهمية كبيرة فى إلقاء الضوء على تعبير الصحيفة عن أهداف هذا الحزب ونشاطه وجمهور صحيفة (العروة الوثقى) أيضا .

وكانت هناك وحدة عضوية بين صحيفة (العروة الوثقى) وحزب (جمعية العروة الوثقى) ، وتمثلت هذه الوحدة فى الأهداف المطلوب تحقيقها ، وفى أعضاء الحزب الذين كانوا ــ فى نفس الوقت ــ الجمهور الرئيسى لقراء الصحيفة وفى تمويل الحزب والصحيفة معا .

فقد استخدمت الصحيفة كوسيلة اتصال بين قيادة الحزب وبين أعضائه ، وبين الأعضاء بعضهم ببعض ، كما استخدمت كوسيلة للاقتراب من الأشخاص الذين يرى أعضاء الجمعية أنهم يصلحون كأعضاء فيها .

ففى خطاب أرسله الشيخ محمد عبده إلى أحد أعضاء الجمعية [1] يرشده إلى الطريقة التى يضم بها بعض الأشخاص إلى عضوية الجمعية ، يقول له عن أحدهم : « فإن تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل إليه ابتداء من طريق لا يعرفه ، وتلطف له فى القول ، وإن شئت أطلعته على شئ من مقالات « العروة الوثقى » ، فإذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضا ، فإما أن يكتب إلى ، وإما أن يستعد لتلقى كتاب منى ، ثـ سراع إلى بالخير » . ثم يقول له عن عضو آخر اجتاز المراحل السابقة من الامتحان وتم ضمه : « ثم نبئنى عن الشيخ .... [2] واسأله أن يكتب إلى بالعنوان الذى تصل إليه كتبى ، فإننى قد أذنت أن أبعث إليه ببعض المواد الأصولية التى يجب اعتبارها أساسا للبناء ،

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ص ٥٥٩ .

(٢) حذف الشيخ محمد رشيد رضا من هذه الخطابات أسماء من أرسلت إليهم ، فقد كان بعضهم على قيد الحياة وكان للإنجليز نفوذ فى مصر يمكن أن يضر بهم .

كما اعتبرها المتمسكون بالعروة فى كل قطر ليتحد المسير » ، وفى ختام رسالة إلى عضو آخر يشير الشيخ محمد عبده إلى الصحيفة ويعتبرها وسيلة اتصال بين الأعضاء فيقول : « والوسيلة تصل إن شاء الله إليكم » (١) .

وعن تمويل الجمعية والصحيفة ، فقد رأينا أن عضو الجمعية كان يدفع رسما ماليا أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان ، وأكثره ثلاثمائة (٢) ، كذلك كان يتعين على كل عضو عقب كل اجتماع للعقد أن يتبرع بشيء من المال على قدر استطاعته (٣) ، وكان لكل « عقد » دفتر للوارد ودفتر للصادر لحساب ميزانيته (٤) ، وكان يجوز له استثمار ما تبقى من أمواله على وجه شرعى مأمون الخسارة (٥) ، وكان للعقد (الفرع) أن ينفق من ميزانيته على تحقيق أهداف الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (٦) أى رئاسة الجمعية فى باريس (٧) .

ويكاد الشيخ محمد رشيد رضا ـ فى بعض كتاباته ـ يدمج بين الجمعية والصحيفة فيقول مثلا : « أعلم أن الجريدة كانت ترسل إلى كبار العلماء والأمراء والزعماء فى جميع الأقطار الإسلامية وقد كان من أعضائها (٨) الأمير عبد القادر الجزائرى ومن اختار من أنجاله ورجاله ، وقد وجدت بعض أعدادها فى محفوظات والدى ، ووجدتها كلها عند

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ص ٥٥٦ .

(٢) انظر المادة ١٥ من قانون العقد الرابع السابق ذكره .

(٣) المادة ١٧ من القانون السابق ذكره .

(٤) المادة ٢١ من القانون السابق ذكره .

(٥) المادة ٢٢ من القانون السابق ذكره .

(٦) المادة ٢٠ من القانون السابق ذكره .

(٧) ونحن هنا نختلف مع ما ذهب إليه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه : « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ط ٤ القاهرة سنة ١٨٧٩ م ص ٨٧ ـ وما نقله عنه الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه : « أدب المقالة الصحفية » فى مصر جـ ٢ ط القاهرة سنة ١٩٦٥ م ص ٩٣ ، حيث ذهب إلى أن خطة الأفغانى عندما التقى مع محمد عبده فى باريس كانت إنشاء صحيفة أولا ، وأن الجمعية كانت تابعة للصحيفة ولها فروع فى البلدان المختلفة تجتمع للمذاكرة ، ويطاف على أعضائها بصندوق له ثقب ليتبرع كل عضو بما يستطيع ، ويقول : « ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجانا » والملاحظ أن المؤلف لم يضع فى اعتباره وثائق تنظيم « جمعية العروة الوثقى » وارتباطها بأهداف الصحيفة وتحريرها .

كما أننا هنا نرد على تساؤل أثاره الدكتور محمد محمد حسين فى بعض كتبه عن نفقات الأفغانى فى تنقله بين العواصم المختلفة .

(٨) أعضاء جمعية العروة الوثقى .

أستاذنا حسين الجسر فى طرابلس » [1] .

الجهود السياسية إلى جانب الجهود الصحفية :

كان لصاحبى صحيفة (العروة الوثقى) - إلى جانب جهودها الصحفية والتنظيمية - لتحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى جهود سياسية أيضا .

فقد نشرت صحيفة (العروة الوثقى) أن المسئولين عن الصحيفة رأوا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لأمتنا ، ومن يؤمل فيهم صدق النية فى رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين ، ومن محادثاته التمهيدية ما نشر فى الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال كانسيت) ، وجريدة (التروث) ، وجريدة (التايمس) ، وسيذكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموما والمصريون خصوصا .

وأوردت الصحيفة حوارا بين الشيخ محمد عبده وبين اللورد هرتنكنون وزير الحربية الإنجليزية الذى ادعى أن مصر ليست أهلا أن تحكم نفسها بنفسها فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون فى دينه وقال : « إن النفرة من الأجنبى ، ونبذ الطبع لسلطته ، مما أودع فى فطرة البشر ، وليس بمحتاج للدروس والمطالعة ، وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشا كقبائل الزولو الذين لم تنسوا ما كابدتموه منهم من الدفاع عن أوطانهم ، وثانيا : إن المسلمين مهما كانوا وعلى أى وجه وجدوا ، لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير ، فإن الأميين منهم لا يفوتهم العلم بضرورات الدين ، ومن أظهرها عندهم ألا يدينوا لمخالفيهم فيه ، وإن لهم من خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وإن جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، وثالثا : إن أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على النحو الموجود فى أوربا » [2] .

وكان الشيخ محمد عبده دائم الترحال إلى بلدان الشرق للاجتماع بأعضاء عقر

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) صحيفة العروة الوثقى : فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ م ، مقال : « هؤلاء رجال الإنجليز وهذه أفكارهم » .

(فروع) جمعية العروة الوثقى ، والعمل على حسن تنظيمها وتحقيقها لأهدافها ، وفى هذه الأثناء دخل مصر متنكرا لما ظهرت بوادر انتصار المهديين فى السودان على الإنجليز ، وكان غرضه أن يتهيأ للسفر إلى السودان حيث كان ينتظر أن يلحق به جمال الدين إذا نجحت الأعمال التمهيدية ، وكان غرضهما العمل فى خفاء على تنظيم قوات المهدى ليتخذا منها أداة لتحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى [1] .

ومن مصر كتب بعض الخطابات التى كانت إحدى وسائل الاتصال الهامة مع (عقود) الجمعية ، ودل بعض هذه الخطابات على أن المكان الذى كتبت منه هو مصر ، كما أكدت ما ذكرناه من دخوله مصر سرا للغرض المذكور ، قال فى أحد هذه الخطابات : « فتلقيت من الأمر الجديد ، أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله أن ينهض بالقول هماً أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادخر لها من العمل ، وتلحظ أبصار ما دنا من الأمل ، وتنبعث لتناول ما حضر لديها ، وإبراز ما كمن فيها ، فعناية الله باسطة أكفها إليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم فى عشية من الجهل لا يصافحوننا ، وغطط من الغفلة لا يسمعونها ، وهذا ما اندفع بى إلى بلاد استعين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوفيق عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقى إلا بالله وما اعتمادى إلا عليه ، فكانت أوقاتى من فراقك فى أسفار ، واليوم سكن بى قرار ، وإنى بعد طوافى ببلاد أكتب إليك اليوم من :

بلاد بها عق الشباب تمائمى   وأول أرض مس جلدى ترابها [2]

غير أنى لا يرانى فيها إلا المخلصون ولا يعرفنى إلا العارفون ... » .

ويقول فى خطاب إلى عضو آخر : « .... ذهبت إلى باريس فما عدوت أن تلقيت من الرأى الجديد أن أنحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ومخرق الذاريات فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) [3] عملت فى جميعها على

---

(١) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ، وتشارلز آدمس : الإسلام والتجديد في مصر ص ٥٥ .

(٢) من الواضح أنها مصر فهى أول أرض مس جلده ترابها .

(٣) لم يذكر الشيخ محمد رشيد رضا اسم المدينة ، خفاظا على سرية تحركات الأستاذ الإمام فى مهامه تلك ، حتى بعد انقضاء ذلك العهد لأن فى كشف هذه الأمور ما يضير آخرين حرصوا على بقاء علاقاتهم السابقة بالجمعية=

إحكـام العـروة [١] وتمكين عقودها [٢] ثم أصعدت بعد ذلك إلى :

بلد خلعت به عذار شبيبتي . وطرحت فى كف الخطوب عنانى

وأنا اليوم فيه أتعرف الوجوه ، وأتنكـر للعيون [٣] ، وأسأل الله نجاح العمل وإقبال الأمل ... وإذا رأيت ... [٤] فنبئه أن قوة الاتحاد فى الجنوب أفزعت قوة النيران فى الشمال [٥] ، وأن نيران القلوب أذابت مدافع (الكروب) [٦] ، وما النصر إلا من عند الله يؤتيه الصادقين ويوليه المخلصين ﴿ **إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ [٧] . أما والله إن غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ، ولكن ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ [٨] .

ويرى محمد رشيد رضا : « أن السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، قد جاهدا فى سبيل إنقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطانى جهادا لم تسم إلى مثله همة أحد ، وأن كل ما كتب فى جرائد مصر وغيرها فى المسألة المصرية إلى هذا اليوم ، لا يعد شيئا مذكورا فى جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده فى « العروة الوثقى » بإرشاد أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، وأن كل سعى عملى لذلك كان وما يزال دون سعيهما » [٩] .

الربط بين مقاومة الاستعمار وبين عقيدة الجهاد الإسلامية :

وهو ميدان جديد ارتادته صحيفة العروة الوثقى فى العصر الحديث ، حيث ربطت بين مقاومة الاستعمار وبين عقيدة الجهاد الإسلامية ، واستخدمت آيات الجهاد فى القرآن الكريم وفسرتها بطريقة لم يألفها المسلمون منذ قرون طويلة .

فالمسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى

= سرا من الأسرار .

(١) جمعية العروة الوثقى . (٢)فروعها . (٣) الجواسيس .

(٤) حرص الشيخ محمد رشيد رضا على عدم ذكر الأسماء كعادته فى هذه الخطابات حتى لا يضار الأحياء منهم, يكشف سر الأموات .

(٥) يشير إلى الانتصارات التى حققتها الثورة المهدية فى ذلك الوقت وأثرها على الاحتلال الإنجليزى في مصر .

(٦) نوع من المدافع . (٧) سورة محمد :٧ .

(٨)سورة الكهف : ١٧ والخطاب منشور فى : محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ٢ ص ٥٥٦ .

(٩) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٨٢ .

ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك ، لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين في الجنس والمختلفين فيه ، وهو فرض على كل واحد منهم ، ومن فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الأموال والأرواح ، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبهم حتى ينالوا الولاية خاصة لهم دون غيرهم ، وبالغت الشريعة في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التخلص من سلطة غيره لوجبت عليه الهجرة (١) .

والمسلمون هم ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ بهذا الاعتقاد فتحوا البلاد وبذلوا الأرواح والأموال ، فأين المسلمون اليوم من هذا (٢) .

وينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن الجبن ، فإنه أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله ، وإنهم لا يبتغون إلا رضاه ، ويعلم المؤمنون أن الله قد جعل حب الموت علامة الإيمان ، وامتحن به قلوب المعاندين ، ويقول تعالى في ذم من ليسوا بمؤمنين ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ (٣) فالإقدام في سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح في إعلاء كلمته أول سمة يتسم بها المؤمنون ، ولا يمكن الجمع بين الدين الإسلامي وبين الجبن في قلب واحد (٤) .

وتتوجه الصحيفة بالخطاب إلى المصريين : « أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وأخلاقكم وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا ... ماذا تخافون في معارضته والأخذ على يده ، وماذا تخشون منه ؟ هل تخشون أن تنقص أموالكم فبسكوتكم أنتم واقعون فيما تخافون منه ، وإن كنتم تخافون الموت أو الذل فهو الآن على بعد منكم ، أليس يؤخذ الأبرياء بالشبه الباطلة ويذلون ويهانون وكثير منهم

(١) صحيفة العروة الوثقى : عدد ٥ في ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ م مقال عنوانه الآية الكريمة : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ .

(٢) صحيفة العروة الوثقى : عدد ٧ في ١ مايو سنة ١٨٨٤ م مقال : « القضاء والقدر » . والآيتان سورة آل عمران ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٣) سورة النساء :٧٧.

(٤) صحيفة العروة الوثقى : في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م مقال : (الجبن) .

يقتلون ... إن الله لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم ويعلم الصابرين ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ » (١) .

والسعى لإعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة واجب المسلمين فلا نجد آية من آيات القرآن الشريف إلا وهى داعية إليه جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا فى أداء المفروض منه ... وألا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله (٢) .

إن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء لا يقدر عليها إلا الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، وكيف لا وأول ما يوجبه الإيمان خروج الإنسان عن نفسه وماله وشهواته ، ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه ... فلينتظر المفرطون ضناً بأموالهم أو صونا لأرواحهم ماذا يكون موقفهم من علم الله .. هل هم من الصادقين أو من الكاذبين (٣) .

والمحافظة على أرض الوطن من أن تطأها قدم محتل قيمة غالية فى تقدير الصحيفة فتقول : « لسنا نعنى بالخائن من يبيع بلاده بالنقد ويسلمها للعدو بثمن بخس أو بغير بخس (وكل ثمن تباع به البلاد فهو بخس) ، بل خائن الوطن من يكون سببا فى خطوة يخطوها العدو فى أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذاك هو الخائن فى أى لباس ظهر وعلى أى وجه تقلب » (٤) ، وتشدد الصحيفة النكير على الخائنين الذين مكنوا الاحتلال من أرض مصر فتقول : « ملعون من يخون بلاده لمرض فى قلبه ، ملعون من يبيع أهل ملته بحطام يلتذ به ، ملعون من يحكم الأجانب فى دياره ، محروم من شرف الملة الحنيفية من يعظم الصغير ويصغر العظيم ، ويمهد الطريق لخفض كلمته وإعلاء كلمة الأغراب ، ملعون من يختلج فى صدره أن يلحق عارا بأمته ليتمم ناقصا من لذته ... هل صحيح أن خمسة ملايين سابقة وخمسة ملايين لاحقة تمكن

(١) صحيفة العروة الوثقى : فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « زلزال الإنكليز في السودان » .

(٢) صحيفة العروة الوثقى : فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا » .

(٣) العروة الوثقى : فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤ م مقال عنوانه الآية الكريمة : ﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ .

(٤) العروة الوثقى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤م مقال بعنوان : « زلزال الإنكليز فى السودان » .

الأجانب من مصر ، وهى مفتاح الحجاز وباب الأقطار الشامية ، هيهات هيهات ... » (١) .

وبعد أن توقفت صحيفة العروة الوثقى - إذ تشددت السلطات الإنجليزية فى منع دخولها مصر والهند - كانت صحيفة (الأستاذ) هى أولى الصحف التى نهضت تعالج الشئون الإسلامية ، وكتب فيها النديم « المقالات الطنانة الرنانة فى تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم وبسائر الشرقيين وتنشيط هممهم لتلافيها » (٢) .

ظهر النديم - بعد اختفائه بعد الثورة العرابية لمدة ثمانى سنوات وعفا عنه الخديوى عباس وسمح له بالعودة إلى مصر - فأنشأ صحيفة (الأستاذ) التى صدر العدد الأول منها فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢م ، وكتب النديم فى افتتاحيةالعـدد الأول منها أنها لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية ، أما السياسة مـن حيث هى فـن فإنها تدخـل فى موضوعها العلمى .

وفى الشهور الأولى من حياة المجلة حافظ النديم على هذا القول ، وخصص معظم صفحات مجلته لمحاربة موجة الانحلال الخلقى التى تفشت بصورة خطيرة مع الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وكتب مقالات فى السياسة من حيث هى فن - كما تعهد فى العدد الأول - فكتب فى موضوعات مثل : « طرق الوصول إلى الرأى العام » (٣) ودعا إلى تكوين الأحزاب فى مصر والشرق فى مقال : « أشتات الشرق وعصبيات أوربا » (٤) .

ولكن حدثت حادثة فاصلة جعلت النديم يعود إلى دوره القديم فى قلب الحركة الوطنية المصرية ، ويهاجم الاحتلال الإنجليزى ، ويتخلى عما كتبه من قبل من أن صحيفته لا تتعرض للسياسة العملية الإدارية .

ففى ١٥ يناير سنة ١٩٨٣م أُقال الخديوى مصطفى باشا فهمى منتهزا فرصة مرضه ، وعهد إلى حسين فخرى باشا فى تشكيل الوزارة الجديدة ، فعارض اللورد كرومر فى تعيين الوزارة الجديدة من غير أخذ رأيه ، واشتد الأخذ والرد ، وأنذرت إنجلترا الخديوى

---

(١) العروة الوثقى : فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « فرصة يجب ألا تضيع » .

(٢) مجلة المنار : مجلد السنة الثانية ص ٢٣٩ .

(٣) مجلة الأستاذ : العدد ١٣ فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م .

(٤) مجلة الأستاذ : العدد ٢٠ فى ٣ يناير سنة ١٨٩٣ م .

إنذارا شديدا ، وانتهت المسألة باستقالة حسين فخرى ، وتعيين رياض باشا حسبما أشار اللورد كرومر [1] .

وفى هذه الأثناء كتب عبد الله النديم مقالا من أقوى ما كتب فى صحافة عصره بعنوان : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » [2] وبه بدأ فترة جديدة فى حياته وحياة صحيفته (الأستاذ) تتميز بانغماسه فى غمار السياسة العملية والإدارية التى وعد فى العدد الأول أن يبتعد عنها ، وتتميز بمناهضة الاحتلال الإنجليزى صراحة ، ومناصرة الحركة الوطنية ، ومؤازرة الخديوى الذى كان ـ بدوره ـ يؤازر الحركة الوطنية .

والمقال يقع فى ست وعشرين صفحة من صحيفة (الأستاذ) رد فيه على عدد من التهم التى تتهم بها أوربا الشرقيين ، وفضح أعمال الاستعمار الأوربى فى الشرق ، وفند قول الأوربيين للشرقيين تبريرا لهذه التهم والأعمال « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » . وكانت هذه العبارة تتردد فى نهاية كل جزء من هذا المقال الطويل .

وهو يتهم المصريين أنهم سبب عبث الإنجليز بمقدرات الأمور فى مصر ، ولولا تواكل المصريين ما استطاع الإنجليز أن يفعلوا فى مصر ما فعلوه ، وبعد أن ألقى النديم على القارئ أسئلة استنكارية كثيرة تتصل بتشريعات البغاء والتعليم والربا وغير ذلك ، قال عن الإنجليز : « لا والله ما نالوا أملا ، ولا قارفوا عملا ، ولا أذلوا رجلا ، ولا خربوا بيتا ، ولا هتكوا حرمة ، إلا بالمصريين » ودعا المصريين إلى الالتفاف حول الخديوى ، ومطالبته بالمحافظة على حقوقه الشرعية . ويختم المقال بقوله : « وبالجملة فقد بلغ السيل الزبى ، فإن رفونا هذا الخرق ، وشددنا أزر بعضنا [3] ، وجمعنا الكلمة الشرقية ، مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوربا : نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجنبى فريقا بعد فريق ، حق لأوربا أن تطردنا من بلادنا ، وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » [4] .

واستمر النديم فى حدة عدائه للإنجليز ، ولم يكن الإنجليز ليتركوه فى هذا السبيل ، فتألبت عليه الصحف الموالية للاحتلال وحذرت منه ، وقالت إنه يعد البلاد لفتنة بين المسلمين وغيرهم ، وبين المصريين بعضهم وبعض ، ويحرك الضغائن بين المصريين

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٢٥٦ .

(٢) مجلة الأستاذ : فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٣) هكذا فى المقال وصحتها وشد بعضنا أزر بعض .

(٤) مجلة الأستاذ : المصدر السابق .

والأجانب ويهيئ لثورة كالثورة العرابية ، ونصحت لأولى الأمر من الإنجليز أن يأخذوا حذرهم منه وإلا ساءت العاقبة ، وشهرت به بعض الجرائد الإنجليزية كالتايمس والديلى نيوز ، وقالت إنه متعصب للدين مقبح لأعمال الأوربيين ، وأنه ثورى مهيج ، ولم يأل النديم جهدا فى منازلة خصومه والتشهير بهم [1] ، فكان نصيبه أن أغلقت صحيفته ونفى خارج البلاد .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ص ٢٥٧ .

الباب الخامس

الجامعة الإسلامية والعروبة فى الصحافة الإسلامية

الفصل الأول : الجامعــة الإســلامية .

الفصل الثانى : العروبــــة .

الفصل الأول

الجامعة الإسلامية

كانت دعوة « الجامعة الإسلامية » من أهم ما دعا إليه جمال الدين الأفغانى حتى إن الباحثين أطلقوا على حركته ـ هو وتلاميذه ـ « حركة الجامعةالإسلامية » حين تحدث هؤلاء الباحثون عن حركات اليقظة الإسلامية الحديثة كالوهابية والسنوسية والمهدية (١) .

وهناك ارتباط وثيق بين دعوة الجامعة الإسلامية وإصدار صحيفة « العروة الوثقى » وإنشاء جمعيتها حتى يمكن القول : إن صحيفة « العروة الوثقى » هى التى بدأت بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وأن هذه الدعوة اتضحت وازدهرت فى مرحلة العروة الوثقى ثم دعا إليها تلاميذ الأفغانى بعد ذلك ، فبمراجعتنا مقالات جمال الدين وخطبه وأحاديثه قبل إصدار « العروة الوثقى » لا نجد فيها شيئا واضحا متبلورا عن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

ولعل سبب غلبة دعوة « الجامعة الإسلامية » على مرحلة « العروة الوثقى » أن جمعية « العروة الوثقى » كانت منظمة إسلامية عالمية لها فروع فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى ، وضمت فى عضويتها قادة العالم الإسلامى ومفكريه فى ذلك الوقت (٢) ، ومن ثم عبرت هذه الدعوة عن فكر الجمعية بقدر ما عبرت عن فكر مؤسسها جمال الدين الأفغانى في هذه المرحلة من مراحل جهاده .

وقد كان للجامعة الإسلامية كما نادى بها جمال الدين الأفغانى جانبان : أحدهما سياسى ، والآخر اجتماعى وحضارى :

الجانب السياسى :

اعتمدت دعوة جمال الدين الأفغانى إلى الجامعة الإسلامية على أن الدين الإسلامى يدعو المسلمين إلى الوحدة والتضامن لصد الاستعمار الزاحف على ديارهم وبناء القوة والمنعة والسيادة لبلادهم ، فإن « الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ

---

(١) د . محمد عمارة : تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ، مرجع سابق ص ١٢٧ ودكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ، القاهرة د . ت ص ٢٥ ، وأنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة سنة ١٩٧٨ ص ٨٧ .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٢٨٣ .

حوزة الإسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة ، ولكن دهاهم بعض ما أشرنا إليه فى أعداد ماضية ، فألهاهم عما يوصى به الدين فى قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوانجهم » (١) .

« فالوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الإسلامية وفرضان محتومان على من يتمسك بها ، ومن خالف أمرالله فيما فرض منهما عوقب من مقته بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، جاء فى قول صاحب الشرع : « إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وإن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه ، إذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر » (٢) .

وقامت دعوة الجامعة الإسلامية فى « العروة الوثقى » على أن الدين الإسلامى هو أساس الوحدة بين المسلمين ، و « أن لاجنسية للمسلمين إلا فى دينهم » (٣) ، وتخاطب الصحيفة المسلمين قائلة : « هذه هى روابطكم الدينية فلا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى، والفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر ، وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره » (٤).

وتذكر الصحيفة أن التاريخ الإسلامى يؤيد هذه الفكرة فهى « ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن . لا يعتدون برابطة الشعوب ، وعصبيات الجنس وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وإن المسلم فى تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها » (٥) .

---

(١) العروة الوثقى فى ٥ يونيه ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(٢) العروة الوثقى : المقال السابق .

(٣) العروة الوثقي : فى ٢٢ مايو ١٨٨٤ م عنوانه الآية الكريمة : ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ ويلاحظ أن كلمة (الجنسية) استخدمت فى ذلك الوقت بمعنى كلمة (القومية) .

(٤) العروة الوثقى : فى ٢٤ أبريل ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « التعصب » .

(٥) العروة الوثقى : فى ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « الجنسية والديانة الإسلامية » .

وترى « العروة الوثقى » أن هناك ضرورة دعت إلى ظهور فكرة العصبية الجنسية (القومية) فإذا انتفت هذه الضرورة انتفت معها تلك الفكرة أيضا ، وتشرح الصحيفة الضرورة التى دعت إلى وجود الجنسية بأن « سعة المطمع إذا صحبها اقتدار تدعو بطبعها إلى العدوان . فلهذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقابا طوالا إلى الاعتصاب بلحمة النسب على درجات متفاوتة حتى وصلوا إلى الأجناس ، فتوزعوا أمما كالهندى والإنجليزى والروسى والتركمانى ونحو ذلك ، ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادرا على صيانة منافعه وحفظ حقوقه من تعدى القبيل الآخر ، ثم تجاوزوا فى ذلك حد الضرورة كما هى عادة الإنسان فى أطواره ؛ فذهبوا إلى حد أن يأنف كل قبيل من سلطة الآخر عليه ، علما بأنه لابد أن يكون جائراً إذا حكم ، ولئن عدل فإن فى قبول حكمه ذلا تحس به النفس وينفعل به القلب » .

ولكن ما هو الشرط الذى يترتب عليه زوال ضرورة وجود العصبية الجنسية (القومية) وبالتالى زوال هذه العصبية الجنسية ذاتها ؟ إن هذا الشرط فى نظر الصحيفة هو وجود حكم إسلامى يخضع فيه الحاكم لله سبحانه وتعالى وينفذ شريعته فتقول : « وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تتصاغر لديه القوى وتتضاءل لعظمته القدرة ، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة إليه متساوية الأقدام ، وهو مبدأ الكل وقهار السماوات والأرض ، ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه مساهما للكافة فى الاستكانة والرضوخ لأحكام أحكم الحاكمين ، فإذا أذعنت الأنفس بوجود الحاكم الأعلى ، وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم بالتطامن لما أمر به ، اطمأنت فى حفظ الحق ودفع الشر إلى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها ، فمحى أثرها من النفوس ، والحكم لله العلى القدير . . . . وهذا هو السر فى إعراض المسلمين ــ على اختلاف أقطارهم ــ عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات ما عدا عصبيتهم الإسلامية ، فإن المتدين بالدين الإسلامى ، متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عنه جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهى علاقة المعتقد » [1] .

وربما رأت الصحيفة صعوبة تحقيق هذا « المثال » من الحكم الإسلامى الذى يزول فيه الشعور القومى فى العصر الذى صدرت فيه فتدعو فى مقال تال إلى نوع من الوحدة يظل فيه أثر القوميات قائما ، فتقول مخاطبة المسلمين « أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما

---

(١) العروة الوثقى : فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م مقال عنوانه . « الجنسية والديانة الإسلامية ».

حكم الله تعالى فى قوله ﴿ إنما المؤمنون أخوة ﴾ فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب » ثم تقول : « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحدا فإن هذا ربما كان عسيرا ، ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه ، إلا أن هذا بعد كونه أساسا لدينهم ، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات » (١) .

وترى الصحيفة أن المسلمين كانوا أمة واحدة ولكن حدثت أمور فرقت شملهم ، منها ما ابتلى به أمراؤهم من الطمع والحرص « هؤلاء المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى ، هؤلاء الذين حوّلوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله .... وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه ، وتباينت الرغائب » (٢) .

كما ظهر هذا الضعف والتفرق « فى ربط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة ، وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد كما كان الخلفاء الراشدون .... كثرت بذلك المذاهب ، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام » (٣) .

ومن أسباب هذه الفرقة كذلك أن « أمراء المسلمين اليوم يطلقون أيدى الأجانب فى شئون حكوماتهم ـ بل وفى بيوتهم ـ ويؤيدون حكم الأجنبى فى أعناقهم » (٤) .

ولقد كان للجامعة الإسلامية كما دعت إليها « العروة الوثقى » مضمون تحررى يهدف إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار كما يهدف إلى وحدة الثورة ضد الاستعمار فى العالم الإسلامى ، فتقول الصحيفة : « أنرضى ونحن المؤمنين ـ وقد كانت لنا الكلمة العليا ـ أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا

---

(١) العروة الوثقى : فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ مقال عنوانه الآية الكريمة : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

(٢) العروة الوثقى :٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

(٣) العروة الوثقى : فى ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ مقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ .

(٤) العروة الوثقى : فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ مقال : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته ؟ » (١) .

أما وحدة الثورة ضد الاستعمار فى البلاد الإسلامية فتبدو فى كثير من مقالات « العروة الوثقى » ، وقد أثار هذه الدعوة فى الصحيفة عاملان : **الأول** : احتلال الإنجليز لمصر ، **والثانى** : قيام الثورة المهدية فى السودان .

وفى شرحها للعامل الأول بينت الصحيفة أن التفرق بين الهنود كان سببا لاحتلال الإنجليز لأراضيهم ، ولكنهم تنبهوا أخيرا للتمسك بالوحدة والتخلص من الفرقة ، ونهضوا جميعا للتخلص من أغلال ظالميهم « إلا أن إخوانهم الأفغانيين البلوجيين والإيرانيين كانوا فى غفوة عما نهضوا إليه ، ولم يمدوا لهم يد المساعدة ، بل كان الإيرانيون فى حرب مع الإنجليز ولكن لم يواصلهم الهنديون ولم يرتبطوا بهم فى التعاون على شأنهم كما لم يرتبطوا فى ذلك مع العثمانيين ، فإهمال جيرانهم ، ورسوخ أقدام العدو بينهم كان سببا فى تغلب الظلمة الأغراب عليهم ، ولو عقل المهملون لعلموا أن العدو إذا تمكن فى الهند قويت شوكته ثم كر عليهم ، وأوقع بهم ما أوقع بإخوانهم » (٢) .

وحدث مثل ذلك حين زحف العدوعلى بلوجستان (٣) ولم يعضدها الأفغانيون والإيرانيون ، ثم انقلب على أفغانستان ، فلم يقدم لها الهنود ولا الإيرانيون ولا العثمانيون يد المساعدة لرد العدوان ، ولو كان لجميعهم بصر لتعاونوا فى رد العدوان ، ولأدركوا أن حياة كل منهم معقودة بحياة الآخرين .

ولكن حين احتل الإنجليز مصر أدرك المسلمون تقصيرهم فى شأن وحدتهم لمقاومة الاستعمار فلما « بالغ الخصم فى تطواله حتى اعتدى على الممالك العثمانية بسوق جيوشه إلى الأقطار المصرية التى هى أعظم إيالة من إيالات العثمانيين بل أهم أقطار المسلمين وهو الآن فى محاولة الاستيلاء على تلك البلاد ، والاستبداد بالحكم فيها ... ولكن المسلمين

---

(١) العروة الوثقى : فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ م مقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(٢) العروة الوثقى : فى ١٠ يوليو مقال : « يقظة من سنة » .

(٣) بلوخسان (بالخاء) إقليم هضبة يقع غرب دولة باكستان فى حدودها مع أفغانستان وقد وردت فى طبعات « العروة الوثقى » بلوجستان (بالجيم) ، وقد يكون ذلك خطأ مُطبعيا فى النقل عن النسخة الأصلية ، أو قد يكون لها نطق محلى بالجيم استخدمه الأفغانى فى الصحيفة .

فى هذه المرة اهتزت رواسيهم ، وتحركت ثوابتهم ، وتنبهوا من سباتهم ، وندموا على ما سلف من سابق التفريط ، وأحسوا أن ما أصاب اليوم بعضهم ، فلا بد أن يمس يوما جميعهم فصارت المسألة المصرية سببا فى إحياء الأخوة الدينية ، كما بشرتنا به الرسائل الواردة إلينا من فارس والهند وأفغانستان » (١) .

وبعد أن تشكر الصحيفة أولئك المؤمنين الصادقين الذين نبهتهم من سباتهم كارثة الاحتلال الإنجليزى لمصر وأثارت حميتهم تطلب منهم « ألا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف فى المسائل الثانوية سببا فى حل الجامعة الإسلامية ، التى قوامها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » (٢) .

أما العامل الثانى الذى ربط بين دعوة الجامعة الإسلامية وبين وحدة الثورة لمقاومة الاستعمار فى العالم الإسلامى ، فكان قيام ثورة محمد أحمد المهدى فى السودان فعلقت صحيفة « العروة الوثقى » آمالا كبيرة على هذه الثورة ، ودعت إلى أن تنتشر مبادؤها فى كل الأقطار الإسلامية ، وتمتد شعلتها إلى تلك الأقطار فتقوم ثورة عامة تخلص العالم الإسلامى من الاستعمار عامة .

« فما ارتكبته إنكلترا من طريق التصرف فى الإدارة المصرية يخلف ظن المصريين فيها ويقطع أملهم من وفاء وعودها ، ويوجد عليها نفوس الأمراء منهم ، ويوغر صدورهم ، ويحقق لدى العلماء أن قصدها التصرف فى ولاية بلادهم كما يتصرف الملاك ، فيلتحقون بحكم الضرورة إلى تلبية محمد أحمد فى دعوته أو مساعدته على بعض أعماله ، أو فتح الأبواب له ولا نظن أن إنجلترا يخفى عليها أن علماء مصر ، هم أساتذة لعلماء المسلمين شرقا وغربا ، وأن الجامع الأزهر معهد العلوم الشرعية تسير إليه الركاب من جميع الأقطار ويقصده المسلمون من كل ناحية لدراسة الدين وروايته ، فلو حزبهم الأمر وأعوزهم الصبر ورأوا ولاية الدين فى قبضة من ليس منهم ، فمجرد إشارة خفيفة ، وإيماء إلى موافقة محمد أحمد ــ سرا كان أو جهرا ــ كاف لإيقاد نار الفتنة فى جميع أرجاء البلاد الإسلامية وتسابق القلوب إلى الاعتقاد به ، والتفانى تحت رايته » (٣) .

ونشرت الصحيفة نقلا عن جريدة « ستناندرد » الإنجليزية أنه « حصل اضطراب

---

(١) العروة الوثقى : المقال السابق .

(٢) المصدر السابق : المقال نفسه .

(٣) العروة الوثقى : فى ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤م ــ فاتحة الجريدة .

عظيم فى أفكار المسلمين من سكنة (بخارى) عندما سمعوا بانتصار أعراب السودان وظفرهم الأول ، وظهر فيهم داع جديد يحث على الحرب ومقاتلة الذين ينتهبون الأراضى الإسلامية » ثم تعلق الصحيفة على ذلك بأن « بلاد بخارى بينها وبين السودانيين مسافات متطاولة وأبعاد متنائية ، ويظن الناظر فى لوح الجغرافيا أن المواصلات بينها منقطعة ، ومع ذلك سرى التنافس بين القطرين بغاية السرعة ، فما ظنك ببلاد هى أقرب إلى مبعث الدعوى وأدنى منها مثالا » (١) و إذ حل محمد أحمد فى خرطوم سهل عليه جمع كلمة القبائل النازلة ما بين خرطوم وأسوان ، وتتصل أطراف جيشه ببلاد مصر العليا ، ولا يغدمون من العرب فى جهات الصعيد بل وفى الدلتا من يلتحق بهم وتكون الطامة الكبرى ، ويغلب على ظننا أن هذه النار ليست مما يطفئه رذاذ السياسة الإنجليزية ، ولا مما تخمده حركات عساكرها البطيئة (٢) .

وتنشر الصحيفة أن « الاعتقاد بمحمد أحمد أخذ سبيلا فى قلوب الهنديين ، حتى كتب إلينا أحد أصدقائنا فى لاهور أن محمد أحمد لو كان دجالا لأوجبت علينا الضرورة أن نعتقده مهديا وأن لا نفرط فى شىء مما يؤيده » (٣) وجاءت الأخبار مؤيدة ما كتب إلى الصحيفة « فإن رجال الشرطة فى سملا وجدوا إعلانات ملصقة على جدران المدينة مما كتب فيها إغراء المسلمين بإجابة دعوة محمد أحمد والقيام بنصرته ، وسملا هى آخر الممالك الهندية الإنجليزية من جهة الشمال الشرقى على القرب من لاهور » (٤) .

وأن أكبر حجة تجمع القلوب حول محمد أحمد فى دعوته هى قوله : « إن الإنجليز فى نيتهم الاستيلاء على أرض مصر (٥) وهى فى عداد الأراضى المقدسة ، وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الإسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعى الله فى مدافعتهم ، وإنقاذ البلاد من رجسهم ، وهذا الكلام يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء (٦) .

وحين ترى الصحيفة تألب الدول على الإنجليز تجد الفرصة سانحة لكى تطالب

---

(١) العروة الوثقى : فى ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ م ، مقال : « صدى دعوة السودان » .

(٢) العروة الوثقى : فى ٢٧ مارس سنة ١٨٨٤ م ـ فاتحة الجريدة .

(٣) العروة الوثقى : فى ٣ أبريل سنة ١٨٨٤ م ـ مقال بعنوان : « نصيحة » .

(٤) العروة الوثقى : فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٤ م ـ فاتحة الجريدة .

(٥) أى بقاء احتلالهم لها .

(٦) العروة الوثقى : فى ١٠ يوليو سنة ١٨٨٤ م ـ فاتحة الجريدة .

الدولة العثمانية الإنجليز بالجلاء عن مصر ، فتقول : « الدول متألبة على الإنجليز ، وروسيا مشرفة على الهند ، والهنديون فى هياج ، وخطب السودان غير يسير ، فإن لم تأخذ الدولة حقها من الإنجليز فى هذا الوقت فمتى ؟ » (١) .

ويقول الشيخ رشيد رضا أن الأفغانى ومحمد عبده « قد وفقا لإقناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من السودان وتركه لأهله ، وأنه ما حال دون تنفيذ ذلك إلا موت محمد أحمد » وأن الشيخ محمد عبده دخل مصر سرا حينما ظهرت بوادر انتصار محمد أحمد على الإنجليز ، وكان غرضه التمهيد فيها للذهاب إلى السودان على أن يتبعه جمال الدين إذا نجح فى سعيه » (٢) وكان غرضهما العمل على تنظيم قوات المهدى ليتخذا منها أداة لتحرير مصر من الاحتلال (٣) ، وهذا يتفق مع الأهمية الكبيرة التى أعطتها صحيفة « العروة الوثقى » للثورة المهدية فى السودان من جانب ، ويوضح العمل السياسى الذى قام به الأفغانى ومحمد عبده متمما لدعوة الصحيفة من جانب آخر .

ومن مصر كتب الشيخ محمد عبده لأحد أعضاء العقد الرابع من جمعية العروة الوثقى خطابا فى ٧ جمادى الأولى دل على مكانه وعلى حضوره إلى مصر لهذا الغرض ، قال فيه : « تعاظمت حوادث الشرق ، خصوصا ما مال منها نحو الجنوب ، فشغل الاهتمام بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فتلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء ومسمع النداء .... وأنا بعد طوافى البلاد اكتب إليك اليوم من :

بلاد بها عق الشباب تمائمى

وأول أرض مس جسمى ترابها .

غير أنه لا يرانى من أهلها إلا المخلصون ، ولا يعرفنى فيها إلا العارفون » (٤) .

وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى أن جمال الدين الأفغانى كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت زعامة السلطان عبد الحميد الثانى (٥) وأنه ـ الأفغانى ـ كان « يسلم بزعامة

---

(١) العروة الوثقى : فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ م .

(٢) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٨٠ .

(٣) تشارلز آدمس : الإسلام والتجديد فى مصر ص ٥٥ .

(٤) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص٣٨١ .

(٥) د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين الدولة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م ص ٧ .

الدولة العثمانية ـ وعبد الحميد بالذات ـ للجامعة الإسلامية » [1] وأنه دعا إلى توحيد كلمة الإسلام وجمع شتات المسلمين فى دولة واحدة تحت ظل الخلافة الإسلامية العثمانية [2] ، ولكننا نختلف مع هذا الرأى ، ولا نذهب هذا المذهب ، ونفرق تفرقة واضحة بين دعوة الجامعة الإسلامية كما دعا إليها الأفغانى ، والدعوة نفسها كما دعا إليها السلطان عبد الحميد ودليلنا على ذلك :

١ ـ أن صحيفة « العروة الوثقى » التى بدأت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وأثارت الاهتمام بها ونشرتها فى العالم الإسلامى صدرت فى الفترة بين مارس وأكتوبر سنة ١٨٨٤م ، وآراء جمال الدين فى دعوة الجامعة الإسلامية تتضح فى تلك الصحيفة وهذه الفترة ، ولكن « السلطان عبد الحميد التفت إلى هذه الدعوة عام ١٨٨٦م على وجه التقريب ، وحاول أن يوجهها على النحو الذى يحقق به مواجهة أوربا بجبهة إسلامية ضخمة ، ليست فى حدود الدولة العثمانية وحدها ، بل تشمل العالم الإسلامى كله » [3] .

٢ ـ أن جمال الدين الأفغانى فى حياته كلها كان يأخذ جانب الشعوب أو جانب المعارضة ويقاوم استبداد الحكام ، ولم يعرف عنه أنه وضع نفسه فى خدمة ملك أو أمير ، أما سنواته الأخيرة التى قضاها فى الأستانة فقد كانت سنوات عاطلة من الجهاد ، فكان حبيسا فى قفص من الذهب ـ كما يقال ـ ويقدم النصيحة فلا يؤخذ بها ، والدليل على ذلك أن رشيد رضا عندما أرسل إليه خطابا فى الأستانة ، يبلغه فيه بإعجابه بجهاده من أجل نهضة الإسلام والمسلمين ـ وفى صحيفة العروة الوثقى بخاصة ـ رد عليه جمال الدين برسالة شفهية مع رسول يبلغه فيها إعجابه بما جاء فى رسالته ، ولكنه لا يستطيع أن يرد عليه لأنه لا يملك ورقا ولا قلما ولا يستطيع الكتابة ، أى أنه كان ممنوعا عن الكتابة .[4] .

٣ ـ أننا باستقصائنا لمادة صحيفة « العروة الوثقى » لا نجد فيها ما يدل على أن الدعوة كانت تحت زعامة السلطان عبد الحميد أو غيره من الملوك والسلاطين ، ولا نجد للدولة العثمانية مكانا متميزا فى هذه الدعوة ، فقد علقت الصحيفة آمالا كبارا على ثورة المهدى فى السودان ، وأوضحت صداها فى العالم الإسلامى ودعت إلى أن تمتد شعلتها إلى بقية

---

(١) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ،ط الأنجلو المصرية د . ت ص ٢٤٢ .

(٢) د . محمود صالح منسى : حركة اليقظة العربية فى الشرق الأسيوى ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م ص ٧٩ .

(٣) أنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م ص ٨٣ .

(٤) محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام ، جـ ١ ص ٨٧ .

البلاد الإسلامية ، ومعروف أن محمد أحمد المهدى كان يدعو أصحابه إلى قتال الأتراك والأجانب ، ويقول لهم : « كل ما يؤدى إلى التشبه بالترك الكفرة اتركوه » (١) . وحينما نشرت الصحيفة مقالات تتعلق بالجامعة الإسلامية مثل : « الجنسية والديانة الإسلامية »(٢) و « الوحدة الإسلامية » (٣) و« الوحدة والسيادة » (٤) و « دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغان » (٥) لا نجد فيها أى وضع متميز للدولة العثمانية ، ولكن الصحيفة تدعو الدول الإسلامية على قدم المساواة ، والمرات الثلاث التى نشرت فيها الصحيفة مادة صحفية تحت عنوان : « الباب العالى » (٦) والمرة الوحيدة التى نشرت فيها مادة بعنوان : « الدولة العثمانية » (٧) قصدت منها ــ بالتحديد ــ إلى هدف واحد هو تحريض الدولة العثمانية على المطالبة بجلاء الإنجليز عن مصر ، وكما كانت الصحيفة تحرض الدولة العثمانية على ذلك كانت تحرض الدول الأوربية ــ فرنسا وألمانيا وروسيا ــ أن تطالب الإنجليز بالجلاء عن مصر .

٤ ــ وكما كان هناك اختلاف فى الوقت الذى دعا فيه كل من جمال الدين الأفغانى والسلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية ، كذلك كان هناك فرق جوهرى فى مضمون هذه الدعوة وأهدافها عند كل منهما ، فقد بينا أن مضمون دعوة جمال الدين إلى الجامعة الإسلامية ، وأهدافه منها كانت الوقوف فى وجه الهجمة الاستعمارية الشرسة على العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر ، ومقاومة الاستعمار فى البلاد التى وقعت تحت وطأته ، كما كان من أهدافها النهضة الاجتماعية والحضارية فى العالم الإسلامى ، كما سنبين فيما بعد ، وكانت هذه الدعوة كما ظهرت فى « العروة الوثقى » تعلق آمالا كبيرة على الشعوب وقادة الرأى والزعماء فى البلاد الإسلامية بصفة خاصة ، بينما كانت تهاجم الملوك والأمراء وتصف جشعهم وتعلقهم بالسلطة واستسلامهم للأجانب بأنه سبب تفرق الأمة (٨) .

وقد اختلف معارضو السلطان عبد الحميد وخصومه مع مؤيديه ومنصفيه حول هدفه

---

(١) د . محمد عمارة : تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة ــ ص ٦٣ .
(٢) فى ٢٠ مارس سنة ١٨٨٤ م .
(٣) فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م .
(٤) فى ٥ يونيو سنة ١٨٨٤ م .
(٥) فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ م .
(٦) فى ٢٠ مارس و ٣٠ يونيو و ١٠ يوليو سنة ١٨٨٤ م .
(٧) فى ٣ أبريل سنة ١٨٨٤ م .
(٨) العروة الوثقى : فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م مقال : « الوحدة الإسلامية » ... ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ .

من دعوة الجامعة الإسلامية ، وإن اتفقوا على أن هدفه منها اختلف عن هدف الأفغانى .

أما معارضو عبد الحميد وخصومه ، وهم الذين أرخوا له فى الغرب بخاصة ، فقد ذهبوا إلى أن سياسة السلطان عبد الحميد لم تكن قائمة على تبنى أفكار جمال الدين ألبتة ، بل كانت فى جوهرها محاولة من جانب السلطان لتأييد سلطته الزمنية على الدولة العثمانية بإعلان امتيازاته وحقوقه كخليفة للمسلمين ، وإذا كانت هناك صلة ـ فى تقدير هؤلاء ـ بين سياسة عبد الحميد ودعوة جمال الدين ؛ فهى فى حقيقة الأمر صلة سطحية أو غير حقيقية ، عمل عبد الحميد بمهارة على استغلالها لمصلحته حيث أخذ من هذه الدعوة ما يخدم أغراضه الكبرى ، وهى تكتيل المسلمين وجمع كلمتهم ، وتهيئتهم للجهاد بقيادته ، وترك ماعدا ذلك من دعوة إلى الإصلاح فى الدين ونظام الحكم وسائر أحوال المسلمين (١) .

« ولا شك أن هذه الآراء جميعا تحمل طابع المعارضة والخصومة الظالمة للسلطان عبد الحميد حيث كان عمله فى تقدير التاريخ المنصف ـ وحين يكشف عنه التقارب ، وتزول الحواجز المضللة ـ من الأعمال العظيمة فى مقاومة النفوذ الاستعمارى والصهيونى ، ولقد عرف الغرب مدى النتائج التى كانت تترتب على هذه الوحدة الإسلامية ، فسارع بتدميرها بالحملة على عبد الحميد وتشويه سمعته ثم الانقضاض عليه وعزله » (٢) .

وقد رأى الذين أيدوا جمال الدين أيضا أن « حركة » عبد الحميد باسم الجامعة الإسلامية قد اختلفت اختلافا كبيرا عن « دعوة » جمال الدين إليها ، فقد كان جمال الدين يرى ـ أساسا ـ الربط بين الإسلام والدولة الحديثة ، وبين مفهوم الإسلام وبين الحضارة ، على أن تقوم الوحدة على أساس وضع دستورى شورى ، قوامه وحدات ، أو على حد تعبيره (خديويات) ، لا مركزية تتجمع فى معجلس أعلى يرأسه أكبر هذه الوحدات ، وكان جمال الدين يرى اتخاذ خطوة واسعة فى مجال العلم والحضارة ، وفق نظام الدول الحديثة بالصناعة والديمقراطية ، وهذا ما عجز عنه عبد الحميد ، ولم يكن من

---

(١) راجع فى هذا الرأى حول أهداف دعوة الجامعة الإسلامية عند السلطان عبد الحميد :

1 - Antonius, Goerge : The Arab awakening, London 1928 P. 67 - 69.

2 - Arnold, Tomas, The Caliphate, P. 173.

3 - Berketullah, Mohamed : Le Khalifat, Paris 1924. P. 8 .

(٢) أنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ، مرجع سابق ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

الميسور أن يقبل به .

اختلفت فكرة الجامعة الإسلامية عند جمال الدين الأفغانى عنها عند السلطان عبد الحميد اختلاف الدعوة عن الحركة ، واختلاف المشرب والثقافة والهدف ، واختلاف الفارق بين المصلح والحاكم ، ومن الإنصاف القول إن كلا الرجلين كانا مختلفين فى العقلية والمزاج ، وأن كليهما كان يحمل للإسلام أمانة الإصلاح والتجمع لمقاومة الغزو ، ولكنهما لم يتلاقيا على منهج واحد ، وإن كان الأفغانى قد اعترف بذكاء عبد الحميد وبراعته الفائقة .

غير أن الخطر الأكبر على دعوة الجامعة الإسلامية كان يتمثل فى قيام دعوة أخرى تنادى بالقومية التركية ، وتسمى (الحركة الطورانية) تؤمن بالفكر الغربى والحضارة الغربية إيمانا كاملا ، وقد تكونت وأصبحت تعمل سرا ، وأعانها الاستعمار الذى كان يعمل على تحطيم الوحدة الإسلامية والدولة العثمانية ، والتخطيط لتقسيم تراث الرجل المريض ، ويثير الخلافات والمؤامرات داخل ولايات الدولة العثمانية ، ويقصد بها إشعال الخصومات للسلطان والدولة العثمانية والإسلام جميعا .

ومن هنا لم تستطع دعوة الجامعة الإسلامية التى حمل لواءها جمال الدين الأفغانى أن تحقق أهدافها ، وأصبحت علما على دعوة تضمر لها أوربا الخصومة والعداء بحسبان أنها تجمع لمقاومة نفوذها الزاحف المسيطر .

أما فى تركيا فقد سيطرت حركة مضادة هى « الجامعة الطورانية » التى ظلت تعمل فى الخفاء حتى وجدت فرصتها بسقوط عبد الحميد ، فظهرت ـ فى قوة ـ فى ظل الاتحاديين ثم عمقها ووسعها مصطفى كمال (١) .

المضمون الحضارى :

كان للجامعة الإسلامية كما دعت إليها صحيفة العروة الوثقى مضمون حضارى يقوم على بعث النهضة الإسلامية فى العلوم والفنون والصنائع ، وكان هذا الأساس من أسس الدعوة ضرورى لإعداد القوة التى أمر الله المسلمين بإعدادها لملاقاة العدو، وحفظ بلادهم من تحكم الأجانب فيها .

---

(١) أنور الجندى : اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار ؛ مرجع سابق ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

كان هذا أحد الأعمدة الراسخة التى قامت عليها الدعوة إلى جانب وحدة الثورة الإسلامية ضد الاستعمار ، وإلى جانب الاحتكام إلى العقل ؛ لأن القرآن قد جاء بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضل وعقائل الصفات ، فأودع فى أفكارهم جراثيم الحق وبذر فى نفوسهم بذور الفضل [1] .

كان المسلمون يعدون أنفسهم أولى الناس بالعلم ، « وكان فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلونهم ، وفى الغرب ابن ماجة وابن رشد وابن الطفيل ومماثلوهم ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية ، وكان لأساطيلهم سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، ولها الكلمة العليا فى تلك البحار إلى زمان غير بعيد ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم ، بل تأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع بعد أن كانوا فيها أساتذة العالم » [2] .

أما عن سبب هذا التأخر فتقول عنه الصحيفة : « نعم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ... فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض فأدت هذه المغالبات إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع ، فضلا عن التقصير فى طلب ما لم ينالوا منها والإعسار دون الترقى فى عواليها ، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج ، وأعقبه الضعف فى القوة والخلل فى النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم » [3] .

والقوة الحربية اللازمة للمسلمين فى العصر الحاضر لا تقوم إلا على أساس متين من التقدم العلمى والاختراعات الحديثة ، وفى موازنة بين « النصرانية والإسلام وأهلهما » [4] ترى صحيفة العروة الوثقى أن « الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب

---

(١) العروة الوثقى : فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٤ م مقال : « الوحدة الإسلامية ـ ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا ﴾ » .

(٢) المصدر السابق : المقال نفسه .

(٣) المصدر السابق : المقال نفسه .

(٤) العروة الوثقى : فى ١٣ أبريل ١٨٨٤ م مقال : « النصرانية والإسلام وأهلهما » ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾.

والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صحاب الولاية على تنفيذ أحكامها ، فالناظر فى أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لا ريب فيه بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية فى العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القاتلة وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الأثقال والهندسة وغيرها .

ومن تأمل فى آية ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها ، والسعى إليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه ، ومن يلاحظ أن الشرع الإسلامى حرم المراهنة إلا فى السباحة والرماية ، انكشف له مقدار رغبة الشارع فى معرفة الفنون العسكرية والتمرن عليها ، ولكن مع كل ذلك تأخذه الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات إذ يراهم يتهاونون بالقوة ، ويتساهلون فى طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفيهم واستكانوا لها ورضخوا لأحكامها ، ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرهما بأيدى أبناء الديانة الأولى (النصرانية) قبل الديانة الثانية (الإسلام) ، وكيف وجدت بندقية مارتين فى ديار الأولين قبل وجودها عند الآخرين ، وكيف أحكمت الحصون ودرعت البواخر وأخذت مغالق البحار بسواعد أهل السلامة والسلم دون أهل الغلبة والحرب » .

فريضة الحج :

حظيت فريضة الحج باهتمام كبير فى دعوة الجامعة الإسلامية كما ظهرت فى صحيفة « العروة الوثقى » من ناحيتين : **الأولى** : أن هذه الفريضة تمثل وسيلة للتواصل الفكرى بين المسلمين ، **والثانية** : أنه عن طريقها يمكن إقامة نظام للترابط والتعاون بين المسلمين فى جميع أنحاء العالم للقضاء على مظاهر الاختلاف وإيجاد الاتفاق والقضاء على البدع .

أما عن الناحية الأولى ، فإن « العلماء العاملين لو وجهوا فكرهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أفئدتهم فى أقرب وقت ، وليس

بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله ـ من بقاع الأرض ـ بيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع رجال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم ، فما هى إلا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض ، وتضطرب لها سواكن القلوب ، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية ، فإذا أضفت إليه ما أذاب قلوبهم من تعديات الأجانب عليهم ، وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم ، حتى بلغت أرواحهم التراقى ، ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حدا يوشك أن يكون فعلا ، وهو ما يؤيد الساعين فى هذا المقصد ، ويهيئ لهم فوزا ونجاحا » (١) .

وأما عن الناحية الثانية ، وهى إقامة نظام للترابط والتعاون بين المسلمين جميعا يكون مركزه بيت الله الحرام ، فتقول عنها الصحيفة « من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ، ويصير كل واحد منهم كحلقة فى سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ من جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى معقد واحد يكون مركزه الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع ، فإن إحكام الربط ، إنما يكون بإحكام الدرجات العلمية ، وتحديد الوظائف ، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة ، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الأمة وعلو كلمتها ، واقتدارها على ما يغشاها من النوازل » (٢) .

---

(١) العروة الوثقى : فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

(٢) العروة الوثقى : فى ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ م مقال بعنوان : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾

أثر الدعوة فى الصحافة الإسلامية :

ظهر أثر الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فى الصحف ذات الاتجاهات الإسلامية التى ظهرت بعد « العروة الوثقى » فى مصر ، وأهمها صحف « المؤيد » و « الأستاذ » و « المنار » و « مصباح الشرق » .

ولقد كان جمال الدين الأفغانى يسعى عن طريق دعوته إلى وحدة العالم الإسلامى وتخليصه من السيطرة الأجنبية ، ولذا كان يعمل على إثارة الوعى القومى إلى جانب دعوته إلى الجامعة الإسلامية ، ولم يكن هناك تعارض بين الدعوتين ، إذ إنه كان يهدف بدعوته إلى الجامعة الإسلامية أن تقوم فى الشرق أمم ناهضة قوية تستمد قوتها من مقوماتها القومية ، وترتبط جميعا فى نطاق الوحدة الإسلامية (١) وفى مصر ظلت الدعوة إلى القومية تسير فى الاتجاه نفسه الذى أراده جمال الدين الأفغانى حتى أوائل القرن العشرين ، فلم تكن هناك تفرقة بين الدعوة الإسلامية والدعوة القومية (٢) .

وظهر أثر الدعوة إلى توحيد العالم الإسلامى فى تقوية الشعور بالوحدة الدينية والتفاف المسلمين حول راية الخلافة العثمانية ، وقوى الأمل فى ظهور الجامعة الإسلامية فى الدول التى كانت خاضعة للحكم الأجنبى ـ كمصر والهند ـ ، فكانت هذه الدول التى تحارب النفوذ الأوروبى تتطلع إلى تأييد دولة إسلامية كبرى كالدولة العثمانية ، بينما سرت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ضعيفة فى البلاد التى كانت خاضعة للأتراك كالشام والعراق والحجاز ، وذلك بسبب ما عانته هذه البلاد من استبداد الأتراك (٣) .

وارتبطت فكرة الجامعة الإسلامية عند الشيخ على يوسف على صفحات « المؤيد » بدعوته إلى توثيق الروابط بين مصر والدولة العثمانية ، ويمكن تفسير ذلك بأن جريدة المؤيد كانت تطالب بجلاء الإنجليز عن مصر ووفاء بوعودهم الكثيرة ، وكان من دواعى هذه السياسة فى ذلك الوقت أن تستعين بدولة إسلامية كبيرة كالدولة العثمانية ، وترى الصحيفة : « أن دوام ارتباط مصر بالجامعة العثمانية عنوان على حياة البلاد الأبدية » وأنه « بقدر ما يكون الجفاء بين مركز مصر السياسى وبين الخلافة العظمى يكون التدلى بالأولى إلى مكان سحيق من الضعف والانحلال ، كما أنها كلما اقتربت منها قوة روابط ، زادت

---

(١) Gibb , Hamilton , Modern Trends in Islam , Chicago 1946 , p . 30

(٢) Crome : Modern Egypt , Vol . II pp . 132 , 133 . ,,

(٣) د . محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ص.٢٤٢ ، ٢٤٣ .

حيوية واشتدت أزرا »(١) .

وذهبت الجريدة إلى أن ارتباط الدول الإسلامية بالدولة العثمانية هو الذى يحميها من الوقوع تحت سيطرة الاستعمار « فليس أمام الأقاليم العثمانية إلا أحد أمرين إما الرضا بما هى عليه من الاجتهاد فى تقوية هذه الروابط والصبر على نيل أمانى الإصلاح بقدر ما تسمح به الفرص ، وتساعد عليه الظروف ، وما خرج عن حيزهم القديم إلى غابات مسكونة بالوحوش الكاسرة والأسود المفترسة فيقعون فى مضغة أفواههم »(٢) .

ونشرت الجريدة مقالا تحت عنوان : « الدعوة إلى الوحدة الإسلامية » ، استهلته بقولها : « وضع حضرة الفاضل عزتلو نجيب بك ملحمة أحد مشاهير المحامين فى حاضرة تونس ، وصاحب جريدة « البصيرة » نبذة تحت عنوان : « الوحدة العثمانية » وقد طبعها على جدتها وسيرها فى الآفاق فكانت لها رنة وحسن وقع عند الرأى العام فى الشرق ، وقد بعث إلينا بنسخة فرأينا من الواجب نشرها .

ويدعو الكاتب كل الدول الإسلامية إلى الانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية حتى تتحقق الوحدة الإسلامية فيقول : « وبما تقرر كان منصب الإمامة الكبرى والخلافة العظمى والذب عن البيرق النبوى ، وخدمة الحرمين الشريفين ، ثابتا فى عقبة إلى يوم القيامة ، وهو فى قبضة ذى الشوكة والاقتدار ، والعظمة ، والافتخار سلطان البرين وخاقان البحرين (عبد الحميد خان) خلد الله ملكه على مدى الزمان ، وحينئذ يتبين جلياً أن الوحدة الإسلامية توجب على كل مسلم سواء كان أميرا أو مأمورا وكيفما كانت حالة قوته وضعفه أن يبذل مهجته وحكمته وحكومته فى سبيل تعزيز الجامعة الإسلامية »(٣)

وتنقل الجريدة عن الصحف الفرنسية تحذيرها لحكومة فرنسا من مطامع إنجلترا فى الاستيلاء على مصر متجاهلة مصالح الدول الأخرى فيها ، فتقول « المؤيد » : « ولا نخال مصر ستصبح الغنيمة المسلوبة فى أيدى الإنكليز بلا منازع ولا معارض ، ولا أن عرش الخديوية رهن إشارتها إن شاءت أيدته وإن شاءت قوضت دعائمه ، فإنه فضلا عن الصعوبات الاستعمارية والموانع السياسية الدولية ، نرى مصر مرتبطة ارتباطا متينا بدولتنا العلية ، التى فيها ملجأ الخلافة العظمى ، وجلالة السلطان لا يرى فى مصر إلا القلب لدولته ومحور السلامة لممالكه » ، ثم يحذر الدولة العلية من عواقب مطامع الدول

(١) جريدة المؤيد : فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٢ م مقال بعنوان : « الجامعة العثمانية » .

(٢) جريدة المؤيد : المقال نفسه .

(٣) جريدة المؤيد : فى ٢٨ مايو سنة ١٨٩٤ م .

الأوربية فى مصر .

وعندما قام النزاع بين تركيا واليونان سنة ١٨٩٧ م حول جزيرة كريت وفكرت الدولة العثمانية فى إعادة بناء الأسطول ودعت المسلمين جميعا إلى الاكتتاب لمساعدتها فى بنائه ، تحمس الشيخ على يوسف لهذه الدعوة ، وقاد حملة الدعاية لها فى مصر وأعلن عن تشكيل لجنة التبرعات وفتح دفاتر لهذا الغرض (١) ، ويستمر فى نشر قوائم التبرعات تحت عنوان : « نهضة الأمة المصرية لإعانة العسكرية الشاهانية » (٢) . ويشيد بإقبال المصريين على التبرع قائلا : لقد برهنت الأمة المصرية بإقبالها الشديد على فروع الاكتتاب الوطنى لإعانة العسكرية الشاهانية ، إنها تعرف مصلحتها الحقيقية المتوقفة على حفظ سلامة الدولة العلية وجامعة الخلافة الكبرى (٣) .

وعندما نشبت الحرب بين تركيا واليونان كانت سياسة « المؤيد » تأييد الدولة العثمانية ، حيث اعتبرت انتصارها انتصارا لمصر ، وقالت الجريدة : « يعلم المصريون كافة أن فى سلامة الدولة العلية سلامة مصر ، وفى المحافظة على حياتها صيانة لمستقبل بلادنا المحبوبة . . ويعلم الناس كافة أن إنجلترا أشد أعداء الخلافة والدولة ، وعملوا ويعملون لتقويض أركان السلطنة العثمانية ، وأنهم ما أشهروا عداءهم لها إلا من يوم توثيق العلائق والروابط بينها وبين مصر ، فكل سوء يمس سلطنة آل عثمان يمس مصر ، ولا محالة أن كل فوز لمصر وإعلاء بشأنها » (٤) .

وعندما هاجمت جريدة المقطم دعوة الجامعة الإسلامية وقالت إن المسلمين إذا أرادوا الرقى فعليهم بعدة أشياء هى : تعميم المدارس الابتدائية فى جميع البلاد الإسلامية ، ونشر الجرائد بين العامة وطبع الكتب المفيدة ، وإنشاء الجمعيات فى كل المدن الكبرى ، وإرشاد الناس إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم (٥) ، عندما فعلت « المقطم » ذلك رد الشيخ على يوسف قائلا : إن ما يطلبه فارس نمر فى مقاله لا يمكن أن يتحقق إلا إذا وجدت فكرة كبرى توجهه وهى فكرة الجامعة الإسلامية . . . ولابد لهذه الفكرة من يد قادرة على قيادتها مثل الدولة العثمانية ، فإذا كان « من لوازم ترقى الأمم الإسلامية إنشاء المدارس فى جميع بلدانها ، ونشر الجرائد الصادقة بين العامة ، وحثهم على قراءتها ونشر الكتب

(١) جريدة المؤيد : فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٧ م .

(٢) جريدة المؤيد : فى ١٣, ١٤, ١٥, ١٦, ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م .

(٣) جريدة المؤيد : فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ م مقال بعنوان « مشروع الإعانة العسكرية الشاهانية » .

(٤) جريدة المؤيد : فى ٢٣ مايو سنة ١٨٩٧ م .

(٥) جريدة المؤيد : فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٩ م .

الرخيصة بين القراء وإنشاء الجمعيات فى المدن . . فهل يكون ذلك بلا قوة رئيسية مدبرة تمد العاملين فى كل جهة بالمعونة التى تحتاجها إرشادا وتوجيها ، وتوحد جهد الكل حتى يكون هذا العمل حقيقة أساسا متينا للجامعة الإسلامية . . . وإذا كان لابد من تلك القوة الرئيسية المدبرة ، فهل الأجدر بها أن تكون فى بلد غير دار الخلافة العظمى حتى يكون لمكانها ومكانتها تأثير فى نفوس عامة المسلمين » (١) .

وظهرت دعوة « الجامعة الإسلامية » فى صحيفة « الأستاذ » لعبد اللّه النديم ؛ لأن هذه الصحيفة ـ من بين صحفه ـ ظهرت بعد « العروة الوثقى » التى بدأت بالدعوة ، وكانت « الأستاذ » ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا ـ « أول صحيفة بعد « العروة الوثقى » ، كتب فيها صاحبها المقالات الطنانة الرنانة فى تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم وبسائر الشرقيين وتنشيط هممهم لتلاميذها » (٢) .

وإذا كانت « الجامعة الإسلامية » فى جريدة « المؤيد » تعنى توطيد الروابط بين مصر وغيرها من الولايات العثمانية وبين الدولة العثمانية ، فقد كانت « الجامعة الإسلامية » فى صحيفة « الأستاذ » أقرب ما تكون إلى معناها فى صحيفة « العروة الوثقى » ، فكانت تعنى وحدة كلمة الأمم الشرقية فى مواجهة السيطرة الاستعمارية الأوربية والنهوض بالأمم الشرقية نهضة عامة فى جميع مجالات الحياة ، ولكن على أسس إسلامية .

يقول النديم : « لا نرى الشرق محتاجا لشىء أهم من نصحاء مخلصين يبثون طرق الإصلاح الحقة ، ويغارون على أوطانهم غيرة الحر على حرمه ، ولا يميلون إلى النفرة وتفريق الكلمة الشرقية ، فما ضر الشرقيين إلا اختلاف الوجهة واستعمال ألسنتنا العذبة فى تحويل إخواننا عن الوجهة الشرقية إلى الوجهة الغربية ، وإلا فما بالنا إذا قالت جريدة : إن ائتلاف الشرقيين أمر واجب ليشد بعضهم عضد بعض ، قامت أخرى وقالت إن هذا نداء التعصب » (٣) .

وفى نهاية مقالة « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » (٤) الذى دعا فيه إلى الجامعة الشرقية (٥)

---

(١) جريدة المؤيد : فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٩ م .

(٢) مجلة المنار : فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٩ م مقال بعنوان : « الجامعة الإسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها » .

(٣) الأستاذ : فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٩٢ م مقال بعنوان : « لم اختلفت كلمتنا إذا اتحدت وجهتنا » .

(٤) الأستاذ : فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٥) ونحن نرجع استخدام النديم لعبارة « الجامعة الشرقية » بدل الجامعة الإسلامية إلى إسراف الإنجليز فى اتهامه واتهام المصريين عامة بالتعصب الدينى فى هذه الفترة التى كانت فيها مصر تحت حكم الاحتلال الإنجليزى ، ومع ذلك أغلقت صحيفته ونفى بسبب هذه التهمة .

فى مواجهة التدخل الاستعمارى الأوربى يقول النديم : « وبالجملة فإن آخر الدواء الكى وقد بلغ السيل الزبى ، فإن رفأنا الخرق ، وشددنا أزر بعضنا (١) وجمعنا الكلمة الشرقية مصرية وشامية وعربية وتركية أمكننا أن نقول لأوربا : « نحن نحن وأنتم أنتم ، وإن بقينا على هذا التضاد والتخاذل واللياذ بالأجانب فريقا بعد فريق حق لأروبا أن تطردنا من بلادنا إلى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشى ، وتصدق فى قولها : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

وحينما يقف النديم فى « الأستاذ » إلى جانب الدولة العثمانية فى نزاعها مع الدول الأوربية ، يفعل ذلك من منطلق أنها دولة إسلامية كبيرة يسعى الأوربيون إلى إضعافها فى سعيهم لإضعاف الإسلام عامة ، ولا يفعل ذلك من منطلق العلاقات السياسية التى تربط مصر بالدولة العثمانية كما يفعل الشيخ على يوسف فيقول النديم : « لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة ، ولكن المغايرة وسعى أوربا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرا من ممالك الدولة فى أوربا بالاستقلال أو الابتلاع ، وإننا نرى كثيرا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام ، ولو أنصفوا لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة » (٢) .

وكانت دعوة « الجامعة الإسلامية » فى « المنار » امتداداً لها فى صحيفة « العروة الوثقى » ، مع بعض الاختلاف الذى اقتضته الظروف التى صدرت فيها كل من الصحيفتين ، ولكن يجمع بينهما الاهتمام الكبير بهذه الدعوة .

كتب رشيد رضا مقالا بعنوان : « الجامعة الإسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها » قال فيه : « إن أول صحيفة دعت إلى الجامعة الإسلامية هى « العروة الوثقى » ثم تلتها « الأستاذ » ثم تلتها « المنار » فإن « حكيم الأمة الكبير وفيلسوفها الشهير جمال الدين الأفغانى ، كان قد وقف نفسه على تكوين ما نسميه اليوم « الجامعة الإسلامية وكان أكثر سعيه من الطريق الأقرب ــ طريق تنبيه الحكومات المسلمة المستقلة إلى الاتحاد ، ولكن أباها الحاكمون فكاره لها جاهل أو مكره وهو عالم » (٣) .

---

(١) هكذا فى المقال وصحتها وشددنا بعضنا أزر بعض .

(٢) صحيفة الأستاذ : فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م مقال : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

(٣) مجلة المنار : فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٩ م .

ومرت فترة من الزمن لم تذكر فيها الشئون الإسلامية العامة فى الجرائد ، إلا ما يجئ فى عرض القول مما لا يروى غليلا ولا يغنى فتيلا ، حتى أنشأ نابغة الخطباء والكتاب السيد عبد اللّه النديم المصرى الشهير مجلة « الأستاذ » فى أوائل سنة ١٣١٠ هـ ، وكتب فيها المقالات الطنانة الرنانة فى تنبيه المسلمين إلى الأخطار المحدقة بهم وبسائر الشرقيين وتنشيط هممهم لتلافيها . . . ولكن أخرج النديم من مصر بدعوى أن جريدته تنفخ روح التعصب الدينى وتنفث سموم الثورة ولم يكن تم لها سنة . . . وكان النديم يحترس من الوقوع فى هاتين التهمتين ، وإنما ينفع الاحتراس بالنسبة للمؤاخذة القانونية دون المؤاخذة السياسية التى أخذ بها » (١) .

وكانت إحدى نقاط الخلاف بين صحيفتى « العروة الوثقى » و « المنار » الموقف من الاستعمار الإنجليزى فى مصر والعالم الإسلامى ، ويشرح رشيد رضا هذا الخلاف فيقول : لقد « وفقنا اللّه لإنشاء « المنار » لإحياء تعاليم « العروة الوثقى » فوضعنا قاعدته على أساسها وأضأنا قمته بنبراسها إلا ما كان فيها من السياسة التى تتعلق بالمسألة المصرية والتحريض على الإنكليز ، فإن هذا أمر ذهب بذهاب وقته و « العروة الوثقى » صرحت مرارا بأن تلك الفرصة إذا ذهبت لا تكاد تعود ويستقر قدم الإنكليز فى مصر وقد كان . . . ووافقت المنار « العروة الوثقى » فى تعاليمها الاجتماعية والقواعد التى وصفتها للوحدة الإسلامية وزادت عليها البحث فى جزئيات البدع وتفصيل القول فى الأفكار الفاسدة والعقائد الزائفة وحاجة المسلمين إلى التربية النافعة ، وغير ذلك مما أرشدت إليه « العروة الوثقى » إجمالا ولم يتسع معها الزمان لتفصيله » (٢) .

وكما دعت « العروة الوثقى » إلى إنشاء « جمعية إسلامية » تعمل على إزكاء النهضة الإسلامية الشاملة ووحدة المسلمين ، يكون مركزها الرئيسى بيت اللّه الحرام فى مكة المكرمة ولها فروع فى جميع أقطار العالم الإسلامى ، فقد جددت « المنار » هذه الدعوة ولكن كان هناك بعض الفروق بين الدعوتين ، ومن هذه الفروق أن « العروة الوثقى » لم تجعل للسلطان العثمانى أى إشراف على الجمعية ، بينما جعلت « المنار » الجمعية تحت رعاية السلطان العثمانى ، ولعل ذلك يرجع إلى سياسة المهادنة السياسية التى سار عليها الشيخ محمد عبده فى هذه الفترة من حياته وسارت عليها « المنار » أيضا ، ومن هذه الفروق كذلك أن دعوة الجامعة الإسلامية فى « العروة الوثقى » تضمنت وحدة الثورة ضد

---

(١) مجلة المنار : المقال السابق .

(٢) مجلة المنار : المقال السابق .

الاستعمار فى العالم الإسلامى ، بينما استعاضت « المنار » عن ذلك بمنهج الإصلاح التربوى والأخلاقى على نهج إسلامى لتربية الرجال القادرين على حمل هذه الأمانة ، ومن هذه الفروق أيضا أن « المنار » فصلت فى هذه الدعوة بعض ما أجملته « العروة الوثقى » .

ففى مقال بعنوان : « الإصلاح الدينى المقترح على مقام الخلافة الإسلامية » (١) ، قال عن هذه الجمعية التى دعا إلى إنشائها إنها : « جمعية إسلامية تحت رعاية الخليفة يكون لها شعب فى كل قطر إسلامى وتكون عظمى شعبها فى مكة المكرمة التى يؤمها المسلمون من جميع الأقطار ، ويتآخون فى مواقفها ومعاهدها المقدسة ، وتكون أهم اجتماعات هذه الشعبة فى موسم الحج الشريف حيث لابد أن يوجد أعضاء من بقية الشعب التى فى سائر الأقطار يأتون الحج فيحملون إلى شعبهم من المجتمع العام ما يستقر عليه الرأى من التعاليم السرية والجهرية ، وهذا أحد مرجحات وجود الجمعية الكبرى فى مكة المكرمة على وجودها فى دار الخلافة ، وثم مرجحات أخرى من أهمها البعد عن دسائس الأجانب ومساوئهم ، والأمن من وقوفهم على ما لا ينبغى وقوفهم عليه فى جملته أو تفصيله ، ومنها أيضا أن لشرف المكان ولحالة قاصديه الدينية أثراً عظيما فى الإخلاص والتنزه عن الهوى والغرض ــ فضلا عن الغش والخيانة ــ وينبغى أن يكون للجمعية الكبرى جريدة علمية دينية تطبع فى مكة أيضا ، وأية شعبة استطاعت إنشاء جريدة تنشئها » .

والمبدأ الذى أرادت « المنار » أن تقوم عليه هذه الجمعية ، هو الاعتقاد بأن الرابطة الإسلامية تمحو الفوارق الجنسية والوطنية ، وتؤلف بين المسلمين جميعاً باعتبارهم أمة واحدة ، وأن فى مقدور الشريعة أن توحد بين جميع الأجناس بمساواتها بين المسلم وغير المسلم فى الحكم (٢) .

وتعمل الجمعية على توحيد المسلمين فى أربعة أمور هى : العقائد ، والآداب ، والأحكام ، واللغة ، وذلك بالإضافة إلى ما تقوم به الجمعية من أعمال فى تلافى البدع والأفعال الفاسدة التى تحدث قبل انتشارها ، وإصلاح الخطابة ، والدعوة إلى الدين ويكون من نتائج ذلك ارتباط الحكومات الإسلامية واتحادها (٣) .

---

(١) مجلة المنار : مجلد السنة الأولى ص ٧٦٦ .

(٢) مجلة المنار :مجلد السنة الثانية (١٨٩٩ م) ص ٣٢٣،٣٢٤ .

(٣) مجلة المنار : مجلد السنة الأولى (١٨٩٨م) ص ٧٧٦ مقال بعنوان : « الإصلاح الدينى المقترح على مقام الخلافة » .

أما الأمرين الأول والثانى وهما توحيد العقائد وتوحيد الآداب فيتمان بأن : تؤلف الجمعية كتابا فيما أجمع عليه المسلمون بجمع فرقهم التى يعتد بإسلامها من أصول الدين الثلاثة : صحة الاعتقاد ، وتهذيب الأخلاق ، وإحسان الأعمال ولا يذكر فيه شىء من مسائل الخلاف ، ولا سيما بين الطوائف الإسلامية التى لها إمارة وفيها كثرة كالشيعة . . . ويكون الكتاب بعبارة فى غاية السهولة ويترجم لجميع اللغات المتداولة ، ويعلن من مقام الخلافة بأن هذا هو الإسلام ، وجميع الآخذين به إخوة فى الدين ولا يمنع من هذا الاختلاف فى المسائل الفرعية ، والتى ليست من أسس الدين وأركانه كالمفاضلة بين الصحابة عليهم الرضوان .

والأمر الثالث وهو توحيد الأحكام يتم بأن « تؤلف الجمعية كتبا تؤخذ من جميع المذاهب الإسلامية تنطبق على حالة العصر لأجل الحكم بها ، وهذا أيسر شىء عليها وإذا صادقت على هذه الكتب شعب الجمعية كلها صار متعينا للاتفاق عليه من علماء الملة على اختلاف مذاهبهم ، ثم إذا أمر الخليفة بالعمل به تذعن له النفوس وتخضع سرا وجهرا » .

والأمر الرابع توحيد اللغة ، فاللغة العربية هى الأولى بتعميمها فى الأقطار الإسلامية ، وقد حاولت الحكومة العثمانية تعميم لغتها التركية فى بلادها ولم يتسن لها ذلك « وتترجح اللغة العربية على التركية فى وجوب تعميمها بأمور منها : كونها لغة الدين فإحياؤها إحياء له ، وتعميمها وسيلة لتعميمه وفهمه ، ومنها إمكان نشرها بسهولة لأن التركى يدعوه إلى تعلمها كونها لغة دينه ، أما العربى الذى لا طمع له فى مناصب الدولة فلا تتوجه نفسه إلى تعلم التركية ، ومنها محو الامتياز الجنسى بين الترك والعرب ـ هذا الامتياز الذى أضر بالدولة ضررا مبينا ، ومنها كون علماء المسلمين فى جميع الأقطار يعرفونها »[1] .

وإذا كانت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية فى « العروة الوثقى » قد تضمنت وحدة الثورة ضد الاستعمار فى العالم الإسلامى ، فإن الدعوة نفسها قد تضمنت فى « المنار » الاهتمام بالإصلاح التربوى والأخلاقى لصنع الرجال الذين يحملون هذه الدعوة ، ويرجع ذلك إلى طبيعة جمال الدين الأفغانى التى سيطرت على « العروة الوثقى » وطبيعة محمد عبده التى سيطرت على « المنار » ويشرح رشيد رضا هذه القضية فيقول : « إن سبب النهضة الذى يجمع الأسباب كلها هو تعميم التربية العملية والتعليم الصحيح من

(١) المصدر السابق ص ٧٦٩ و ٧٧٠ .

الوجهة الدينية الجامعة لمصالح المعاش والمعاد . وهو ما صرحنا به فى فاتحة العدد الأول ، وأقمنا عليه البرهان فى العدد الثانى ، وجرينا فى سائر الأعداد إلى الآن على تفسير إجماله ، وبيان إبهامه ، فالجامعة الإسلامية والاتحاد الإسلامى ، وكل ما يرجوه الإسلام ، متوقف على وجود الرجال العارفين بحاجة الأمة ، وإناطة الأعمال بهم » (١) .

وعلى الرغم من تمسك « المنار » بفكرة الجامعة الإسلامية والدعوة لها ، إلا أنها جعلت للعرب مكانا متميزا فيها على نحو ما نقدمه فى الفصل القادم .

وفى صحيفة « مصباح الشرق » دافع إبراهيم المويلحى عن فكرة « الجامعة الإسلامية ، ودعا إليها تحت الشعار الذى رفعته « العروة الوثقى » من قبل ، وهو « لا وطن للمسلمين إلا فى دينهم » وفى هذا يقول المويلحى : « ولقد جاء الدين الإسلامى متناولا للأمرين أمر المعاد ، وأمر المعاش ، على قاعدة الائتلاف والمساواة والإخاء ، ولذلك اندمج فيه معنى الوطن على ما كان عند الأمم القديمة المتمدنة ، ولكن عن طريق الوحى الإلهى فالوطن عند المسلمين هو عبارة عن مجموع الأمة الإسلامية فى جميع بقاع الأرض وهو الذى ورد فيه : حب الوطن من الإيمان ، وليس هو كما يزعم منا أولئك الذين يأخذون فى تقليدهم الغربيين بالألفاظ والظواهر دون الأخذ بالمعانى والبواطن ، فيظنون أن الوطن هو على ظاهر معناه فى اللغة ، منزل إقامة الإنسان ومقره ، فيكون حب الوطن على هذا هو حب التربة والمسكن ، ولو كان الأمر كذلك لما كانت الهجرة فى الإسلام ، ولما نطق بالحث عليها والأمر بها ، وعلى هذا فلا يكون الوطن الذى حبه من الإيمان عندنا إلا الدين ، لاحب بلد دون بلد ، ولا مسكن دون مسكن ، فمن قال من المسلمين وطنى فقد قال دينى » (٢) .

وحول نفس المعنى نشرت « مصباح الشرق » مقالا بعنوان : « جهاد الأقلام » قالت فيه : « ومن هنا يستبين لك أن الحصن الحصين ، والملجأ الأمين الذى يمتنع فيه المسلمون بدينهم أمام هذه الأمم الغربية ، إنما هو ارتباط السلطة الدينية بالسلطة الدنيوية ، على ما جاء به الدين المبين ، ورجوعهم جميعا إلى إمام وخليفة ورئيس واحد ، ويتبين لك فيه أيضا صواب الرأى عند القائمين الآن بدعوة المسلمين من كل صقع وناد إلى الاجتماع حول عرش الخلافة مهما كانت أحواله وقصر النظر عما سوى ذلك مما يدرك ولا يفوت » (٣) .

(١) مجلة المنار : فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٩ م مقال بعنوان : « الجامعة الإسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها » .

(٢) مجلة مصباح الشرق : العدد ٩٥ فى ٩ مارس سنة ١٩٠٠ م .

(٣) مصباح الشرق : العدد ١٠١ فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٠٠ م .

وتميزت دعوة إبراهيم المويلحى إلى الجامعة الإسلامية فى « مصباح الشرق » بفكرة طغت على غيرها من الأفكار فى هذا السبيل ، ففى رأيه أن قيام الجامعة الإسلامية ، وحماية الأقطار الإسلامية من خطر السيطرة الأجنبية ، لا يكون إلا بالقوة الحربية للدولة العثمانية « فإن عز الدولة ومجدها وعلو سطوتها واتساع سيطرتها ورفعة مكانها إنما قوامه القوة الحربية ، والقوة الحربية لا تكون الآن إلا بالمال ، فما أولى الذين ينادوننا من هنا وهناك بوجوب عقد مؤتمر للنظر فيما يصلح أمر المسلمين ، أن يعملوا على عقد مجتمعات فى كل بلد يجمعون فيها ما يقدر كل مسلم على إنفاقه فى سبيل الله ، وكلما اجتمع شىء من المال يرسل به إلى لجنة كبرى تتألف من عظماء المسلمين فى دار الخلافة ، لتنفقه فى الوجوه التى تزداد بها الخلافة قوة ، والدولة منعة ، والدين عزا وصولة » (١) .

وفى تلك الفترة ثار النقاش وتعددت الآراء حول وسائل تدعيم الجامعة الإسلامية وجمع كلمة المسلمين لنهضة بلادهم ، فاقترح الشيخ على يوسف عقد مؤتمر بالأستانة لهذا الغرض ، ورد عليه الشيخ رشيد رضا بأن من الأفضل عقد هذا المؤتمر فى مكة المكرمة ، ويكون نابعا من الجمعية الإسلامية التى اقترحها من قبل (٢) كما ذكرت فى هذه المناقشات فكرة « المنار » عن أهمية تربية الرجال القادرين على إقامة الجامعة الإسلامية وحمل أمانتها عن طريق الإصلاح التربوى ، ولكن المويلحى يرى أن القوة الحربية للدولة العثمانية تسبق كل هذا وهى الأولى بالاهتمام « لا ما يضيعون به الوقت سدى من الأخذ والرد ، والمناقشة والجدال فى بيان الإصلاح وحفظ الجامعة الإسلامية ، وإيراد الآراء فى كيفية عقد المؤتمرات وذكر العلم والتعليم ، والكلام فى نشر المدارس والمعارف والأخذ بأذيال الغربيين فى مدنيتهم وأشكال حكوماتهم وتراكيب جمعياتهم ، اللهم إن كل هذه الأقوال دون الأفعال ،إن دمنا عليها لتوصلنا إلى ما كان عليه حال القسطنطينية حين دخول الفاتح إليها ، كان العظماء من أهلها لاهين فى مجلسهم بالمناقشة والجدال مما لا ينفع فيه ، ولا فائدة منه ورمح الفاتح يقرع الباب » (٣) .

وحول المؤتمر المقترح عقده فى الأستانة كتب المويلحى : « وليس المطلوب من جماعة المسلمين الذين تحت حكم الدول الأجنبية أن يتفقوا فيما بينهم للمظاهرة على من

---

(١) مصباح الشرق : العدد ٩٥ فى مارس سنة ١٩٠٠ م مقال بعنوان : « الوطن فى الإسلام » .

(٢) مجلة المنار : فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٩ م مقال بعنوان : « الجامعة الإسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها » .

(٣) مصباح الشرق : العدد ٩٥ فى مارس سنة ١٩٠٠ م مقال بعنوان : « الوطن فى الإسلام » .

يحكمهم والوقوف فى وجهه والخروج عليه ، وإنما المطلوب منهم أن يساعدوا الدولة العلية اليوم بأفكارهم وأموالهم لصيانة الإسلام » (1) .

على أن المويلحى لا يغفل نواحى النهضة الإسلامية الأخرى ، فيقول بعد أن يؤكد على القوة الحربية : « كذلك يجب على كل مسلم أن ينبه المسلمين إلى ما بكتابهم وسنة نبيهم وسيرة أسلافهم من التأدب بأدب الدين ، والاجتهاد فى طلب العلم والتعليم واستخلاص اللب ونبذ القشور ، ولما كان الدين الإسلامى يتناول أمور الدنيا وأمور الآخرة ، كانت الدعوة للقوة أو للمدنية من طريق الدين أقرب وأدنى ، وأوقع وأنفع » .

على أننا بعد استعراض دعوة الجامعة الإسلامية فى الصحف المختلفة ـ نستطيع أن نقول : إن هذه الدعوة فى صحيفة « العروة الوثقى » كانت أكثر نضجا وقوة وتقدما عن غيرها من الصحف ، فقد قامت على الثورة ضد الاستعمار ، وعلى مبادئ الشورى والعدل والمساواة ، كما قامت فى شئون العقيدة على الرجوع إلى منابع الإسلام الأولى فى القرآن والسنة ، ومحاربة البدع والخرافات ، كما قامت على مباراة أوربا فى الصناعة والإدارة لامتلاك القوة اللازمة للدفاع عن الإسلام .

---

(1) مصباح الشرق : عدد ١٨ فى ١٨ أغسطس سنة ١٨٩٨ م مقال : « العزة والقوة » .

الفصل الثانى

العروبة في الصحافة الإسلامية

اتخذ جمال الدين الأفغانى من الصحافة وسيلة لنشر فكره ولجهاده في فترتين من حياته ، **الأولى** : إبان وجوده فى مصر قبل الثورة العرابية ، **والثانية** : بعد نفيه من مصر إبان إصداره صحيفة « العروة الوثقى » فى باريس ، وتميزت الفترة الأولى بتسخير جهوده لإزكاء روح الحركة الوطنية المصرية بما تضمنه ذلك من مقاومة التدخل الأجنبى والاستبداد السياسى ، والدعوة إلى الشورى والعدل والمساواة النابعة من مبادئ الإسلام ، وتميزت الفترة الثانية بدعوته إلى الجامعة الإسلامية بما تضمنته من الدعوة إلى الثورة ضد الاشتعمار ، وكان لتحرير مصر من الاحتلال الإنجليزى مقام ظاهر فى هذه الدعوة .

وليس معنى هذا أن فكرة العروبة لم يكن لها مكان فى فكر جمال الدين الأفغانى رائد هذه المدرسة فى الفكر والصحافة ، ولكنه عبر عن هذه الفكرة بقدر كبير من النضج والوضوح ، والذى يهمنا فى هذا المجال هو أن فكر الأفغانى فى موضوع العروبة قد ظهر أثره فى صحافة تلاميذه الذين تأثروا بأفكاره وأهمها صحف : « الأستاذ » لعبد الله النديم و « المؤيد » لعلى يوسف ، و « المنار » لرشيد رضا ، ومن ثم فيمكننا أن نتتبع فكر الأفغانى فى هذا المجال ، ومكان العروبة فى دعوة الجامعة الإسلامية التى دعا إليها ، وكيف عبر تلاميذه عن ذلك فى صحفهم ، وبأى قدر من النضج والوضوح .

وأول ما أخذه جمال الدين الأفغانى على الأتراك العثمانيين ، هو أنهم لم يتع فهم قد « أهملوا أمرا عظيما وحكمة نافعة قالها السلطان محمد الفاتح ـ رحمه الله ـ وهى قبول اللسان العربى لسان الدولة ، وتعميمه بين من دان بالإسلام ليفقهوا أحكامه ، ويمشوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه ، ومكارم أخلاقه ، ومحاسن عوائد أهله » (١) .

ويقول : « فلو أنصف الأتراك أنفسهم ، وأخذوا بالحزم واستعربوا ، وترأسوا ذلك الملك ، وعدلوا فى أهله ، وجروا على سنن الرشيد والمأمون ـ على الأقل ـ ولا نقول سنن وسيرة الخلفاء الراشدين ، فمن كان من دول الأرض أغنى منهم مملكة أو أعز جانبا وأمنع

(١) جمال الدين الأفغاني : خاطرات جمال الدين الأفغاني ـ الأعمال الكاملة ص ٢٢٤ .

حوزة ؟ من ؟ ولكن مع الأسف فإن إخواننا الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا غير الحرب ، وهم فيما عدا ذلك ، وفيما يختص فى شئون العمران أقل روية وعملا من سواهم ، يسوءنى وأنا ممن يحبهم ، وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطأ فى عدم قبول اللسان العربى ــ لسان الدين الطاهر والأدب الباهر ، وديوان الفضائل والمفاخر ــ باللسان التركى ــ ذلك اللسان الذى لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض .

والأتراك لم يرفضوا اللسان العربى فقط بل حاولوا تتريك العرب ، وهكذا تمادوا فى خطأهم « فكيف يقبل تترك العرب وقد تبارت الأعاجم فى الاستعراب ، وتسابقت ، وكان اللسان العربي لغير المسلمين ولم يزل من أعز الجامعات وأكبر المفاخر ، فالأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب ، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان ، ما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان » (١) .

لو تعرب الأتراك « لانتفى من بين الأمتين النعرة القومية ، وزال داعى النفور والانقسام « بالتركى والعربى » ، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى ، وفى الدين الإسلامى من عدل ، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق ، وفى مكارمهم من عادات » (٢) .

والأتراك قد تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله بكمال التعبد ، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان ، فإن لكل دين لسانا ، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق ، وعلى حفظها تتكون العصبية » (٣) .

إن الأتراك لو أتقنوا اللغة العربية التى هى فى الوقت نفسه وسيلة فهم الإسلام ، وعملوا على نشرها ، ونشر الإسلام فى البلاد الأوربية التى فتحوها ، لاستطاعوا أن يحدثوا بها من التأثير ما استطاعه العرب فى الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا ، ولبقيت هذه البلاد بجامعة الاعتقاد وجامعة اللسان تحت سيطرتهم (٤) .

واللغة هى التى تحفظ للأمة قوميتها وتحفظها من التحلل والذوبان فى غيرها ، وبها تستعيد وحدتها ونهضتها إذا استولى عليها غيرها ، « فكم رأينا من دول اغتصب ملكها

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، ٢٣٣.

الغير فحافظت على لسانها محكومة ، وترقبت الفرص ، ونهضت بعد دهر ، فردت ملكها ، وجمعت من ينطق لسانها ، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان قبل كل ما سواه ، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ، ونسوا مجدهم ، وظلوا فى الاستعباد ما شاء الله » (١) .

وكان من الأخطاء التى أخذها الأفغانى على الأتراك العثمانيين ، أنهم جعلوا القسطنطينية عاصمة السلطنة ، ولم يجعلوا العاصمة مدينة عربية ؛ لأن المستعمرة مهما عظم موقعها وطاب هواؤها ، لا يصح أن تتخذ عاصمة الملك ؛ لأن المستعمرة كالثوب العارية قابل للاسترداد ، وبعد المستعمرة عن مجموع القوة ، وإحاطتها بأعداء الملك ، يسهل سقوط الدولة فى حالة ضعفها ، لقد اتخذ الخلفاء الراشدون المدينة عاصمة لملكهم ، محاطة بقوة العرب من سائر الجهات ، وهكذا فعل الأمويون فى الشام (دمشق) ، والعباسيون فى بغداد ؛ لأنه على تقدير ذهاب المستعمرات كلها وانتقاضها ، فإنه يبقى من البلاد ما كان لهم ملكا خاصا » (٢) .

ولعل خير ما يمثل رأى جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من الاحتفاظ بالولاء للدولة العثمانية ، وعدم المناداة بدولة عربية ، ما قاله الشيخ محمد عبده حين فاتحه « بلنت » المستشرق الإنجليزى فى موضوع إنشاء « دولة عربية عزيزة تعيد تجدد الحضارة العربية » فرد عليه الشيخ محمد عبده قائلا : « إن العرب أهل لذلك ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتى إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوربا الواقفة لها بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين أو على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الإسلام ، فتكون العاقبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق على حياته » (٣) .

واهتم النديم بالجامعة العربية (٤) منذ وقت مبكر عند إصداره لصحيفة « التنكيت والتبكيت » ، وأعلى من قيمة جامعة اللسان ــ أو اللغة ــ كما فعل الأفغانى ــ ففى مقاله « إضاعة اللغة تسليم للذات » يرى أن اللغة العربية أساس لاجتماع الكلمة ووحدة الرأى والثقافة ، وانتظام الهيئة الاجتماعية ، وأن إضاعتها إضاعة للشخصية الوطنية وتسليم

---

(١) جمال الدين الأفغانى : المرجع السابق ص ٢٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٤ .
(٣) محمد عبده : الأعمال الكاملة جـ ١ ص ٧٣٥ .
(٤) استخدم لفظ الجامعة فى ذلك الوقت بمعنى الرابطة ، فقيل الجامعة الإسلامية ، والجامعة الوطنية ، وجامعة العقيدة ، وجامعة اللسان ، ولذلك لا ينبغى الخلط بين تعبير الجامعة العربية فى هذا المبحث وبين الجامعة العربية كمنظمة إقليمية تأسست سنة ١٩٤٥ م .

للذات .

ومن مقالات النديم فى مجال توثيق الرابطة العربية نجده يعبر عن الرابطة بين مصر والشام بأنها جامعة وطنية وليست جامعة جنسية (أو قومية) ففى مقالة له بعنوان : « الجامعة الوطنية والاختلاط العمرانى » (١) يقول : « فعلينا معاشر المصريين والسوريين أن نحيى ما أماته التخاذل من مجد السابقين وشرف المتقدمين ، فإن التاريخ يتلو علينا من فضلهم آيات ، ويؤكد لنا أنهم ما وصلوا إلى ذروة المجد بالمعارضات الدينية ، ولا بالمنافرات الجنسية ، وإنما ظهر مجدهم فى مصر وصيدا وصور وقرطاج بالجاذبية الكهربائية المسماة بالجامعة الوطنية وبالاختلاط العمرانى » .

وفى مقالة : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » يقول معبرا عن هذا الرأى ومبينا سبب خلافه مع أصحاب المقطم من الشاميين : « أنا أخوك فلم أنكرتنى ، وما الشام ومصر إلا توأمان أبوهما واحد ، يسوء الاثنين ما ساء أحدهما ، فلم تنافر أبناؤهما وانحاز السوريون فى جانب بعيدا عن المصريين ؟ لو اجتمعت كلمتنا ، وائتلفت نفوسنا ، وصفت بواطننا ، وصرفنا هذه الهمم فى حفظ الوطنين ، وإعلاء كلمة الجنسين ، لحسدتنا المعانى ، ووقفت أوربا تنظرنا بعين الإعظام والإجلال » وكانت فكرة العروبة واضحة فى جريدة « المؤيد » منذ بداية صدورها ، ففى المعركة التى خاضتها حفاظا على اللغة العربية الفصحى وضد استخدام العامية فى التعليم والتأليف ، كان واضحا تماما أن الجريدة تحافظ على الفصحى على أنها أهم روابط الوحدة بين البلاد العربية ، ووضح هذا المعنى تماما فى البحث المستفيض الذى نشره ـ مسلسلا ـ أمين بك فكرى تحت عنوان : « اللغة الفصحى واللغة الدارجة » (٢) .

فاللغة العامية لو استخدمت فى مختلف الأقطار العربية لكان ذلك عامل فرقة ، وفصم لعرى الوحدة بينها ؛ لأن هذه اللغة العامية « تختلف باختلاف الأقطار العربية بما لا ينقص عن الاختلاف بين العامى والفصيح ، بل وبما زاد » (٣) ويورد الكاتب ألفاظا عامية كثيرة مستعملة فى بلاد عربية لا يمكن أن يفهمها من يقطن بلداً عربيا آخر .

---

(١) الأستاذ : العدد الرابع فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٩٢ م .

(٢) جريدة المؤيد : فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٣م ، وقد استمر نشر هذا البحث فى الأعداد التالية الصادرة بتاريخ ٢١ و ٢٤ و ٢٦ و ٢٨ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٣) جريدة المؤيد : فى ١٩يناير سنة ١٨٩٣ م .

ويورد الكاتب أمثلة كثيرة على صعوبة التفاهم بالعامية بين أهالى البلاد العربية المختلفة ، فذكر أنه كان مرة بالشام مع والده (عبد الله فكرى باشا) وكانا فى غالبية الأحيان لا يفهمان كلام العامة خاصة إذا أسرعوا ، وكان معهما شيخ من العلماء يشرح لهما بالفصحى ما يقوله هؤلاء العامة .

ويذكر أنه عند ما كان مع والده فى باريس دخل محلا تجاريا ، وكان البائع قد قضى ردحاً كبيرا من حياته فى الجزائر حتى أصبح يتكلم بالعامية الجزائرية ، كأهلها ، فلما توسم فيهما أنهما من العرب أخذ يكلمهما بالعامية الجزائرية ، فلم يفهما شيئا لاختلاف العامية المصرية عن العامية الجزائرية ، وكان الأيسر لهم أن تفاهموا باللغة الفرنسية التى يجيدونها ثلاثتهم [1] .

فاللغة العربية الفصحى هى رابطة الوحدة العربية فى الزمان والمكان ، وهى تجعلنا ـ كما يقول ـ ننتفع بمؤلفات أسلافنا فوق ألف سنة [2] ، وهى « أقرب الطرق للتوصل إلى المقصود من نشر العلوم وتعميمها مع بقاء الوحدة فى اللسان ، وانتفاع المصرى بكتاب السورى ، والسورى بكتاب المصرى ، وكليهما بكتاب المغربى وهلم جرا ، واستفادة كل عربى بما يكتب الآخر فى أى قطر » [3] .

وكان الدفاع عن وجه الجزائر العربى والإسلامى من أكثر المواقف وضوحا فى جريدة « المؤيد » ، فالجزائر هى أول بلد عربى يقع تحت وطأة الاستعمار الأوربى حيث احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠م ، وقام الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بمحاولة جبارة للقضاء على اللغة العربية والدين الإسلامى ، وإعطاء الجزائريين الجنسية الفرنسية ، وطبع الجزائر بالطابع الغربى فى التعليم والتشريع وغيرها .

وقد فتحت « المؤيد » صفحاتها للتعبير عن المقاومة الجزائرية ، ومطالب الوطنيين الجزائريين ، وإرادتهم فى مواجهة سياسية الفرنسة التى مارسها الاستعمار الفرنسى هناك [4] .

ويمكننا أن نجد فى تناول جريدة « المؤيد » والمادة التى نشرتها عن قضية الجزائر

---

(١) جريدة المؤيد فى ٢١ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٢) جريدة المؤيد فى ٢٤ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٣) جريدة المؤيد فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(٤) انظر: نص عريضة مطولة وقعها الزعماء المسلمون من سكان بلدة قسنطينة ونشرت فى الصفحات الأولى من « المؤيد » فى الأيام من ١٨ حتى ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م .

مصدرا من مصادر تاريخ الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، وأساليب الغزو الفكرى والحضارى لهذه البلاد ، وكذلك تاريخ المقاومة الجزائرية التى لم تتوقف فى يوم من الأيام حتى رجع إلى الجزائر وجهها العربى والإسلامى فى النصف الثانى من القرن العشرين (١) .

ولكن جريدة « المؤيد » لاتؤيد قيام دولة عربية تنازع الدولة العثمانية ، وترى فى ذلك انشقاقا فى صفوف المسلمين يضعف شوكتهم ويطمع فيهم أعداءهم ، فحين نقلت وكالة « هافاس » عن جريدة « الديلى نيوز » اتهام أهالى الجزيرة العربية بتمردهم على السلطان عبد الحميد ، ورغبتهم فى إقامة « مملكة عربية » ، حينئذ علقت « المؤيد » على هذا بقولها : إن العُصاة شرذمة فى اليمن خارجة عن الدين ، وإن الجزيزة العربية كلها مستمسكة بالوحدة الإسلامية تحت راية خلافة السلطان عبد الحميد (٢) ، وهو رأى قال به الشيخ محمد عبده من قبل بوجوب عدم إثارة الخلافات بين البلاد الإسلامية حتى لا تكون لقمة سائغة للاستعمار الأوربى .

وقد كانت مجلة المنار أكثر الصحف تعبيرا عن آراء جمال الدين الأفغانى وفكره فى العروبة ، بل زادته تفصيلا فى مقالاتها العديدة ، ففى مقال بعنوان عنوانه : « الإصلاح الدينى المقترح على مقام الخلافة » (٣) طالبت المجلة بجمع الأمة الإسلامية وشعوب الدولة العثمانية على لغة واحدة هى اللغة العربية ، وعبثا يحاول الأتراك نشر لغتهم التركية ، فالعربية ـ لأنها لغة الدين الإسلامى أسهل انتشارا ، وبها يمكن تقوية الرابطة الإسلامية بين العناصر التى تشتمل عليها الأمة ، ولو أنها لغة الدولة الرسمية لأمكن للدولة العثمانية أن تحدث من الأثر ما أحدثه الفاتحون العرب فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا ، تلك الدول التى تعربت ، وأصبحت من الأركان القوية فى الأمة العربية .

وكما كان جمال الدين الأفغانى يرى أن عاصمة الدولة الإسلامية يجب أن تكون فى مدينة عربية ، وأن مركز العمل على رفع شأن الإسلام يجب أن يكون فى مكة المكرمة ، فإن رشيد رضا فى « المنار » قد اعتنق هذه الآراء ، فحينما اقترح الشيخ على يوسف عقد

---

(١) انظر ما كتبناه عن جريدة « المؤيد » تحت عنوان : « الدفاع عن عروبة الجزائر وإسلامها » فى الباب الأول من هذه الرسالة .

(٢) جريدة المؤيد فى ٣ يوليو سنة ١٨٩٣ م مقال : « رد أكذوبة إفرنجية مفتراة على الجزيرة العربية » .

(٣) المنار ـ مجلد السنة الأولى (١٨٩٨ م) ص ٧٦٤ .

مؤتمر فى الأستانة يجتمع فيه أمراء المسلمين وملوكهم للتشاور فيما يرفع شأن الإسلام والمسلمين ، رد عليه رشيد رضا بأن هذا المؤتمر يجب أن يكون فى مكة وفى إطار الجمعية الإسلامية التى اقترحها ويكون مركزها الرئيسى فى هذه المدينة المكرمة (١) .

وفى مقال بعنوان : « الوحدة العربية » (٢) يرى رشيد رضا أن الترك ـ مع رفضهم التعرب ـ قد ميزوا الترك على العرب ، وكان من الممكن أن يكون الترك والعرب وسائر المسلمين فى المجد سواء ، لو أن العثمانيين عمموا اللغة العربية وجعلوها اللغة الرسمية ، ووجهوا عنايتهم إلى ضم باقى الممالك الإسلامية ، ولما كان الأتراك قد ارتكبوا هذا الخطأ ، فهو يطالب بأن يتزود العرب بعناصر القوة الثلاثة التى زود الأتراك أنفسهم بها وهى : العلم ، والثروة ، والاستعداد الحربى (٣) .

فالدولة تعمل على تقدم العلوم فى تركيا ، ولا تفعل ذلك فى البلاد العربية ، فليس لها فى الأراضى المقدسة مكتب للتعليم ، ومن ثم فهو يطالب بإحياء البلاد العربية بالعلوم والفنون ، وهذه مسئولية العرب خاصة والمسلمين عامة ، ويطالب ـ أيضا ـ جميع العرب والمسلمين أن يمدوا يد المساعدة إلى الذين يسعون ـ فى هذا الوقت ـ لإنشاء دار علوم (جامعة) فى مكة المكرمة « وهذا سعى فى مقدمات الوحدة العربية ، يرضى الدولة العلية ولا يهيج علينا أوربا لأنه ليس من الأعمال التى تقف أوربا فى سبيلها أو تعارضها فى الوقت الحاضر ، وإذا نهضت العلوم والفنون فى البلاد العربية زادت الثروة ، وهى القوة الثانية للأمم (٤) .

أما القوة الثالثة ـ وهى القوة الحربية ـ فيعيب رشيد على العثمانيين أنهم وجهوا عناية الدولة بتعليم فنونها إلى الأتراك وحدهم ، وينبه إلى أنه سيأتى يوم ستكون الدولة مشغولة بالدفاع عن نفسها عن الدفاع عن ولاياتها العربية التى أصبحت معرضة للغزو العسكرى الأوربى ، وهو ينصح الدولة العثمانية أن تهتم بتعليم الفنون الحربية للعرب ، وينصح العرب بالإقبال على تعلم هذه الفنون تحسبا ليوم يجدون فيه أنفسهم مطالبين بالدفاع عن الأمة العربية (٥) .

---

(١) مجلة المنار : ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٩ م مقال بعنوان : « الجامعة الإسلامية وآراء كتاب الجرائد فيها » ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٢) مجلة المنار : فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٠٠م . (٣) المصدر السابق . (٤) مجلة المنار : المقال نفسه .

(٥) نلاحظ أن رشيد رضا يستخدم اصطلاح « الأمة العربية » أكثر من مرة في هذا المقال ، وهو اصطلاح لم يكن شائعا على أقلام الكتاب عند الكتابة فى هذا الموضوع .

ويختتم الكاتب مقاله بأنه « لا يفيد الإسلام قوة أى عنصر من العناصر الإسلامية كما يفيده العنصر العربى فيجب ـ إذن ـ على الأمة العربية أن تسعى فى تقوية نفسها وجمع كلمتها ، وحفظ وحدتها ، ويجب على جميع المسلمين أن يساعدوها على ذلك ؛ لأنها روح الجامعة الإسلامية التى توجهت إليها أفكار عقلائهم بعد ما كاد الضغط يسحقهم سحقا »[1] .

وفى مقال بعنوان : « الترك والعرب »[2] يقارن رشيد رضا بين الترك والعرب ، ويذهب ـ كما ذهب جمال الدين ـ إلى أن العرب قد فتحوا بلادا أكثر مما فتح الترك ، وأن البلاد التى فتحها العرب نشروا فيها اللغة العربية والدين الإسلامي ، وتركو آثارا للحضارة الإسلامية ، ولكن الأتراك ـ لأنهم لم يتعربوا ـ لم يتركوا مثل هذه الآثار فى الدول التى فتحوها فى أوربا ، وهذه من المآخذ التى أخذها جمال الدين الأفغانى على الأتراك من قبل .

وإذا كانت جريدة « المؤيد » قد فتحت صفحاتها للتعبير عن المقاومة الجزائرية ، فإن « المنار » قد تكون حول مبادئها حزب يعمل على إعادة الشخصية العربية الإسلامية للجزائر ، يقول هاملتون جيب : « إن من الأحزاب التى تكونت فى المغرب حزب السلفيين فى الجزائر ، وهو شعبة من الحركة التى تمثلها مجلة المنار فى القاهرة ، ولذلك يحتفظ بصلة وثيقة بالفئة التى تماثله فى مصر ويتمثل خطاها ، ورغم قلة أعضاء هذا الحزب فقد زاد تأثيره بسبب برنامجه الذى يتضمن الرجوع إلى تعاليم القرآن التى لم يدخلها التحريف ، وأكبر لسان معبر عن هذا الحزب صحيفة « الشهاب » التى تنشر بالعربية فى قسنطينة ، ويديرها عبد الحميد بن باديس »[3] .

ويعتبر عبد الحميد بن باديس الجناح الممثل لحركة جمال الدين الأفغانى فى المغرب العربى ، وقد قام هذا الجناح بإنجاز ضخم فى مقاومة الخطة الرامية إلى فرنسة الجزائر ، والقضاء على شخصيتها العربية الإسلامية ، بإحلال اللغة الفرنسية محل العربية ، وإبعاد الجزائريين عن الإسلام وتجنيسهم بالجنسية الفرنسية .

ولعبد الحميد بن باديس كلمة مشهورة حين ذهب للدراسة فى مكة المكرمة ، وأشار

---

(١) مجلة المنار : مقال : « الوحدة العربية » السابق ذكره . (٢) مجلة المنار : في ٢٠ مايو سنة ١٩٠١ م .

(٣) جيب (هاملتون) : وجهة الإسلام : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، المطبعة الإسلامية بالقاهرة د . ت ص ٦٠ .

عليه البعض أن يظل مجاورا مثلهم للحرمين الشريفين فقال : « نحن لا نهاجر .. نحن حراس العروبة والإسلام والقومية فى هذا الوطن (الجزائر) وعاد إلى الجزائر وألف « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » التى جاهدت فى سبيل تحقيق أهدافه التى حددها فى كلمته السابقة .

وكان لمجلة « المنار » فضل السبق في التنبيه إلى نشاط الحركة الصهيونية العالمية ، وعملها على إحضار اليهود من مختلف بلاد العالم إلى فلسطين ، لإنشاء دولة لهم فى قلب العالم العربى تقسمه إلى قسمين (١) .

فقد تناقلت الصحف ووكالات الأنباء حركة ظهرت بين اليهود فى بلاد النمسا ، وألمانيا وإنكلترا وأميركا تعرف باسم الصهيونية ، وغرض هؤلاء الصهيونيين إنشاء مساكن فى فلسطين لليهود المضطهدين فى روسيا وبلغاريا ورومانيا وبلاد الفرس والمغرب ، وذلك بإذن من الدولة العلية وكفالة الدول الأوربية وتحت حمايتها ، ومرداهم تعمير أراضى فلسطين بالفلاحة والصناعة فيعيشون آمنين فى ظل الحضرة الشاهانية . « وقد أسهبت الجرائد الشهيرة كالتايمس والديلى كرونكل والديلى تلغراف ، وأشهر جرائد النمسا فى استحسان هذا الرأى ؛ لأن الدولة العثمانية ـ كما زعموا ـ ترغب فى عمار بلادها ، والدول الأوربية لا تمنع فقراء اليهود من ترك بلادهم ، والانتقال إلى البلدان الشرقية لكى ينشروا فيها المعارف ويوسعوا التجارة والصناعة » (٢) .

وعلقت جريدة « المقطم » على هذه الأخبار « بأن كل شىء ممكن لأهل المال فلا يستحيل عليهم أمر إذا بادروه وعقدوا النية عليه ، فإذا اتفق أغنياء اليهود فى أوربا على ابتياع الجانب الأكبر من أراضى فلسطين ، ونقل إخوانهم الفقراء إليها لم يتعذر عليهم ذلك (٣) .

ويستخلص رشيد رضا من هذه الأخبار عددا من العبر منها أن اليهود فى الدوله العلية ليسوا مضطهدين كما هم فى بعض دول أوربا ، ومنها الاعتبار باتحاد اليهود على مصالحهم رغم تفرقهم فى أقطار شتى ، وينبه العرب والمسلمين إلى ما يقال عنهم فى أوربا من مجئ اليهود إلى بلادهم لتعميرها .

ولكن الأهم من ذلك كله ، هو أن رشيد رضا ينفذ إلى ما وراء الأسباب المعلنة لهذه

---

(١) مجلة المنار : مجلد السنة الثالثة ١٩٠٠ م مقال بعنوان «تجبر واعتبار » .

(٢) المصدر السابق . (٣) المصدر السابق ص ١٠٦ .

الحركة الصهيونية فيقول : « إن المرجع لاختيار فلسطين كونها بلادا مقدسة وموضع آمال منتظرة لهم ، ويدعو رشيد العرب والمسلمين أن يأخذوا هذا الأمر بما يستحقه من الاهتمام ، وأن يطرحوه للنقاش والحوار الجاد المستفيض ، فيقول : « أصيخوا لما تتحدث به العوالم عنكم ، أترضون أن يسجل فى جرائد جميع الدول أن فقراء أضعف الشعوب الذين تلفظهم جميع الحكومات من بلادها ، هم من العلم والمعرفة بأساليب العمران وطرقه بحيث يقدرون على امتلاك بلادكم واستعمارها ، وجعل أربابها أجراء وأغنيائها فقراء ... تفكروا فى هذه المسألة واجعلوها موضوع محاورتكم ، لتتبينوا هل هى حقة أم باطلة ، صادقة أم كاذبة ، ثم إذا تبين لكم أنكم مقصرون فى حقوق أوطانكم وخدمة أمتكم وملتكم ، فانظروا وتأملوا وتفكروا وتذاكروا وتحاوروا وتناظروا فى هذا الأمر ، فهو أخلق بالنظر من اختلاق المعايب ، وانتحال المثالب وإلصاقها بالبرآء ، وأحرى بالمحاورة من التجنى على إخوانكم ، فإن من الخير شغلا عن الشر ، وفى الجد مندوحة عن الباطل »[1] .

(١) مجلة المنار : المصدر السابق ص ١٠٨ .

خاتمـــــــة

رأينا كيف برز الاتجاه الإسلامى فى الصحافة المصرية فى القرن التاسع عشر فأفسحت الصحف العامة صفحاتها للقضايا والموضوعات المتصلة بالفكر الإسلامى ، وصدرت صحف إسلامية متخصصة ، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى غلبة التعليم الدينى على غيره من أنواع التعليم حتى ذلك القرن ، وإلى التدين الذى اتصف به الشعب المصرى منذ اعتنقت غالبية هذا الشعب الإسلام عقب الفتح الإسلامى لمصر .

ومن ثم فلم يكن من الغريب أن وجدنا أن معظم الذين قامت على أكتافهم نهضة الصحافة ـ العامة والإسلامية ـ من علماء الدين الإسلامى ، أو ذوى الثقافة الإسلامية الذين درسوا فى الأزهر ، أو على شاكلة الدراسة الأزهرية فى ذلك العصر ، ونذكر منهم رفاعة الطهطاوى ، ومحمد عبده ، وعبد الكريم سلمان ، وأحمد الشاذلى الأزهرى (صاحب مجلة الإسلام) ، وعلى يوسف ، ومحمد رشيد رضا وغيرهم .

ومن جهـة أخرى كانت هناك صحف اعتنقت الفكر العلمانى المعارض ـ بل والمعادى ـ للفكر الإسلامى ، ومن أهمها المقتطف والمقطم ، والجامعة العثمانية (التى أصدرها فرح أنطون) ، وقامت بين الفريقين مناظرات وخصومات أثرت الحياة الفكرية فى هذه الفترة ؛ لأنها شحذت أقلام الكتاب الإسلاميين ليبينوا جوهر الإسلام الحق ، ويبعدوا عنه ما أدخل عليه من الباطل .

وبينت هذه الدراسة أن الفكر المصرى الحديث لا يمكن دراسته بمنأى عن دراسة الاتجاه الإسلامى فيه ، وإلا جارينا المستشرقين والتغريبيين فى البعد عن الموضوعية والدقة فى هذا المجال ، كما أن دراسة هذا الاتجاه الإسلامى غير ممكنة بدون تتبعه فى الصحافة المصرية ـ عامة وإسلامية ـ ؛ لأنها هى التى اشتملت على تفاصيله الكثيرة .

وتابعت هذه الدراسة الاتجاه الإسلامى الذى بدأ ظهوره فى كتابات رفاعة الطهطاو فى « الوقائع المصرية » ، ثم اتضح فى كتاباته وكتابات الذين شاركوا معه فى « روضة المدارس » ، ولكن هذا الاتجاه وضح وقوى بمقدم جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، حيث تكونت حوله مدرسة فى الفكر والجهاد نابعة من العقيدة الإسلامية ، وقائمة على القرآن

الكريم والسنة الشريفة ، وشاملة لإصلاح العقيدة والمعاملات والأخلاق على نهج إسلامى ، وذات موقف نقدى واضح واثق بنفسه من حضارة الغرب ، ورأى واضح فى قضايا الكفاح الوطنى من الدعوة إلى الشورى والعدل والمساواة ، ومقاومة الاستبداد والحكم المطلق والاستعمار الأجنبى ، وكذلك فى قضايا العروبة والجامعة الإسلامية ، كل ذلك فى إطار واحد قائم على مبادئ الإسلام التى جاءت منظمة لما هو دينى وما هو دنيوى وما يتصل بالعقيدة والأخلاق ، وبالدين والدولة وبالدنيا والآخرة لا تفصل بين أى منها كما يفعل أصحاب الفكر العلمانى .

وقد رأينا كيف آمن جمال الدين الأفغانى وتلاميذه بالصحافة كوسيلة فعالة للتعبير عن حركته فى إصلاح المجتمع الإسلامى ، فاشتغل هو وكل تلاميذه ـ تقريبا ـ بالصحافة كأصحاب صحف أو رؤساء تحرير أومحررين .

لقد اتضح منهج مدرسة الأفغانى فى الإصلاح الإسلامى الشامل ـ الدينى والتربوى والاجتماعى والسياسى ـ فى عدد من صحف تلاميذه خلال القرن التاسع عشر ، وإن كانت كل صحيفة منها قد غلب عليها جانب أو أكثر من جوانب الإصلاح المذكورة ، حسب الظروف التى صدرت فيها وشخصية محررها ، ولكن النظرة التحليلية إليها جميعا تبرز فكر هذه المدرسة كاملا شاملا فى كل قضية من قضايا الدين والحياة ، ومن هذه الصحف « مصر » و « التجارة » و « مرآة الشرق » ، وهى الصحف التى صدرت إبان وجود الأفغانى فى مصر ، ودعت إلى أفكاره السياسية والوطنية التى تمثل جزءا لا يتجزأ من منهجه فى الإصلاح الإسلامى ، ومنها صحيفة « الوقائع المصرية » إبان تولى ـ الشيخ محمد عبده رئاسة تحريرها و « العروة الوثقى » و « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » و « الآداب » و « المؤيد » و « المنار » و « الحياة » لمحمد فريد وجدى ، ومجلة « الإسلام » التى أصدرها سنة ١٨٩٤م ، وأحمد الشاذلى الأزهرى ، وغلب عليها فى بداية صدورها التعريف بالعبادات الإسلامية ـ بصفة خاصة ـ ثم أخذت بعد ذلك تنقل المقالات الإسلامية من الصحف الأخرى مثل « المؤيد » و « المنار » و « مصباح الشرق » .

وقد أوضحت هذه الدراسة أن منهج مدرسة الأفغانى فى الفكر والصحافة يقوم على عدة دعائم تبرزه واضحا متميزا ، وهذا المنهج يقدم تجارب خصبة تفيد منها الصحافة الإسلامية التى صدرت فيما بعد وحتى وقتنا الحاضر .

وأولى هذ الدعائم : التفقيه والتثقيف الدينى فيما يتصل بالعقيدة والعبادات والمعاملات

والأخلاق الإسلامية ، وتطبيق مبادئ الإسلام على مسائل الحياة المختلفة ، وكان سبيلها فى ذلك « تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى فى القرآن والسنة ، ومن ناحية ثانية إعلاء شأن العقل واعتباره ينبوع اليقين فى الإيمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق برسالته ... والنظر إلى الدين على أنه من بين موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه وتقل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالبا بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل ، كما يقول قطب هذه المدرسة الإمام محمد عبده .

وفى سبيل الرجوع فى كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى ، أحيت مجلة « روضة المدارس » التأليف فى السنة النبوية بمناهج جديدة بنشرها فصول « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » لرفاعة الطهطاوى ، وهو الكتاب الذى فتح باب التأليف فى السيرة النبوية فى العصر الحديث ، وكذلك نشرت مجلة « المنار » فصول أول تفسير عصرى للقرآن الكريم « تفسير المنار » الذى بدأه الشيخ محمد عبده وأتمه الشيخ رشيد رضا .

وإلى جانب هذه الأعمال الكبيرة التى نشرتها الصحافة الإسلامية ، اضطلعت هذه الصحافة بوظيفة أساسية ومميزة لها بشرح القواعد الصحيحة للعبادات والمعاملات والأخلاق الإسلامية ، ونشر الفتاوى بشأنها ، وتناولت ما يتصل بذلك من قضايا مثل قضية الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والنهوض بالخطابة الدينية .

وإذا كانت الصحافة الإسلامية قد أخذت على عاتقها نشر المعارف الدينية المأخوذة من منابعها الأصيلة فى القرآن والسنة ، وبيانها فى حقيقتها وجوهرها النقى ، فإنها قد أخذت على عاتقها أيضا التصدى لكل أنواع البدع والخرافات والفهم الخاطئ والجهل بحقائق الدين التى انتشرت فى مصر فى تلك الفترة ، وشنت عليها هذه الصحافة حربا عنيفة لتبطل آثارها المدمرة فى المجتمع المصرى .

وثانية هذه الدعائم : الموقف من الحضارة الغربية ، فقد تجلى على صفحات الصحف الإسلامية ذلك الصراع الذى دار بين الفكر الإسلامى الأصيل ، والفكر الغربى الدخيل ، حول القضايا المتعلقة بإقامة نهضة حضارية جديدة فى مصر ، ودخلت فى مناظرات خصبة

مع الصحافة التى دعت إلى التغريب ، وقدمت الآراء الناضجة والحلول الإسلامية للمشكلات المطروحة ، وبينت الأحكام الصائبة ـ طبقا لتعاليم الإسلام ـ فى القضايا المثارة . وكما ميزت هذه المدرسة الصحفية ـ فى التفقيه والتثقيف الإسلامى ـ بين ما هو من الإسلام الصحيح وبين ما دخل عليه من بدع وخرافات ، كذلك ميزت فى موقفها من الحضارة الغربية بين ما ينتفع منها فى نهضة الأمة الإسلامية فتأخذ به ، وما يتعارض مع العقيدة والأخلاق الإسلامية فتنبذه .

وأهم القضايا التى تناولتها الصحافة الإسلامية فيما يتصل بتحدى الحضارة الغربية :

العلمانية : وخلاصة الحوار الذى دار حولها ، والآراء التى قدمتها الصحافة الإسلامية فيها تعد زادا للفكر الإسلامى حتى يومنا هذا ، وتضع حدا للحوار والآراء الأقل نضجا التى تقدم ـ حول هذا الموضوع ـ حتى اليوم ، وخلاصة الحوار الذى خاضته الصحافة الإسلامية أن العلمانية ظاهرة أوربية ظهرت فى عصر النهضة كرد فعل لموقف الكنيسة الكاثوليكية الذى تمثل فى الاستبداد السياسى ومقاومة التقدم العلمى ، وادعاء سلطة الوساطة بين الإنسان وربه والوصاية على عقائد الناس .

وعندما بدأ عصر النهضة فى مصر مع بداية القرن التاسع عشر ، حاول دعاة التغريب والمقلدون لأوربا افتعال موقف مشابه لما حدث فى أوربا فى عصر نهضتها ، بالدعوة إلى العلمانية رغم اختلاف الإسلام عن المسيحية الكاثوليكية ، واختلاف الظروف والملابسات فى النهضة المصرية عنها فى النهضة الأوربية .

وهذا الحوار بين الإسلام والعلمانية كما ظهر فى الفكر المصرى والصحافة المصرية اتضح فى ثلاث قضايا هى : موقف الإسلام من التقدم العلمى ، وفصل الدين عن الدولة والوساطة بين الإنسان وربه ، وهى القضايا التى ثار حولها الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية والدعوة العلمانية فى أوربا ، مع ملاحظة أن موقف الإسلام من هذه القضايا عندما بدأت النهضة المصرية اختلف عن موقف الكنيسة الكاثوليكية عندما بدأت النهضة الأوربية ، فقد دعا علماء الإسلام إلى العدل والشورى ، ودعوا إلى الأخذ بالتقدم العلمى الحديث والانتفاع بثمراته وأخذ أسباب القوة ، ولم يدعوا وساطة بين الإنسان وربه ، ورأوا أن السلطة الدينية والسلطة الزمنية إذا سارتا فى طريقهما الصحيح فهما متعاونتان لا متعارضتان ، ومن ثم لم يكن هناك مجال ـ فى مجتمع إسلامى ـ للدعوة إلى العلمانية

كما ظهرت فى أوربا ، وهذا ما قدمت تفاصيله هذه الدراسة .

وكانت قضية إصلاح التعليم من القضايا التى استأثرت باهتمام الصحافة الإسلامية فى فترة الدراسة ، وأثارها ــ بصفة خاصة عاملان : غزو نظم التعليم الغربية لمصر ، وجمود التعليم فى الأزهر ، فقد كان فى مصر ثلاثة أنواع من التعليم : التعليم الحكومى ، والتعليم الأجنبى ، والتعليم فى الأزهر ، وكان لكل نوع منها طابعه المخالف للآخر مما سبب وجود انفصام فكرى وثقافى بين فئات الشعب المصرى ، وتوصلت الصحافة الإسلامية إلى المعادلة الصحيحة لإصلاح التعليم فى مصر ، فحذرت من خطر التعليم الأجنبى على عقيدة المتعلمين فيه وأفكارهم ووقفت منه موقف العداء السافر ، وطالبت بزيادة دروس الدين الإسلامى واللغة العربية والثقافة الإسلامية فى التعليم الحكومى ، وأن تكون لغة التعليم الرسمية فيه هى اللغة العربية ، ودعت إلى تطوير التعليم فى الأزهر وإدخال العلوم الحديثة فيه ، وبهذه الدعوة ذات الشعب الثلاث اتضح النهج الإسلامى لإصلاح التعليم فى مصر لسد الفجوة ووحدة الفكر والثقافة والمزاج العام ، ولقيام النهضة الحديثة على أسس إسلامية وعربية واضحة .

واستهدفت اللغة العربية لمحاولات هدمها من جانب الذين أرادوا تغريب المجتمع المصرى ؛ لأنها الرابطة التى تربط المصريين بالإسلام أعظم حائل بين التغريبيين وبين ما يريدون ، فتعرضت اللغة العربية الفصحى لثلاث دعوات : الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى فى الكتابة والتأليف والتعليم ، والدعوة إلى كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية ، ومحاولة جعل اللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية فى التعليم والقضاء ومصالح الحكومة ، وتصدت الصحافة الإسلامية لهذه الدعوات الثلاث ، واعتبرت التمسك باللغة العربية الفصحى حفاظا على القرآن والسنة ، وكل كتب التراث الإسلامى ، وأحبطت هذه الدعوات ، وشحذت الهمم للاهتمام بالعربية الفصحى بالدعوة إلى إنشاء مجمع للغة العربية ، وإحياء هذه اللغة لفظا ومعنى ، وبهذا قامت الصحافة الإسلامية بهذا الدور الهام فى مصر ، وحفظت لغتها الفصحى من أن تموت وتحل محلها لغة أوربية ــ كلغة رسمية ــ كما حدث فى كثير من بلاد العالم التى تعرضت للغزو الأوربى .

وكان من أثر التدخل الأجنبى والاحتلال الإنجليزى وكثرة وفود الأوربيين إلى مصر وسفر المصريين إلى أوربا ، أن انتشر فى المجتمع المصرى عدد من الأدواء والآفات الاجتماعية لم تكن معروفة من قبل ، ظهرت عادات شرب الخمر ، ولعب الميسر ، ورذيلة

الزنا ، وتقليد الأوربيين فى الإسراف والترف ، وأدى ذلك كله إلى ظاهرة الاقتراض بالربا الذى ابتز به الأوربيون أموال المصريين .

وأظهرتنا دراسة الصحافة الإسلامية على أن هذه الأدواء والآفات الاجتماعية لم يكن لها من أثر واضح قبل الاحتلال الإنجليزى ، ولكنها انتشرت بين فئات الشعب انتشارا ذريعا بعد هذا الاحتلال ، ونشرت هذه الدراسة صفحة مطوية من تصدى الصحافة الإسلامية لهذا التغريب الأخلاقى ذى الأثر الفتاك فى المجتمع المصرى ، محافظة على الأخلاق الإسلامية والقيم الإسلامية الأصيلة .

وكانت قضية « تحرير المرأة » من القضايا التى أثارها التحدىٰ بين الإسلام والحضارة الغربية ، وكان هناك فى القرن التاسع عشر ثلاثة اتجاهات فيما يختص بوضع المرأة فى المجتمع : **الاتجاه الأول** : اتجاه محافظ على القديم الذى وجد عليه المجتمع ، فهو يتمسك بالحجاب الذى يغطى جسم المرأة كله ، ويحبسها فى المنزل دون تعليم أو عمل ، ويعزل مجتمع الرجال عن مجتمع النساء ، **والاتجاه الثانى** : يرى المثل الأعلى أمامه فى المرأة الأوربية فى تحررها غير عارف أو عابئ بتعاليم الإسلام ، **والاتجاه الثالث** : هو تحرير المرأة من الجهل والتفكير الخرافى ، ومنحها حقوقها وقيامها بواجباتها كما حددها الشرع الإسلامى ، ومنها حقوقها الزوجية ، وحقها فى التعليم ، وفى العمل إذا دعت الضرورة ، وضرورة قيامها بدورها فى نهضة الأمة .

وهذا الاتجاه الأخير هو الذى اضطلعت به الصحافة الإسلامية من لدن رفاعة الطهطاوى فجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، ورشيد رضا وغيرهم ، وقد أظهرت دراستنا للصحافة الإسلامية أن أقطاب هذا الاتجاه الإسلامى ــ والشيخ محمد عبده بخاصة ــ هم الذين نقلوا قاسم أمين من الاتجاه الأول (المحافظ) إلى الاتجاه الإسلامى (الأخير) ، وتصدت الصحافة الإسلامية للاتجاهين الآخرين المتطرفين وبينت ما فيهما من ضرر على المجتمع المصرى بعامة .

وثالثة هذه الدعائم : تتمثل فى الدور الذى قامت به الصحافة الإسلامية فى الحركة الوطنية فى مصر ، وفى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وآرائها حول العروبة ، وببيان هذا الدور الكبير تكتمل صورة المنهج الذى قدمته هذه الصحافة ــ ومدرسة الأفغانى وتلاميذه فيها بخاصة ــ وهو المنهج الشامل والمتكامل لمعالجة كل أمور الدين والدنيا والذى لا تقل

أهمية أى جانب فيه عن الجوانب الأخرى .

ففيما يختص بدورها فى الحركة الوطنية فى مصر ، أوضحت الصحافة الإسلامية أن إقامة نظام الشورى واجب إسلامى ، وأن الإسلام يدعو إلى العدل والمساواة ويحرم الظلم ، ودعت إلى مقاومة الاستبداد والحكم المطلق والاستعمار الأجنبى .

وقد بدأت دعوة « الجامعة الإسلامية » واتضحت معالمها على صفحات « العروة الوثقى » ، وكانت هناك رابطة وثيقة بين جمعية « العروة الوثقى » وصحيفة « العروة الوثقى » ودعوة « الجامعة الإسلامية » ، وقد أتاحت لنا الدراسة المتأنية لمادة « العروة الوثقى » والظروف التى صدرت فيها أن نوضح حقيقة هذه الدعوة وجوانبها المختلفة ، وأن نصحح بعض ما ذكره المؤرخون بشأنها ، وخاصة قولهم إن جمال الدين الأفغانى كان يدعو إلى الجامعة الإسلامية بإشراف السلطان عبد الحميد الثانى وتحت رعايته ، والحقيقة أن مضمون دعوة الجامعة الإسلامية اختلف لدى كل من الرجلين .

وكذلك حملت الصحافة الإسلامية فى تلك الفترة إرهاصات واضحة بظهور فكرة « العروبة » ، استطعنا بتتبعنا للصحافة الإسلامية أن نبينها فى مواضعها .

وقد أوضحت هذه الدراسة أهمية دراسة الصحافة الإسلامية ــ تاريخا وفنا وفكرا ــ للقائمين بالإعلام الإسلامى والدعوة الإسلامية ، فمنذ ظهرت الصحافة الإسلامية اتضحت وظائفها وتحدد دورها فى القضايا المطروحة ــ حتى الآن ــ فى ساحة الفكر الإسلامى ، ونشرت الآراء الناضجة فيها ، وناقشت المشاكل المتصلة بإصلاح حال المسلمين وقدمت الحلول الإسلامية لها .

فالصحافة الإسلامية الآن اتصال واستمرار للصحافة الإسلامية فيما سبق ، والقائمون عليها هم ورثة لأسلافهم فيها .

ومن ثم فإن دراسة وتدريس الصحافة الإسلامية ــ تاريخا وفكرا وفنا ــ واجب أساسى من واجبات قسم الصحافة والإعلام بجامعة الأزهر ، مساهمة فى تحقيق أهداف هذا القسم على خير وجه .

لقد كانت الصحافة من وسائل الاتصال التى تمخض عنها العصر الحديث ، وكان طبيعيا أن يستخدمها الدعاة فى تزويد المسلمين بحقائق دينهم ، وفى دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، ومن هنا نشأت الصحافة الإسلامية وصدرت فى معظم بلدان العالم باللغة

العربية وبغيرها من اللغات وأصبح لها دور هام فى الدعوة ، وهذا يلقى على عاتق المؤسسات القائمة بالدعوة الإسلامية ـ وفى مقدمتها الأزهر ـ مسئولية تقييم هذه الصحافة بدراسة انتشارها ومادتها وتأثيرها ، ومسئولية تقويمها بإمدادها بالمعلومات الصحيحة وإعانتها على أداء دورها بتوفير الإمكانيات العلمية والمالية لها ، وإرشادها إلى طريق الصواب .

والصحف الإسلامية التى صدرت فى القرن التاسع عشر ثروة يجب الحفاظ عليها ، إن كثيرا منها قد أصابه التمزق والبلى ، وأصبح فى حالة لا تمكن الباحثين من الاطلاع عليه ، فضلا عن ضياع كثير منها أو استحالة استخدامها ، ولذلك فإن تصويرها بواسطة « الميكروفيلم » والحصول على نسخ جديدة منها يعد ضرورة فى الوقت الحاضر ، خاصة المجلدات التى لا يوجد منها إلا نسخة واحدة أو تلك التى قاربت البلى ، ولا بأس أن يقوم بهذا العمل لجنة تضم مختصين فى ترميم المطبوعات والصحافة والتاريخ الحديث ، وبهذا نصون صفحات من تاريخ هذه الأمة وفكرها وثقافتها ، يجب أن تتزود بها فى بناء حاضرها ومستقبلها .

فهرس الموضوعات

الموضـوع | الصفحـة

الباب الثانى

الصحافة الإسلامية والدعـوة

الباب الثالث

الصحافة الإسلامية والحضارة الغربيـة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحـة

الباب الرابع

الصُّحافـة الإسـلامية والحركـة الوطنيـة فى مصـر

الباب الخامس

الجامعة الإسلامية والعروبة فى الصحافـة الإسـلامية

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢٥١ / ١٩٩١

الترقيم الدولى I. S. B. N 977 - 15 - 0040 - 6

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : DWFA UN ٢٤٠٠٤